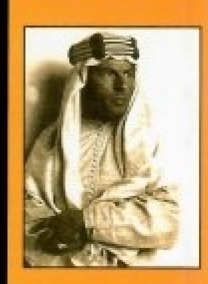
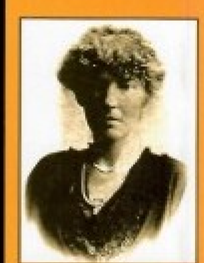
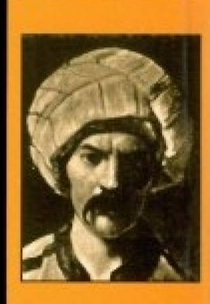
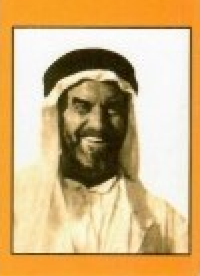
أسعد الفارس

رحالة الغرب في ديار العرب









الناشر: أحمد عبدالله الفليج
صقر الخليج للنشر والإعلان - الكويت



رحالة الغرب
في
ديار العرب

أسعد الفارس



رحالة الغرب في ديار العرب

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الناشر: أحمد عبدالله الفليج
صقر الخليج للنشر والتوزيع
دولة الكويت

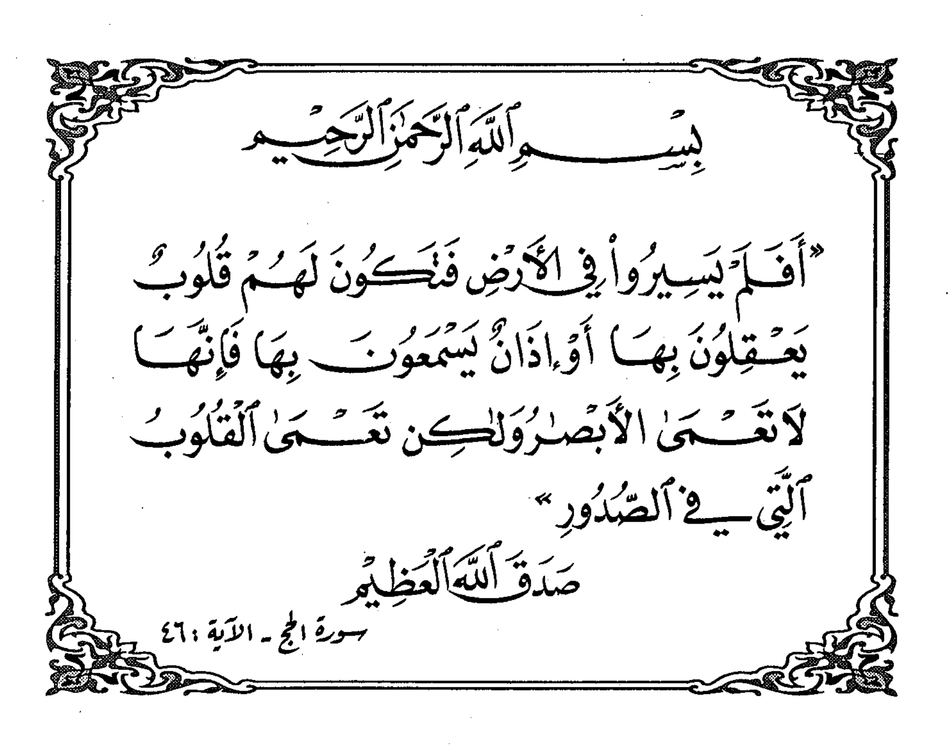
الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الناشر: أحمد عبدالله الفليج
صقر الخليج للنشر والتوزيع

الكويت، ص. ب: ٤٥٩٤ الصفاة 13046 - فاكس: ٢٤٥٣٢٠٧ - ت: ٢٤٥٣٢٠٦

عنوان المراسلات الخاص بالمؤلف: أسعد الفارس
الكويت، ص. ب: ١٢٥٨٠ - الشامية 71656
فاكس: ٤٨٣٠٥٧١ - ت: ٤٨٣٠٤٢٨


بسم الله الرحمن الرحيم
"أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور"
صدق الله العظيم
سورة الحج - الآية : ٤٦







الناشر والمؤلف

يتقدمان بأسمى آيات الشكر والعرفان

لصاحب السمو أمير دولة الكويت

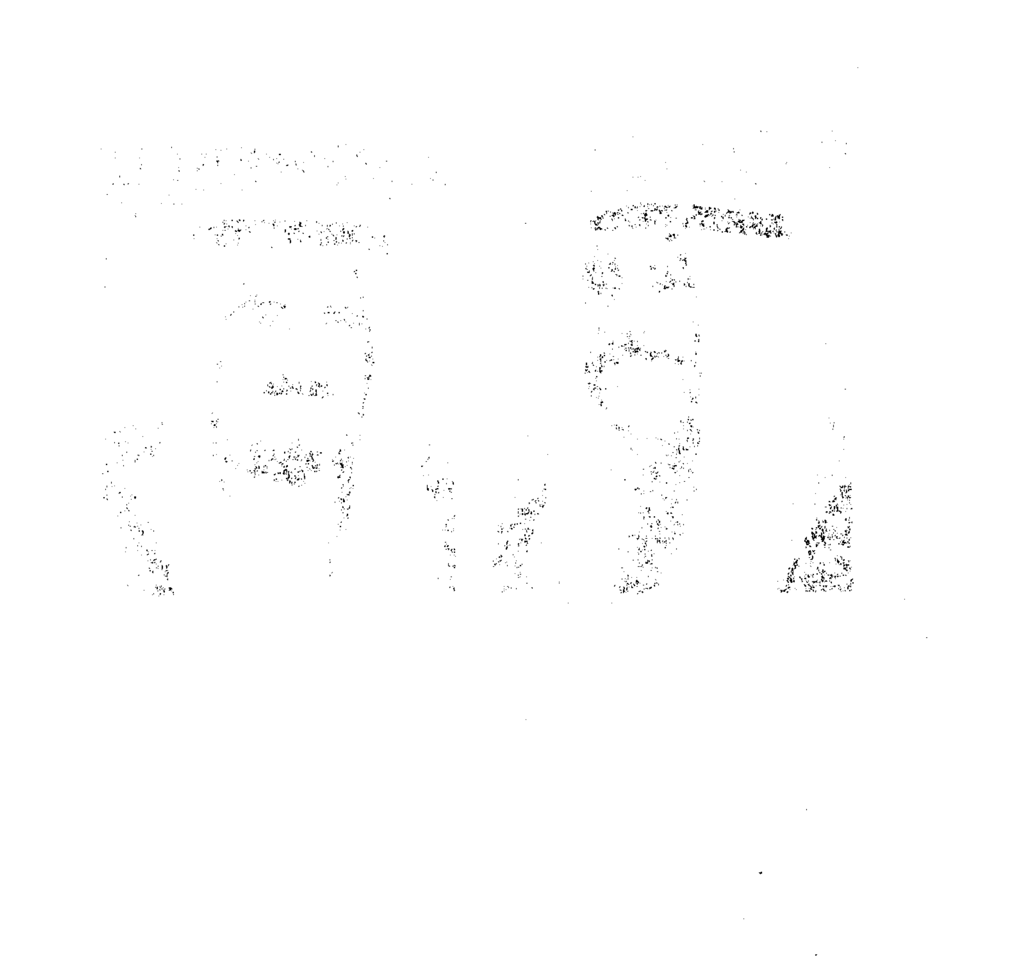
الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح

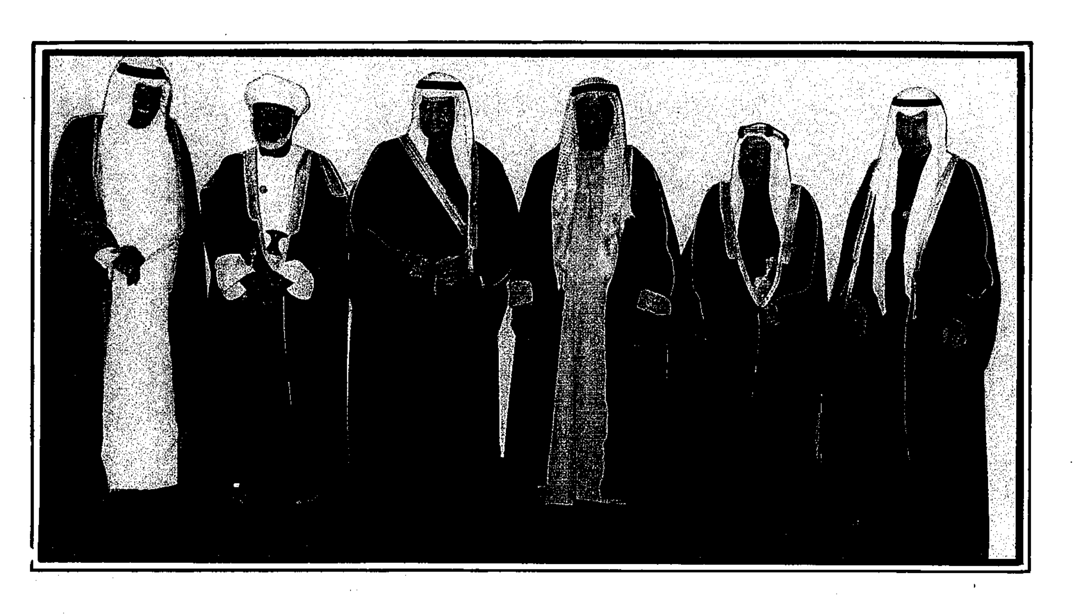
وسمو ولي عهده الأمين رئيس مجلس الوزراء

الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح

لما يوليانه للعلم والثقافة من دعم ورعاية

فوق أرض الكويت الطيبة





رواد النهضة والعلم والثقافة في دول الخليج العربية.. أصحاب الجلالة والسمو:

١ - **سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح** (أمير دولة الكويت)

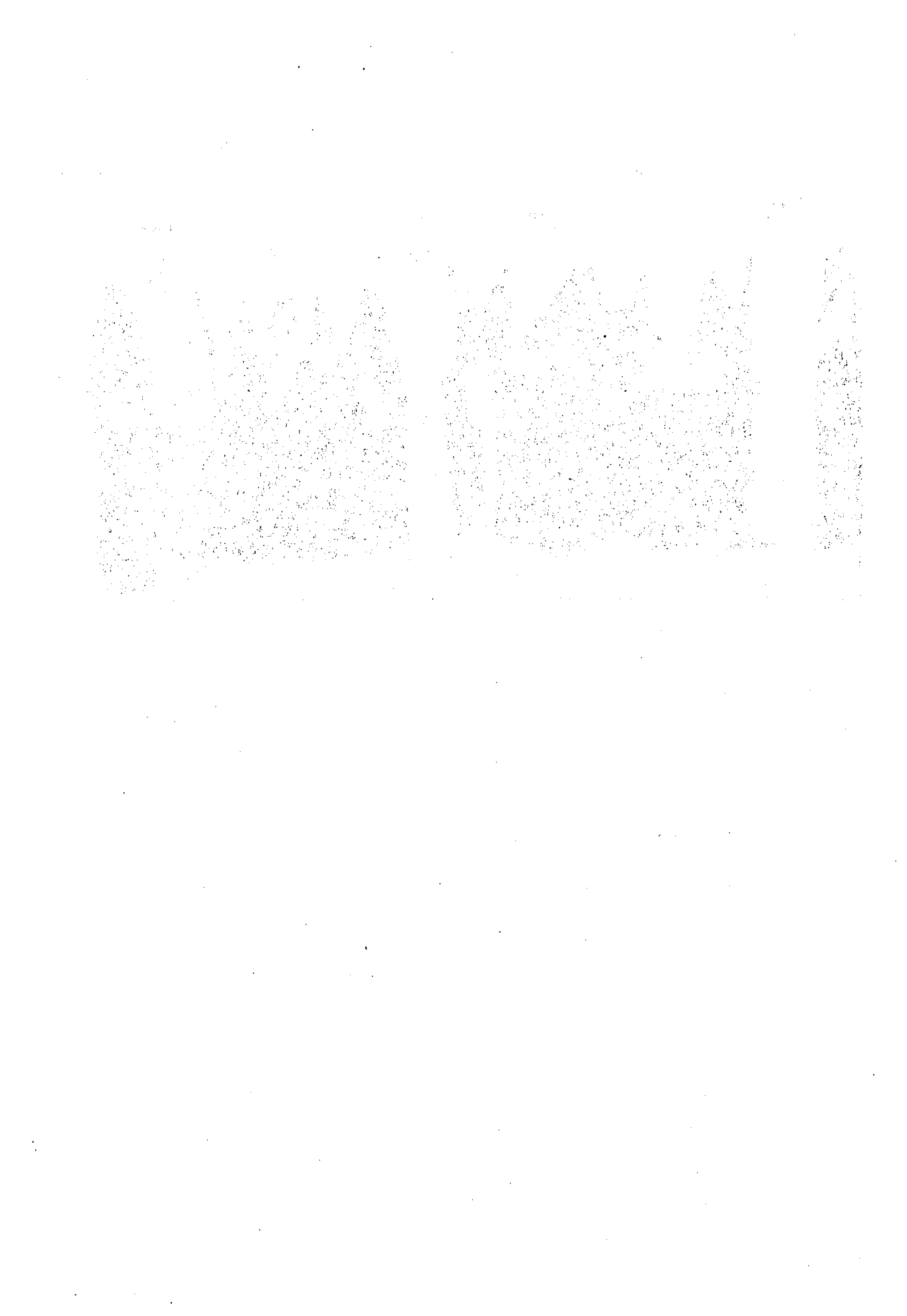
٢ - **سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة** (أمير دولة البحرين)

٣ - **سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان** (رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة)

٤ - **خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود** (ملك المملكة العربية السعودية)

٥ - **جلالة السلطان قابوس بن سعيد** (سلطان عُمان)

٦ - **سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني** (أمير دولة قطر)



الإهداء..

إلى الذين ابتدأت رحلة حياتي معهم ..
وعرفت ذاتي بينهم .. إلى زملاء الطفولة وملاعب
الصّبا وطموحات الشباب .. إلى الذين افتقدتهم
على حين غرّة .. ووصلني نعيهم إثر حادث أليم
وأنا أخطّ صفحات هذا الكتاب ..
إلى الأخوين الحبيبين الغاليين ..
جعفر الرحبي وممتاز موصللي ورفاقهم
الذين قضوا معهم .. وتركوني أنتظر ..
أهدي المؤلَّف ..

أسعد الفارس



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

عزيزي القارئ...

تشهد الساحة الثقافية والإعلامية هذه الأيام اهتماماً ملحوظاً بأدب الرحلات ، ورحلات الغربيين في الوطن العربي بصورة خاصة .

ويسر «شركة صقر الخليج للنشر والتوزيع» أن تقدِّم للقراء هذا الكتاب : «رحالة الغرب في ديار العرب» للمؤلف الباحث أسعد الفارس . . وقد عرفته من خلال كتبه وأبحاثه ومقالاته المتنوعة في العلوم والتاريخ والتراث ، فله في أدب الرحلات ، فن خاص وخبرة متميزة ، ومثابرة في تتبع وترجمة آثار الرحالة الغربيين ، الذين زاروا الخليج والجزيرة العربية وعموم الوطن العربي في القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

وقد حرصنا على نشر هذا الكتاب ليكون دليل القراء في التعرف على انطباعات الرحالة الغربيين عن بلادنا ، إذ يُعَدُّ المحتوى سجلاً تاريخياً وسياسياً وجغرافياً ، ونمطاً من الدراسات «الانثربولوجية» التي ترصد التراث والعادات والتقاليد والأحداث في البيئة العربية ، موثقة بالصور والرسومات والوثائق الهامة .

وهدفنا إثراء أدب الرحلات بهذا المؤلف الجديد ، الذي يختلف عما سبقه من كتب ، وفيه إطلالة على الماضي ، وتقييم الوضع في المدن والحواضر والبوادي العربية في ظروف بالغة الصعوبة ، حيث القبائل والإبل والخيل والفروسية وحياة الصحراء .

عزيزي القارئ . . . إن المؤلف والناشر قد بذلا جل طاقتهما ليخرج هذا الكتاب في أحسن صورة ، فجاء سلس العبارة ، سهل الأداة ، متسلسل الموضوعات ، غنياً بالصور والوثائق المكتوبة .

لذا يحدونا الأمل أن تقوم الجهات الحكومية والأهلية بتشجيع ومؤازرة مثل هذا النوع من الكتب التي تخدم تاريخنا وتراثنا الاجتماعي والأدبي . . . مع العلم بأن هذا البحث قد نشرت محتوياته في ملحق «جريدة الأنباء الكويتية» ، فأحدث تفاعلات ثقافية طيبة ، وأثار حماس القراء بالمتابعة ، مما شجع المؤلف لإعداده ثانية بأسلوب وثائقي ، وعرض جديد نضعه بين أيدي القراء .

وأخيراً الشكر الجزيل لكل من آزر وشجع وبذل الجهد لإنجاز هذا الكتاب القيم ، ونخص بالذكر : نضال خضر زميل المؤلف في ترجمة بعض الأبحاث ، وعدنان الفيصل مصحح النص ، وماهر الشلبي صفَّ وأخرج الكتاب ، وجعفر العيدان مدير مطبعة المستقبل الجديد ، لما بذلوه من جهد متميز خلال الإعداد والطباعة .

عسى أن نكون قد وفقنا في حسن الاختيار...

آملين أن ينال رضاكم... مع أجمل التحيات

والله الموفق

الناشر

أحمد عبدالله الفليج

صقر الخليج للنشر والتوزيع

الكويت ٢٠/ ٩/ ١٩٩٧م

مُقدِّمة

تعلقت بأدب الرحلات فوجدته فناً أصيلاً، عظيم الفائدة كثير النفع، لا يُضاهى في تنوعه وتعدد مجالاته.. فعنده يلتقي العلم بالأدب، والفلسفة بالتاريخ، والاقتصاد بالسياسة. وطالعت عدداً لا بأس به من كتب أدب الرحلات، فوجدت فيها الأنس والمتعة، والمشاهدات المثيرة، والقصص والروايات الطريفة، وعبر الماضي، وأخبار العباد والبلاد، واكتشاف المجهول.

قال الله تعالى في سورة المؤمنين:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم قوة وآثاراً في الأرض﴾ .

إن أدب الرحلات كان ولا يزال يرتبط بعلو الهمة وصدق العزيمة، وبالمغامرة وركوب المخاطر، حيث لا يقوى على تحمل مشاقه إلا المغامر الشجاع المثابر. والرحالة بشكل عام يُعَدُّ في بلاده وطنياً مخلصاً، وخارجها مثقفاً عالمياً في تطلعاته واهتماماته... هو الأديب والعالم الجغرافي، والمتخصص بالأجناس البشرية، وهو الشاهد وراوية الأحداث، وهو الكاتب الأمين الذي يسطر خبرته في السياحة والترحال فينقلها إلى قرائه ومحبيه وإلى الأجيال المثقفة في كافة بلاد العالم. إلا أن هذه الصورة المثالية للرحالة قد تفسدها في بعض الأحيان الآثار الهابطة لبعضهم، والغايات غير الشريفة لبعضهم الآخر. وعندما نغض الطرف عن الهنات، نجد في سجل أدب الرحلات كتباً

كثيرة يصعب التعريف بها دون أن يُخضع محتواها للتمحيص والتدقيق، أو مطالعتها بموضوعية وعقلانية. وقد يجد الباحث نفسه في موقف الناقد الحذر، فليس كل ما خلّفه الرحالة كان صدقاً وعدلاً، ومتى ما عُرفت شخصية الرحالة والبلد الذي ينتمي إليه، عرفت أهدافه ومنطلقاته، وبالتالي تصنيفه، وذكر ما له وما عليه. وليس النقد تحاملاً كما يظنه بعض الناس، بل هو ضروري لتمييز الغث من السمين، خصوصاً وأن بعض الرحالة ترك صفحات مكتوبة زينها بصور عديدة، ويريد أن يقنع القراء بأنه من المبدعين، بينما هو وما تركه من آثار قد لا تستحق أن تدون في سجل الرحالة.

إننا لا نتوقع من الرحالة الغربي أن يتبنى ثقافتنا ومصالح بلادنا، فهو من بيئة ثقافية تختلف عن بيئتنا، ومن أمه غريبة عنا كانت في مجالات كثيرة في موقف مواجهة مع أمتنا، ولكن نطمع أن يكون الرحالة الغربي منصفاً على الأقل أو محايداً في تدوين الحقيقة. ويندر أن نجد كاتباً يتجرد من عاطفته، ولكن عليه أن يروض نفسه لتحري الصدق في كل ما يكتب أو يشاهد.

وعندما أكتب هذا البحث، فلن أكون أول من يخوض غماره، ولكني أكتب خبرتي كواحد من أبناء البادية العربية التي نجد أخبارها وتاريخها وتراثها مدوناً في كتب بعض الرحالة... وكم أمضيت من الوقت وصرفت من المال والجهد لجمع كثير من هذه الكتب ومطالعتها، ولما اكتملت عندي بعض جوانب الخبرة، والقدرة على النقل والنقد بآن واحد، قدمت صوراً من حياة الرحالة الغربيين في بلادنا، وساهمت بترجمة بعض كتبهم[1] وعندما قدر الله لي أن أقيم في دولة الكويت فترة من الزمن، وجدتها كما عهدتها مركز إشعاع

حضاري، ومنارة ثقافية، ووجدت فيها من يهتم بالثقافة ويشجعها من أعلى المستويات؛ ولهذا تشجعت لكتابة هذا البحث، بعد أن نشرته لي صحيفة الأنباء الكويتية في ملحقها الثقافي «وراء الأنباء» في ثلاثين حلقة بعنوان: «**رحالة الغرب في ديار العرب**» فأحدث البحث تفاعلات ثقافية هادفة لم أكن أتوقعها. يبدو أن الموضوع كان بغاية الأهمية والحساسية... فقد لا ترضي معلومة ما هذه الجماعة أو تلك، وبعضهم لا يرحم ولا يغفر بعض المواقف لقصور في تحليلها، في وقت لم نصل فيه بعد إلى مرحلة قبول النقد المجرد، وقد لا تتسع صدور بعض الناس لسماع المعلومة الصادقة بحلوها ومرها. كما أن الرحالة - بحكم تجوالهم في مناطق محدودة من الوطن العربي - ذكروا شخصيات محددة وبعضاً من شيوخ القبائل، ووصفوا دياراً دون غيرها، وهذا لا يعني أن هذه الديار أو الشخصيات هي وحدها الجديرة بالاهتمام. وقد تتكون لدى الرحالة انطباعات أولية سلبية متسرعة عن بعض الناس تضطرنا لتخطيها وإلا تعرضنا للمواجهة والنقد العنيف. وقد أتعبنا الرحالة كثيراً في هذا المجال، ولذا نلتمس العذر في أننا نتتبع آثاراً مكتوبة، وآراءً تخص الرحالة وحدهم، ومن غير الضروري أن تكون صادقة في غالب الأحيان.

وعندما أستعرض الكتب الكثيرة التي خلفها رحالة الغرب في ديار العرب، لا أدري من أي باب ألج إلى مضمونها؟! أمن باب سرد الحوادث؟! أم من باب الأدب والتاريخ والسياسة؟! أم من زاوية النقد والتقويم والمعالجة؟! فليس من المعقول التعرض لشخصيات كل الرحالة خصوصاً وأن سجل الكشوف الجغرافية والارتياد والترحال في البلاد العربية والإسلامية يحفل بأسماء كثير من الرجال المغامرين العظام، تجولوا في ربوعها وأخبرونا عن نظام الحكم والسياسية،

وأحوال المعيشة للشعوب في مراحل هامة من تاريخها الطويل. جاء الرحالة الغربيون وفي أهدافهم دراسة الجيولوجيا والجغرافيا والأحياء والسكان في تلك البلاد، وبطبيعة الحال هناك من بين الأهداف دوافع سياسية واستعمارية واضحة يصعب عزلها عن تلك الأهداف المعلنة.. وقد يجد الباحث نفسه في موقف الحرج عندما يجد من بين الرحالة من يضفي على نفسه طابع الشهرة والإثارة والقدرات الخارقة عندما يتقمص شخصية الرجل «السوبرمان» الذي لا يقهر.. إننا نعاني من إدعاءات بعض هؤلاء، وتجنيات بعضهم الآخر الذين جاؤوا إلى بلاد الشرق بعقد القرون الوسطى، عندما صوروه ببلاد ألف ليلة وليلة، وعرفوه في مخيلتهم على هذا الأساس قبل الوصول إليه.. ولهذا حُشيت مذكرات بعض هؤلاء بالأوهام والتفاهات، فهبطت إلى درجة جعلتها متدنية لا تستحق الذكر أو المطالعة، وقد لا نكون منصفين عندما نعمم القاعدة، إذ لا نعدم وجود الرحالة المنصف صاحب الأدب الرفيع والمشاهدات الصادقة. إن أدب الرحلات أدب عالمي، ومن غير المنطق أن نحجبه عن قراء العربية في صورته الحقيقية المترجمة، فله إيجابيات كثيرة منها:

كون آثار الرحالة الغربيين مصدراً من مصادر تاريخ المنطقة في وقت قلَّ فيه من يكتب أو يؤرخ. ومن سلبياته: النزعة الاستعمارية، والشعور بالفوقية، والتسلط الثقافي، والتجني في بعض الأحيان. وبين السلبيات والإيجابيات رسم لنا الشيخ حمد الجاسر خطة للتعامل مع آثار الرحالة[١] جاء فيها:

«إن القارئ العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حال مع منافاتها للحكمة... لا تتفق

---

(١) مقدمة ترجمة كتاب: «اكتشاف جزيرة العرب». للسيدة جاكلين بيرين.

مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله أياً كان مصدره، وأولئك - بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي - تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بنا أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما كتب عن بلادنا وتاريخنا، لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه»... هذا هو الهدف من التعرض لمذكرات الرحالة الغربيين في ديار العرب، وقد تحريت الدقة والأمانة العلمية ما استطعت، وتجاوزت ما ليس بالإمكان نشره، تاركاً للقراء تقويم وتثمين ما كتبت، واستخلاص العبر والعظات من خلال الأمثلة المدروسة، والشخصيات المتنوعة التي كُرِّس من أجلها هذا المؤلف، والله ولي التوفيق.

الباحث

أسعد الفارس - الكويت

شوال عام ١٤١٧ هـ - مارس عام ١٩٩٧م

الترحال في العصور القديمة

عرف الإنسان الترحال منذ القدم، ومارسه لاكتشاف المجهول في بطون الغابات والصحارى وشعاب الأودية، وفي قمم الجبال العالية، وفيما وراء البحار. ولعل شعوب البحر الأبيض المتوسط من أوائل الشعوب التي سيرت الرحلات التجارية والاستكشافية في البر والبحر[1] على حد سواء: أهل كريت في الماضي، والإغريق، والمصريون القدامى الذين قاموا برحلات استكشافية في عهد الفرعون سنيفرو، وتدل روايات هيردوس أن أول حملة استكشافية قام بها الفينيقون كانت في عام ٦٦٥ ق. م. بدعم من فراعنة مصر، إذ انطلقت الحملة من البحر الأحمر، ودارت حول أفريقيا، ثم عادت عبر البحر الأبيض المتوسط في رحلة دائرية دامت سنتين، فكان الرحالة البحارة يتوقفون في محطات محددة وينزلون إلى البر لزراعة المحاصيل واختبار التربة، والتعرف على النباتات والحيوانات. والفينيقيون رحالة شجعان، ولكنهم كانوا يحتكرون المعرفة؛ وبذلك تحاشوا المنافسة من الآخرين. ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا الشائعات والأساطير والروايات المخيفة عن الضباب في البحار، وعن التيارات الجارفة التي تحطم السفن وتودي بحياة المغامرين. أما الرومان فكانت لرحلاتهم دوافع عسكرية، فبعد أن استولوا على مصر عام (٢٩) ق. م. أرسلوا رحلات الاستكشاف إلى أعالي النيل حتى وصلوا إلى مستنقعات بحر الغزال. ومن أشهر رحالتهم الرحالة «ديوجين» أيام الامبراطور «كلود»، ثم اندفعوا نحو بلاد الشرق من أجل تجارة

---

(١) أعلام الجغرافيين العرب د. عبدالرحمن حميدة. دار الفكر ط ٣ دمشق ١٩٨٣م.

الحرير، فعرفوا طرق الشرق الآسيوية بدقة. ويُعَدُّ الرحالة «سترابون» في عهد الامبراطور «يوليوس قيصر» من أوائل الرحالة الذين تحدثوا عن بلاد الصين. وقد عززت الرحلات الاستكشافية المعرفة بحدود العالم المكتشف حتى بلغت في عهد «بطليموس» شمال بريطانيا ومنها إلى الجنوب حتى السودان والبحيرات الكبرى، ومن جزر الكناري (الجزر الخالدات) في المحيط الأطلسي غرباً إلى شرق الصين في الشرق.



خارطة الأرض حسب أوصاف شاعر الإغريق هوميروس

أدب الرحلات عند العرب

لا نقصد بالعرب عرقاً محدداً من البشر، بل كل الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية، واتخذوا العربية لغة التخاطب والكتابة. وكتب تراثنا الإسلامي تزخر بالقصص والأشعار والأخبار التي تروي مغامرات الرحالة العرب، وتصف الأرض وما عليها من حيوان ونبات، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب. والترحال عند العرب: «**مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب ، وعين الجغرافية المبصرة**» ولهذا ارتبط أدب الرحلات عند العرب بالعلم الجغرافي وعمل على تطويره وعندما نستعرض تطور أدب الرحلات العالمي، نجده عند الإغريق مرتبطاً بالعلم والثقافة، وعند الرومان مرتبطاً بالحروب والفتوحات.. أما عند العرب فهو يجمع بين هذا وذاك. والسفر عند العربي المسلم هو من أسباب جلب الرزق، ومن يسافر يسمع ويرى العجائب، ويكسب التجارب، ويجلب المكاسب، والترحال يسفر عن أخلاق الرجال.

ولَع بالترحال والسفر ذوو الطموح من الشباب العربي المسلم، فأحدهم منعه والده من اللحاق بقافلة راحلة إشفاقاً عليه؛ فقال الفتى:

ألا خلِّني لشأني ولا أكن — على الأهل كلاً إن ذا لشديد
تُهيِّبُني ريب المنون ولم أكن — لأهرب عما ليس عنه محيد
فدعني أجول الأرض عمري كله — يُسرُّ صديق أو يغاظ حسود

ولما جاء الإسلام وزهق الباطل أصبح الترحال مرتبطاً بالفكر الإسلامي وبالفتوحات واللغة والأدب والفلسفة والاقتصاد، وفي هدي

ذلك برزت مجموعات من الرجال كان يستهويهم الترحال والعلم الجغرافي بآن واحد، فالأصمعي مثلاً كان في القرن الثامن عالماً باللغة، وجغرافياً ورحالة. وياقوت الحموي كذلك، وهو الذي كرّس معلوماته وأخبار ترحاله في معجم البلدان الشهير، والواقدي في القرن التاسع الميلادي كان من أوائل الذين أعطوا للجزيرة العربية أوصافاً جغرافية كاملة، وأصبحت كتب الجغرافيا وأدب الرحلات بعد ذلك تعنى بالمجالات التالية:

١ - علم الأطوال والعروض.
٢ - علم تقويم البلدان.
٣ - علم المسالك والممالك.
٤ - علم عجائب البلدان.

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، أصبح الترحال ضرورياً لمعرفة نوايا وأوضاع الدول المحيطة بالدولة الإسلامية، كما ازدهرت داخل الدولة نفسها مصلحة البريد منذ العهد العباسي، ويعد صاحب البريد رحالة محترفاً، فهو المخول بالاطلاع على أحوال المقاطعات والأقاليم، وجمع المعلومات والأخبار، وهناك السفراء الرحالة إلى الدول الأجنبية أمثال: محارب بن حمزة سفير المنصور إلى ملك الروم، وسلام الترجمان سفير الخليفة الواثق إلى بلاد الصين حوالي عام ٢٣٢هـ، ومثله سليمان السيرافي إلى البلاد ذاتها، فكان كتاب رحلته أول تقرير لدبلوماسي عربي ينشر في العصر الحديث عندما نشره المستشرق الأوروبي رينو عام ١٨٤٥م هذا الإضافة إلى رحلة ابن فضلان رسول الخليفة المقتدر إلى بلاد البلغار. وبعد تلك الفترة جاء طلبة العلم الذين ارتحلوا من أجله في بلاد العالم ومنهم: اسحق الاصطرخي والشريف الأدريسي، وابن شداد، ومحمد بن جبير

الكناني. ويُعَدُّ التجار المسلمون أنفسهم رحالة ولكن في طلب الرزق.. حملوا الإسلام إلى الديار التي لم تفتح من خلال تعاملهم التجاري النظيف: وعادوا بأدق المعلومات إلى ولاة الدولة الإسلامية. وأترك الشاعر المسلم الرحالة «أبا دلف الخزرجي الينبوعي» يصف معاناته في السفر والترحال[1]. قال:

جفـون دمعهـا يجـري — لطـول الصَّـد والهجـر

وقلـب تـرك الوجـد — بـه جمراً علـى جمر

ولا سيمـا فـي الغربـ — ـة أودى أكثر العمر

وشـاهد أعـاجيبـاً — وألـوانـاً مـن الـدهـر

فطـابت بالنـوى نفسي — علـى الإمسـاك والفطر

فنحـن الناس كـل النـا — س في البـر وفي البحـر

فنصطـاف علـى الثلـج — ونشـتـو بلـد التـمـر

(١) مسعر بن مهلهل: رحالة وشاعر وأديب.. أوفده الأمير الساماني نصر بن أحمد إلى الصين عام ٩٤٢م، فزار الهند وهو في طريقه إليها.

الترحال الغربي في بلاد العرب

أهدافه ودوافعه

جاب الرحالة الغربيون ديار العرب لأسباب ودوافع متنوعة، وبغض النظر عن أهدافهم من الترحال، نجد من بينهم رجال علم وأدب، ورجال دين، كما نجد العسكريين وذوي المهام الخاصة. ففي آثارهم المكتوبة كثيراً ما نجد الوصف الدقيق للسكان والعمران، والحيوان والنبات في البيئة العربية. وعلى أيديهم تم اكتشاف أهم الكنوز الأثرية في بلادنا.

أنصفنا بعض الرحالة وتجنى على بلادنا بعضهم الآخر بدافع من الحقد والكراهية لكل ما هو شرقي. فبلادنا العربية والإسلامية لم تشهد نشاطاً مكثفاً للرحالة مثلما شهدته في القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر، في أوج الاندفاعة الاقتصادية والعلمية التي شهدتها أوروبا في تلك الفترة، ومهما يكن فالترحال وأدب الرحلات عند الغرب له أيضاً أسسه ومنطلقاته، فهو برأي فرانسيس بيكون «تعليم للكبير وخبرة للصغير» ثم تطور ليصب في أكثر من مفهوم، ويأخذ أكثر من تعريف، منها:

أ - «الترحال وسيلة لجمع المعلومات الجغرافية[1]، والقيام بدراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية.. وليستفيد من هذه الدراسة مختصون ينتمون لمجتمعات متطورة تملك القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية» وبموجب هذا التعريف يُرسل الرحالة ليجمع المعلومات والأخبار، وليدون المشاهدات لصالح بلده

---

(١) أساطير أوروبا عن الشرق، الدكتورة رنا القباني.

ليرسم سياسته تجاه البلدان المستطلعة، كما توضع هذه المعلومات تحت تصرف المؤسسات الثقافية والكوادر العلمية المتخصصة.

ب - «الرحالة الغربي رجل متحضر، عنده تصور راقٍ للحياة[1]، وصاحب رسالة حضارية يريد نشرها في أوساط الشعوب المتخلفة، وفي البلدان النامية» فعن هذا التعريف وغيره نستنتج النزعة الاستعمارية الواضحة، مموهة بغلاف نشر التقدم والحضارة. إن التسلط السياسي، والاستغلال الاقتصادي، ونهب خيرات الشعوب الأخرى يحتاج إلى منطق «مفبرك» فالغربيون - يتقدمهم الرحالة - لم يأتوا إلى بلاد الشرق مستغلين، إنما جاؤوا لمد يد العون للشعوب الفقيرة النامية التي لم يحالفها الحظ لبلوغ المستوى الرفيع الذي بلغته البلدان الغربية.

إن أدب الرحلات الغربي يعد حلقة من حلقات الاستشراق، والاستشراق مهما تنوعت مظاهره البراقة يعد من تراث الإمبراطوريات الغربية التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى. وحتى الرحلات العلمية كانت ترتبط بالسياسة لا بالحضارة، ونادراً ما حادت عن أهدافها السياسية. ومن الدول التي تملك تراثاً واسعاً من أدب الرحلات: «بريطانيا العظمى» التي كانت مستعمراتها لا تغيب عنها الشمس، وعندما نتابع أخبار الرحالة، نجد أن أكبر الممولين لهم: شركة الهند الشرقية، ومصلحة الاستخبارات العسكرية، ومديرية الآثار والمتاحف، والجمعيات الجغرافية، والمؤسسات الاجتماعية، والبعثات التبشيرية.

---

(١) أساطير أوروبا عن الشرق، الدكتورة رنا القباني.

لا يصلح للترحال في ديار العرب كل من يود ذلك، بل يصلح لأفراد من ذوي الميول الخاصة، والإمكانيات الجسمية والنفسية والثقافية النادرة، وممن لديهم القدرة على تحمل المشاق واستقبال الموت والاستعداد له في كل لحظة، وأكثرهم من: العسكريين، ورجال المخابرات، والدارسين الجامعيين وهواة الاستشراق، والتجار، ومحبي المغامرات.. يليهم الدبلوماسيون ورجال المهام الخاصة. نما الترحال الغربي وتسارع عندما كانت الدولة العثمانية تهيمن على مقاطعات واسعة من الوطن العربي؛ فكان الرحالة الغربيون عوامل هدم في كيان هذه الدولة، مستغلين ظروفها وحاجتها إلى الصناعات الغربية ورؤوس الأموال. وقد مرَّت على هذه الدولة فترة كان الدبلوماسيون الغربيون فيها يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة بحجة حماية الأقليات المسيحية.

قال الدكتور جميل نعيسه في كتاب «مجتمع مدينة دمشق» أيام الحكم العثماني: «يحق للقنصل الأوروبي أن يوفر الحماية لعشرة أشخاص، ويعمل في خدمته: ترجمان وكاتب ويسقجي (ساقٍ) وقواص وكيخية، وخزندار، ومجموعة من العبيد. وكثيراً ما يشاهد القواص يحمل سيفه ويسير أمام القنصل في الشارع؛ ليزيح المارة عن طريقه» ومن هؤلاء القناصل: القنصل البريطاني في حلب من عام (١٨٢٥ – ١٨٨٠) الذي لم تسعفني المصادر إلا إلى معرفة اسمه الأول: السيد سكين Skin. قالت الليدي بلنت: «كان هذا القنصل مهندس السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط لفترة تزيد على الثلاثين عاماً»[1].

لم يترك هذا القنصل زعيم قبيلة عربية إلا وتعرف عليه، ولا شخصية سياسية إلا وتربطه بها روابط الود والصداقة، ولا رحالة

---

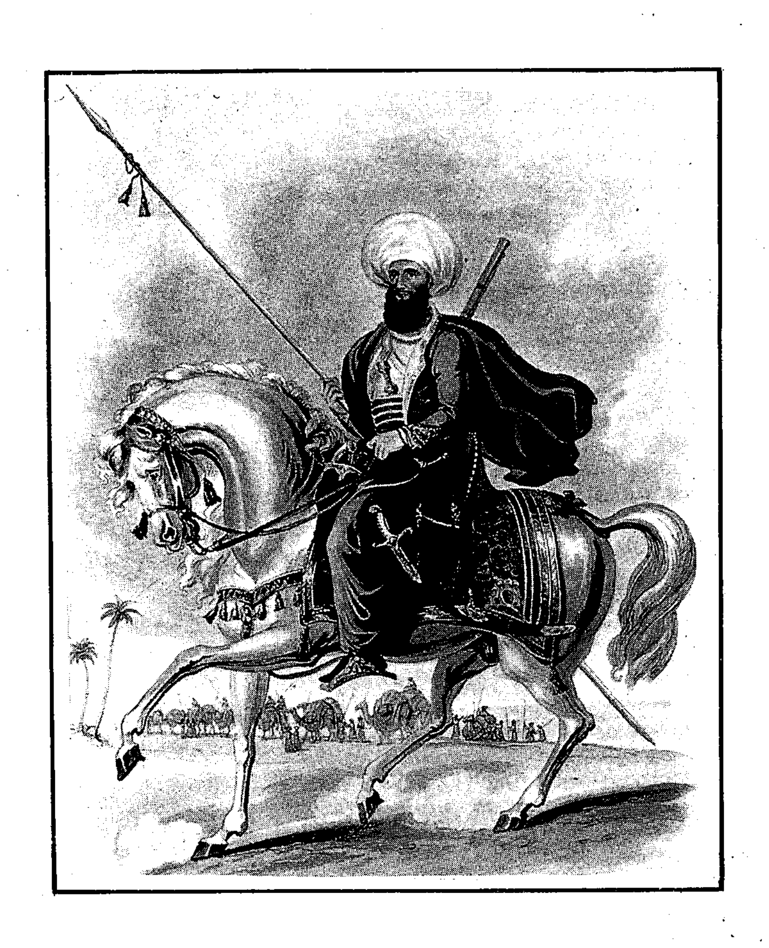
(١) قبائل بدو الفرات، ترجمة أسعد الفارس، ونضال خضر، دار الملاح، دمشق ١٩٩٢م.

بريطاني أو أوروبي إلا وزاره في حلب. ويعد ولفرد بلنت وزوجته الليدي آن بلنت من تلامذة هذا القنصل.. بل ويُعَدُّ مهندس رحلتيهما: الشمالية والجنوبية. أما المبشرون الرحالة، وحجاج بيت المقدس فهم أيضاً يعدون من الرحالة، إذ مارسوا الترحال في المنطقة العربية بعد حجهم إلى القدس الشريف، وأشهرهم دوتي[1] صاحب الرحلات الشهيرة في بلاد الشرق.

لماذا وفد الرحالة إلى الوطن العربي في فترة حرجة من تاريخه، أيام نهاية العثمانيين في المنطقة العربية؟! لقد كان الموت يتهددهم من كل جانب، ومع ذلك جاؤوا وارتحلوا ورفعوا التقارير والأبحاث والكتب إلى بلادهم.. جاؤوا بحجة شراء الخيول العربية، وتعلم اللغة العربية، ومن أجل جمع المخطوطات الإسلامية، والبُعد عن الحياة الأوروبية الصاخبة والاستمتاع بدفء بلاد الشرق، ومن أجل التجارة. ولكن كل هذه الأهداف تُعَدُّ ثانوية بجانب أهدافهم السياسية التي بدأت تنكشف يوماً بعد يوم من خلال مذكراتهم المطبوعة. جاء أكثرهم للتعجيل بنهاية الخلافة الإسلامية، وتقطيع أوصال الدولة العثمانية التي باتت تحتضر، فتسابق الأوروبيون لاقتسام الغنائم وبسط النفوذ، وتأمين الطرق التجارية البرية والبحرية بآن واحد، ولهذا السبب بدأت المصالح الغربية في المنطقة تتضارب، وبدأ الصراع سراً وعلناً؛ فالبريطانيون في الهند، والفرنسيون في مصر وشمال أفريقيا، والشرق العربي يعد معبراً للجيوش والقوافل التجارية؛ فتدفق إلى المنطقة جيش من السياح، والتجار والمبشرين وعلماء الآثار، والرحالة ذوي المهام الخاصة، أخذ يجوب الديار من أقصاها إلى أقصاها، يرسمون الخطط،

---

(١) شارل دوتي Charles Doughty رحالة إنكليزي وفد إلى فلسطين حاجاً إلى بيت المقدس، ثم قدم إلى دمشق ليبدأ رحلته إلى الجزيرة العربية عام ١٨٧٥م. انظر ترجمته في مكان آخر من الكتاب.



جيمس سلك باكنجهام James Silk Buckingham (١٧٨٦ – ١٨٥٥م)

من أوائل المستكشفين الرومانسيين للجزيرة العربية. كان سلفه من الرحالة شديدي الحرص على نقل الحقيقة كاملة، ولكنه ارتاد هذا المجال بأسلوب انفعالي، معتمداً على ردود أفعاله الشخصية. وفيما بعد أصبح عضواً في البرلمان ورئيس جمعية لندن للاعتدال أو «الوسطية»[١]

(1) Travellers in Arabia, By: Robin Bidwell

ويمسحون المناطق، ويعقدون الصفقات التجارية، فالكولونيل شيزني[1] مسح وادي الفرات عام ١٨٣٥م، وجاءت رحلته بمجلدين من الخرائط. حتى إن بريطانيا كانت تفكر بمد خط سكة حديد أيام العثمانيين يبدأ من البحر المتوسط ويمتد في الصحراء إلى الفرات، وعلى طول الفرات حتى يصل الخليج العربي[2] وذلك لنقل الإمداد للجيش البريطاني في الهند، والعودة بالبضائع والمواد الخام إلى بريطانيا عن طريق البحر ولكن هذا المشروع أوقف تنفيذه نتيجة لتوصية مجموعة من الخبراء والرحالة، منهم الليدي آن بلنت نفسها.

وهناك الامبراطورية الفرنسية بقيادة نابليون التي كانت تطمع في بلاد الشرق، ولهذا قادت حملة إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) بغية قطع الطريق على بريطانيا وهي في طريقها إلى الهند. إن هذه الحملة هي التي سلطت الأضواء على منطقة الشرق الأوسط، وبينت أهميتها من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، فاحتدم التنافس الدولي على المنطقة في السر والعلن، وبدأ رحالة الفرنسيين والإنكليز يجوبون المدن والبوادي العربية، ويصطرعون في الخفاء... يكيد بعضهم بعضاً فقتل بالسم أكثر من رحالة، كما كشفت أوراق بعضهم للولاة العثمانيين، وللشعب ذي العاطفة الإسلامية. ومن البديهيات أن نقول: إن عدداً كبيراً من الرحالة كان يكره الإسلام والمسلمين. فهم الذين بذروا بذرة العلمانية في المنطقة العربية، وشجعوا الدعوات القومية، ومولوا الحركات الانفصالية، وأثاروا الفتن الطائفية. وكلما وقفوا عند أطلال المدن الأثرية، تباكوا على الحضارة الإسلامية

---

(١) شيزني Chesney ضابط في مصلحة المساحة العسكرية البريطانية. كلفه وليم الرابع بالسفر إلى الفرات.

(٢) انظر التفاصيل في مكان آخر من الكتاب.

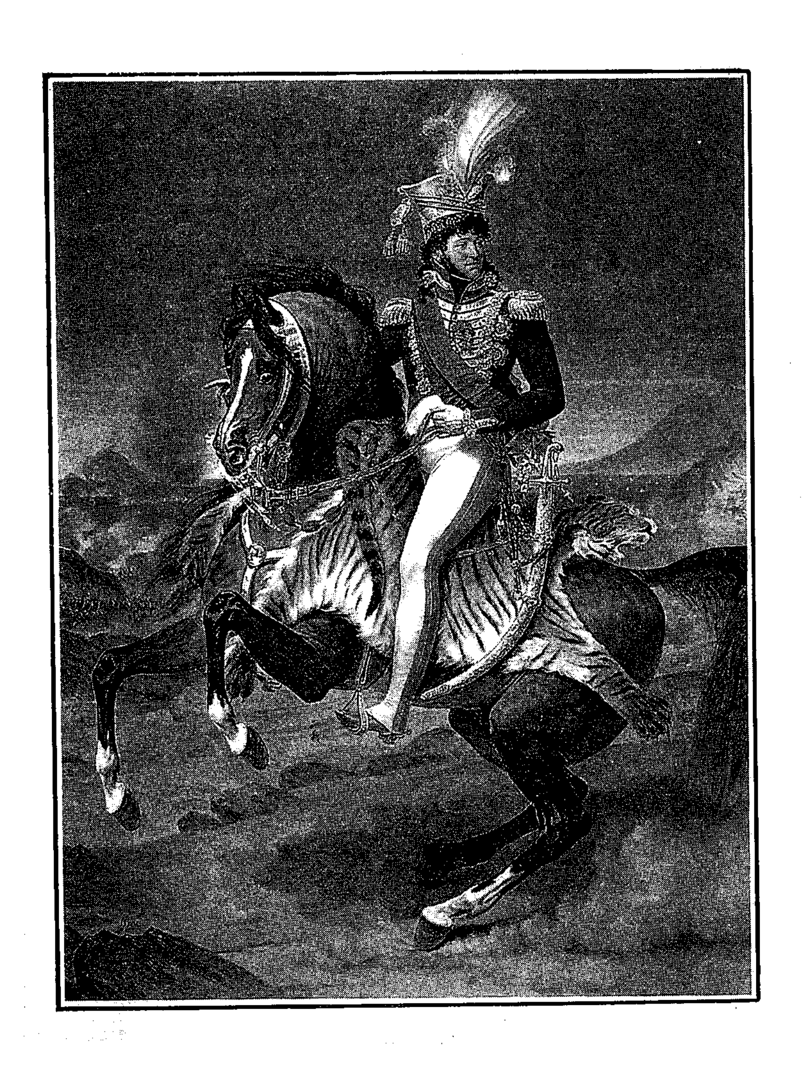
والحضارة القديمة... وقالوا: إن هذه المدن كانت تعج بالناس المبدعين، ولما آلت إلى المسلمين، تخربت بسبب سوء الإدارة والفساد. وأستطيع أن أربط بين الرحالة ونمو التكتلات القبلية، وتسارع الغزو والحروب العشائرية في الوطن العربي للسيطرة على المدن والصراع على المراعي. لقد كانت القبائل العربية دولاً في البادية، والرحالة أول من أوصل الأسلحة النارية إلى شيوخ القبائل، فعطل الغزو السفر في الطرق العامة، مما عجل بنهاية الدولة العثمانية التي كانت تحارب على الجبهة الروسية، وجبهة البلقان.

وفي غمرة الأحداث برزت الدعوة السلفية الإسلامية من الدرعية في نجد، وأخذت تستقطب الأنصار من مختلف أرجاء العالم الإسلامي فاستولت على مكة عام ١٨٠٥م بقيادة آل سعود، ولعل هذا الحدث هو الذي دفع الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية لتقييم الوضع، والتعرف على الدعوة الإصلاحية الجديدة. وأراني مضطراً لسرد تسلسل الأحداث معتمداً ما جاء في المجلد الثاني من «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» الذي نشرته جامعة الرياض.

١ - وصل السيد «رينو» مساعد القنصل البريطاني في البصرة موفداً من قبل الحكومة البريطانية إلى الدرعية عام ١٧٩٩م ليطلب من ابن سعود المساعدة في تأمين رحلات البريد بين مدينة حلب في الشمال والبصرة في الجنوب، حيث كانت القبائل العربية تقطع الطريق، وتغير على القوافل التجارية، وقوافل البريد. لقد كانت البواخر البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية ترسو في ميناء الإسكندرون على البحر الأبيض المتوسط، فتنتقل بعدها الإمدادات والتموين والبضاعة المصدرة إلى الهند براً إلى مدينة حلب ومن ثم بالقوافل والسفن على طول نهر الفرات حتى البصرة. ويبدو أن رينو كان أول بريطاني وصل إلى الدرعية في مهمة رسمية.

٢ - أرادت القيادة الفرنسية وعلى رأسها الامبراطور نابليون التعرف على طبيعة الأحداث في الجزيرة العربية، وموقف المسلمين في الشرق من الحركة الإصلاحية في نجد، فأرسلت السيد «دومنجو باديالبليخ» ليستطلع الأوضاع. فجاء هذا الرجل باسم الشيخ علي العباسي الإمام المسلم الذي يريد الحج إلى مكة، ولكنه لم يفلح في الوصول إلى المدينة المنورة، حيث ارتاب الناس من شخصيته، فعاد إلى الشام لتوافيه المنية جنوب دمشق. ثم تلاه لاسكاريس الفرنسي عام ١٨١٨م. إذ كان ينوي كسب ود الأمير السعودي إلى جانب فرنسا. أدرك الأمير فيصل بن تركي حقيقة القوى المتصارعة ولم يندفع للتحيز إلى جانب واحد على الرغم من تعاطفه مع الفرنسيين في البداية. وفي هذا الوقت أخذ جيش محمد علي باشا ينطلق من مصر ليغزو الجزيرة العربية وليصل إلى الدرعية بالذات.

ومن قبل جاء الألماني «جاسبار سيتزن» عام ١٨٠٢ إلى سورية فعاش بين قبائل البدو، وعرف طرق التجارة، وشيوخ القبائل. وهو صاحب كتاب: «رحلات إلى سورية وفلسطين». ولم ينقطع سيل الرحالة إلى الجزيرة العربية فبوركهارت وصل جدة قادماً من سورية ليجمع المعلومات عن الجيش المصري الذي يحارب هناك، فادعى بأنه مسلم مهتد حديثاً، يريد الحج إلى مكة، وهناك قابل الأمير طوسون ابن محمد علي عام ١٨١٤م فسمح له بزيارة مكة وهو بزي الحاج الشيخ عبدالله. عاد بوركهارت إلى القاهرة بأبحاث كاملة عن المنطقة لا تزال مصدراً من المصادر التاريخية عن تلك الفترة، فمات ودفن في القاهرة.



الامبراطور الفرنسي نابليون كانت عنده آمال كبيرة في احتلال الجزيرة العربية وبلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر.

خشيت بريطانيا على مصالحها بانتصار جيش محمد علي، ففي البداية سمحت لهذا الجيش أن يتورط في الحرب رغبة منها بإنهاك هذه القوة التي نهضت في مصر. ومن أجل التعرف على نوايا الجيش المصري هناك، أرسلت الكابتن «فورستر سادلير» على ظهر بارجة حربية قادمة من الهند عام ١٨١٩م فقابل إبراهيم باشا، ومن ثم قابل سلطان مسقط، وشيوخ عرب القواسم بقصد دفعهم للثورة على العثمانيين؛ ونتيجة لتقرير سادلير وغيره من رجال المصالح البريطانية عملت بريطانيا جاهدة للتأثير في سير الأحداث وإرجاع جيش محمد علي إلى مصر.

يبدو أن الفرنسيين كانوا على علم بما يحصل من خلال الرحالة البريطاني «بالجريف» الذي ارتحل في الجزيرة العربية، وله إدعاءات وهمية.. فزار كما يقول مدينة حائل والقصيم والرياض، وقابل الإمام فيصل بن تركي ولم أجد من يفصح عن غرضه السياسي من الرحلة مثلما أفصح عنه بالجريف نفسه. قال: «ربما يتساءل القارئ عن الغرض الخاص من تلك الرحلة المليئة بالمخاطر، وعن البواعث الدافعة إليها؟! إنما دفعني إلى ذلك الأمل بالإسهام في تقدم هذه المناطق من الناحية الاجتماعية، والرغبة في بعث ماء الحياة في الحياة الشرقية الراكدة عن طريق تأثرها بالتيار الأوروبي السريع، وكذلك الرغبة الملحّة في الاطلاع على ما لا يعلمه أحد غيري.. وأخيراً روح المغامرة التي فطر عليها قومي الإنكليز. تلك هي الدوافع الهامة لمغامرتي، وإن كنت لا أخفي ارتباطي بالمنظمة اليسوعية ذات الخدمات الإنسانية الشهيرة، ولا يسعني إلا أن أعترف في نهاية الأمر بأن الامبراطور الفرنسي هو الذي قدم المال السخي لي من أجل الرحلة التي قمت بها». فالرؤيا إذاً واضحة والهدف بات معروفاً، وما قاله بالجريف يعد

كافياً لتبيان أهداف كثير من رحالة الغرب في ديار العرب، ولن تحجبها عنا الأهداف المعلنة الأخرى: كتعلم اللغة العربية، والسياحة في ديار العرب، وشراء الخيول الأصلية، والبُعد عن الحياة الأوروبية الصاخبة!

تعرضنا لذكر أسماء بعض الرحالة الغربيين وذلك في معرض التعريف بأهدافهم السياسية في ديار العرب، إلا أن سجل الترحال الغربي مليء بالأسماء الهامة والشخصيات المعروفة؛ فمن أقدمهم الرحالة الأسباني بنيامين التطيلي الذي ارتحل من سرقسطه عام ١١٦٥م فزار أوروبا وسورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وبادية الشام وإيران ومصر باحثاً عن اليهود في العالم، ولما عاد إلى أسبانيا كتب أخبار رحلته قبل أن يتوفى عام ١١٧٣م.

ترجم مذكرات بنيامين التطيلي إلى العربية اليهودية البغدادي عزرا حداد، وقدم له الأستاذ المحامي عباس العزاوي... ارتحل هذا الرجل في ديار العرب بحثاً عن أبناء دينه في بلاد الشرق، فوجد منهم ألفين في قلعة جعبر على الفرات، وأربعة آلاف في تدمر، كما ذكر «نيبور» من قبل أن قرية جوبر من ضواحي دمشق كان يقطنها عدد كبير من اليهود. كان بنيامين مفرطاً في النشاط، إنه من أوائل من كان يخطط للحركة الصهيونية.. حتى قبل أن تُعرف المبادئ الصهيونية في بلاد العرب، لأن اليهود كانوا يعيشون بيننا كمواطنين عاديين من أهل المنطقة لهم ما لنا وعليهم ما علينا! قال عنه ابن زريق البغدادي «كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه» .

اطلعت على المذكرات في أرشيف إحدى الجامعات العربية وسوف أعرّف به في مكان آخر من الكتاب؛ لأبين للقراء بعضاً مما كان يفكر به هؤلاء، ومن الرحالة الآخرين نذكر:

١ - ماركوبولو «١٢٥٤ - ١٣٢٤» الذي ارتحل مع عمه التاجر من البندقية إلى بلاد الشرق، وعاد إلى إيطاليا ومعه الكثير من المعلومات عن بلاد الشرق وعادات العرب.

٢ - البولوني «فارتيما» الذي ارتحل في ديار العرب في القرن السادس عشر الميلادي وكتب عن مناسك الحج والعمرة في مكة والمدينة.

٣ - الفرنسي دارفيو «١٦٣٥ - ١٧٠٢» الذي زار المغرب وبلاد الشام وتركيا، وترك مجلدات من المذكرات عرفت بمذكرات الفارس دارفيو.

٤ - الإنكليزي إدوار لين «١٨٠١ - ١٨٧٦» الذي عرف في مصر بمنصور أفندي، فكتب عن أخلاق المصريين وعاداتهم.

٥ - الكابتن الإنكليزي «بورتن ١٨٢١ - ١٨٩٠» ذلك الرحالة الملقب بالفهد، الشرقي الملامح العربي القسمات الذي دخل الديار المقدسة بزي مسلم هندي.

٦ - الإنكليزي «براون» صاحب الرحلات في مصر والسودان والذي قتل وهو في طريقه إلى طهران عام ١٨١٣م.

كما يضم سجل رحالة الغرب شخصيات أخرى أمثال: الكابتن ابيتون، وولفرد بلنت، ووالان، وغوارماني، وبلي، وليشمان، ولورانس، وغيرهم ممن نعرّف بهم في الصفحات القادمة بإذن الله.

وهناك نوع من الترحال الصامت الذي تمثل بالرسم واللوحات الفنية عن بلاد الشرق، وعادات الشرق، ونساء الشرق، فبعض هذه اللوحات كان صادقاً معبراً، وبعضها كان مشوباً بالتصورات الفكرية التي رسمها غلاة الأوروبيين عن بلادنا، وبالرومانسية المفرطة. ولو جاز لي لنشرت بعضاً من هذه اللوحات أمثال لوحة الحمام التركي



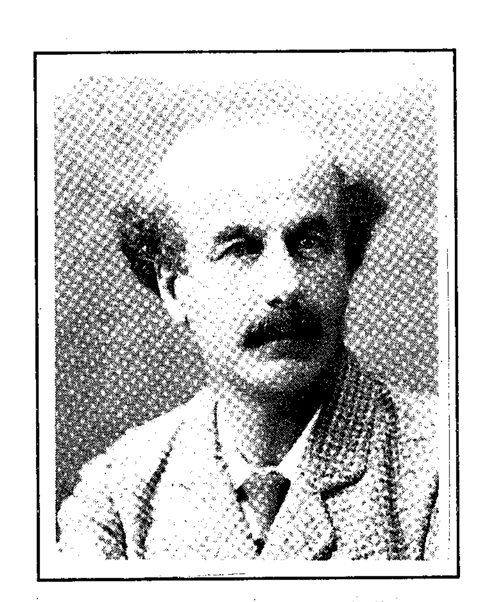
دومنجو باديا لبليخ
الشريف علي العباسي:



الكابتن بورتن «الملقب بالفهد»



الرحالة بالجريف



الكابتن الرحالة: لويس بلي

التي تمثل النساء المسلمات عاريات بشكل جماعي، وصورة الجارية شبه العارية التي تباع في سوق الجواري، ولوحة الإعدام بالسيف في بلاط الخليفة. وأتوقف عند لوحة «الجارية البيضاء» التي رسمها «ليكونت دينوي» عام ١٨٨٨م إنها:

«صورة فنية لامرأة شرقية عارية من أصل شركشي شبهها ببرتقالة رقيقة مقشرة على طبق من خزف.. شفافة يرى أعماق مخها، رسمت بخطوط انسيابية لينة»، وكأنه يريد أن يقول: إن المرأة الشرقية خلقت للذة والجنس لا أكثر ولا أقل!.

كانت المدن العربية المطلة على سواحل البحر هي منفذ رحالة الغرب إلى ديار العرب، كمدينة الإسكندرون، وبيروت، وحيفا، والإسكندرية، إلا أن مدينة القدس، ودمشق، وحلب والقاهرة كانت ملتقى ومكان تجمع لكثير من الرحالة الغربيين، يصلها الرحالة عن طريق البحر على ظهر السفن التجارية، ويمتطون الدواب إلى باقي المدن. فكم من رحالة مكث طويلاً في القاهرة ومات فيها... إن موقع مدينة القاهرة وطبيعة الحكم والمجتمع فيها ـ بعد حملة نابليون ـ كانت تسمح بظهور الأوروبيين دونما حساسية. أما مدينة دمشق، وكذلك مدينة حلب فكانتا محطة تدريب للرحالة الذين يريدون السفر والترحال في البادية، والجزيرة العربية، فبعد تعلمهم للغة العربية، يتدربون على تعلم اللهجات البدوية وبعدها ينطلقون مع القوافل التجارية بزي تجار بسطاء إلى فروع قبيلة عنزة في بادية الشام، وإلى قبيلة شمر وغيرها من القبائل. وقد يتعلمون الشعائر الإسلامية وفنون العبادة، ويرتدون زي أئمة الإسلام عندما يريدون الذهاب إلى مكة والمدينة. ومن عادتهم إذا ما ذهبوا في طريق فلن يعودوا فيها من جديد زيادة في الحذر والحيطة.

السلوكيات الخاصة ببعض الرحالة

لم يكن الرحالة في يوم من الأيام رجلاً عادياً، بل هو مواطن فذ على درجة كبيرة من العلم والثقافة، وعليه أن يواجه الكثير من التحديات، كأن يتعلم لغة البلد الذي يريد السفر إليه، واللهجات المحلية، وهو صاحب ديانة مغايرة فعليه أن يتعلم الشعائر الإسلامية والفقه الإسلامي وقراءة القرآن الكريم وحفظه، والإلمام بالآراء والمذاهب الإسلامية، والأنساب العربية، وأن يكون مسلماً عربياً في سلوكه وعاداته، وأن يرتدي الزي العربي كواحد من أبناء الوطن العربي. وهذا يعني أن الرحالة الغربي عليه أن يرتحل متنكراً، ونادراً ما يرتحل بزيه وشخصيته الأوروبية، وقد تفنن بعض الرحالة بأساليب التنكر: فبوركهارت تنكر في زي الحاج عبدالله، وفاريتما بزي الحاج يونس المصري، ولبليخ بزي الإمام علي العباسي، والكابتن بورتن البريطاني كان يدهن جلده بعصير الجوز الهندي، ويعرض نفسه طويلاً للشمس ليبدو أسمر اللون كأهل الشرق، فوصل إلى مكة بزي حاج مسلم من أفغانستان واندس بين الحجاج الهنود فوثقوا به، وعندها علم منهم أن المسلمين في الهند يخططون لثورة عارمة، وجاؤوا إلى مكة لطلب العون من المسلمين، أبرق إلى قيادة الجيش البريطاني في الهند بما سمع. وقد ادعى بعض الرحالة الغربيين الذين عملوا في خدمة بعض الحكام العرب بأنهم تحولوا نهائياً إلى الدين الإسلامي، وتركوا أسماءهم القديمة، ولكن القليل منهم من صدق في هذا المجال. ولنعود إلى الرحالة الأسباني«دومنجو باديا لبليخ» الذي أرسله الفرنسيون إلى الجزيرة العربية، فقد جاء إلى بلادنا باسم إمام

من آل البيت «علي العباسي» يتقن العربية بطلاقة، ويؤم الناس في المساجد، ويلقي دروساً في الفقه الإسلامي، ولما عاد من الجزيرة العربية إلى الشام عام ١٨١٨م مات في الطريق جنوب دمشق. وأثناء تجهيزه للدفن وجد صليبٌ كبير تحت ملابسه، فاتضحت شخصيته لكل من شهد مدفنه، حتى إن بعضهم كان يشك بأنه رحالة يهودي تستر بالدين المسيحي وعمل لصالح نابليون. ويقال بأن عملاء الإنكليز كانوا قد دسوا له طعاماً مسموماً فمات. أما من الناحية العلمية فيعد علي بك العباسي من الرحالة النموذجيين، لقد كان موظفاً لدى إمارة البحر الفرنسية، فقد وجدت في حاجاته آلات فلكية، وأجهزة لقياس الرطوبة، وأدوات لرسم الخرائط،ومعلومات مكتوبة عن المدينة المنورة، وعينات من النباتات والحشرات، ووصف للتكوينات الجيولوجية في الجزيرة العربية. وتأتي أهمية رحلة علي العباسي في أن مذكراته تعتبر مذكرات شاهد عيان عن الحجاز عندما كان تحت الحكم السعودي قبل التدخل المصري في الجزيرة العربية، حتى إنه قدم وصفاً للمجاعة التي اجتاحت الجزيرة العربية عام (١٨٠٤ - ١٨٠٥م).

وهناك مجموعة من الرحالة، أُطلق عليهم لقب الرحالة العلماء الشجعان، فذكروا منهم الرحالة «نيبور» ورفاقه، الذين أرسلهم ملك الدانمارك عام ١٧٦٢م في رحلة علمية استكشافية إلى ديار العرب، وهم:

١ - خبير اللغات الشرقية: «فردريك هافن».

٢ - عالم الأحياء: «بيتر فورسكال».

٣ - الفنان الرسام «جورج غيوم».

٤ - المهندس الجغرافي «كارستن نيبور».

مات كامل أعضاء البعثة بطاعون اجتاح اليمن عام ١٧٦٢ ولم يعد منهم إلى الدانمارك سوى نيبور مثقلاً بالهموم والمتاعب، ولم يثنه هول الفاجعة عن إتمام المهمة التي مات رفاقه من أجلها؛ فقام بنشر مذكراته عن الرحلة، وأبحاث زملائه، ومنها: كتاب فورسكال عن حيوانات ونباتات اليمن الذي اعتبر مرجعاً أوروبياً هاماً عن حيوانات ونباتات البيئة العربية.



العالم الرحالة: نيبور Niebuhr

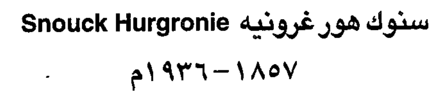
كما عُدَّ من الرحالة العلماء: العالم النباتي وخبير اللغات الشرقية «أوليرخ سيتزن» الذي غادر إحدى المقاطعات الألمانية التي كانت لروسيا عام ١٨٠٢م قاصداً الجزيرة العربية، فمر بالبوادي الشمالية من سورية عام ١٨١٠م وتابع طريقه إلى اليمن، وهناك قام بجمع بعض قطع الحجارة المنقوشة من المدن الأثرية، وجمع نباتات مجففة، وحنط بعض الحشرات والأفاعي، وأثار تجواله الشك والريبة لدى أهل اليمن، فأشاع عنه بعضهم بأنه من السحرة الذين جاؤوا إلى اليمن بسحرهم لتجفيف الينابيع



الرحالة الألماني
أوليرخ سيتزن U. J. Seetzen
تسمى باسم الطبيب الحاج موسى

والآبار، وسرقة الذهب العربي المدفون؛ ولهذا وجد مسموماً في تعز عام ١٨١١م، ويشار بإصبع الاتهام إلى أن حاكم المنطقة كان وراء عملية قتله طمعاً بثروته، ولكن رجال الحاكم دهشوا عندما وجدوا أدواته ومواده العلمية مع قليل من المال، فأضاعوا ثروة كبيرة من العلم كانت بين يديه.

هؤلاء نفر من فئة العلماء الرواد والمغامرين الغربيين الذين وصفوا كثيراً من معالم الديار العربية وآثارها، وعرفوا المجهول من أخبارها.. قطعوا صحاريها، واخترقوا قفارها، وتوغلوا في مجاهيلها مدفوعين بدوافع متنوعة، وقد استهانوا بالصعاب فذللوها، وتحملوا شظف العيش وقسوة الصحراء كابن الصحراء نفسه؛ ولهذا استحقوا لقب الرحالة الشجعان.

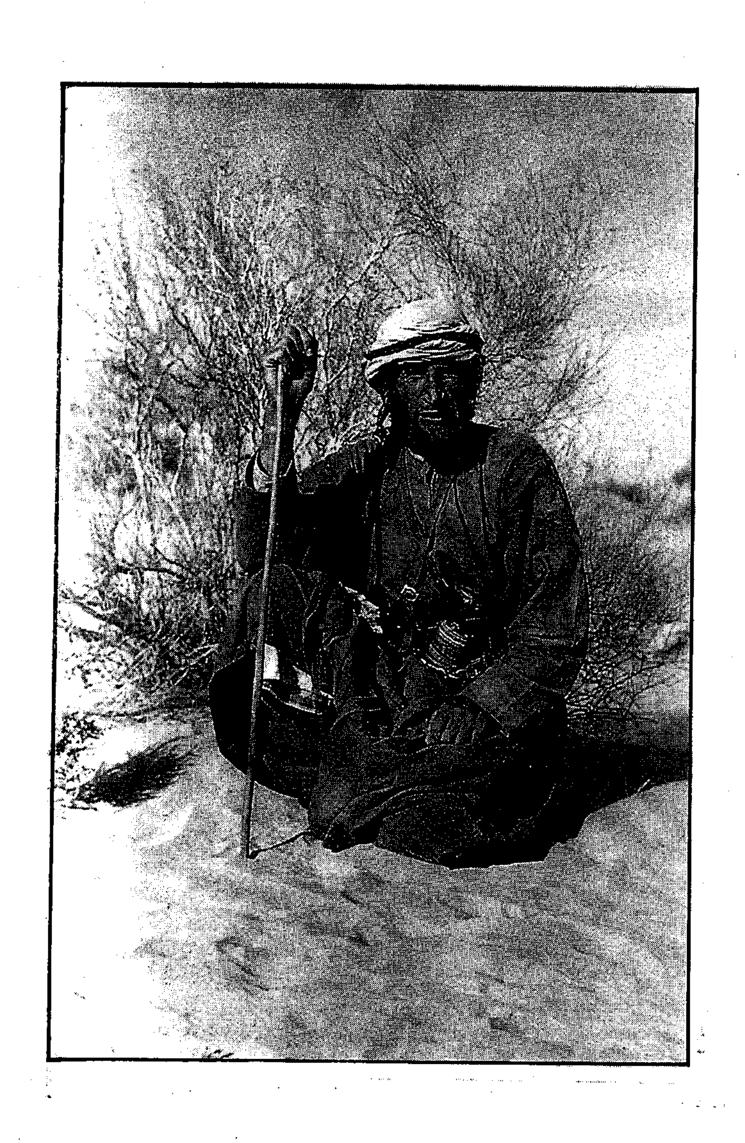


سنوك هورغرونيه Snouck Hurgronie

١٨٥٧-١٩٣٦م



مستشرق هولندي.. ورحالة عمل مستشاراً للحكومة الهولندية لشؤون المستعمرات، وأستاذاً للدراسات الشرقية في جامعة ليدن.. جاء إلى الحجاز عام ١٨٨٥م بصفة طبيب مسلم اسمه الحاج عبدالغفار، فأمضى ما بين جدة ومكة قرابة عشرة أشهر.. له دراسات كثيرة حول الإسلام واللغة العربية، وأطلس مصور نادر عن مكة المكرمة.



كـان الرحـالة ولـفـرد ثيـجـر Wilfrid Thesiger الأوروبي الوحـيد الـذي عـبـر رمـال الربـع الخـالي مـرتين. وقد كـتب في الرمال الـعـربية: كل الماضـي الذي عشتـه لم يكن إلا مقدمة للأعوام الـخمسة الـتي كانت تنتظرني.

☐ عن كتاب رمال الصحراء لولفرد ثيجر

الهفوات والعثرات الخاصة ببعض الرحالة

كان قطاع معين من الرحالة الغربيين في ديار العرب متجنياً أو سلبياً تجاه كل ما هو عربي، ونحن إذ نبين بعض السلبيات في آثارهم وانطباعاتهم، إنما نبينها للقارئ العربي والغربي بآن واحد... للعربي ليعرف ما كتبه هؤلاء الرحالة عن بلاده لتقويمه والانتفاع بما يفيد ونبذ ورد ما يضر، وللقارئ الغربي لتبيان الحقيقة؛ لأن روايات الرحالة الغربيين عن بلاد الشرق وأهله أحاطتهم بنظر مواطنيهم بهالة من التقديس يصعب نزعها من حولهم بسهولة.

تخطى بعض الرحالة في مذكراته المنهج الموضوعي، وجانب الحقيقة في كثير مما كتب! بدوافع لم تعد خافية على أحد، فقد تجنى بعضهم على التراث العربي الإسلامي برمته عندما وصفوا بلادنا ببلاد الكسل والخمول والملذات. ورث بعض الرحالة عن سابقيهم من كتاب القرون الوسطى عقد الماضي عن بلادنا، وكرههم للشرق الذي دأبوا على وصفه بأنه موطن الفسق والعنف والملذات، وتمادوا في غيهم حتى عندما وصلوا بلادنا ووجدوها خلاف ما ذُكر لهم، ومن هؤلاء:

١ - غالان الفرنسي «١٦٤٦ - ١٧١٥» الذي ارتحل إلى الشرق، وتعلم اللغة العربية، فترجم إلى الفرنسية قصص ألف ليلة وليلة.

٢ - إدوار لين «١٨٠١ - ١٨٧٦» أو منصور أفندي الذي كتب عن عادات المصريين وسلوكهم، وركّز على سلبيات المجتمع المصري، متحرياً غرائب العادات ودونها في مذكراته، ووصف المواطن المصري بالخرافي الكسول، والمفرط بالملذات المحرمة.

وصلت حكايات ألف ليلة وليلة إلى أوروبا ما بين عام ١٧٠٤ - ١٨٣٨ فأخذت تتفاعل هناك، ويتداولها المثقفون على أنها المثال الحقيقي للحياة الشرقية. أما نحن العرب فننظر إليها (بلسان المسعودي في مروج الذهب) على أنها نوع من التسلية الهابطة التي لا شبيه لها إلا في أوساط الأميين وأشباه المثقفين.

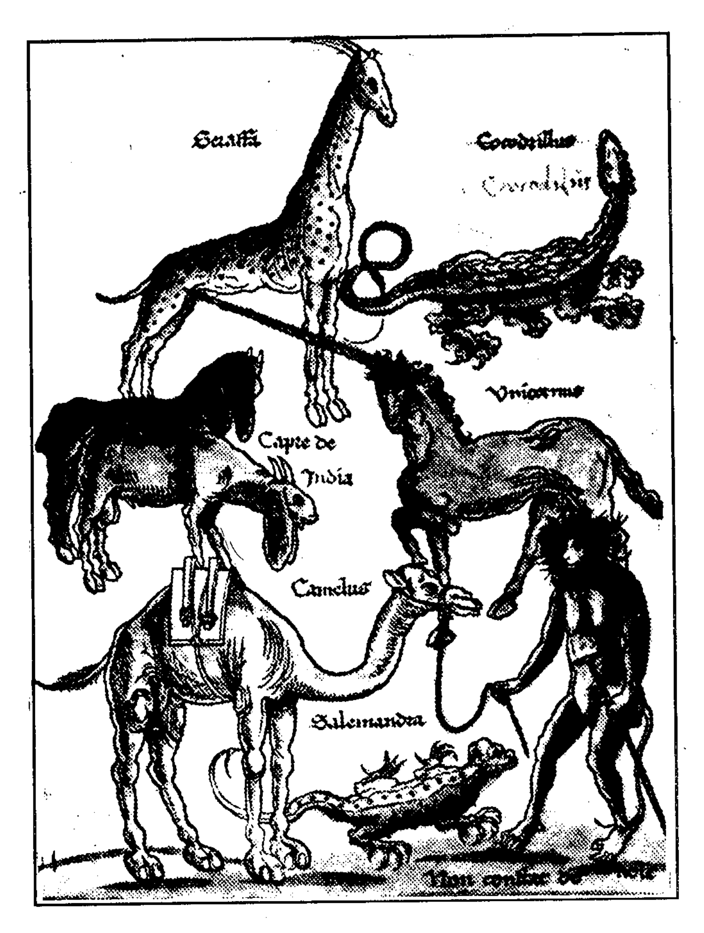
٣ - الكابتن بورتن الإنكليزي السالف الذكر كان قد نسج على منوال ألف ليلة وليلة ألف حكاية وحكاية ملفقة عن بلاد العرب تصور المرأة العربية المسلمة جارية تُباع وتُشْتَرى، وأضاف لها هوامش من القصص الداعرة، حتى إن زوجته «إيزابيل بورتن» قد مزقت أحد كتبه لبذاءته وعهره.

ومما لا شك فيه أن الرحالة الغربي له ظروفه، فهو رجل ذو عاطفة، وعاطفته معروفة نحو البلاد التي يزورها ويصفها سواء أكانت هذه العاطفة مبعثها الحب أم الإعجاب، أو الكراهية، وكثير منهم من مالت لديه عاطفة البغض والكراهية بعد موازنة نفسية شاقة ومعقدة، فراحوا يطلقون لأنفسهم العنان للنيل من الشرق وأهله[١].. وعلى الرغم من الإنجازات العلمية وتطور وسائل الإعلام، وتوفر وسائل السفر السريعة التي جعلت العالم أشبه بقرية واحدة يعرف أهلها كل شيء، فلا زالت كتب الرحالة تتفاعل في المجتمعات الغربية، وما زال بعض مثقفيهم ينظر إلى بلادنا بعيون الماضي، فمن ابتلي بعقدة، يصعب عليه التخلص منها بسهولة.

وقد جالت الباحثة الدكتورة «رنا القباني» في كتابها «أساطير أوروبا عن الشرق» في مختلف مراتب الرحالة، وصنفت المتجنين على

---

(١) يكثر مصطلح أهل الشرق في كثير من مذكرات الرحالة عندما كان العالم يصنّف إلى شرق وغرب.



صورة تخطيطية من القرن الخامس عشر.. تبين تفاهة المعرفة الأوروبية عن بلاد العرب، لقد كانت بعيدة عن الواقع، عندما بدا أن الأوروبيين كانوا يعتقدون بأن العربي لم يكن أكثر من قرد متوحش يقود الجمل بين الحيوانات وله ذيل[١] .

This fifteenth-century picture shows how little was known about Arabia in Europe. It does seem improbable, however, that people should have thought camel-drivers were naked simians with tails!

(1) Travellers in Arabia. by: Robin Bid well, p. 17.

بلادنا وأسمتهم «بالداعرين» قالت: «حرصت في هذه الدراسة على أن أكشف للقارئ العربي كيف ازدرى هؤلاء الكتاب رجال الشرق ونساءه وحقروهم مثل ما ازدروا المستضعفين في المجتمع الفيكتوري وحقروهم... وفي محاولتي لنزع هالة القدسية التي أحاطت بهؤلاء الكتاب، لا سيما بورتن ولورنس، كان لا بد لي من أن أسرد للقارئ العربي البذاءات التي انطوت عليها كتاباتهم ورسائلهم التي لم تكشف عن عقول ثقات من الباحثين والدارسين، بل كانت تنم عنها عقد نفسانية، ووجدوا متنفساً لها في شرقهم الذي اخترعوه».

لقد صدم بعض الرحالة مع واقع بلادنا الذي شاهدوه، وصحح لهم هذا الواقع بعض المفاهيم، فبعضهم غير رأيه السابق كلية كما فعل الأوروبي «فايس ليوبولد» الذي سمى نفسه «محمد أسد»[1] وكتب رحلة تحوله من المسيحية إلى الإسلام بعنوان «الطريق إلى مكة» وأمام الواقع الجديد إما أن يغير الرحالة الغربي رأيه ويكون في هذه الحالة صادقاً مع نفسه، وإما أن يتعامى عن الحقيقة ويستمر في غيِّه، وإما أن يعيش متناقضاً معقداً بين هذا وذاك! ومن هنا جاء وصف الرحالة بالبطل إن هو انتصر على نفسه وصحح الأفكار الموروثة على ضوء الواقع الذي شاهده. وإن كان مفهوم البطل الرحالة عند الغربيين غير ذلك، فهو في نظرهم: «الرجل الصامد القادر على اختراق الغابات، واجتياز الأنهار، ومحاربة جموع المتوحشين.. ويظل محتفظاً بكياسته المدنية».

وربما نظر الرحالة الغربي إلى الناس في البلاد الأخرى نظرة الاستعلاء والعنجهية، قال بورتن يصف أبناء السند: «السندي كسول وقذر، ومدمن.. معروف بجبنه في أوقات الخطر - في حين أنه

---

(١) فايس ليوبولد، وسيرد التعريف به في مكان آخر بإذن الله.

يصبح وقحاً عندما لا يكون ثمة ما يخشاه، وليس لديه أية فكرة عن الصدق والأمانة».

إن الرحالة من وجهة نظر غربية: رجل متحضر، والاستشكاف عنده مفهوم فكري متقدم، بينما تنعدم الرغبة فيه عند البدائيين، كما تعجز النساء أن تقوم به!

قال أحد الرحالة: «يساورنا ونحن في البلاد العربية شعور لا نحس به في أي مكان آخر، فكل متعة تمر بنا تكون عابرة لا تدوم؛ لأنها جد بعيدة عن روابطنا المألوفة... إنها كالحلم الذي لا صلة له بمجرى حياتنا اليومية، إذ يحس المرء بأنه يكاد يختنق عندما يجد نفسه في الصحارى العربية دونما أصدقاء أو أقران، إذ يفقد التسلسل المألوف لأفكاره ويبدو وكأنه مبتور من مجتمعه». وعلينا أن نتصور رحالة مثل بورتن يقف عند الكعبة المشرفة بزي جديد واسم جديد، ومعتقد منتحل جديد، فهو فعلاً كمن تبرأ من مجتمعه ليعيش لحظة يكون فيها أشبه بالممثل قال بورتن: «وصلت أخيراً إلى هدفي بعد رحلة طويلة مضنية، وحققت الخطط والآمال التي ظلت تراودني لسنوات طويلة. كانت الكعبة تنتصب أمامي، وقد غمرها سحر من نوع غريب؟! كانت رؤيتها شيئاً فريداً، فقليلون من أمثالي هم الذين وقعت أعينهم على هذا الصرح الشهير، ويمكنني القول: إنه من بين جميع المصلين الذين كانوا يتمسكون بأستار الكعبة وهم ينتحبون أو يضغطون حجرها على صدورهم، لم يكن أي منهم يحس بعاطفة أعمق من عاطفتي أنا القادم من أقصى الشمال، ولكن لا بد لي من أن أعترف بتواضع أنه إذا كان ينتاب هؤلاء المصلين الشعور الديني المتأجج، فإن الذي يتملكني هو الإحساس بنشوة الزهو والاعتداد بالنفس» إن الازدواجية بالشخصية ولمدة طويلة ربما تؤدي بصاحبها

إلى الجنون. هذا ما قاله الجندي الرحالة لورنس[1]: «لقد جئت إلى ديار العرب كغريب ولم أوفق أن أفكر مثلهم أو أن أتبنى معتقداتهم، بيد أنني وإن كنت قد أخفقت في اصطناع شخصيتهم، فقد استطعت على الأقل إخفاء شخصيتي.. إن قيامي خلال هذه السنين بارتداء لباس العرب، وبتقليد نمط تفكيرهم أبعدني ذلك عن ذاكرتي الإنكليزية ولم أستطع أن أدخل في الجلد العربي، فالأمر كله لم يخرج عن كونه تكلفاً يكاد يضع المرء على حافة الجنون، وهو ينظر إلى الأشياء من خلال رؤيتين وثقافتين وسلوكين وبيئتين في وقت واحد». في الوقت نفسه يجد بعض الرحالة نفسه في ديار العرب بعيداً عن الحياة الأوروبية الصاخبة المملة: «من هذا الوسط الممل والعادي حملتني الجنُّ على حين غرة إلى الأرض التي أهوى... إلى الصحراء العربية. وجدتني من جديد أقف تحت سمائها الشفافة، أستنشق نسائمها الصافية التي تبهج الروح.. من جديد أخذت أرنو إلى المشاهد التي ألفتها على امتداد الفلوات الساحرة.. ثم لا تلبث أن تبدو لي خيام البدو السوداء من بعيد وكأنها نقاط متناثرة في الفضاء الفسيح» وقد نوه محمد أسد من قبل بأنه يستحيل على أي أوروبي يرتاد البلاد العربية ويتركها، فيعود إلى بلاده دون أن تترك في نفسه أثراً عميقاً. وعندما انتهت خدمة بورتن من دمشق ونقل إلى بريطانيا، أرسل طلباً إلى قيادته يشكو فيه الوسط المادي الراكد الذي لا يجد فيه ما يذكي ميوله أو يرضي حبه للمغامرة. قال: «لقد سئمت من هذا الوضع الجديد.. أريد أن أنهض. أريد أن أنشط، أرسلوني إلى آسيا الوسطى.. إلى أفريقيا».

بهذا المسح الشمولي للرحالة الغربيين في ديار العرب، من حيث

---

(١) أساطير الغرب عن الشرق د. رنا القباني.

الأفكار والأهداف والظروف النفسية نكون قد عرّفنا بهم وأوضحنا ما لهم وما عليهم، وكم كان بودنا أن يكون بعض الرحالة صادقاً مع نفسه عندما كان يعيب على العثمانيين سياسة فرق تسد، والظلم والإرهاب والاستغلال، وعندما كانوا يتغنون بالحرية، جاء قومهم إلى بلادنا مستعمرين وهم يسترشدون بمذكرات هذا الرحالة، ويهتدون بتقرير آخر، بل ونجد بعضهم يقدم وصايا سرية لتمزيق الأوطان التي خدم فيها، وعاشر أهلها وتزيا بزيهم، كما فعل لورنس البريطاني في نهاية الحرب العالمية الأولى.

إننا لا نعيب على الرحالة الغربيين ولاءهم لبلادهم، وليس بيدنا الحق عندما نطالبهم بالانسلاخ من جلدتهم والولاء لبلادنا، ولكننا نقول كما قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

إن أفكار وأهداف الرحالة الغربيين لم تكن خافية على مثقفي بلادنا، ولا على قياداتهم السياسية، ولكن الظروف الدولية كانت تضطرهم لسماع رأي القوى الدولية من خلال الاحتكاك بالرحالة.. أما في البوادي فكان الرحالة محط ترحيب عند شيوخ القبائل، من قبيل الضيافة العربية لا أكثر ولا أقل، وما كان بعض الرحالة يخاف مثلما كانوا يخافون من الأمير محمد بن عبدالله آل رشيد حتى إن بعضهم لا يكاد يصدق أن يعود من عنده سالماً لكرهه لهم كما ورد في مذكرات أكثر من رحالة.



مقتل الكافر.. أو مقتل مراد آغا.. لوحة من اللوحات المعروفة في أوروبا في القرن التاسع عشر.



لوحة فنية لرسام أوروبي يتخيل فيها انتصار نابليون في مصر. في القرن التاسع عشر.

الآثار الحميدة لبعض الرحالة

قد لا نكون منصفين عندما نضع كافة الرحالة في زمرة من تحدثنا عنهم من قبل، بل نجد لبعضهم أثراً كبيراً في اكتشاف الآثار العربية، ونشر الثقافة العربية، وتطوير العلوم في البلاد العربية، وهو ما أوضحه الأستاذ حمد الجاسر في معرض تقديمه لكتاب «اكتشاف جزيرة العرب» للباحثة الإيطالية جاكلين بيرين[1] قال الجاسر: «لا مغالاة في القول بأن لكثير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم يد طولى في إبراز معالم تاريخ جزيرة العرب وفي كشف ما خفي من أثارها، فضلاً عما لهم من فضل في إحياء التراث الإسلامي والشرقي بوجه عام.

لقد تصدى لذلك منهم فئتان: فئة عنيت بنشر المؤلفات القديمة، ومنها ما يتعلق بتاريخ وجغرافية بلادنا نشراً بلغ الغاية في تحقيق النصوص.. ووضع الفهارس الكاملة» .

أما الفئة الأخرى التي أشاد بفضلها حمد الجاسر فهي فئة الرواد والعلماء المغامرين الغربيين الذين كشفوا معالم الجزيرة العربية، وآثار الحضارة العربية القديمة في جنوب الجزيرة العربية، والوصول إلى حل رموز الأبجدية الحميرية، مما أضاف معلومات جديدة عن حلقة كانت مجهولة من تاريخنا. وعندما أُجمل أفضل ما قيل بحق المبدعين المنصفين من الرحالة لا أجد مثل ما أجمله الأستاذ أحمد وصفي زكريا في كتاب «عشائر الشام» قال: «وقد صرنا حتى الآن في

---

(١) مقدمة كتاب: اكتشاف جزيرة العرب. جاكلين بيرين. ترجمة قدري قلعجي. الرياض.

الموضوعات المتعلقة بنا عالة على رواد الافرنج ومستشرقيهم؛ لأن هؤلاء ما برحوا يتجشمون ويحادثون، ويتتبعون الأخبار والوقائع والنوادر ناهيك عن الأبحاث الطبوغرافية والأثرية والاجتماعية والاثنوجرافية، وغيرها التي برعوا فيها أي براعة فهم لم يغادروا أي بادية من بوادينا إلا اخترقوها ولا عشيرة من عشائرنا إلا وزاروها.. كل ذلك بنشاط واهتمام يثيران الإعجاب والإكبار. وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث والتدقيق، حريصون على التأليف والتدوين، أسخياء بالبث والنشر وإفادة الغير. فقد دوَّنَ أولئك الرواد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات الأوروبية، تقرؤها بكثير من التفكير والتقدير، ولو جئت وعددت أسماء هؤلاء الأفاضل، وذكرت الأماكن التي ولجوها وجابوها في فيافي الجزيرة العربية وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها حتى الربع الخالي، وأنقل المشاق والأخطار التي قاسوها في الأدغال والرمال والحر والقر الجوع والعطش، والمؤلفات التي وصفوها مزينة بالرسوم والخرائط والأرقام، ناهيك عن جودة الوصف ودقة الشرح اللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً، قلت لو جئت أعدد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب».

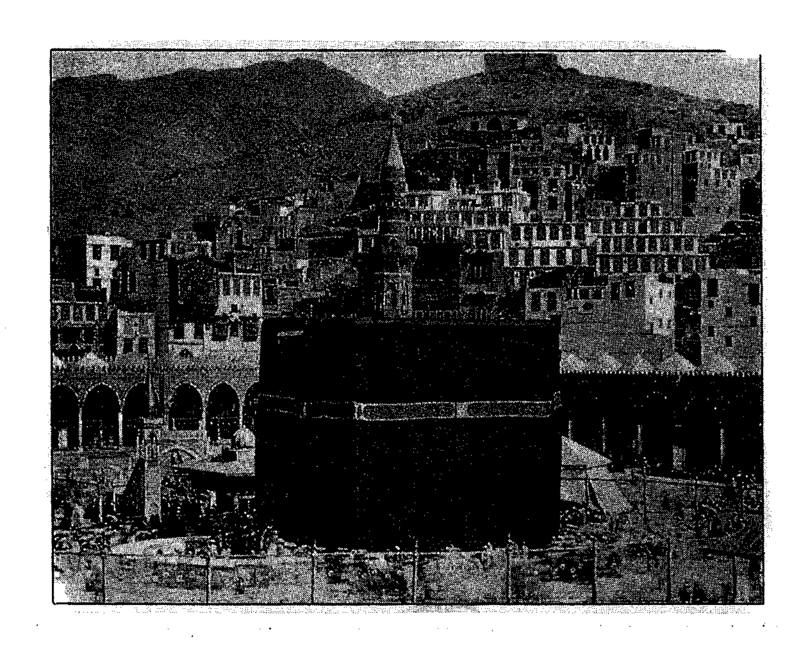
بل وجهود بعض الرحالة تعد المرجع الوحيد في بعض المجالات. قال الدكتور الأديب السوري عبدالسلام العجيلي[١] دعيت إلى البتراء لحضور مهرجان ثقافي كبير في الأردن، فبحثت عن مرجع يفيدني في معرفة آثار وتاريخ البتراء فلم أجد مرجعاً وافياً مثل ما ذكر عنها في مذكرات الرحالة البريطاني «بوركهارت».

---

(١) كاتب وأديب سوري معروف كان يرعاني ويشجعني ويحثني على البحث والمتابعة. قال هذا القول وهو يعقب على محاضرة ألقيتها في المركز الثقافي بمدينة الرقة عن رحالة الغرب في ديار العرب.

إن آثار الرحالة الغربيين في ديار العرب يحتاج عرضه إلى أبحاث كثيرة، ولن نوفيه حقه من البحث والدراسة؛ ولذا وسوف نمر في الفقرات الباقية من الكتاب على نماذج مختارة، وأمثلة منتقاة من أخبار وقصص رحالة الغرب في ديار العرب عربت من مصادرها مباشرة أو من المصادر المعربة ونقلت بأسلوب مبسط ليستفيد منها أكبر عدد من القراء بإذن الله.

إنني أترك للقارئ متعة المطالعة، وأرجوه الانتباه واليقظة لاستخلاص العبر والنتائج مما أمكن وسمحت الظروف بنشره.



صورة مكة المكرمة عام ١٨٨٥م... عن أطلس الرحالة الهولندي «سنوك هور غرونيه»

البولوني فارتيما (الحاج يونس المصري)

Ludovico Di Varthema

«إذا سألني أحد عن الدوافع الحقيقية إلى قيامي برحلتي، فسوف أجيب إنها المعرفة» . . بهذه الإجابة المختصرة والمعبّرة نعنون البحث عن الرحالة فارتيما الذي قدم نفسه للناس في الحجاز واليمن وعدن بأنه الحاج يونس المصري، وفي الهند الحاج يونس العجمي أو يونس الفارسي.

إنني لا أعرف عن حياة هذا الرجل - خارج حدود كتابه عن الرحلات - إلا القليل من المعلومات، ففي موسوعة التراجم العالمية المطبوعة في فرنسا عام ١٨٢٧م جاء ما نصه: «رحالة إيطالي قام برحلة في القرن السادس عشر، وتعد الرحلة هامة جداً بالنسبة للمشتغلين بالتاريخ والجغرافيا، ولكنه لا يمت إلى إيطاليا إلا باللغة التي يتكلمها، وبالمولد ينسب إلى بولونيا Bologna . رحل مع والده الطبيب إلى البندقية، ويظن أنه كان يشتغل بالشؤون العسكرية». وتذكر بعض المصادر أنه روماني الأصل، من أسرة باتريزي النبيلة.

ومهما يكن أصل هذا الرحالة، فالرجل كان يعمل لصالح البرتغاليين في أوج اندفاعاتهم نحو بلاد الشرق، في ظروف بالغة التعقيد، فالمسلمون يحتلون القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح عام ١٤٥٣م ويتغلغلون في عمق القارة الأوروبية، ومجاهدو البحر بعد سقوط الأندلس كانوا يقطعون طرق التجارة البحرية في البحر الأبيض

المتوسط، وكل من يعادي أوروبا كان الغربيون يطلقون عليه اسم مورو "Moor" ومورو تعني عندهم الرجل البربري فالمسلمون بنظر الأوروبيين أيام فارتيما كلهم برابرة، فحمل الراية البرتغاليون وأخذو يدورون بسفنهم حول أفريقيا، ويهددون الجزيرة العربية من الجنوب، بل وشرّهتهم أنفسهم الوصول إلى الأماكن المقدسة وهدم الكعبة ونبش قبر الرسول ﷺ.

ولهذا كانت رحلة فارتيما تخدم توجهات البرتغاليين في معرفة أحوال البلاد العربية التي يريدون السيطرة عليها، والانطلاق منها إلى الهند. وقد جاء في مقدمة الطبعة العربية لرحلات فارتيما[١]:

«رحلة فارتيما، أو الحاج يونس المصري كما يسمي نفسه ما بين ١٥٠٣ - ١٥٠٩م حول العالم هي الجناح البري لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة، والهند خاصة. وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي، استمراراً لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد.

وهذه الرحلة... زامنت تقريباً رحلات فاسكو دي جاما الذي وصل إلى كلكتا - بعد الدوران حول أفريقيا - سنة ١٤٩٨م.. وبينما كان رحالتنا فارتيما يبحر من البندقية قاصداً مصر فالشام فالحجاز فاليمن فالخليج فبلاد العجم. كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها.

وإذا كانت مهمة دي جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحري إلى الهند، فإن مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيداً، فقد كان مكلفاً بوصف

---

(١) رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري). ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٤.

عادات الشعوب التي يمر بها في طريقه للهند، وفي الهند نفسها، وكتابة تقارير عن جيوشها، وخاصة ما يتعلق بالمدافع وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، ذات القيمة في التجارة العالمية. وباختصار، فإن مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التي مرَّ بها، خاصة الإسلامية منها».

وباعتبار أن فارتيما يُعد من أوائل الرحالة الغربيين الذين جاؤوا إلى بلاد العرب المسلمين، فقد لاقت قصة رحلته رواجاً في أوروبا لمدة تزيد على الخمسين عاماً، وتوالت ترجماتها وإعادة طباعتها عشرات المرات حتى مطلع القرن السابع عشر، لأنها مذكرات شاهد عيان، كتبها بأسلوب قصصي، لكنها لم تخل من بعض المبالغات والادعاءات التي نتعرض لها في سياق العرض والتعريف.

يبدأ فارتيما مقدمة كتابه بتذكر دور الرحالة القدامى الأذكياء من الكلدانيين والفينيقيين، وقرر أن يشاهد بلدان العالم لا أن يقرأ عنها في بطون الكتب «فقد قررت أن أرى شخصياً، وبعيني، والتأكد شخصياً من مواقع الأماكن ونوعيات البشر، وأجناس الحيوان، وأن أرى بنفسي الثمار المختلفة والأشجار العطرية التي تنبت في مصر وسوريا، وصحراء شبه الجزيرة العربية، وبلاد العرب السعيدة، وبلاد فارس والهند وأثيوبيا، واضعاً في اعتباري أنه ليس من رأى كمن سمع، وأن دليلاً واحداً تقدمه عين شاهدت يفوق في قيمته عشر روايات مسموعة» ثم يهدي كتابه إلى امرأة يصفها بأنها ابنة دوق أوربينو Kuke of Urbino.. إليك أهدي هذا العمل المتواضع وباسمك صدرت هذا الكتاب. إليك يا أكثر النساء تفرداً وامتيازاً. لقد خطرت ببالي وكأنك شاهدة ومراقبة لكل ما هو جدير بالاهتمام، وكامرأة محبة لكل فضيلة.. ولذا نشرنا أشرعتنا في يوم ريحه مواتية، طالبين

من الله المساعدة وأسلمنا أنفسنا للبحر. وعندما وصلت الإسكندرية – إحدى مدن مصر – تطلعت لكل جديد.. وعن طريق النيل اتخذت سبيلي للقاهرة» وهكذا يدخلنا فارتيما في جو وأهداف الرحلة، فمن عادته الإيجاز في الشرح ونقل القراء إلى النتائج في أقصر طريق. فعندما وصل إلى القاهرة وجدها كمدينة روما ولكنه وجد حولها قرى متناثرة وضواحي مزدحمة، ووجد سكانها كلهم من المسلمين أو المورو Moors كما يصف، ومن المماليك؛ لأنه يعتبر أن المماليك كانوا بالأساس نصارى على الرغم من كونهم قد اعتنقوا الإسلام،وأمراؤهم في مصر والشام زمن فارتيما كانوا حكام المسلمين. وفي طرابلس ذكر فارتيما أنها كانت كبقية مدن الشام تتبع السلطان المملوكي الكبير وهو الملك الأشرف قنصوه النوري (١٥٠٢ – ١٥١٦م) آخر السلاطين المماليك قبل الغزو العثماني.. غادرها متجهاً إلى مدينة حلب في رحلة برية دامت ثمانية أيام، لما لحلب من أهمية سياسية واقتصادية، فهي من جهة مدينة جميلة تخضع لحكم المماليك والسوق الرئيسي لكل من سوريا وتركيا، إذ تمر بها القوافل التجارية القادمة من بلاد العجم، كما تصلها قوافل تركيا وجنوب روسيا. ويتابع فارتيما طريقه من حلب إلى حماة وتل منين عند مشارف دمشق الشمالية، فيتوقف فيها لوجود بعض الأديرة والكنائس التي يُظن أن السيد ةهيلينا أم قسطنطين هي التي أنشأتها. وفي دمشق يحط الرحال لتعلم اللغة العربية لغة المسلمين لعدة أشهر، ويصف القلعة والتجار والأحوال الاجتماعية والعساكر المملوكية ووفرة الغلال واللحوم والفواكه، فبلاد الشام كلها كانت ولا تزال «زاخرة بالفاكهة التي لم يُرَ لها مثيلاً من قبل خاصة العنب الطازج المتوفر في كل المواسم.. والرمان والسفرجل من الأنواع الطيبة، واللوز والزيتون ذي

الحب الكبير في غاية الروعة، وتنمو هنا الورود الحمراء رائعة الجمال والتي لم يسبق أن رأيت لروعتها مثيلاً».

تعرَّف فارتيما - كما يقول - على أمير الحج في دمشق، وهو قائد مملوكي، فألبسه لباس المماليك، وأعطاه حصاناً أصيلاً وضمه باسم الحاج يونس المصري إلى القافلة المتوجهة إلى مكة في الثامن من أبريل عام ١٥٠٣م. وفي منطقة مزيريب في جنوب دمشق تتوقف القافلة لاستكمال إجراءات السفر وللتفاوض مع أمراء البدو ودفع رسوم المرور لهم عبر قبائلهم التي تنتشر في الطريق، فيصف الفرسان والخيول وتقاليد الفروسية العربية.

وأجد فارتيما يبالغ في تقدير عدد من كان في قافلة الحج من الرجال والدواب والإبل فيذكر أن فيها «٣٥» ألف جمل وأربعون ألف رجل بينما كانت الحراسة المملوكية للقافلة لا تتعدى ستين فارساً مملوكياً. وأجده كما وجده غيري من الباحثين يخطئ عندما يصف «سدوم وعاموراء» من مدن قوم لوط وأنها كانت في طريقه على مسير اثني عشر يوماً من يوم تركه لدمشق بينما هي من مدن البحر الميت التي أهلكها الله ومن فيها. وربما كان فارتيما يشاهد مدائن صالح والعلا. ثم يصف فارتيما عناء السفر ووحشة الطريق وتخلف العطاش من القافلة الذين تركوا على الرمال وهم يحتضرون. وفي الطريق يصف قرى ومساكن اليهود وهو وصف مزعوم إذ لم يكن لهم وجود على طريقه البتة.

وصل فارتيما إلى المدينة المنورة فوصفها بأنها عبارة عن ٣٠٠ منزل والأرض قاحلة باستثناء بعض النخيل فقد أصابها كما يقول

غضب الله، ويستخدم الوصف نفسه لمكة المكرمة. وهو في هذه الحالة يسقط حقده وكراهيته لهذه الأماكن التي شرفها الله وجعلها مهوى أفئدة الملايين الذين يفدون إليها من كل حدب وصوب، وجعلها الملاذ الآمن لكل الخائفين في الأرض والموحدين لله الكريم. وفي المدينة يقف ليصف قبر الرسول وقبور صحابته والمسجد النبوي الشريف وآداب الزيارة التي يمارسها المسلمون عند قبر المصطفى ﷺ، وعندما ينتقل إلى مكة مع القافلة يصف شعائر المسلمين في الحج ويزيل الأوهام التي كان يتخيلها الأوروبيون عن حج المسلمين إلى مكة؛ لأن فارتيما كما قلت من أوائل الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا إلى الجزيرة العربية. وفي مكة يتخلف فارتيما عن قافلة الحج التي أخذت تستعد للعودة بحيلة بارعة نسبها لنفسه كعادة بعض الرحالة الغربيين في الإثارة وادعاء المهارات الفائقة، إذ خبأه أحد التجار، وأسكنه في بيته حتى غادرت قافلة الحج الشامي مكة المكرمة وينهي الرواية بأن صاحبة الدار وابنة أختها ذات الخمسة عشر ربيعاً قد أحاطتاه بعناية فائقة، ومنتاه بالبقاء في الدار ليكون من أثرى الأثرياء. ولا أدري ماذا يقصد بهذه العبارات الغامضة؟!، وهل يعني ذلك أن كل رحالة غربي عليه أن يدعي قصة حب مزعومة في ديار العرب؟! ولطرافة الحديث أترك فارتيما يروي القصة[1]:

«يجب أن أبين هنا كيف يظهر العقل البشري فطنته في ظروف بعينها، فقد أصبح ضرورياً أن أعمل فكري للهرب من قافلة مكة. فعندما كنت ذاهباً لشراء بعض الأشياء لرئيس القافلة تعرف عليَّ أحد

---

(١) رحلات فارتيما. ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ.

المسلمين، إذ تفرس في وجهي وقال: من أي البلاد أنت، فقلت له إني مسلم، فقال لي: أنت كذاب، فقلت له: ورأس النبي أنا مسلم، فقالي لي: الحقني إلى منزلي... وأخبرته بأني إيطالي وأصبحت من المماليك في القاهرة. فعندما سمع ذلك سر كثيراً، وراح يعاملني باحترام ويعزني كثيراً. وبما أنني أريد الحصول على الكثير، شرعت في استدراجه قائلاً: ما إذا كانت هذه مكة ذات الصيت الذائع في العالم، فأين الجواهر، وأين البهارات، وأين مختلف أنواع البضائع التي قيل إنها تتخذ سبيلها إلى هذا المكان، لقد ألقيت عليه هذا السؤال فقط، عساه أن يخبرني لِمَ لَمْ تعد هذه البضائع والأشياء تصل إلى هنا، كما جرت العادة من قبل!، ولم أشأ أن أسأله ما إذا كان ملك البرتغال هو السبب، فقد كان الملك البرتغالي سيدالمحيط الأطلنطي وسيد الخلجان العربية والفارسية. عندئذ بدأ الرجل يخبرني بالتدريج عن سبب عدم وصول البضائع... وعنما أخبرني أن الملك البرتغالي هو السبب تظاهرت بالحزن العميق، وأرسلت فيضاً من السباب على هذا الملك البرتغالي، وذلك كي لا يكتشف سروري لنجاح المسيحيين في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، وعندما سمع مني ذلك زاد احترامه لي بشكل ملحوظ، وحصلت منه على المزيد من المعلومات.

قلت للرجل: يا صديقي إنني أتوسل إليك، وأسألك بالنبي أن تدلني بطريقة أهرب فيها من القافلة، فأنا صاحب قدرات خاصة، قال ما هي: قلت بأنني أمهر صانع للمدافع الضخمة في العالم، فقال الرجل بسرور: ببركة محمد أرسلك الله لنا لخدمة المسلمين، فأخفاني في منزله وتركني مع زوجته... وقبل رحيل القافلة بيوم خبأني في

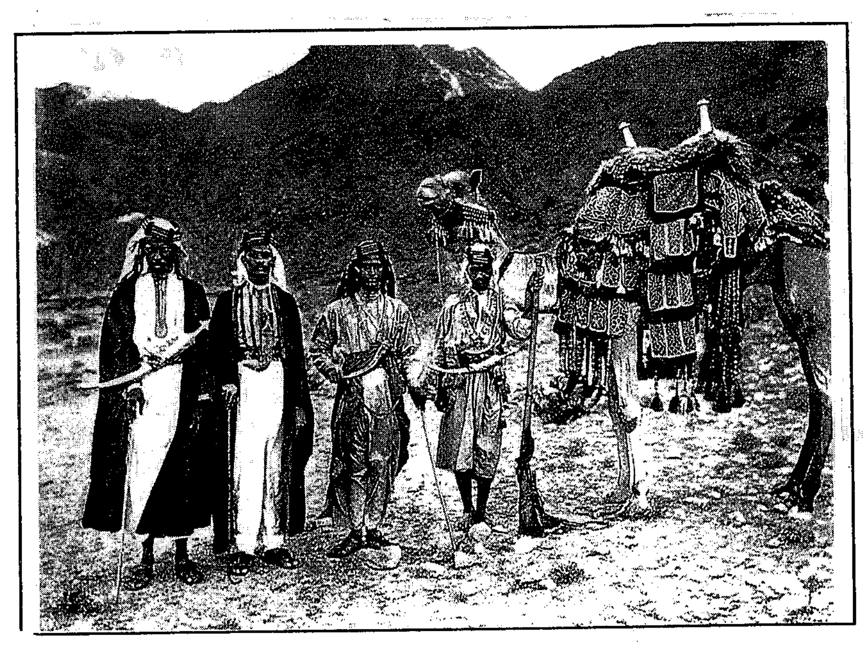
منزله بمكان سري للغاية، وفي اليوم التالي عند الفجر، كنت أسمع نفير وأبواق القافلة، وصائحاً يصيح على كل المماليك أن يركبوا، وحتى المريض عليه أن يركب لتبدأ رحلة العودة إلى سوريا.. عندها تملكني الخوف وسكبت الدموع أمام زوجة التاجر، وتضرعت إلى الله أن ينقذني من هذه الورطة. وفي صبيحة يوم الثلاثاء رحلت القافلة وتركتني، وسافر معها التاجر، وبقيت وحدي مع زوجته وأوصى زوجته أن ترسلني يوم الجمعة بصحبة قافلة هندية تريد السفر إلى جدة.

لا أستطيع أن أعبر عن الرقة التي شملتني بها هذه السيدة وابنة أختها ذات الخمسة عشر ربيعاً، فقد وعدتاني أنني إذا بقيت هنا ولم أرحل. فستجعلان مني رجلاً ثرياً. لكنني تنازلت عن كل هذه العروض بسبب المخاطر المحيطة بنا. وحين أقبل يوم الجمعة خرجت مع القافلة ظهراً دون أدنى أسف لمغادرة المرأتين اللتين راحتا تنشجان حزناً لفراقي».

وصف فارتيما مدينة جدة بأنها مدينة مزدحمة، وعدد المسلمين فيها كبير جداً، وهناك لجأ إلى المسجد معتكفاً، مدعياً الفقر والمرض أربعة عشر يوماً حتى اهتدى إلى سفينة تقله إلى اليمن وبلاد العجم. وعندما حط رحاله في عدن أخذ يصف السوق، وأساليب التجار، والحاكم والناس، وأثناء تجواله كُشِفَ بأنه مسيحي يعمل لصالح البرتغال، فسجن وصدر بحقه حكم بالإعدام، ولكنه بقي في السجن ستين يوماً وفي كل يوم كان المسلمون، ممن آذاهم البرتغاليون، يتجمهرون طالبين إخراجه من السجن للفتك به ولكنه يفلت بأعجوبة،

ويرتبط بعلاقة حب مع نساء السلطان.. وكأنه بادعائه هذا يعيش أحداث قصة ألف ليلة وليلة، فيعززها في أذهان أبناء جنسه في بلاد الغرب، ثم يتابع رحلته إلى بلاد فارس وإلى الهند ليتجسس للبرتغاليين عن تلك البلاد.

كانت نتائج رحلة فارتيما في غاية الأهمية بالنسبة للبرتغاليين؛ لأنهم كانوا بأمس الحاجة لمعرفة أحوال البلاد التي يريدون غزوها، هذا بالإضافة إلى كونها قصة درامية تستهوي المغامرين، وعشاق الروايات المثيرة. إنها قصة الحاج يونس المصري في ديار العرب، وفارتيما البولوني في بلاد الغرب كواحدة من أغرب قصص الرحلات.



الشريف يحيى بن أحمد في مكة عام ١٨٨٦م يحيط به حارسه وبعض الفتيان من أشراف مكة... عن أطلس الرحالة سنوك هورغرونيه (الحاج عبدالغفار)

جوهان لودفنغ بوركهارت

J. L. Burckhady

١٧٨٤ - ١٨١٧م



الرحالة: جوهان لودفنغ بوركهارت
J. L. Burckhady
أو الشيخ إبراهيم في بلاد الشام

نلقي عصا الترحال بباب رحالة غربي معروف في ديار العرب، أو بالأحرى الرحالة الذي يعرفه محبو التراث وأدب الرحلات من خلال أشهر كتبه:

١ - رحلات في الجزيرة العربية Travels in Arabia المطبوع في لندن عام ١٨٢٩م.

٢ - ملاحظات عن البدو الوهابيين Notes on the Bedouin and Wahabys المطبوع في لندن عام ١٨٣١م.

ومنهم الأستاذ محمد سعيد الشعفي الذي زكّاه في الجزء الثاني من كتاب «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» الذي طبعته جامعة الرياض مؤخراً: «والحق أن الدقة في الوصف والتحري والتمحيص في الروايات التي نسمعها، والأمانة والصدق في نقل الحقائق التاريخية والاقتصادية التي يسردها، والنزاهة في إصدار أحكامه؛ ساعدت كثيراً في قيمة مؤلفيه واعتبارهما من المصادر الهامة والجيدة التي لا غنى لدارس التاريخ من الرجوع إليهما والاستفادة مما حوتهما من معلومات

أصيلة» أما من حيث الهدف من ترحاله فهو رحالة غربي يصعب علينا أن نفصل أهدافه العلمية عن أهدافه السياسية، وأفضل ما يميزه أنه كان صادقاً مع نفسه ومع الواقع الذي شاهده، وإن كان الرحالة الفرنسي لاسكاريس يتهمه بالجاسوسية لصالح بريطانيا العظمى، إذ كان يعاكسه في شوارع دمشق عام ١٩١٠م.

اسمه الكامل «جوهان لودفنع بوركهارت» ولد في لوزان السويسرية عام ١٧٨٤م فهو ألماني الأصل سويسري الجنسية، من عائلة بوركهات النبيلة المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى، والده عسكري برتبة كولونيل، كان يخدم في الجيش الفرنسي، ولكنه فضل بريطانيا الملكية على فرنسا الجمهورية «ومن أصدقاء الشاعر الألماني جوتيه، ومن أصدقاء المفكر الفرنسي جان جاك روسو، وجميع هؤلاء[١] كان مأخوذاً بالتاريخ العربي والإسلام بطريقة ما» ويعني ذلك أن الشرق العربي وأخبار أهله كان بوركهارت يسمعها في أوساط عائلته منذ أيام الطفولة.

مل الوالد جو التقلبات السياسية في أوروبا، فتفرغ لتعليم ولده «جوهان» في مدينة «نيو شاتل» حتى إتمام المرحلة الثانوية، ثم إلى جامعتي ليبزج وغوتنجن لإتمام الدراسة الجامعية، وهناك التقى بالشاب المغامر سيتزن حيث أنهى كل منهما دراسته، وتثقف ليصبح رائداً رحالة، وإن كان الموت قد عاجل سيتزن، فقد أمهل جوهان بوركهارت ليصبح أشهر رحالة أوروبي في بلاد العرب وأفريقيا.

كنت قد قلت من قبل بأن الرحالة الطموح لم يكن كبقية الناس، فهو فريد في سلوكيته وتطلعاته، وبوركهارت الابن كان معروفاً بين

---

(١) كتاب قافلة الحبر. لسمير عطا الله. دار الساقي ١٩٩٤ بيروت.

زملائه في جامعة غوتنجن بحب العلم ودماثة الخلق، وحب المثابرة، والابتعاد عن حياة الصخب واللهو التي تستهوي أمثاله من الشبان في هذه المرحلة من العمر؛ فأثار بهذا السلوك انتباه الطبيب الألماني «فردريك بلومنباخ» الخبير بالدراسات الإنسانية وعادات الشعوب، فأوصله إلى السيد جوزيف بانكس الإنكليزي والباحث الجغرافي بالجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عام ١٨٠٦م ولم يتجاوز عمره آنذاك اثنين وعشرين عاماً. وفي بريطانيا انكب بوركهارت في كمبريدج على دراسة اللغة العربية والطب والفلك والعلوم الأخرى، وأخذ يعوّد نفسه على التقشف وشظف العيش، ويكتفي في طعامه اليومي بالخبز والخضار، ويمشي ساعات طويلة في حر الشمس؛ ليعتاد على حياة الصحراء، فكلف رسمياً لاكتشاف مجاهل القارة الأفريقية.

توجه بوركهارت إلى سورية عام ١٨٠٩م، إلا أن ضعفه باللغة العربية جعله يتنكر بزي تاجر مسلم هندي، وكانت في مدينة إنطاكية على شرق البحر الأبيض المتوسط أولى متاعه، فقد شك فيه الناس وطلبوا منه برهاناً على ما يقول؛ فنطق بلهجة عربية بنبرات أعجمية فصدق به من سمعه.

أما في حلب فقد انتحل شخصية الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي، فعكف هناك على دراسة اللغة العربية والتعرف على العادات العربية في المدن والبوادي، فأمضى سنتين من التجوال ما بين دمشق وحلب والفرات في مخالطة العلماء والفقهاء حتى أصبح عربياً فصيحاً، وعالماً فقيهاً يعتنق الدين الإسلامي ويعمل به ويلتزم بآدابه، ولكنه بقي محط شكوك، فمن قائل بأنه أسلم وترك دين آبائه وأجداده بشكل نهائي وتحول إلى الإسلام، بعد أن امتحنه في مكة القضاة

والفقهاء فأثبت جدارته في ميدان العلوم الإسلامية! وفي مضارب البدو تحول إلى شاعر يلقي القصائد البدوية أمام سامعيه... ويكفينا منه: الصدق والأمانة العلمية.

لم يكن بوركهارت ينفي أنه من أصل أوروبي، ولكنه في ديار العرب كان يعيش كعلي بك العباسي شخصية الإمام المسلم على الرغم من أنه كان يشعر بأن الناس تشك به جاسوساً بريطانياً، فيراقبه ويتتبع خطواته الرحالة الفرنسيون، ورجال الدولة في كل من بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية.

خرج بوركهارت بترحاله في بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية عن دراسة واقعية في عادات البدو وأحوالهم الاجتماعية، وظروف كل قبيلة: الخيام والأسلحة، وعادات الزواج والطلاق والقضاء. ففي زمن بوركهارت كانت الأسلحة السائدة في بلاد الشام، السيف والرمح والأسلحة التقليدية، بينما أهل الجنوب في نجد والحجاز واليمن كانوا يتسلحون بالبنادق التي تُشترى من المدن المجاورة ومن التجار العرب والأوروبيين على حد سواء، وميناء عدن كان من أهم الموانئ التي تزود المنطقة بالأسلحة النارية.

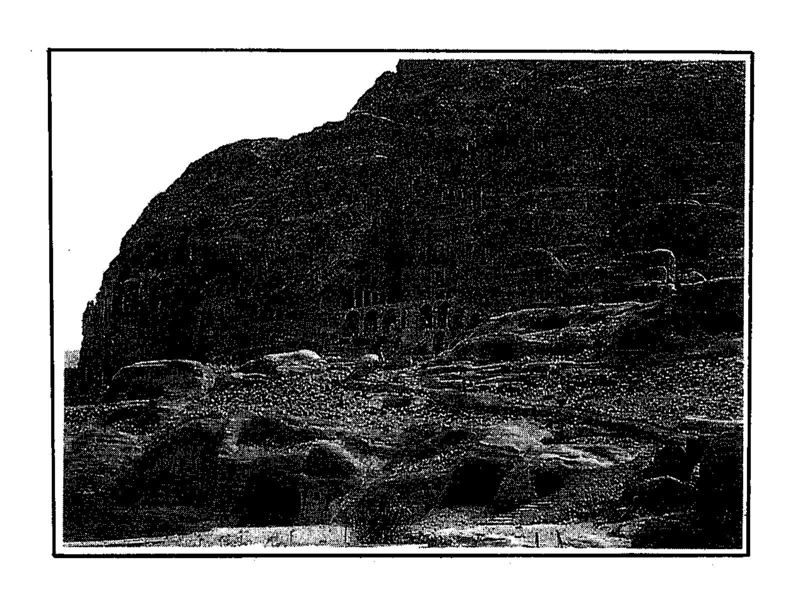
أما المدن الأثرية والأطلال القديمة فكان بوركهارت يبحث فيها عن الكتابات والنقوش الحثية، وعملياً يعد بوركهارت من أوائل الذين اكتشفوا مدينة البتراء من آثار وادي موسى بين البحر الميت وخليج العقبة، والبتراء هي «سلع القديمة» عاصمة الأنباط والمركز التجاري الهام في العهد الروماني، كانت صلة الوصل بين الشمال والجنوب. شاهد بوركهارت مدخلها بشكل مضيق جبلي يعرف «بالسيق» ومن آثارها: الخزنة والمدرج والقصر والقبور. «كشف المضيق الواقع بين الجبال القرمزية لينمي بوركهارت الأوروبي الثابت الجنان سره

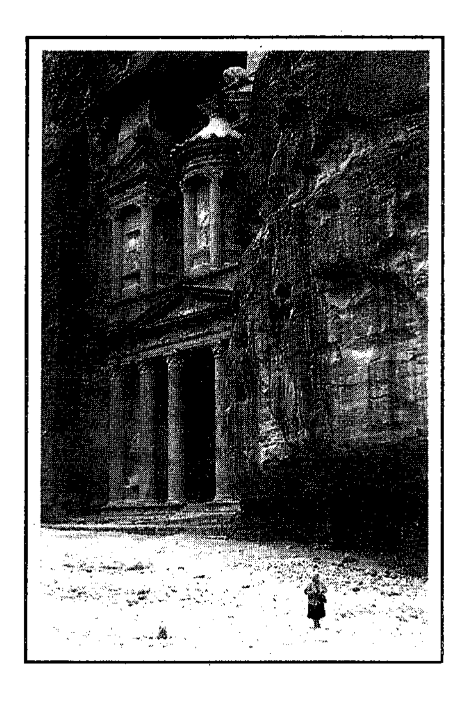
المكنون المدهش، فقد بدت بين جوانب المضيق الصخرية الموحشة، واجهة فخمة مشيدة على الطراز الروماني المزخرف اللطيف، واجهة قصر رائع النقوش، يقع بابه تحت مثلث قائم على أربعة أعمدة، ومتوج بثلاثة صروح ذات أعمدة، يبعث الحياة فيها عدد من التماثيل، يخالها المرء حديثة البناء لقلة ما لحق بها من خراب.... وكلما ازداد المضيق اتساعاً استطاع المرء أن يرى في السفح الصخري مسرحاً في شكل مدرجات. ولا تفتأ الصخور أن تتباعد لتخلي السبيل إلى مجرى ماء عجيب تجري فيه عين ماء. ويقوم في وسط الخرائب قصر ابنة الفرعون المزعوم»[1] ويقال إن قبر هارون أخي موسى يقع على الجبل المشرف على المدينة، والعرب من حوله يضحون الأضاحي ويذبحون النذور ويدعون الله عنده. أحضر بوركهارت معه عنزة وتذرع بها ليصل إلى أطلال المدينة، إذ قال لمرافقه بأنه قد نذر أن يذبح العنزة بيده عند قبر هارون ويدعو الله هناك.. حمل الدليل العنزة وحمل بوركهارت قربة ماء وهناك عند القبر كبر بوركهارت وذبح العنزة واستخدم أدوات الطبخ الخاصة بالقبر.. وترك صاحبه ينشغل بإتمام السلخ وطبخ اللحم، فأخذ هو يدون مواصفات المكان ويصف ما يشاهده من منظر أثري جميل، تأكد لبوركهارت والباحثين من بعده بأنها البتراء عاصمة الأنباط المعروفة في التاريخ القديم.

لم يكن الرحالة المنقب عن الآثار في الماضي، بنظر أهل المنطقة سوى ساحر أجنبي لديه خبرة سحرية عجيبة يكتشف بواسطتها الكنوز الأثرية القديمة، فما أن يبدأ بإجراء القياسات ورسم المشاهد؛ حتى يتوافد عليه الناس يطالبونه بالكنز المدفون.. وربما فقد حياته

---

(١) اكتشاف جزيرة العرب. جاكلين بيرين.





أقدم الأبنية والمساكن المنحوتة في الصخور في البتراء شمال الجزيرة العربية... كان بوركهارت من أوائل المكتشفين لهذه المدينة الهامة في التاريخ.

وهم يماحكونه. قال بوركهارت[1]: «يؤسفني أنني غير قادر على إعطاء وصف كامل لها، لأنني كنت أعرف جيداً سلوك الناس من حولي، كما أنني كنت دون حماية وسط برية لم أشاهد فيها أي رحالة. ولذلك فإن فحصاً دقيقاً لهذه الآثار الفنية التي أنجزها الكفار - كما يقولون - يبعث على الشك في كوني ساحراً يبحث عن الكنوز، ويصبح أقل ما يمكن أن ألاقيه أنني أتعرض للحجز، ويحال بيني وبين القيام برحلتي إلى مصر، وربما سلبت نقودي القليلة ودفتر مذكراتي اليومية الذي هو أثمن من المال بكثير. فربما تمكن الرحالة في المستقبل من زيارة هذه البقعة والتنقيب فيها تحت حماية قوة مسلحة!، أو عندما يصبح الأهالي معتادين على الأجانب وهم يمارسون التنقيب، حتى تحتل آثار وادي موسى المرتبة أو المكانة اللائقة بالبقايا الأثرية في الفن القديم» يبدو أن حكاية ذبح الأضحية على قبر سيدنا هارون لم تكن لتنطلي على الدليل البدوي المرافق لبوركهارت في البتراء قال: «دخلت في طريقي عدة مدافن مما أثار دهشة دليلي، ولكنه حينما رآني أنحرف عن الطريق لجهة القصر صرخ قائلاً: أرى الآن بوضوح أنك كافر لك هدف خاص بين الخرائب في مدينة أجدادك، ولكن ثق أننا لن نسمح لك بأخذ بارة واحدة من جميع الكنوز المخبوءة فيها لأنها موجودة في أرضنا وهي لنا وحدنا... فأجبته بأن الأمر لا يعدو كونه حب استطلاع للآثار القديمة، وأنه ليس لي أي هدف آخر من قدومي إلى هنا سوى رغبتي في تقديم الأضحية عند قبر هارون، ولكنه لم يقنع بسهولة ولم أر من الحكمة أن أثيره بالقيام بتفتيش دقيق في القصر، إذ ربما قاده ذلك ليعلن عند رجوعنا عن اعتقاده

---

(١) الجزء الثاني من رحلات بوركهارت ترجمة ونشر وزارة الثقافة والإعلام الأردنية.

بأنني وجدت كنوزاً، وهذا يقود لعملية تفتيشي، ومن ثم اكتشاف دفتر يومياتي واحتجازه على أساس أنه كتاب السحر»[1].

في فبراير من عام ١٨١٢ كان بوركهارت في طريقه إلى القاهرة قادماً من سوريا، وهو ينوي القيام برحلة إلى النيجر في غرب أفريقيا لاكتشاف منابع نهر من الأنهار الأفريقية لصالح الجمعية الجغرافية، فلما وصل القاهرة في أيلول أخذ يعد العدة للقيام بهذه الرحلة، فواجهته عدة تحديات منها: قلة التمويل المادي، وبطء المواصلات، فالقافلة المتجهة إلى غرب أفريقيا لن تنطلق قبل شهر حزيران؛ ولهذا قرر أن يقوم برحلات في جنوب مصر؛ فقطع أكثر من مئتي ميل جنوباً باتجاه أسوان.. كان بوركهارت في هذه الرحلة يرتدي: «قميصاً ورداء وقلنسوة وسروالاً، ويحتذي صندلاً، ويحمل دفترين وقلماً ومبراة وبوصلة وعلبة تبغ وولاعة وخمسين دولاراً وبعض الليرات الذهبية وبندقية ومسدساً ورمحاً» إنها رحلة شاقة قلما عاد منها رحالة وهو على قيد الحياة، ولكنه كان يحمل معه رسالة توصية إلى محمد علي باشا تعرّفه بالشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي.

وجد بوركهارت في مصر أن الطرق قد انسدت بوجهه نحو أفريقيا؛ فقرر أن يتوجه إلى الحجاز؛ فعبر صحراء مصر مقتفياً خطوات الرحالة بروس (Bruce) إلى بربر وشندى وسواكن في تموز عام ١٨١٤م، فأبحر منها إلى جدة يرافقه عبده الخاص، فدامت الرحلة أسبوعين، وما إن وصل جده حتى أصابته الحمى وكاد أن يموت، وقلت نقوده، فاضطر لبيع العبد، كما تأخرت عليه الدفعات النقدية من بريطانيا فأصبح في حالة يرثى لها.

---

(١) الجزء الثاني من رحلات بوركهارت المرجع السابق نفسه.

سمع بوركهارت بوصول محمد علي باشا إلى الطائف متفقداً جيشه الذي يغزو الجزيرة العربية فانطلق إليه بواسطة دكتور خاص بمحمد علي أرمني الأصل.. وهناك رحب به محمد علي وتبادل معه شؤون الساعة، وأبدى له الباشا تخوفه من وقوف بريطانيا بوجهه بعد اندحار نابليون.

توسل بوركهارت سيادة الباشا بالسماح له بالحج إلى مكة فسمح له بذلك، فوصل مكة في ١٨ أيلول عام ١٨١٤م، وهناك دوّن ملاحظاته عن الحجاز في ما يقارب ٣٥٠ صفحة كانت كافية ووافية. وبعدها قرر العودة إلى القاهرة ماراً بينبع فوصلها وهو في أشد حالات المرض والإنهاك. في القاهرة استعاد شيئاً من صحته، فعكف على كتابة مذكراته، وأرسل بها إلى الجمعية الجغرافية في بريطانيا، فكانت مرجعاً صادقاً لكثير من الباحثين والرحالة عن بلاد الشرق.

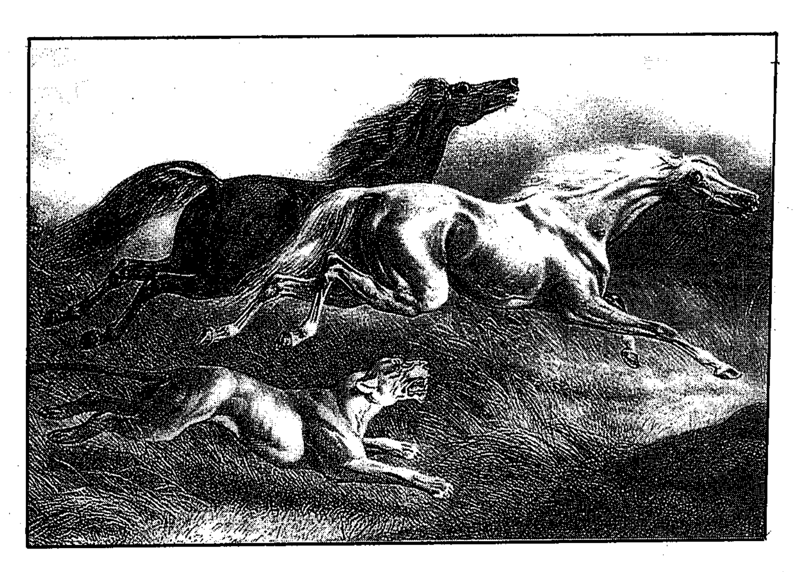
أما عن النهاية بالنسبة لهذا العالم الرحالة فأستطيع تلخيصها للقراء على الشكل التالي:

ظهر الطاعون في القاهرة، ففر بوركهارت منها إلى السويس وسيناء، ولما زال الوباء عام ١٨١٦م عاد إلى القاهرة وهو يعد العدة للسفر إلى النيجر، ولكن مرض الزحار كان له بالمرصاد فضعف فمات في ١٥ أكتوبر عام ١٨١٧م في القاهرة، ودفن في مقبرة إسلامية، في مراسم دفن إسلامية بوصفه الحاج إبراهيم بن عبدالله الشامي وعمره لم يتجاوز ٣٣ عاماً، وكتبت على قبره العبارة التالية:

«هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ الحاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بوركهارت اللوزاني ، تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٩

من الهجرة ، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ الموافق ١٨١٧م» .

وهكذا أسدل الستار على حياة بوركهارت العالم والرحالة، وهو بحق لم يكن مجرد رحالة عادي، بل هو رائد من الطراز الأول كان جريئاً حذراً شديد الملاحظة. احترم تقاليد البلدان التي تجول فيها وأحب زملاءه وأصدقاءه، وكان محباً للعمل والعلم، ولهذا أوصى بمجموعته الفنية من المخطوطات العربية التي جمعها من خلال الرحلة إلى جامعة كمبردج التي تعلم فيها اللغة العربية، مع رسالة تفيض بحب العرب وتقاليدهم، ويبدو أنه أعجب ببلادنا فاتخذها موطناً، وتشرب بعادات أهلها وطباعهم، ولهذا أوصى أن تكون مصر مثواه الأخير.



في مذكرات بوركهارت فصل خاص عن الخيول العربية في سوريا وفي الجزيرة العربية... واللوحة «شاربات الريح» عن مذكرات بعض الرحالة.

لاسكاريس . . وفتح الله الصايغ

يصعب على أي باحث في تراث الرحالة أن يذكر الرحالة الفرنسي «لاسكاريس دوفانتيميل» ويتخطى رفيقه في الرحلة فتح الله الحلبي، فكلاهما كتب مذكرات عن الرحلة وتداخلت الأحداث، حتى إننا في بعض الأحيان لم نعد نفرق بين ما قاله لاسكاريس وما قاله فتح الله.

لاسكاريس الفرنسي :

كان الرحالة لاسكاريس معروفاً في ميدان أدب الرحلات رغم أن مهماته كانت ذات طابع سياسي عسكري. فهو من الرحالة الفرنسيين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية عام ١٨١٨م، ورجل المهمات الخاصة ذات الطابع السياسي العسكري البحت، ورسائله ومذكراته موجودة في أرشيف وزارتي الخارجية في كل من فرنسا وبريطانيا، لم تنشر. إلا أن الأديب الفرنسي «سوبلان» صاغ منها رواية سماها «لاسكاريس العرب» نشرت عام ١٩٨٣، كما قام فتح الله الصايغ الحلبي بنشر مذكرات عن الرحلة. ومن الواضح بأن الوثائق المخطوطة والرواية والمذكرات المنشورة فيها شيء من الصحة، وإن أفسدت متعة قراءتها المبالغات، فالأماكن التي دارت فيها أحداث الرحلة معروفة، والقبائل والمدن التي ذكرت فيها معروفة. وقد اخترت هذا الرحالة وصاحبه ليكونا نموذجاً للرحالة الذين بالغوا وضخموا الأحداث وجعلوا أنفسهم في موضع الرجل السوبرمان الذي لا يقهر. كان الهدف من الرحلة في منتهى الوضوح، إذ جاب هذا الرجل وصاحبه مدن وبوادي بلاد الشام والجزيرة العربية حتى وصلا إلى الجزيرة العربية ما بين عامي ١٨١٠ - ١٨١٥م ليمهدا الطريق

لوصول حملة عسكرية فرنسية خطط لها جنرالات الجش الفرنسي بعد عودتهم من حملة نابليون إلى مصر، وتهدف الحملة احتلال شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام وقطع طريق الإمداد عن الجيش الإنكليزي المرابط في الهند.

وقد اختار الأديب الفرنسي «جان سويلان» للرواية عنواناً مثيراً على غرار عنوان فيلم لورنس العرب، وجعل بطل هذه القصة أو الرواية رجلاً فرنسياً ولد في «نيس» عام ١٧٦٧م هو «جول لاسكاريس دوفانتيميل» وقد ادعى هذا الرجل أن قنصل فرنسا في الإسكندرية كان قد أخبره بوجود تكتل من الساسة والضباط الفرنسيين الذين عادوا إلى فرنسا من حملة نابليون إلى مصر، يريدون إقناع الامبراطور الفرنسي بالعودة إلى الشرق، وهذه المرة إلى بلاد الشام وشمال جزيرة العرب. ولم يكن همٌّ هؤلاء سوى العودة إلى جمع المال والثراء العاجل واقتناء التحف الشرقية، فكثيراً ما كانت الحروب تفرز أثرياء. كما يدعي هذا الرجل أنهم منوه بالمال والمناصب القيادية فيما لو قبل التعامل معهم، وقام باستطلاع الطرق البرية في بوادي العرب، وتحديد مواقع الآبار ومصادر المياه، والتعرف على شيوخ القبائل العربية، ودفعهم للثورة على العثمانيين.

قال له القنصل «دورفيتي» يجب عليك إذا ما قبلت العرض أن تقوم بمهمة صعبة.. تتوجه فيها فوراً إلى الصحراء العربية، وحدد له المطلوب بدقة متناهية.

قَبِلَ لاسكاريس المهمة عام ١٨١٠م فانطلق من السواحل السورية إلى مدينة حلب حيث تعرف على شاب ماروني حلبي اسمه فتح الله الصايغ، وأخذ يتردد معه على القنصلية الفرنسية في حلب، وينكب

على تعلم اللغة العربية، ودرس أساليب التعامل مع العرب، وعادات البدو، فقرر أن يبدأ الترحال برفقة فتح الله، متنكراً بزي الفقراء الذين يركبون الحمير، ويبيعون الحاجيات الأساسية في مضارب البدو، ومثل هؤلاء يسميه البدو «بالحوّاج» أي بائع الحاجات الأساسية للإنسان: العطر والكحل والمشط والحلوى للأطفال، وما شابه ذلك. إنه اختيار مهني موفق، فالحواج رجل فقير لا يلتفت إليه أحد، وإذا ما حل ضيفاً في مضارب البدو يكرم من باب الضيافة، والمهنة بالأساس من وجهة نظر قبلية محط عيب واحتقار. حمل لاسكاريس الأمتعة والبضاعة مع صاحبه على حمارين تباريا وعلى ظهريهما فتح الله ولاسكاريس فتجولا طويلاً - كما قيل - في ديار:

١ - بدو الحسنة من عنزة، وشيخهم كان مهنا الفاضل وولده الشيخ ناصر.

٢ - بدو الفدعان من عنزة بقيادة آل كعيشيش.

٣ - العمارات من عنزة بقيادة آل الهذال.

٤ - ولد علي من عنزة وشيخهم ابن سمير.

وتعرفا على قبائل وديار أخرى ذكرت في مذكرات الرحلة.

انطلق الرجلان إلى مدينة حماة وهما يبحثان عن بدو الحسنة ما بين تدمر ومدينة حماة، فذكر لهم الشيخ مهنا الفاضل وولده ناصر في حماد بادية الشام، ولما وصلا المضارب استضافهما الشيخ، وبقيا طويلاً مع الحسنة، غير أن ابن الشيخ شك بتصرفات لاسكاريس فداهم الخيمة، وعثر على كتب بالفرنسية، وبوصلة وخرائط ودفاتر للكتابة، فكاد أن يفتك بهما؛ لأن ناصر بن مهنا كان من أنصار

العثمانيين. وللخروج من المأزق، زعم لاسكاريس قصة هروب ناجحة من مضارب الحسنة إلى مضارب ولد علي شرقي دمشق، ودخلا في حماية الشيخ دوخي بن سمير.

ولا أدري كيف تحول لاسكاريس وصاحبه الحواجان إلى أصدقاء للشيخ ابن سمير؟! يقول لاسكاريس: إن العلاقة تطورت بينه وبين ابن سمير. فأخذ يشاركه في رحلات القنص والصيد، ويتخذ معه القرارات الهامة التي كانت تخص القبيلة، وفجأة يتحول لاسكاريس من ولد علي إلى الرولة من عنزة في وادي السرحان، فكانت الصحبة المزعومة والحفاوة البالغة، فالدريعي ابن شعلان شيخ القبيلة يحتفل بهما، ويصبحا من المستشارين الحربيين عنده، خصوصاً عندما كان في حالة حرب مع بدو الحسنة والظفير جنوب حماد بادية الشام.

جاء في رواية سوبلان نقلاً عن المذكرات:

«كان الدريعي ابن شعلان قصيراً صارماً أسمر اللون وطموحاً يهز بطموحاته كل سورية.. في الخامسة والأربعين من عمره.. تنفرج شفتاه عن أسنان بيض تامة تعلو ذقناً قصيراً في وجه يهابه كل من ينظر إليه، وقد نقلت إليَّ بعض النوادر عن مصير الأسرى بين يديه، وعلى الأخص الجنود الذين يأسرهم من الأتراك، فتساءلت هل يمكن أن تكون مثل هذه الأيدي الناعمة التي يملكها تستخدم السيف بمثل هذه الشدة؟! لقد وجدت هذا الرجل يجمع بين القوة واللطافة، فطمعت فيه أن يحقق لي أغراض رحلتي كاملة.. إنني بحاجة إلى ذكائه وقسوته، فهل هو بحاجة إلى مثلي؟!. وكيف أعرض نفسي على هذا الرجل الذي يقود قومه من نصر إلى نصر؟!.

رحب بنا الدريعي ابن شعلان، خصوصاً وأن سمعتي كقائد استراتيجي قد سبقتني بالوصول إلى الرولة، فأنا بالنسبة لهم أعرف المواقع التركية، وأعرف أشياء كثيرة عن القبائل التي تعادي الرولة. وما زلت أتذكر تلك الأمسية التي عرفت فيها قبيلة الرولة قوتي وقدرتي على القيادة، وكنت أتمنى أن أُقدَّرَ لقيمتي الاجتماعية لا من كوني رجل حرب! ها أنذا فوق سنام الجمل منذ ست وثلاثين ساعة، إذ كادت عظامي أن تتكسر، وأن تلتوي ساقاي وتلتهب حنجرتي.. ولكن متى ستحتدم المعركة؟! لقد حدد الأمير ساعة الصفر، وحدد لنا المكان الذي نتدرب فيه على القتال والقبيلة التي سوف نحاربها، كان ذلك للقيادة، أما العامة فلا يعرفون سوى مكان التجمع، أما إلى أين وضد من ومتى؟! لا أحد يعرف.

وفي الطرف الآخر كنا نسمع حداء الأعداء الحسنة، فنحن نقدر فيهم القوة والشجاعة والمقاومة العنيدة، فالتفت إليَّ فتح الله وقال: علينا أن نتعلم فنون الحرب والطريق المؤدية إلى النصر، فيها وحدها نكسب ثقة الأمير، فتركني ليلتحق بأركان حرب ابن شعلان وليراقب الموقف بمنظاره المقرب.. فكان النصر في المعركة والسعادة المطلقة التي تشوبها الرحمة تجاه المغلوبين والأسرى والقتلى والجرحى وكل الذين دفنوا على عجل.

عام ١٨١١م انتصر ابن شعلان على الظفير بعد أن اتبع نصائحي وإرشاداتي، إذ ناور الفرسان وفقاً للخطة المرسومة.. لقد رسمتها له بنفسي، ولذلك فزت بتقدير الأمير وصداقته فأصبح يريدني دوماً إلى جانبه، ونلت احترام القادة بجدارة.

لم تؤثر فينا بنادق فرسان الظفير الذين كانوا يختبئون خلف أكوام الحجارة، فدفاعاتهم قد ضعفت بعد أن رأونا نهاجمهم دون توقف، فتراجعوا بانتظام، لكننا سلبناهم أربعمائة بعير، وتركناهم يحملون أخبار هزيمتهم إلى الأمير رزق الظفيري.

أما فتح الله هذا الشاب المحارب فعليه أن يتعلم الدبلوماسية، مثلما يتعلم استعمال السلاح لقد رأيته يتحمل المسؤولية بشجاعة، وهكذا ظهر بائع الفستق بضفائره السود الطويلة وعينيه المتوحشتين ورمحه الطويل.. إني سمعته يصرخ بأعلى صوته: إليَّ يا فرسان الرولة، ولم أتمكن من أن أميزه بينهم بسهولة».

سافر لاسكاريس إلى الدرعية لزيارة ابن سعود، ولكنه يقول إن مهمته قد قطعت بأمر من القنصل الفرنسي دورفيتي في الإسكندرية، لأن نابليون قد شغل بحملته إلى روسيا، ومشاكله هناك قد جمدت كل نشاطات الفرنسيين السرية والعلنية في بلاد الشرق، وحتى ضد تركيا، ولهذا عاد لاسكاريس إلى دمشق ليبحث عمن يكلفه بمهمة مماثلة، وهناك تعرف على الرحالة بوركهارت الذي وصفه بأنه من جواسيس الإنكليز في المنطقة. كانت تلك مقتطفات مما ورد في وثائق لاسكاريس فهل كل ما قاله أو نسب إليه صحيح؟!.

أعود إلى جان سوبلان مدبج قصة لاسكاريس، فأجده في المقدمة يقول: «النص يشي بتفاهة مغامرين غير جديرين بالاحترام يدعيان القيام بأدوار عجيبة لدى جماعات مجهولة» فما من شك أن المذكرات قد حشيت بادعاءات كاذبة، وأحداث خيالية. لقد تقمص لاسكاريس شخصية البطل صاحب القدرات الخارقة، فهو الذي قاد جموع الرولة

وحقق بهم النصر على أعدائهم، وتقاسم مع شيوخ ولد علي ومع شيوخ الرولة شرف الانتصارات، وتحول مرافقه الماروني الحلبي إلى مارد في الحروب، وهو الادعاء ذاته الذي نسبه لورنس الإنكليزي لنفسه، ولكننا نختلف مع مواطنه حول سوبلان بشأن الجماعات التي يراها مجهولة في المذكرات، إذ لم تكن مجهولة فهي قبائل عربية معروفة وديارها معروفة. ومن منطلق خبرتي بأعراف البادية أرى:

أولاً - إن أعراف البادية، وتقاليد القبائل العربية في القرن التاسع عشر ترى أن المهنة التي امتهنها لاسكاريس وتنكر بها «شخصية الحواج» هي عيب وكيف يمكن لشيخ مثل ابن سمير أو الدريعي ابن شعلان أن يقبل أن يكون شخصاً ضعيفاً مثل لاسكاريس القائد المحارب في جماعته، علماً أن منصب عقيد الحرب في فرسان البدو لا يتقلده إلا بدوي ابن بدوي، ومن رؤوس القبيلة. والبدو كانوا يتكتمون بأسرارهم الحربية حتى بالنسبة لأفراد القبيلة من غير القادة، وقد أكدت ذلك الرحالة الليدي آن بلنت قالت: «شهدت مجلس حرب ضم السبعة والفدعان من عنزة.. فترأس الاجتماع جدعان ابن مهيد في جنوب تدمر في نيسان عام ١٨٧٨م، ولم يحضره الغرباء، ولا نعرف ماذا دار فيه، نظراً لسريته وأهميته».

ثانياً - ورد على لسان لاسكاريس أنه كان يشاهد منابع القار التي كانت تطفو على السطح قرب مخيم الرولة بين دير الزور والموصل، علماً أن منابع القار المذكورة تقع إلى الجنوب الشرقي من تلك المنطقة في ضواحي مدينة هيت على الفرات على بُعد خمسمائة كيلومتر عن المنطقة المذكورة، وهذا يعني

أن لاسكاريس لم يصل إلى ذلك المكان قطعاً، بل دوّن قصته من أفواه المسافرين والركبان ونسبها لنفسه.

أما الجوانب المحتملة في المذكرات وفي الرواية المدبجة فكثيرة، ولكنها تختلط وتتناثر بين الوقائع الخيالية منها:

أولاً - خبر وصول لاسكاريس إلى الدرعية أكدته مصادر تاريخ الجزيرة العربية التي نشرتها جامعة الرياض.

ثانياً - ورد في المذكرات ذكر مهنا الفاضل شيخ الحسنة، ومهنا الفاضل يذكره الأمير حيدر الشهابي في تاريخه بحدود عام ١٨١٠م، إذ كان هو وولده ناصر من أتباع الأتراك في البادية العربية حتى إنهما شاركا الباشا التركي سليمان السلحدار في هجومه على عرب الفدعان في البادية، كما أن الشيخ دوخي ابن سمير الذي ورد ذكره في آثار لاسكاريس هو من شيوخ قبيلة ولد علي من عنزة، وكان يتمتع بنفوذ واسع في المنطقة المحيطة بدمشق، وكان ملتزماً بحماية قوافل الحجاج المسلمين من دمشق حتى مشارف مدينة معان. كما وردت أخبار الرجلين في روايات الأديب الفرنسي لامارتين في أدبياته عن الشرق، وسوف تتضح صورة هذه الرحلة المثيرة في الأذهان عندما نتعرض في الفقرة التالية لمذكرات فتح الله الصايغ الحلبي وأخبار المرأة الرحالة ستانهوب.

فتح الله الصايغ الحلبي :

كتب كثير من الرحالة الغربيين مذكراتهم عن بلاد الشرق، أما أن يكتب أخبار الرحلة أحد مرافقيهم العرب، فهذا هو غير المألوف في

هذا المجال. لقد ضاعت الفرصة على محمد العبدالله العروج من بني لام. عندما حالت قدرته على كتابة المذكرات دون تدوين أخبار رحلة الليدي آن بلنت في الجزيرة العربية وبادية الشام، فهو الذي تآخى معها وصحبها في رحلتها الجنوبية وقسم من الرحلة الشمالية ما بين ١٨٧٨ - ١٨٧٩م.

لقد اشتهر فتح الله الصايغ الحلبي كمرافق للرحالة في مطلع القرن التاسع عشر، إذ بدأ حياته كتاجر بسيط سوري الجنسية ماروني الأصل مسيحي الديانة ولد حوالي عام ١٧٩٠م في مدينة حلب التجارية التي كانت تمر بها القوافل التي تصل من جنوب الأناضول، وتأتي إليها القوافل التجارية من الشرق والجنوب، وعلى الرغم من ثقافته القليلة كان طموحاً عندما ساق الله إليه رجلاً بيزنطياً عريقاً يدعي أنه جاء إلى حلب من أجل التجارة وهو يرتدي الملابس العربية ويأكل في الأسواق. طلب إليه لاسكاريس أن يعلمه مبادئ اللغة العربية، فعلمه إياها خلال ستة أشهر، فتوسط له لاسكاريس أن يصبح خادماً ثم ترجماناً في القنصلية الفرنسية في حلب، ولهذا تحولت العلاقة بين الرجلين إلى علاقة تبادل المصلحة، ولما طالت الصحبة صارحه لاسكاريس بما يريد منه، ولكن فتح الله ادعى أنه لم يكن يعرف غرض لاسكاريس من الرحلة حتى وصلا إلى البادية وارتحلا ما بين عام ١٨١٠ - ١٨١٤م في بادية الشام والجزيرة العربية وبلاد العجم.

كان فتح الله هو الكاتب الأول لمذكرات الرحلة، بينما كان لاسكاريس يدون الملخصات التي يملي تفاصيلها على فتح فيما بعد (هكذا قال فتح الله؟!). غادرا حلب يوم الخميس في ١٨ فبراير عام ١٨١٠م، فمرا بمعرة النعمان ثم بمدينة حماة، وفي حماة كانت

حساسية الناس للأجانب زائدة فوشي بهما، واستدعاهما الحاكم سليم العظم، إذ كان يشتبه أنهما من الجواسيس الأجانب على الدولة العثمانية، ولا أدري كيف تخلص فتح الله ولا سكاريس من السجن؟! إلا أن فتح الله برر ذلك برشوة قدمت للحاكم، وتحولا بعدها إلى مدينة حمص حيث أمضيا فيها فصل الشتاء، وبانقضائه وسطوع شمس الربيع انطلق الرجلان يحملان البضاعة على ظهور الحمير ولكن فتح الله لاحظ أن لاسكاريس لم يبع حاجة واحدة مما يحمل، ولم يكن همه البيع، وكأنه يكتشف هدفه السياسي لأول مرة، ولكن سياق العلاقة بينهما يفيد بأنه على علم بكل شيء منذ البداية، وأبرم صفقة مشبوهة معه لا مجال «لفبركتها» فكيف يعقل أن يرافق تاجر عربي رجلاً أوروبياً عدة سنوات في البوادي والقفار بعيداً عن الأهل ويقبل بشروطه ويطيعه بكل صغيرة وكبيرة ويدون له الأحداث وهو لا يعلم من أمر هذا الرجل حتى وصلا البادية؟!.

تسمى لاسكاريس باسم الشيخ إبراهيم، بينما فتح الله تسمى بعبدالله الخطيب، ولم يعد ينادي أحدهما صاحبه إلا باسمه الجديد.

كنا من قبل قلنا إن الحسنة في بوادي حمص وحماة كانوا الهدف الأول، ولكن عندما علما بأن الشيخ مهنا الفاضل وولده ناصر من أتباع العثمانيين، أيقنا أن مهنا الفاضل الملقب بالملحم ليس مؤهلاً أن يباح له بهدف الرحلة، ولهذا تحولا إلى مضارب بدو الرولة بقيادة الشيخ دريعي ابن شعلان، وفي مضارب الرولة صرح لاسكاريس 'فتح الله - كما يدعي - بكامل التفاصيل، إنه جاء لاستطلاع أحوال البدو، والتعرف على شيوخهم وكسب صداقاتهم والسعي لتوحيد كلمتهم ضد العثمانيين، والعمل على رسم المخططات للمدن وطرق البادية وأماكن تواجد الآبار والتمهيد لوصول الجيش الفرنسي إلى

المنطقة. ويبدو أن الدريعي ابن شعلان هو الرجل الذي ظن فيه لاسكاريس كل ما يريد ويدعي، فوثق الشيخ الدريعي بالشيخ إبراهيم، وبعبدالله الخطيب، فعبدالله لكتابة الرسائل وربط الصداقة وتأليف القلوب، والشيخ إبراهيم للتشاور؛ ونتيجة لمساعي الرجلين ودهائهما تم جمع شيوخ القبائل حول ابن شعلان، فوقعوا على وثيقة عهد في نوفمبر عام ١٨١١م.

وضع فتح الله في مذكراته قائمة بأسماء القبائل التي وقعت على وثيقة العهد المزعومة، وبجانبها تعداد للرجال الذين يتبعون تلك القبائل، فبلغ مليوناً ونيف من قبائل: الحسنة، وولد علي، والسرحان والسردية، وبني صخر، والرولة والسوالمة، وحرب والعلماء، والولدة والمنتفق، والأشجع، والجملان، والفواعرة، والفدعان، والسلقا والمساعيد والسبعة وبني وهب والظفير، وطيء والهيازع والنعيم.. إلخ.. ويطول بنا الحديث عندما نتتبع كل التحركات والأعمال والمشاهدات التي يدعي فتح الله وصاحبه القيام بها، فقد وصفا معارك الدريعي مع أعدائه من القبائل الأخرى، وتقاليد البدو في الحرب والنخوة والعطفة والقتال فوق ظهور الإبل، ومحاربة الغزو الوهابي قرب حماة عام ١٨١٣م.

وإذا صدق لاسكاريس فهذا يعني أن كل القبائل العربية شمال الجزيرة العربية، وفي العراق حتى حدود العجم، وفي بادية الشام كلها كانت قد جمعت تحت راية الدريعي ابن شعلان؟!.

قال فتح الله: «إن الدريعي جاءته رسالة من عبدالله بن سعود يطلب حضوره للدرعية للتشاور، فتم تلبية الدعوة، فضم الوفد فتح

الله والدريعي وكبار الرولة، ولم يذكر أن لاسكاريس كان مع الوفد مع أن المصادر تذكر وصول لاسكاريس إلى الدرعية.. ويتابع الصايغ وصف قدومهم إلى الدرعية، وضيافتهم لابن سعود الذي تجهم في وجوههم بادئ الأمر ثم سويت الأمور بالصلح مع الدريعي. وقد تناولت مذكرات فتح الله بالنقد مجلة العرب السعودية، وصححت كثيراً من الأخبار المزعومة فيها. وقبل نقدنا لمذكرات فتح الله نورد بعض المقتطفات والمواقف الواردة في صفحاتها:

أولاً – الحرب مع الوهابيين: «في اليوم التالي وصل خبر غزو الوهابيين الذي أغار على ولد علي وغنم أموالهم.. والعربان خائفة جداً منه، وبعضهم قرر أن يؤدي لهم الزكاة.. فأعلمت الشيخ إبراهيم بهذا الخبر، فاغتم جداً، وقال: الرأي عندي أن يكون الدريعي ضد هذا الغازي وقال: اعلم أنه إذا لم يرتد هذا الغزو فسوف تكون الديرة لهم ونكون نحن عبيداً عندهم».

ثانياً – فارس الجربا والدريعي: «قال فارس الجربا للدريعي: أريد منك أن تجمعني مع عبدالله الخطيب الذي عندك.. قال نعم وبالحال أتى العبد وصاح علينا، وكنا في خيمتنا الصغيرة مكبين على الكتابة، فحضرت وسلمت عليه، ورحبت به» وتمخضت زيارة فارس للدريعي عن توقيع وثيقة عهد «على عهد الله وأمان الله ورأي الله ورأي محمد وعلي والخائن يخون به الله».

ثالثاً – من قصص البادية: قصة طعيسان، وقصة رجل معروف في البادية كان قد غدر بمن أحسن إليه وضمه إلى عياله (قصة غليص المعروفة في البادية).

إن هذه القصة قد مثلت بشكل مسلسل تلفزيوني، وهي قصة

قديمة معروفة في البادية.. أوردها فتح بطريقة تسيء لبعض القبائل وهي من القصص البدوي القديم سمعها فتح الله تروى في البادية وزين بها صفحات مذكراته على أنها من القصص التي حدثت أيام رحلته.

قطعت رحلة فتح الله ولاسكاريس، بعد أن تورطت القوات الفرنسية في روسيا، فعاد لاسكاريس إلى القاهرة طالباً حماية البريطانيين له، فمات هناك، وتقول بعض الروايات: إنه مات مسموماً، ولما علم فتح الله الصايغ بوفاة صاحبه ومعلمه ذهب إلى القاهرة ليطالب بمذكراته وأدواته، فطرده الإنكليز وأهانوه. ونترك المجال لفتح الله ليروي قصة الأيام الأخيرة في حياة لاسكاريس: «ودعنا بعضنا فذهب إلى دمياط، ووصلت إلى اللاذقية. وفي اليوم الثاني من وصولنا أول عمل قمت به أني حلقت لحيتي التي كان لها عمر سبع سنوات.. وجلست أستمتع بمشاهدة الأصدقاء، إلى أن مضت الأشهر الثلاثة الموعودة، ونويت السفر، وكنت أترقب فرصة الذهاب إلى مصر، وإذ بمركب فرنساوي يحضر؛ من الإسكندرية ويخبرنا بوفاة المرحوم لاسكاريس بمصر بسبب مرض الزحار، فحين بلغني الخبر المشؤوم لا يتصور أحد حالتي مما أصابني من الغم والحزن والكدر؛ لأني كنت أحبه جداً، وأصبح عندي مثل والدي. وقد تأكدت أن سياحتنا خلال سبع سنوات وتعبنا ذهب سدى من غير ثمرة، وتيقنت أن أجرتي مدة سبع سنوات عن كل سنة ألف قرش بموجب الشروط التي بيننا ما عدت أستفيد منها بمصرية واحدة؛ فجلست باللاذقية حزيناً مكسوراً. ثم بعد مدة أرسل الخواجه دورفيتي بمكتوب يطلب حضوري عنده لتدبر مادة المرحوم لاسكاريس ففرحت نوعاً ما،

وبالحال توجهت إلى القاهرة فما وجدته.. وجدته بالصيد في بلد يقال له أسيوط، وهناك أخبرني أن قنصل الإنكليز المستر (سالت) أخذ جميع ما كان مع لاسكاريس وحجز عليه من أدوات هندسية وكتب وأوراق، وقطع عاديات وكل ما وجد معه، والسبب هو موته تحت حماية الإنكليز وقال: لتذهب إلى القنصل وتطلب منه كُتب معلمك لاسكاريس وأوراقه، وتترجاه لكي يعدّ لك طريقة لتحصل على نتاج علوفتك (أجرتك) والمهم أنك تحصل على كتاب سيرة سياحتكم المأخوذة بخطه في اليوميات المكتوبة بالفرنسية وأنا أشتريه منك بالمبلغ الذي تريده.. كن شجاعاً ولا تخف..

ذهبت إلى القنصل وطلبت جميع ما ذكرنا فعبس وجهه، وقال: أنا أعرف من علمك وأرسلك عندي لتطلب ذلك، فجميع ما تطلبه لن تستعيد منه شيئاً، لأن الرجل مات تحت حماية الإنكليز، فهو من رعايانا، وليس له وارث، وبموجب أمر الدولة حجزت على موجوداته. رجعت وأخبرت الخواجه دورفيتي فقال: كذب لم يرسل بشيء، وحفظ الجميع عنده، فعدت ثانية وطلبتها بجرأة فاغتاظ وطردني من بيته بكل حماقة، وأرسل إلى رجل محمد علي باشا لينفيني من البلد، ويتخلص مني بالكلية، ولولا جاه دروفيتي ومحبة الباشا له لحصل لي كسر خاطر وأذية.. سافرت من القاهرة إلى اللاذقية خالياً من كل شيء، وخسرت مصاريف السفر إلى مصر، وراح الشقاء والتعب باطلاً.. وهكذا كان منتهى سياحتنا سيئاً جداً: مات المعلم، وذهب تعب التلميذ سدى، وكذلك أجرته ورجع لأمه كما خرج من عندها والسلام».

اشتهرت رحلة فتح الله الصايغ مع لاسكاريس، وتذكرني شهرتها بشهرة حلاق دمشقي كان يقص شعر الباشوات الترك، ومولعاً

بتدوين الأخبار في دفتر يومي بلهجة عامية دمشقية، وبعد وفاته بسنوات طويلة اكتشف الدفتر وطبعت مذكراته فيه، فكانت وثيقة حية صادقة دونت أخبار حقبة من حياة أهل الشام في دمشق.. كان البديري صادقاً، أما الحواج الحلبي فمذكراته مشوقة ولكنها ملئت بالمبالغات التي أذهبت كل الإيجابيات إذ اختلط الصدق بالكذب، لكن الأدب الأوروبي قد اهتم بها ورفع من شأنها وأكسبها أهمية لا تستحقها، فقد ذكرتها الليدي بلنت في أخبار رحلتها «بدو الفرات» وترجمها إلى الفرنسية الأديب الفرنسي لامارتين، وضمنها كتابه الأدبي الشهير «رحلة إلى الشرق» الذي طبع عام ١٨٩٥م، ويُروى أن لامارتين اشترى المذكرات من فتح الله، وبسببها علت مرتبته عام ١٨٤٧م من بين موظفي القنصلية الفرنسية بحلب، إذ كان طوال حياته محسوباً على الفرنسيين. أما على الساحة الثقافية العربية فقد حقق المذكرات وطبعها الدكتور يوسف شلحد عام ١٩٩١م الباحث في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي في باريس. ودافع عنها بحرارة وكأنها حقيقة واقعة على الرغم من اعترافه بأنها مليئة بالمبالغات. ونشكر الدكتور على جهده في نشر المذكرات وفي ختامها تعليق الشيخ الحنبلي السعودي من الدرعية. قال: «نظر فيها الفقير إلى مولاه العلي أحمد بن يوسف الحنبلي، فوجد صاحبها لم يصدق في شيء مما أخبر عنه، لا في وصف سعود ولا كلامه ولا أفعاله... ولا صدق من جهة وصف الدرعية ولا عادات جماعات سعود وعزائمهم.. لا نعرف أن سعوداً غزا الدريعي فعليه إن كان بعض العرب من أتباع الوهابي غزا على الدريعي ربما، وأما سعود فغزا ستاً وخمسين غزوة صغيرة وكبيرة، لا يعرف أنه غلب وهزم في واحدة.. ما كسرت جيوش الوهابي عند حماة، والدريعي من أتباع الوهابي أيام هذه الحكاية، ولكن الرجل لا يدري ما يقول».

لقد شكك أكثر من باحث عربي وأجنبي في صحة نتائج رحلة فتح الله الصايغ، ونسبوها إلى الخيال، وعلى الرغم من كثرة أخطائها التاريخية والمبالغات، إلا أنها تصف أسماء شخصيات وديار عربية معروفة، ولهذا يقف الناقد حائراً متردداً، وخصوصاً عندما لا يجد أية وثيقة تاريخية تؤيد إدعاءات لاسكاريس وصاحبه، بأنه كان موفداً إلى الشرق ليكسب صداقة أمراء البادية، وأنه تلقى الدعم من القنصلية الفرنسية في حلب والإسكندرية.

وقد انتقد ولفرد بلنت الرحالة بالجريف واتهمه بأن هناك صفحات ناقصة في مذكرات رحلته كان قد حشاهن بقصص ومشاهدات جاءت من بنات أفكاره. وهذا القول أصدقه في حالة لاسكاريس وفتح الله، غير أن رحلة الرجلين قد حدثت، وكانت لها أهداف، وفيها أخبار طريفة لكنها ملئت بالمبالغات والادعاءات المشينة.



الصيد بواسطة الصقور رياضة ممتعة في الجزيرة العربية.. شارك العرب في رحلاتها أكثر من رحالة. والصورة عن كتاب:

Travellers in Arabia. By Robin Bidwell.

الرحالة الفرسان

ورحلة البحث عن الخيول العربية

«كانت الأرض العربية في نظر الأوروبيين مهداً لأقدم جنس بشري.. ومهداً لأكمل وأجمل سلالات الخيول على سطح الأرض.. إنها مشهورة بخيلها مثلما اشتهرت ببنيها قبل أن يبدأ عصر البترول، وقبل أن يهتم العالم بديار العرب».

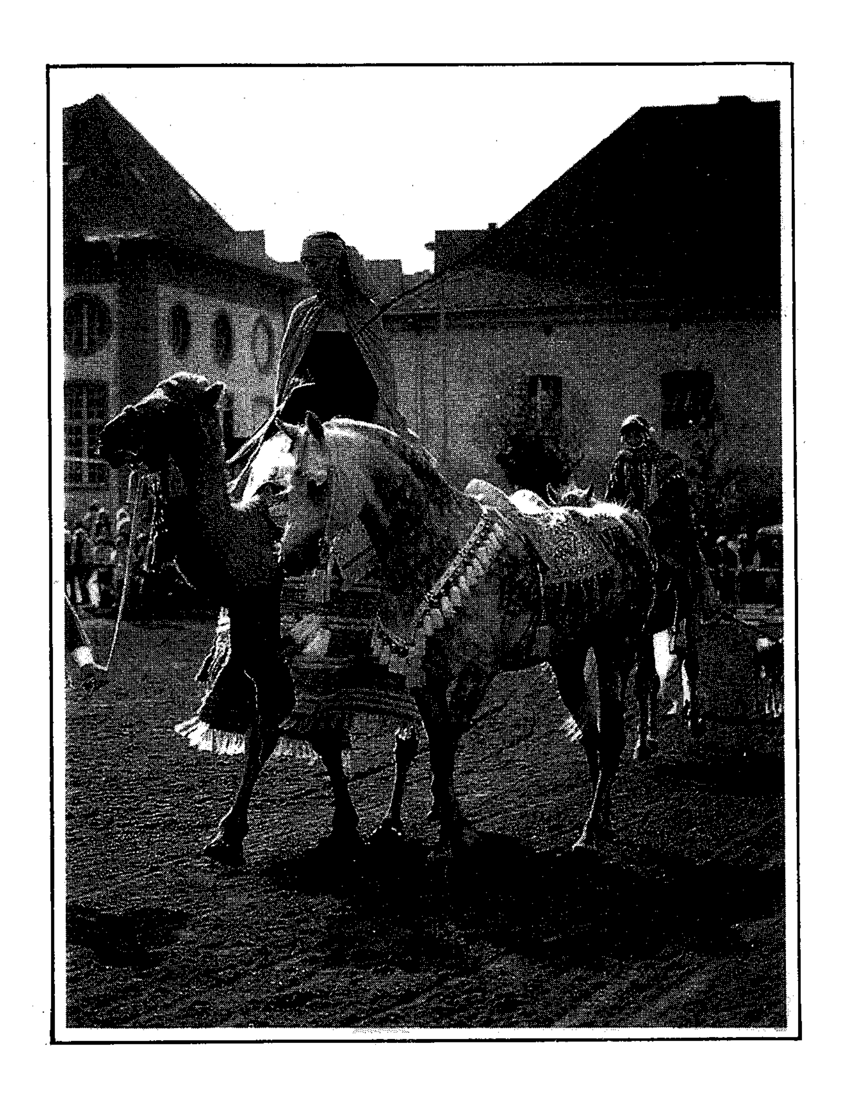
● الأديبة جاكلين بيرين. عن كتاب اكتشاف جزيرة العرب.

يُعَدُّ القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فترة ازدهار الجواد العربي في ديار العرب، وفترة تسابق أسلحة الفرسان ونوادي الفروسية، واسطبلات رؤساء وملوك العالم لاقتنائه. كما كان الجواد العربي حجة تستّر وراءها بعض ذوي المهمات الخاصة من الرحالة الغربيين في ديار العرب.. فإذا سئل أحدهم لماذا أنت تنتقل من قبيلة إلى أخرى، وتعرض نفسك للموت والهلاك في البوادي والقفار العربية، يجيبك مباشرة: إنها رحلة البحث عن الخيول العربية الأصيلة!.

وهذا لا يعفينا من القول بأن هناك بعض الرحالة كان همه الأكبر من الترحال البحث عن روائع الخيول العربية وسلالاتها النادرة ومن هؤلاء:

١ - ضباط من أسلحة الفرسان في الجيوش الغربية.

٢ - تجار الخيول الذين كانوا يورِّدون الخيول لاسطبلات الملوك والقادة والرؤساء الغربيين بصورة خاصة.



الخيول العربية.. والإبل العربية الأصيلة لا تزال تثير اهتمام الغربيين.. وتدفعهم للترحال والسياحة في ديار العرب.

وإني أحسب الإيطالي كارلو غوارماني، والكابتن البريطاني أبيتون من هذا الصنف من الرحالة الغربيين في ديار العرب، فالأول قد عرفتني به المصادر التي كتبت عنه ومن بينها كتاب اكتشاف جزيرة العرب للأديبة جاكلين بيرين، والثاني تتبعت أخباره في آثاره المطبوعة وفي الموسوعات التي أعطت لمحة عن حياته.

الرحالة كارلوغوارماني Carlo Guarmani :

رحالة غربي آخر نعرّف به لا من قبيل خبرته بالشؤون العربية والإسلامية، ولكن لصداقته وتجارته مع القبائل في الجزيرة العربية وبلاد الشام، ولخبرته بالخيول العربية، فله فيها مؤلف خاص رائع طبع أكثر من مرة، وزينت بعض صفحاته بصور عن الخيول العربية وحياة البدو في الصحراء.

كان كارلوغوارماني نبيلاً إيطالياً اتخذ من مدينة القدس مقراً لنشاطاته التجارية كوكيل لشركات النقل البحرية الفرنسية. ولعل مهامه التجارية هي التي مدت له جسور التعارف بينه وبين القبائل العربية في كل من فلسطين وسورية وشمال الجزيرة العربية. ونظراً لخبرته بالقبائل العربية أوكل إليه وزير الزراعة الفرنسي عام ١٨٦٣م مهمة شراء مجموعة من الخيول العربية الأصيلة لصالح اسطبلات الخيول في فرنسا، كما كلفه فيكتور عمانويل بشراء خيول عربية أصيلة لصالح اسطبلات البلاط الملكي الإيطالي الذي اشتهر بتربيته لسلالات معروفة من الخيول العربية منها سلالة الصقلاوي الشعيفي التي بقيت تذكر حتى أمد قريب في إيطاليا.

قبل غوارماني العرض، ووجد فيه فرصة سانحة للتجول في البادية العربية، ومعاينة الخيول في مرابطها في الصحراء مباشرة..

ويبدو أن الظروف قد خدمته ليصبح رائداً تذكر سيرته في الترحال بجانب بوركهارت وغيره من الرحالة الغربيين، ولم تكن المهمة سهلة، بل ودع أهله وأولاده خلفه، وانطلق عام ١٨٦٤م يرتدي الزي العربي إلى شمال الجزيرة العربية برفقة دليل من العرب وما إن غادرا القدس حتى شاهدا جنازة فتشاءم دليله العربي من سوء الطالع في هذه الرحلة. والبدو من عادتهم التشاؤم في السفر عندما يشاهدون الجنازة، أو يشاهدون في الطريق ثعلب الحصيني، ويتفاءلون عندما يشاهدون الحية.

مرَّ الرجلان بالبتراء التي اكتشفها بوركهارت، فانضم إليهما أحد رؤساء القبائل، ولما افترق عنهما في الطريق حملهما رسائل توصية وترجي بالمساعدة إلى القبائل المجاورة، وهكذا تحول التشاؤم إلى أمل مشرق بتحقيق كامل أهداف الرحلة. وفي الطريق مرَّ كارلوغوارماني بعرب بني صخر، فاشترى منهم جملاً لمتابعة الرحلة، وحل ضيفاً على بدو الرولة وتعرف على شيخهم ابن شعلان.. وهكذا أخذ ينتقل من ديار قبيلة إلى أخرى حتى وصل إلى ديار قبيلة عتيبة، أما في بلاده فقد وصل إليها خبر انطلاقته إلى الصحراء، فأخذ محبوه يتابعون أخبار تحركاته، وفجأة تصلهم إشاعة عن موته، فبكاه أهله، ونعته الصحف. والإشاعة بثها أحد المسافرين الأوروبين العائدين من الصحراء.. عندما شاهد جثة تاجر يهودي فارسي ملقاة على قارعة الطريق، فظنها جثة غوارماني، بينما غوارماني كان يحل ضيفاً في مضارب البدو، يأكل اللحم في المضافات العربية، ويتمتم بأدعية الإسلام كما كان يفعل علي بك العباسي وغيره من الرحالة في ديار العرب.. ولكن للصحراء ظروفها القاسية على رجل أوروبي نبيل منعم مثل غوارماني، ففي تيماء وصل إلى قبيلة عتيبة بثياب رثة،

وبجانبه على المطية قربة ماء، ومن كان يشاهده يظن أنه من دراويش الترك الذين كانوا يتسكعون في البادية. تجول بعدها في منطقة خيبر التي وصفها فارتيما ببلد اليهود حسب ظنه، بينما شاهدها غوارماني على عكس ما كان يصف فارتيما بلداً تكثر فيه مزارع النخيل، ودهش لسواد بشرة الناس في خيبر، ولكنه أُخبر أن هؤلاء الفلاحين هم عبيد ولد سليمان في المنطقة[1].

وجرياً وراء عادة الرحالة الأوروبيين في التشويق وذكر الحوادث المثيرة يدعي أن حاكم المدينة شك في أمره؛ فانتحل ببراعة شخصية مبعوث من الحكومة التركية إلى المنطقة. قال غوارماني: يبلغ سكان خيبر في ذلك العام ألفين وخمسمائة نسمة على وجه التقريب، وقد قسمت المدينة إلى سبعة أحياء يشكل كل حي منها وادياً من الوديان التي تتشعب من جبل الحرة الذي تكثر فيه ينابيع المياه المعدنية، وتشرف على هذه الأودية صخرة شديدة الضخامة ترتفع بعلو حصن قديم، وعندما زار الأطلال لم ير سوى الخرائب دون أن يجد عليها كتابات.

كان الروقة من عتيبة آخر من وصل إليهم من بدو الجزيرة، فيقول إنه وجدهم في حالة حرب مع فيصل ابن سعود. ووصف الحرب والأحداث ولكنه بالغ في عدد الجيوش المتحاربة وفي عدد القتلى والجثث التي كانت الثعالب والعقبان، تلتهم أوصالها إذ لم يكن ذلك إلا من قبيل التهويل والإثارة. قال غوارماني: «رحل أبناء القبيلة وهم يحاربون لاختراق صفوف الأعداء الذين كانوا يطوقونهم من كل مكان.. تقدم الركب مسبوقاً بالفرسان تلوذ بهم النساء والأطفال والعجزة وسار في المؤخرة سبعمائة فارس يتسلحون بالبنادق واستمروا في السير أربعة أيام دون توقف إلا للاستراحة المؤقتة،

(١) ولد سليمان من بدو عنزة.

يواكبهم الفرسان النجديون من بني قحطان ومعهم عبدالله بن فيصل.. وفي اليوم الرابع فقدت القبيلة ماشيتها وستين قتيلاً، وجرح مئتان إلا أن المعركة الفاصلة لم تصل إلى ذروتها بعد، وعندما انفصل بنو قحطان عن ابن سعود، شن فرسان عتيبة هجوماً صاعقاً على السعوديين وهم أربعمائة فارس وخمسة آلاف من حملة البنادق فهزموهم جميعاً».

قام شيخ عتبة بعد الانتصار لتوزيع الغنائم، فأعطى غورامانى جواداً عربياً أصيلاً على الرغم من أنه لم يشترك في المعركة، واختار غوارماني ثلاثة خيول أصيلة اشتراها بثلاثمائة ناقة، وعندما اكتملت مجموعة غوارماني من الخيول أراد العودة، فتعرض له رجال عبدالله بن سعود وأرسل إلى عنيزة، وهناك بعد الوساطات ورسائل التوصية التي أبرزها أخلي سبيله. وفي مذكرات غوارماني وصف لأبناء العائلة السعودية، وقد تنبأ لعبدالعزيز بن سعود عندما شاهده صغيراً أن يكون هو فارس الجزيرة العربية المرتقب. ولم يتوقف طموح غوارماني عند هذا الحد، بل طمع بزيارة آل الرشيد من شمر في منطقة حائل وهم بقيادة طلال الذي تسلم الحكم بعد وفاة عبدالله عام ١٨٤٧م، فوجد في طلال صفات بدوية نادرة، وأساليب عجيبة في سياسة الرعية.

كان طلال يعقد مجلس القضاء أمام القصر صباحاً وأمام المسجد مساءً، كان كلما سنحت له الفرصة يعلن على الملأ أن الأيتام والأرامل أحب إليه من أهل بيته، وكان يكرم من يأتيه ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ففي مرة جاءه رجل ينشد قصيدة مدح، فأعطاه مائة ريال وحلة وجملاً وفرساً أصيلة. ومن طرائف القضاء عند طلال أنه كان يحكم على القاتل بالموت، وعلى من يجرح غيره ببتر يده، وعلى العصاة بمصادرة أملاكهم حتى أصبحت الطرق المؤدية إلى حائل آمنة

مطمئنة سار فيها غوارماني في راحة تامة، وأشد ما كان يكرهه طلال من الرجال الكذب، فمن وجده متلبساً بالكذب يوقد النار أمامه ويمرر وجهه على لهبها حتى يحترق وجهه ولحيته. وعندما نقيِّم رحلة غوارماني، نجد أنه حقق هدفه في شراء الخيول العربية، لقد شاهد أداءها في ساحة المعركة، وفي الطبيعة بين المضارب. قال غوارماني:

١ - أهل عنيزة مشهورون بشراء الأمهار من البدو، ويربونها للتجارة وبيعها إلى الهند وبلاد العجم.

٢ - قبيلة قحطان كانت تملك أفضل سلالات الخيول العربية.

٣ - قبيلة مطير كانت تملك أعداداً كبيرة من الخيل، توردها إلى سوق مدينة بريدة إلا أنها من حيث الجودة لا تضاهي خيول قبيلة قحطان.

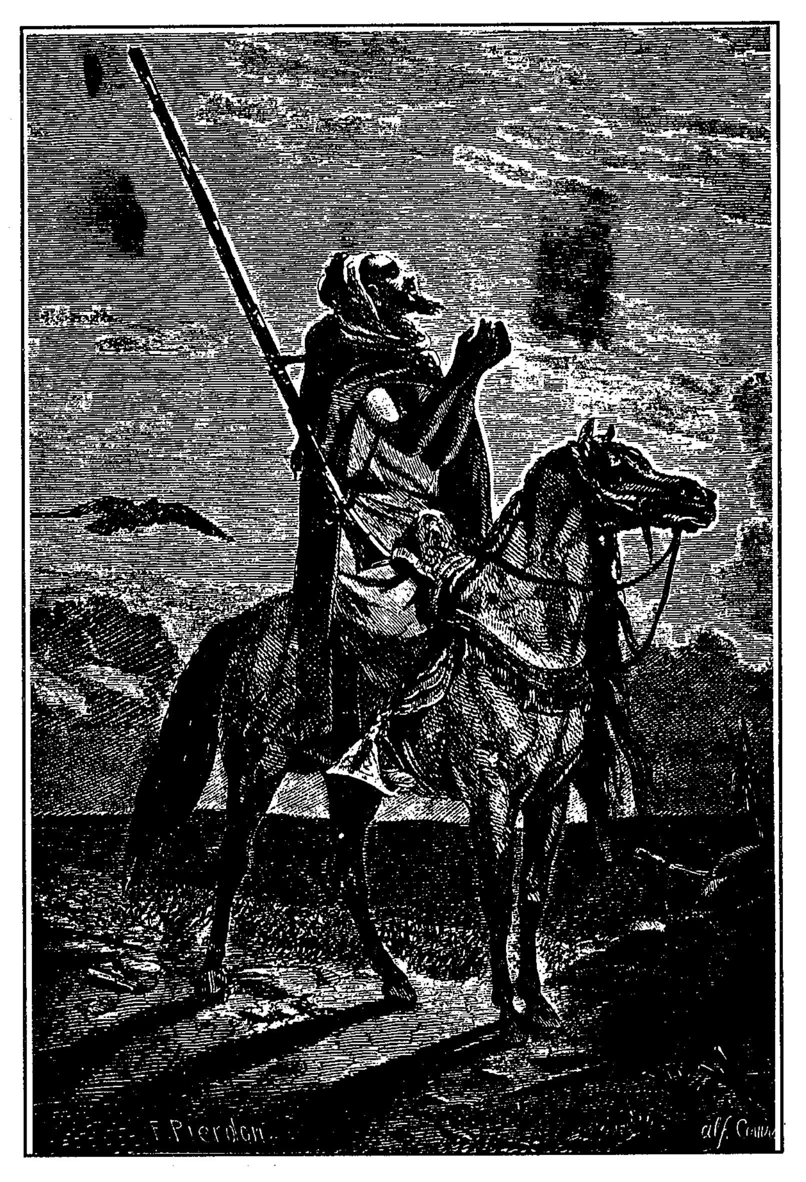
عاد غوراماني من جبل شمر سالكاً الطريق ذاتها التي سلكها عندما جاء من القدس، وهو خطأ فادح ارتكبه، فالرحالة إذا سار في طريق لا يسير فيها عند عودته حتى لا يكمن له قطاع الطرق... عاد غوارماني وهو يحمل أحلى الذكريات عن كرم العرب وعن أصالة خيولهم التي جاء بقسم منها لشحنه إلى أوروبا، ولكنه تعرض لغزو عرب الشرارات عند منطقة وادي السرحان، فسلبوا منه بعض الخيول، فعاد إلى دمشق ومنها توجه إلى القدس مقر إقامته ومكاتب تجارته. وبعد مدة كتب أخبار رحلته التي طبعت في مطبعة الآبار الفرنسيسكان طباعة متواضعة، ثم ترجمت إلى أكثر من لغة، وطبعت في طبعات حديثة مؤخراً.

روجر أبيتون Roger D. Upton :

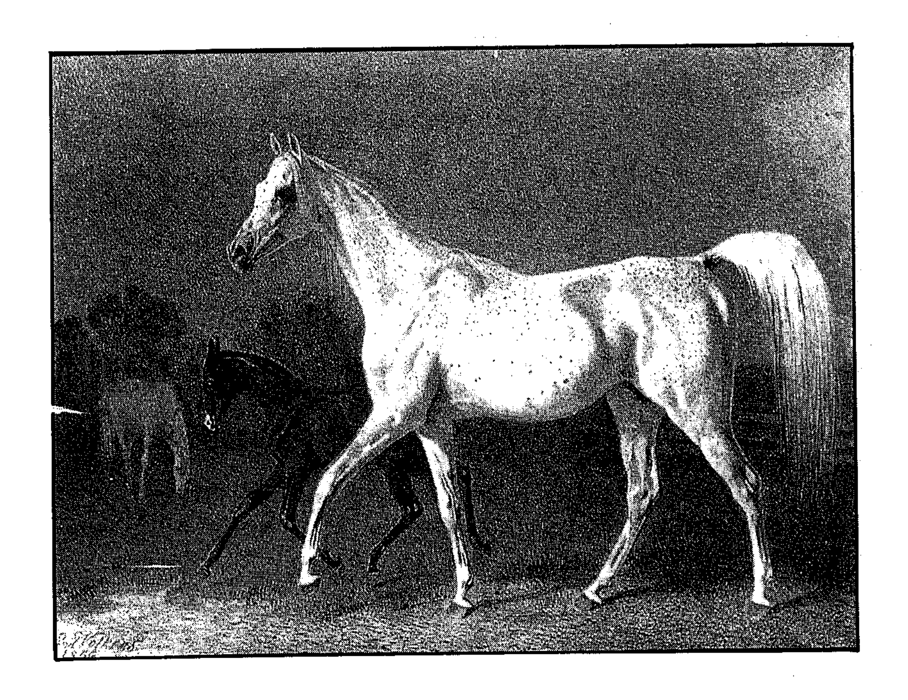
روجر أبيتون ضابط في سلاح الفرسان البريطاني، هو جندي ورحالة شأنه شأن بورتن وغيره، ويكاد أن يكون مجهولاً حتى بالنسبة للبريطانيين أنفسهم، وعلى الرغم من أن كتاب مشاهداته في بوادي العرب في مكتبتي، إلا أنه لم يسعفني في تعقب سيرته الذاتية، ولكن جاء في كتب سير الأعلام للبريطانيين ما يلي:

«روجر د. أبيتون: بريطاني من مواليد عام ١٨٢٧م، كان ضابطاً في سلاح الفرسان البريطاني عام ١٨٦١م وفي تلك الفترة كان وجهاً لوجه مع الخيول العربية التي تسابق الغربيون لاقتناء كرائمها، وعمل في الهند، ومعاوناً في الحرس الملكي البريطاني من عام ١٨٧٧م حتى وفاته» ويشير المصدر أنه كان قد اشترك في تمرد عسكري في الجيش البريطاني في الهند.

يعود اهتمام الجيش البريطاني بالخيول العربية إلى عام ١٧٠٥م عندما نقل «دارلي» قنصل بريطانيا في حلب حصاناً من سلالة المعنقي من بدو الفدعان إلى بريطانيا، فحسَّنَ نسل الخيول البريطانية بشدة، ولهذا جاء أبيتون إلى البلاد العربية في مهمة محددة هي: البحث عن الجواد العربي الأصيل لصالح سلاح الفرسان البريطاني، عندما كان برتبة كابتن، ولهذا عرفت مذكراته بمذكرات الكابتن ابيتون. تتبعت أخبار أبيتون في مذكرات آل بلنت وفي بعض المنقولات عن مذكرات وليم براون. قال براون: «لم نجد في العراق خيولاً ممتازة تلفت النظر بنقاوتها وصفاتها... وعندما كانت بلاد العرب تعج بالخيول العربية، قصدها الميجر أبيتون للبحث عن خيول أصيلة، وبعد



صلاة البدو في الصحراء. لوحة في مذكرات غوارماني عن الخيول العربية.



لوحة فنية لفرس عربية من سلالة كحيلان العجوز.. مع مهرها... وسميت بسلالة كحيلان لهالات السواد حول عينيها التي هي أشبه بالكحل في عيون النساء... وتعد هذه السلالة من أقدم سلالات الخيل في ديار العرب، وربما تحدرت كل خيول العرب من هذه السلالة، ولهذا قالت العرب: «الخيل كحايل» كما نقل أبيتون قول سليمان ابن مرشد شيخ بدو السبعة من عنزة في هذه السلالة:

«الفرس كحيلان العجوز أقدم سلالة من خيول العرب تحدرت من خيول ربيعة الفرس ابن نزار بن عدنان. ومن قبل من خيول سيدنا إسماعيل، ونبي الله سليمان.. ثم حافظت عليها قبيلة عنزة، وتطورت السلالة في ديارها».

رحلة دامت سنتين جاء بفرس عالية الأصالة من سلالة سمحة القميعي.

وقد وجدت لهذا الفارس الرحالة بالإضافة إلى مذكراته عن الخيول كتباً من أدب الرحلات منها: كتاب «مشاهدات في بوادي العرب» وفي هذا الكتاب أخبار من فرسان البادية العربية في الشمال أمثال: جدعان ابن مهيد، وأحمد الموالي، وعبدالكريم الجربا وسليمان بن مرشد. لقد عرفت بشخصية هذا الرجل وأرجو من الله أن يعينني لترجمة ونشر كتابه «مشاهدات في بوادي العرب»، وفيما يلي مقتطفات من مطالعاتي في هذا الكتاب، فأجمل ما فيه تقريره وأخباره عن قبيلة السبعة من عنزة والتعريف بديارهم في بادية الشام في براري مدينة حمص السورية. وفي تقرير أبيتون عن السبعة قصة موت الشيخ سليمان بن مرشد مسموماً على يد العثمانيين، ولا أدري إن كان صادقاً في هذا الإدعاء؟ أم أنها الحملة المنظمة التي كان يشنها الرحالة الغربيون ضد الدولة العثمانية بغية دفع العرب للثورة.. لقد استند على رواية أبيتون كثير من الرحالة. وفي الحديث عن السبعة: قال: «كانت المجموعات المشكلة للسبعة هي سبع بطون فرعية لكل منها شيخ خاص بها، والسبعة كثيرة العدد، وغنية بقطعان الغنم وبالعدد الضخم من الإبل وبالصفوة المختارة من الخيول العربية النادرة، ويعدون هم والجلاس والهذال (العمارات) نموذجاً للقبائل العربية التي تكثر في شمال الجزيرة العربية.

ومن السبعة: القمصة، والعبدة، والدوام، والموايقة، والشفيع، والمسكا وغيرهم. والقمصة بينهم يشكلون مجموعة بدوية رائعة كثيرة

الحلال (الإبل والغنم) وكانوا بقيادة الشيخ سليمان ابن مرشد، الشيخ الكبير الذي يملك الصدق والصراحة، وصاحب النفوذ والمكانة في البادية الشمالية، بل أرشحه لأن يكون أقوى شيوخ القبائل هناك. فهو الذي كان ينظم حركة وارتحال القبيلة، وله علاقة حميمة مع جدعان ابن مهيد أمير الفدعان من عنزة، وعندما نقارن بين الرجلين من حيث المزاج والشخصية أجد الشيخ سليمان ابن مرشد هادئاً غيوراً عميق التفكير جيد التخطيط، ومسلماً محافظاً يصلي، ولكن من دون تبجح أو رياء، مقنناً على نفسه في الطعام والشراب وكأنه من الزهاد[1].

أما جدعان بن مهيد فهو شيخ الحرب المندفع الثائر طوال يومه. كان سليمان ابن مرشد بلباس متواضع، يدخن ويشرب القهوة والماء، ويتناول التمر باستمرار، لم يحلق شعره، ولم أجد بدوياً يحلق ذقنه أو يقص شعره إلا في ظروف خاصة، فمن يوم ولادتهم وحتى مماتهم شعورهم تنمو على الطبيعة، ويجدل الشبان الشعر على شكل ضفائر تتدلى على جانبي الجسم كعرف الفرس الأصيل، ولا أجدهم يلبسون طرابيش الأتراك. والرسالون من القمصة يشتهرون بتربية الخيول العربية الأصيلة، فمنهم «نواق» صاحب الكحيلة النواقية السلالة المشهورة في ديار العرب.

ولحكمة في سليمان ابن مرشد كان على اتصال دائم مع ولاة الحكومة العثمانية، لحل مشاكل قبيلته معها، ولتدارس القضايا العامة في البلاد. وقد سمعنا أن سليمان ابن مرشد كان من أنصار قيام

---

(١) قالت الليدي بلنت إن البدانة نادرة بين رجال البدو، ولم تجد شيخاً بديناً سوى الشيخ محمد ابن سمير من شيوخ ولد علي عام ١٨٧٨م.

حكومة عربية تكون برئاسة شريف مكة، ولصدقه لم يدع السبعة يبرمون أي صفقة مذلة للقبيلة مع الأتراك، كما أنه لم ينقض أي اتفاق أبرمه مع الحكومة العثمانية. أما صفاته الجسدية فأجد سليمان ابن مرشد: قوي البنية ممتلئ الجسم بأطراف طويلة متناسقة.. ضخم الرقبة مفتول العضل، بوجه عادي وبشرة سمراء ولحية جميلة. ذكي فطن هادئ، متواضع اللباس، وبالرغم من أنه يملك أكبر خيمة عربية سوداء بنيت في الصحراء، فلباسه في بيته ثوب فضفاض من الكتان ثابت اللون خشن الملمس.. ويبدو أن هذا اللباس هو المناسب لمثله في شهر تموز الذي شاهدناه فيه، وهو يتوشح سيفاً منحنياً بمقبض فضي وحمائل من الجلد.

أما العبدة من السبعة فخيامهم أقل من خيام القمصة، ولهم نفس القدرة والأهمية. والدوام من السبعة عددهم لا يستهان به يقودهم الشيخ الفجيجي، بينما ابن مرشد هو الشيخ العام للسبعة. والفجيجي عقيد حرب معروف، ويعتبر من أفضل القادة في بدو السبعة. أما المسكة من السبعة فكانوا أغنياء بشكل ملحوظ. كما سمعنا عن ابن موينع «محمد بن موينع» أنه كان حكيماً وصاحب كلمة مسموعة وفضل في البادية الشمالية كلها. أما الموايقة فهم كذلك من الأغنياء وشيخهم المرحوم فارس بن هديب.

ومن فرسان السبعة نذكر: محمد بن كردوش، ومحمد بن رجا، وهم عقداء حرب وخيولهم من سلالة العبيات الشراكية. ويعد السبعة والعمارات والفدعان من ضنا بشر من عنزة.

في خريف عام ١٨٧٤م كان السبعة والفدعان على خلاف مع

الحكومة العثمانية في البوادي المطلة على دير الزور (المدينة الفراتية) فتلك البلدة كانت مقر حامية تركية قوية معروفة، وحاكمها كان يخطط سياسة الحكومة تجاه البدو. وبالرغم من أنه يتعذر أن نعطي تقريراً صادقاً غير متحيز عما حدث بشأن وفاة سليمان بن مرشد، فإن من المؤكد عقد اجتماعات بين الطرفين، ووضعت شروط لتسوية الخلافات إلا أنها لم تكن مرضية بالنسبة لسليمان ابن مرشد، فحصلت مناوشات وقتل بعض الجنود الأتراك.

عاد حاكم الدير لطلب الصلح، فرفض ابن مرشد المقابلة لأن الباشا يطلب من السبعة الاستقرار وفلاحة الأرض تحت حماية الحكومة التركية، ويبدو أن لجدعان ابن مهيد دوراً في رفض المقترحات[1] ، وتم التوصل إلى حل وسط، وهو أن يقدم البدو نسبة من الإبل والخيول للوالي، ولم ينس الأتراك لجدعان ما فعل فتحينوا به الفرص وألقوا عليه القبض ونقل بعربة مدفع وسجن طويلاً لولا تدخل ضابط من أصل زنجي فأطلق سراحه.

وفي العام التالي عاد السبعة إلى مراعيهم في الشمال وعادت المناوشات والمفاوضات مع الحكومة التركية، فأقام السبعة في البادية الشامية ثلاثة أشهر، وقدم آل المرشد أموالاً وإبلاً بما يعادل (١٠٠٠) جنيه ضريبة للوالي.. وصفا الجو بين الطرفين. وفي أحد الأيام دعا والي دير الزور سليمان ابن مرشد، فأكرمه، وعندما حانت لحظة انصرافه قدم له فنجاناً من القهوة دس فيه السم، فذهب سليمان إلى

---

(١) في شتاء وربيع عام ١٨٧٨م كان حاكم الدير هو حسين باشا الذي شاهدته الليدي بلنت هناك، وتذكر في كتاب قبائل بدو الفرات أن هذا الباشا كان خلفاً لأصلان باشا الحاكم السابق للدير وروت قصة مقتل سليمان ابن مرشد في عهده بنفس الطريقة؟!.

البادية وفي الطريق أحس بالتعب فمات، فعين السبعة الفجيجي شيخ الدوام عقيد حرب لهم، وحصلت القطيعة بين السبعة والحكومة التركية.

والآن عليَّ أن أصف مضافة سليمان بن مرشد، فعندما قدمنا إلى مضارب السبعة في البادية، وجدنا رجالهم يروون الإبل من الآبار، تحت حراسة كوكبة من الفرسان، بينما وقفت النساء والأطفال يراقبون الغرباء القادمين إلى السبعة بدهشة واستغراب، فشربنا من ماء الآبار قبل أن نصل المضارب حيث كنا نشاهد على مدى الأفق الخيام السود تتوسطها خيمة الشيخ سليمان ابن مرشد.. إنها خيمة كبيرة أكبر خيمة شاهدناها قد نصبت في البادية، يتجمهر حولها خلق كثير، وعندما اقتربنا منها استقبلنا في مقدمتها الشاب مشهور ابن مرشد على ظهر جواد، ومن خلفه كان يمشي لاستقبالنا الشيخ سليمان ابن مرشد، ولما وصلنا فرح بنا الشيخ سليمان وقادنا إلى مكان فسيح في الخيمة كان يجلس فيه جدعان ابن مهيد نفسه ومجموعة من الشيوخ، فاحضرت الوسائد والشداد فوراً، وقدمت القهوة العربية وفقاً لتقاليد البادية.

ولا أبالغ عندما أقول كان يجلس معنا بهدوء أكثر من مئة شخص، قدمت لهم القهوة جميعاً في خيمة كبيرة طولها ١٦٥ قدماً مقسمة إلى ثلاثة أقسام. لقد وجدنا أنفسنا نجلس وجهاً لوجه مع أشهر قائد حربي في الصحراء هو الشيخ جدعان ابن مهيد، فتبادلنا الأحاديث عن رحلتنا وعن الوجهة التي نريد الذهاب إليها. وعلى الرغم من الجو الحار كانت النار مشتعلة في الموقد المخصص لإعداد القهوة، وعندما وصلت أمتعتنا إلى مضارب السبعة في قافلة منفصلة

حدد لنا رجال سليمان ابن مرشد مكاناً لنصب خيمتنا على أن لا يبعد كثيراً عن خيمة الشيخ، فساعدونا في نصبها وترتيب الأمتعة وجلبوا لنا الماء.

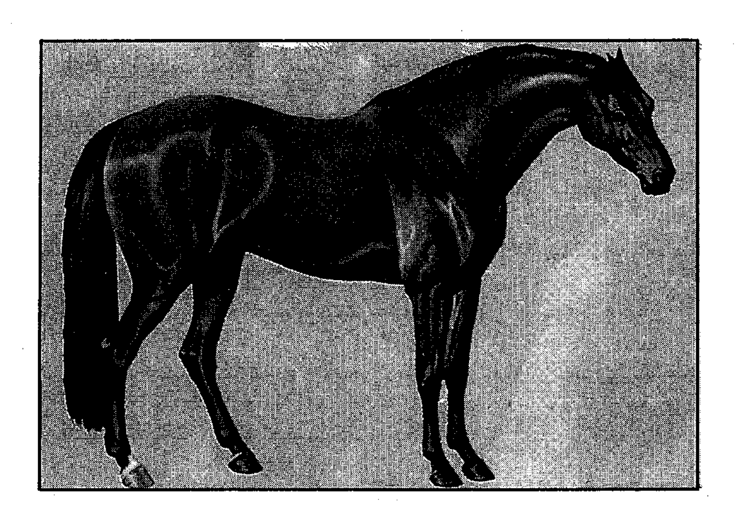
مرَّ من أمامنا مهر من الخيل لم نشاهد مثله في الجمال والروعة: العنق مقوس، دقيق الأذنين، ممشوق القوام، ويستحيل على أي فنان أن يصوره بريشته لجماله وتعدد مواصفاته. كان المهر لجدعان ابن مهيد، جلب إليه الشعير بنفسه في عليقة دس فمه فيها وعلقها في رأسه وربت على عنقه.

حان موعد العشاء، فنادى ابن مرشد على صنَّاعه لجلبه، كان من لحم الضأن والأرز، إذ ذبح شاتين قطعتا وطبختا بكاملهما، يبدو أن اللحم نضج في وقت قصير جداً يكاد لا يصدق. جاء الطعام في منسف ضخم مدور بعمق سبع إنشات أو ثمانية يحمله ستة أشخاص يتقدمهم سليمان ابن مرشد نفسه، وقد زين المنسف بمقدار كبير من خبز الحنطة، وضع أمامنا ليتصاعد منه البخار الحار. كان اللحم طيب المذاق ودعي ابن مهيد وعدد كبير من الرجال لتناول الطعام معنا. فكان كل شخص يضع يده ويسحب بأصابعه ما يريده منه، وكم من كريم كان يلفت انتباهنا إلى هذه القطعة من اللحم أو تلك، وعندما فرغنا من تناول الطعام قدم المنسف لعامة الناس.

لم تكن هذه الرحلة دون فائدة، لقد شاهدنا الكرم العربي والسلوك العربي، وأدب استقبال الضيوف، فأداب السلوك وطريقة الاستقبال كانت بمنتهى الأدب والروعة إذا ما قارناها بالفضول والفوضى التي كنا نشاهدها عند بعض القبائل الأخرى، أما عن الجوار

فلم يطلب منا أحد شيئاً حتى ولو كان التبغ (الدخان) المحبب إلى النفوس.. إلا أن بعض الرجال كان يأتي بفرسه لعرضه للبيع لا أكثر ولا أقل، وإذا ما سمع الشيخ تجمعاً للأطفال حول خيمتنا يرسل من يفرقهم فوراً».

إن أبحاث أبيتون وغوار ماني لها فضل كبير في لفت انتباه أهل الغرب إلى أهمية الخيول العربية في ميدان الفروسية، فهبوا لشراء أفضلها، فنقلت إليهم ومنها إلى أمريكا التي جعلت في ديارها جمعية تسمى جمعية السلالات العربية الخمس، والخمس هي خيول: العبيات، والكحيلات، والحمدانيات، والصقلاويات وسلالة الهدباء.



الجواد العربي الطلوقة «جلفان سطام البولاد» أصله من خيول اليمن، وذهب هدية للملك لويس الخامس عشر في باريس، ثم نقل إلى مربط رجل يدعى «غودلفين» في بريطانيا، فعرف بحصان غودلفين، وهو واحد من الخيول العربية التي تحدرت منها سلالة «الثروبريد» البريطانية. مات عام ١٧٥٣ فأقاموا له مأتماً رسمياً ووردت صورته في وثيقة الدستور البريطاني.

الرحالة المبشرون

جاب رحالة الإرساليات التبشرية الكثير من المدن والأرياف العربية، وفي الحقيقة جاء هؤلاء إلى بلاد المسلمين مشحونين بالتعاطف الديني سراً وعلانية، يواصلون الأسفار والصليب والإنجيل بيد والمساعدات والعلاجات الطبية بيد أخرى، إنهم الرحالة المبشرون. وسوف نختار رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن وقرى الخليج العربي مثالاً لهذا النوع من الرحالة، فقد نجد في مذكراتهم الحديث عن التبشير والطب وظروف المعيشة وطبائع الناس والجغرافيا، ووصف المدن والبوادي والأرياف في الجزيرة العربية. يأتي في طليعة الرحالة المبشرين «صموئيل زويمر» وزملاؤه، وقد عرَّف بهم الأستاذ خالد البسام في مؤلف رائع[1] يعد مصدراً جيداً يعتمد عليه للتعريف بالمبشرين الرحالة في الجزيرة العربية، فقد جاء في مقدمته: «في عام ١٨٩٢م وصل إلى البحرين قادماً من البصرة مبشر أمريكي هو القس «صموئيل زويمر» وكان يساوره الشك والخوف من البلاد التي يتجول فيها، ولذا أودع كتبه وحقيبته الطبية عند مدير البريد الإنكليزي.. وسرعان ما تبددت مخاوفه عندما وجد الناس في المنامة عاديين لا ينظرون إلى الغرباء نظرة العداء التي تشاهد في بعض البلدان. وبالطبع أعجب بالبحرين وأهلها، فكتب عدة تقارير إلى

---

(١) القوافل «رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية ١٩٠١ - ١٩٢٦ ترجمة وإعداد خالد البسام، البحرين عام ١٩٩٣.

مؤسسات التبشير والإرساليات للحضور وفتح مقر للإرسالية الأمريكية في المنامة.. كانت هذه نقطة البداية التي سبقتها عشرات المحاولات من قبل البعثات التبشرية الهولندية».

بدأت الإرسالية الأمريكية للخليج عام ١٨٨٥م برئاسة الدكتور «لانستج» وثلاثة من مساعديه هم: جيمس كانتين، وصموئيل زويمر، وفيليب فيليبس.. منطلقة من ولاية نيوجرسي الأمريكية، فامتد نشاط هذه الإرسالية من شمال الجزيرة العربية حتى عمان في الجنوب، وسوف نتعرض لأهم هذه الرحلات من حيث الشمولية لمناطق الخليج العربي، وأقدمها لتروي لنا أوضاع تلك المنطقة في وقت كانت تندر فيه الكتابات والآثار التاريخية.

أولاً - جيمس مويرديك ورفاقه : أبحر مويرديك ومرافقوه من البحرين يريدون الشارقة ودبي عام ١٩٠١م، بعد أن نقلوا الأمتعة على ظهور الحمير تحت وهج وحر الشمس، فحشروا أنفسهم في سفينة مع حشد من المسافرين الإيرانيين، وتعالت الأمواج لتختلط أصواتها مع أصوات نهيق الحمير، مما أفسد عليهم متعة التأمل، عندها نقلهم النوخذة إلى «كبينة» السفينة فجلسوا بين صناديق البضاعة، كما هبت عاصفة هوجاء كادت أن تغرق سفينتهم في البحر، وفي اليوم السابع وصلوا إلى الشارقة فعلت الوجوه ابتسامة الأمل بعد أن استبد بهم الخوف وحفتهم المخاطر من كل جانب. وهناك في الشارقة تم استئجار كوخ مسقوف بسعف النخيل.. ثم انتقلوا للسكن في بيوت مبنية بالحجارة ليحتموا بها من الليالي الحارة الرطبة في الشارقة. لقد كان مسكنهم السكن المسيحي الوحيد في الشارقة، وبعد الانتهاء من

ترتيب أمر السكن والمعيشة، قاموا بصف الأناجيل والكتب على شكل بسطة خارج المنزل مثلما يفعل باعة الكتب على أرصفة الطريق.. فأخذ الناس يمرون مشدوهين من هذه الظاهرة الغريبة، ولم يجرؤ أحد لشراء أي كتاب، فحاولوا شراء أو استئجار دكاكين في السوق فرفض الناس بيعهم أو تأجيرهم؛ لأن أئمة المسلمين كانوا يحثون على منع تأجيرهم بلطف وهدوء، ولما وجدوا إعراض الناس عن كتبهم، أخذوا يمضون أوقات فراغهم في التجوال والاستكشاف ما بين عجمان والشارقة. ففي مونة «الحمرة» دعاهم أحد الشيوخ لضيافته، وبعد مراسيم الضيافة طلبوا منه أن يعاين ما يحملون من كتب فرفض الشيخ بشكل قاطع وجاملهم قائلاً: إننا نؤمن مثلكم بالمسيح عليه السلام رسولاً صادقاً ولكننا نؤمن كذلك برسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات، فتفرق المجلس بأدب واحترام.

إننا ننقل الوصف على لسان جيمس نفسه لتبيان طبيعة التسامح الديني في ديار المسلمين، إذ لم يكن أحد يؤذي المبشرين الرحالة. قال جيمس: «قد قابلنا أثناء جولاتنا التي كانت تستمر منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس في الشارقة ودبي ألواناً كثيرة من البشر، فقد كنا نقابل العبيد... والأهالي الذين كانوا يراقبوننا في كل شيء... وبالرغم من لغتي العربية البسيطة فقد كنت أدخل في بعض المناقشات حول القرآن والإنجيل، واستطعت التوصل إلى لغة تفاهم مشتركة مع بعض الناس. وفي طريق عودتي إلى البحرين تذكرت الشارقة ودبي بمشاعر متنوعة، وكسبت الكثير من المعلومات القيمة عن الناس وعن الفرص المتاحة لعمل الإرسالية الأمريكية هناك».

ثانياً - جيمس كانتين: وصل جيمس كانتين إلى مقر الإرسالية

في البحرين عام ١٩٠٢م، وفور وصوله بدأت الاستعدادات لإرساله في مهمة إلى الجبل الأخضر في عمان، فحُمّلت الكتب والحقائب على ظهور الحمير يرافقها رجلان هما: سيد وعلي، واتجهوا من البحرين إلى ميناء مسقط في سفينة كانت غاصة بالركاب والمسافرين.

أقام جيمس ورفاقه في مسقط أياماً معدودات لقوافيها من أهل مسقط كل احترام وتقدير، وبعد أيام انطلقوا مع قافلة إلى الجبل الأخضر الذي يبعد عن مسقط مئات الأميال، ويعد الجبل الأخضر أكثر الأماكن جاذبية في عمان، ولكن الوصول إليه كان حلماً بسبب النزاعات والحروب العشائرية.. ومن حسن حظ جيمس أنه وصل إلى هناك في وقت هدنة كانت سائدة بين المتحاربين، وبعد رحلة شاقة دامت ثلاثة أيام وصلوا إلى نزوة أكبر المدن العمانية التي صادفوها في الطريق، وفي نزوة ارتاحوا من عناء السفر واختلطوا مع أهلها الطيبين العظماء في تعاملهم مع كل غريب يقيم في ديارهم، فبهذا الانطباع خرجوا من نزوة يقطعون الطرق والوديان في الجبل الأخضر، إذ لم ينغص عليهم متعة التأمل سوى حادث إطلاق نار في جوف الليل بين القبائل، فانبطحوا أرضاً، وثبتوا دون حراك والمسلحون يحيطون بهم، ثم بدأ الاستجواب: عن وجهتهم، والهدف من رحلتهم، وبعد سيل من الأسئلة والاستفسارات سمح لهم المسلحون بمغادرة المكان دون أية مشاكل تذكر.

في مكان ما من الجبل الأخضر أقاموا مخيمهم، فجاء إليهم في الصباح شيخ القبيلة ياسر بن سليمان باللحم، وقدم لهم الاعتذار عما صادفوه بالأمس، ثم اصطحبهم الشيخ بنفسه في القرى المجاورة لمقابلة الشيخ العام للجبل. وهناك في قمة الجبل جلس هذا المُبشر يتأمل نتائج الحرب المدمرة بين القبائل، فبعد أن كانت القرى مليئة

بالحياة والحركة قبل سنتين أصبحت معظم البيوت مهدمة، والسكان المسالمون غادروا المنطقة. وتعطلت الآبار ويبس الزرع، وبعد مقابلتهم لشيخ الجبل قدموا له منظاراً مقرباً هدية، وطلب منهم قائمة بالمواد التي يريدونها من مسقط، ثم عادوا من حيث أتوا.

ثالثاً - الطبيب لويس ديم في نجد : سمح حاكم نجد عبدالعزيز آل سعود للطبيب لويس ديم وجماعته بزيارة نجد عام ١٩٢٣م. فحزموا الأمتعة والمعدات الطبية، وغادروا إلى الرياض في قافلة من الإبل في نهاية كانون الأول من ذلك العام، فمروا بمدينة شقرا، وفي الطريق إليها شاهدوا قرى وادي حنيفة ومباني الدرعية العاصمة السابقة لآل سعود.

وصلوا إلى شقرا وذهبوا مباشرة إلى مقر بيت المال (الخزينة) فوجدوا المسؤول المالي في مجلس حاشد فرحب بهم، وأخبرهم أنه لسنوات خلت ما كان لأجنبي أن يدخل البلاد، ولكن الأمن قد استتب والحمد لله، في شقرا كانت لهم لقاءات ومناقشات حول أصول الديانتين الإسلامية والمسيحية، وبالرغم من الحماس الذي أبداه أهل شقرا لدينهم الإسلامي كان شيخ المدينة إبراهيم مؤدباً معهم إلى أبعد الحدود.

أجروا للشيخ إبراهيم عملية فتق ناجحة، وأعجبوا بتقواه وورعه، ووصفوه بأنه كان مسلماً حقاً، لقد حاول طوال فترة وجودهم في شقرا يطالب الدكتور لويس بتحويل ديانته إلى الإسلام، وعندما لم يستطع بقي هو والدكتور لويس أصدقاء، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما وعد الدكتور لويس بالزواج من مسلمة وتأمين سكن له فيما لو أصبح مسلماً. أما في المجال الطبي فخلال اثني عشر يوماً تمكنت

الإرسالية من معاينة «٩٥٣» مريضاً، وأجرت «٤٨» عملية جراحية، وهو عمل كبير لسكان شقرا الذين كان عددهم لا يتجاوز ثمانية آلاف نسمة.

غادر الطبيب الرحالة المبشر لويس وصحبه شقرا متوجهين إلى عنيزة يسيرون فوق الرمال ودروب الصحراء الواسعة، فمروا بالقرى والمدن الصغيرة والواحات التي كانت مزروعة حول مجموعة من الآبار. عزا الدكتور لويس ديم ازدهار منطقة: الوشم، وشقراء، والقصيم إلى كونها تزرع القمح والنخيل ومختلف المحاصيل، ويصدر أهلها الفائض من المحاصيل مقابل استيرادهم للأقمشة والجلود والأرز وغيرها. لم يكن وصولهم إلى عنيزة مجرد الوصول إلى مدينة صغيرة، بل وجدوا المنطقة مكتظة بالسكان، وبيوت أهلها طينية مؤلفة من طوابق تحيط بها البساتين التي تعد من أجمل البساتين التي شاهدوها في كل الجزيرة العربية. وصفوا أهل عنيزة بالكرم والوفاء والود والذكاء والإنسانية، وقد كانوا من قبل يعرفون حب أهل عنيزة لديرتهم ففي مرة كان يلقى معلم درساً في الجغرافيا أمام تلامذة صغار في مدرسة ابتدائية تابعة للإرسالية في البحرين، ولما جاء ذكر عنيزة واسمها على الخريطة، خرج طفل وقبل اسم المدينة وقال للمعلم هذا وطني، وأبي يقيم هناك.

كانت البعثة محط تكريم في عنيزة، إذ كانوا يتلقون في اليوم الواحد أكثر من ثلاث دعوات لتناول الطعام، وكان السكان يوفرون لهم الطعام، في وقت شغلوا فيه بمعالجة المرضى وذوي العاهات، إذ عالجوا أكثر من ١٣٦٦ شخصاً، وقد تجمهر أمام مقر الإرسالية طابور من العميان والعرجان وذوي العاهات يبحثون عن دواء لعللهم المختلفة.

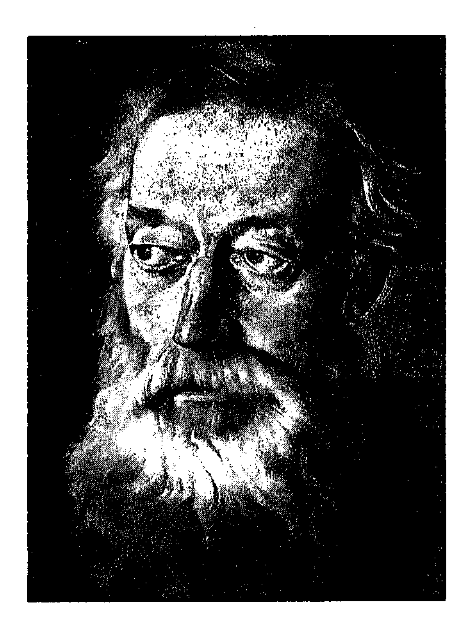
وعندما انتهت مهمتهم هناك غادروا إلى بريدة، فزودهم الأهالي بالأطعمة والتمور، وفي الطريق شاهدوا وادي الرماح الذي يقطع الجزيرة العربية من المدنية المنورة وحتى الزبير. في بريدة وجدوا إعراضاً من السكان، فحماسهم الديني جعلهم يقاطعون الإرسالية، ولكنهم عوملوا معاملة جيدة وشرعوا في التبشير والمعالجة، ولكن مهمتهم قطعت عندما وصلت إليهم أخبار تفشي مرض الطاعون في البحرين فعادوا إلى هناك على عجل.

هذا غيض من فيضٍ عن نشاطات الرحالة المبشرين في البلاد العربية، فقد تعامل معهم أهل وطننا العربي المسلم بروح التسامح، والتعايش مع هذا اللون من الترحال، ونحن عندما نتعرض لآثارهم المكتوبة، نجد فيها جانباً مهماً من أغراض الترحال، ألا وهو وصف الناس والديار واستطلاع أحوال بلادنا في الماضي. ومما لا شك فيه أن هذه الإرسالية وأمثالها كانت تقدم خدمات طبية طيبة على الرغم من أن القائمين عليها كانوا يقرنون ذلك بالدعوة والتبشير لدينهم. وفي الوقت الذي أقر فيه المبشرون الرحالة بصلابة المسلمين وامتناعهم عن قبول الفكرة، فإنهم تفاجؤوا ببساطة الناس وبعدهم عن التعصب.. ففي ديار العرب المسلمين التي مروا بها وجدوا التسامح والتعايش مما لم يجدوه في أي بقعة أخرى من الأرض؛ ولهذا يعد ما قاله دوتي عن تعصب أهل هذه المنطقة في الصفحات التالية ضرباً من الخيال.

تشارلز دوتي (الحاج خليل)

Charles Doughty

١٨٤٣ - ١٩٢٦م



تشارلز دوتي Ch. Doughty
في صورة له عام ١٩٢١م.

ولد تشارلز مونتاغودوتي Charles Montagu Doughty في صفولك Suffolk البريطانية عام ١٨٤٣م في عائلة ثرية ذات تراث يرتبط بالبحر والكنيسة. درس الجيولوجيا في جامعة «كامبردج» فقاده هذا التخصص إلى الترحال لاستكشاف الأنهار الجليدية في النرويج وهو في العشرينات من عمره، واستهوته الآداب وعلوم اللغة الإنكليزية، فقرر خدمة هذه اللغة لكي يبقى وطنياً مخلصاً بأدب متميز، وجعل ذلك محور تفكيره، ولهذا أمضى بضع سنوات يدرس الألمانية والدنماركية، وأمضى عاماً بكامله يقرأ في إكسفورد لشعراء القرون الوسطى والعصر «الألزيثي» وشعر «تشوسر وسبنسر». جعل دوتي الدين المسيحي هدفه، فهو من الرحالة الحجاج الذين رحلوا إلى الشرق للبحث عن جذور المسيحية في المشرق العربي[١]، بعد أن عصفت الأفكار المادية والعلمانية

(١) أساطير أوروبا عن الشرق للسيدة رنا القباني.

بالمعتقدات الدينية المسيحية بشدة، فأخذت تتهاوى تحت وطأة نمط غير مألوف من التفكير جعلت مشاعر الإيمان والتقوى في مهب الريح» فمر من خلال أسبانيا وإيطاليا حيث شاهد اندفاع بركان فيزوف عام ١٨٧٢م، ثم تابع السفر إلى اليونان ثم القاهرة في أوائل عام ١٨٧٥م، ثم ركب عبر صحراء سيناء حتى البتراء، حيث سمع بمدينة ذاع صيتها في علم الآثار وتاريخ الأنبياء عليهم السلام.. إنها مدائن صالح (سبع مدن كبيرة نحتت في الصخر) التي كانت مزدهرة بسبب موقعها على الطريق الموصل من الجزيرة العربية إلى القدس الشريف، ولهذا رغب برحلة عبر الجزيرة العربية إلى تلك المدائن ليفك رموز الكتابات المنقوشة على الحجر، لاعتقاده أنها ذات دلالات توراتية.. لقد كان دوتي يرجع كل ما شاهده في ديار العرب إلى أصول نصرانية، وإلى الكتاب المقدس «فكل امرأة وجدها عاقراً كانت بالنسبة له تمثل سارة زوجة سيدنا إبراهيم الخليل، وكل لون أسمر يعزوه إلى لون بشرة السيدة مريم العذراء، وكل قسم يقسم به البدو هو كلمات العهد التي تبادلها النبيان يونس وداوود». وخلافاً لكثير من الرحالة لم يخف شخصيته أو دينه، بل كان يجاهر بنصرانيته مما سبب له كثيراً من المتاعب، وعرّضه للمواقف الخطرة التي كادت أن تودي بحياته.

أصر دوتي على السفر إلى مدائن صالح على الرغم من تحفظ السلطات العثمانية التي كانت تسيطر على معظم ديار العرب، فتمنع كل أجنبي يريد الذهاب إلى هناك. وتورد بعض المصادر أن دوتي وصل إلى دمشق، فتعلم فيها اللغة العربية، وتسمى باسم «الحاج خليل النصراني» وهو اسم مشترك تتسمى به كل الديانات في الشرق، وعندما حان موعد الحج نصحه بعض الأصدقاء أن يغادر مع قافلة الحاج التي يقودها باشا تركي. فأسرع دوتي للسفر بزي رجل

سوري متوسط الثراء، ودس في جيبه ثلاثة عشر جنيهاً ذهبياً، وأعد في حقيبته أوراقاً لكتابة المذكرات، وآلة لقياس الزوايا بين النجوم، وباروميتراً «جهاز لقياس الارتفاع» ومقياساً لدرجات الحرارة، وخنجراً ومسدساً صغيراً أخفاهما تحت قميصه بعناية، كما أخذ معه بعض الأدوية، لأنه وضع بحسبانه أن يكون طبيباً بين البدو، وبعض الأدوات الأخرى.

وصف دوتي القافلة[1] بأنها تتألف من «٦٠٠٠» حاج يحميهم ثلاثمائة من العسكر المشاة ومئتان من الخيالة برفقة مدفعين ومائة شخص من بدو «العقيل»، وفي هذا الحشد يشاهد العبيد الذين يحملون الفحم لمدخني «الغليون» والديك الأبيض لبعض العجم، وقد حذّره بعض الأصدقاء من التخاذل في الطريق فالويل للحاج الذي سيغمى عليه في الطريق، فسوف يسلب وتقطع «لوزته». وقد أعجب بالكلاب السلوقية التي كانت تسير آلاف الأميال دون أن تتعب، ومن طرائف ما روى أن سيدة فارسية ماتت في الطريق فقام خادمها بذبح ناقتها وسلخ جلدها، فلف الجلد حول جثتها ليوصلها إلى الديار المقدسة؟!

الطريق نحو مكة طويل، والسفر يتواصل ليلاً نهاراً مع وقفات قصيرة للاستراحة، وفي الليل يركض الرجال حاملين القناديل وقد اختلطت أصوات الرجال بأصوات الإبل عند الخيام المنصوبة، وفي نهاية نوفمبر ١٨٧٦م نزل الباشا متجولاً بين الرجال يلثم لحاهم فتعرف على الحاج خليل، واكتشف بأنه نصراني فعزله عن القافلة عند بلدة «الهاجرة» في شمال الجزيرة العربية، وعهد به إلى أميرها المراكشي الأصل حتى تعود القافلة من مكة.. كانت البلدة بمثابة

---

(١) في هذا الوصف بعض المبالغات فالقافلة لا تضم مثل هذا العدد ولا كل هؤلاء الحراس.

حصن صغير يقوم عند بئر، وفي هذا المكان برفقة المراكشي كان دوتي يمضي معظم وقته ينسخ المخطوطات والنقوش والرسومات على القبور في كل من العلا ومدائن صالح، وأرسل صوراً منها إلى باريس. ويبدو أن هذه النقوش والآثار والخرائب قد شجعته ليمضي سنتين متنقلاً بين نجد والحجاز وشمال الجزيرة العربية.

يبدو أن التصريح بدينه قد جر عليه تعديات مضيفه المراكشي الذي هجم عليه أكثر من مرة وهو يصور ويخطط، فنتف شعر لحيته، ولكن دوتي لم يقدم سبباً وجيهاً لقراره بعدم العودة إلى دمشق مع الحجاج؟!.

شارك دوتي البدو في ترحالهم، وهم يقطعون المسافات الطويلة بدون ماء أو طعام، فمرافقه الجديد هو البدوي «زيد» بوجنتين بانت عظامهما، وعينين غائرتين حادتين بسبب المجاعة، فجل الغذاء التمر والقهوة والتبغ، وكم من مرة يدعوه البدو إلى دين الإسلام فيأبى، وتعرض عليه الأموال والزوجة فيرفض بشدة؛ فيسمع منهم كلمة «اخس.. اخس»... مشوا إلى تيماء فوصلوا إليها أواخر فصل الربيع... ففي أبريل أخذ دوتي يلهث ويضعف يوماً بعد يوم، وقبل العودة إلى مدائن صالح قرر السفر إلى ساحل البحر الأحمر ليستقل مركباً إلى مصر، ولكن رفاقه في السفر أهانوه ومنعوا عنه الماء، ولا أدري كيف أمضى أربعة أشهر في منطقة «الحرّة» في براري كالحة مليئة بالصخور الحديدية البركانية السوداء، والقليل من السكان.

وفي شهر أكتوبر قصد دوتي مدينة حائل في جبل شمر عندما كانت تحت حكم محمد بن عبدالله الرشيد فاستقبله الأمير بلباقة، وقال بأنه كان سيمنح مكانه عالية لو أنه أسلم، ولكن الناس من حول ابن

رشيد كانوا عدوانيين لكل مسيحي - كما يروي -، واعتبروا أن وجوده بينهم هو بمثابة إهانة لدينهم.

قال له الأمير: من أنت؟، ومتى جئت لحائل؟ قال دوتي: أنا الحاج خليل، نصراني سوري يا طويل العمر[1]. فشك به الأمير وقال والله أشك بأنك سوري.. تعرف تقرأ وتكتب؟ قال: نعم يا طويل العمر، فجاؤوا له بكتاب عربي قرأ منه صفحة باللغة العربية.

قال الأمير: كم صار لك مع عنزة ومن شاهدت منهم؟ قال دوتي: سنة قضيتها كلها ما بين خيبر وتيماء وأطراف المدينة. ما هو رأيك بعنزة؟ فأجاب دوتي بما يرضي الأمير في هذا المجال. وقال أيها الأمير إني خبير بالطب ولدي علاجات.. فبقي دوتي مدة في مدينة حائل يجالس الناس ويشرب القهوة العربية. ومن المتاعب التي واجهها كما ذكر مجاهرته بدينه مما كان يغضب جلساءه، ففي مرة جلس صباحاً في مضافة ابن رشيد في حائل وقام «القهوجي» يصب للرجال القهوة.. ولما وصل خليل النصراني تخطاه ولم يقدم له شيئاً، قال خليل: أنا ضيف الأمير أعطني القهوة. فقام «القهوجي» إلى عود من الحطب وضرب به دوتي قائلاً: «كافر ولسانك طويل» وإذا بالدم يجلله فنهض دوتي راكضاً واندفع من باب إلى باب في القصر وإذ به وجهاً لوجه مع الأمير محمد عبدالله الرشيد يجلس على قطيفة... فقال ما هذا؟! قال دوتي يا طويل العمر خادمك راعي القهوة.. فصاح الأمير «أنا أخو نورة».. خادم يضرب ضيفي ويسيّل دمه ببيتي؟! أين العبيد؟ هاتوا السلاح «جيبوه ملعون الوالدين» فجاؤوا به محمولاً لا يقوى المشي من خوفه، ووضعوا السيف على حلقة يريدون ذبحه، فقام حمود ودوتي وشفعا له عندالأمير، وفي كل مرة كان الأمير يتدخل

(١) تمت المقابلة بحضور حمود بن عبيد ابن رشيد، محافظ حائل ونائب الأمير.

لحماية ضيفه، وأخيراً زوده برسالة وأمره بالرحيل بعد أن مضى على وجوده في الجزيرة العربية عاماً كاملاً.

كانت جهته هذه المرة مدينة خيبر، فوجدها باردة رطبة غريبة الأودية، ووجد أميرها زنجياً يمثل الحكومة التركية.. كان أمياً ولهذا جهل مهمة ضيفه فأخذ نقود دوتي وأوراقه وبعث بها إلى الباشا في المدينة، مما اضطر دوتي للعمل كفلاح أو بستاني مع جندي متقاعد يدعى «محمد النجم» منتظراً أسابيع طويلة حتى تعود إليه أوراقه وأدواته... لقد ترحم على هذا الرجل عندما سمع من فيلبي الذي زار المنطقة بعد سبعين عاماً أن النجومي قد قتل. أعاد له الأمير أوراقه وأمره أن يرحل باتجاه حائل فرفض حتى استعاد جميع نقوده؛ ثم انطلق في رحلة غير مريحة حيث عطش في الطريق وشرب ماءً يتلوى به الدود، وتشاجر مع مرافقه وتبادل معه اللكمات، ولما دخل مدينة حائل ثانية في أبريل من عام ١٨٧٨م وجد الأمير يقود حملة بعيداً عن المنطقة فاستوحش كونه فقد حمايته... لقد عبث الصبيان بحوائجه، وتعرض للسخرية، وقد أحضر أحدهم سكيناً وأراد ختانه بالقوة، فترك المدينة حالاً برفقة من جاؤوا به من خيبر، وقد تعثر وهو يجري وراءهم فوق الحجارة المحرقة، وتعرض له بعض الناس في الطريق ولكن امرأة بدوية أنقذته.

وأخيراً وجد أدلاء ليأخذوه باتجاه الجنوب الشرقي إلى «بريدة» فقام عند أحد الوجهاء اسمه «حسن» وادعى أن الناس قد اعتدوا عليه وسلبوه ولكن مضيفه رد إليه ما سلب منه. ودوتي كيونس المصري أورد في مذكراته حادثة مثيرة مفادها: «أن فتاة عربية جاءته ليلاً وهي تنادي «يا خليل.. يا خليل» بصوت خافت فقال لها مكانك هذا مكان «للرجاجيل» اذهبي إلى مقر الحريم وإلا ناديت صاحب الدار!

فسمع رجالاًيتحدثون خلفها، عندها أدرك أنهم يريدون قتله بحجة ضبطه مع هذه المرأة، فرحل إلى مدينة عنيزة وقد أفلس تماماً، ولكن العادات العربية أنقذت حياته، فقد نزل ضيفاًفي الطريق على كل بيت صادفه حتى وصل إلى «زامل» من أهل عنيزة، فعاش في بستان خارج المدينة لمدة ستة أسابيع، ووصف الثراء والتجارة المزدهرة في عنيزة واستقبل هناك بعض الزوار، ولما جاء يوم الخامس من يوليو «تموز» عام ١٨٧٨م ترك المنطقة نهائياً سائراً في طريق الطائف مع قافلة يقودها رجل من أشراف مكة اسمه سالم، فازداد مرضه إذ شعر بآلام القرحة، وهو يعاني من عضة كلب عضه في الطريق... وعندما علم سالم بأنه مسيحي طلب منه أن يسلم؛ فرفض؛ فضربه مراراً وأراد أن يخنقه، وتحت أماكن ظليلة من الأشجار جُرد من مسدسه وأدواته، وأدرك أنه يسير نحو حتفه، ولكنه عندما وصل الطائف وجد فيها الشريف «ابن عون» فاستقبله وأكرمه حتى استعاد صحته ثم أرسله إلى جدة بسلام في الثالث من آب ١٨٧٨م. حيث دخل إلى القنصلية البريطانية. هذه هي قصة هذا الرحالة رويتها بإيجاز من آثاره المكتوبة ومن الترجمات المتناثرة في هذا المصدر أو ذاك، وهو المسؤول عن كل ما ذكر فيها من حيث الصدق أو الكذب، أما حياته بعد عودته إلى بلاده، فقد تزوج فور عودته، وقد كان البدو يعيرونه بأنه قد أجَّر زوجته في بلاده وارتحل، وإلا كيف يصبر عنها وتصبر عنه كل هذه المدة الطويلة.. وبعد ذلك أخذ يكتب الشعر والمذكرات.

وعلى الرغم من أن كثيراً من البدو أكرموه، وعدد من أساء إليه لا يقارن بعدد من أحسن إليه، فقد ترفعت عن ذكر السباب والشتائم التي وجهها للسكان في الجزيرة العربية... ويبدو أنه هوَّل وضخم

روح العداء الذي لاقاه كمسيحي في ديار العرب، وقد رأينا في البحث السابق روح التسامح الديني في المنطقة التي تجول فيها دوتي، فذكرها الرحالة المبشرون إذ لم يتعرض لهم أحد، وفي الحقيقة أن دوتي قد صدم وغضب عندما رأى الجزيرة العربية مأهولة بأناس مسلمين يختلفون كل الاختلاف عن تراث الغرب المسيحي؛ ولهذا بالغ في إتهام أهل المنطقة بالتعصب الديني، ليبرر ندرة من يدينون بدينه في الجزيرة العربية.

تمخضت رحلة دوتي عن كتاب مذكرات اسمه «الصحراء العربية»، وصفه لورنس بالواقعية، بينما لم يكن أكثر من مذكرات رجل مسيحي متعصب، سردها بمنهج إنجيلي، ولكن بأسلوب أدبي رفيع.. فعلى الرغم من شمس الصحراء التي لوحته وحولته إلى رجل أسمر، واللباس العربي الذي جعله عربياً بعض الوقت، والزاد العربي الذي شبع منه في الصحراء، فقد شتم العرب في أكثر من موضع في كتابه، ولكننا لا نغفل أهمية بعض الأحداث التي دونها عن تاريخ الجزيرة العربية.



دوتي يجلس وحيداً في الصحراء.. صورة عن مذكرات بعض الرحالة.

بنيامين التطيلي

Benjamin of Tudela

١١٦٥ - ١١٧٣م

تُعَدّ كتب الرحلات ويوميات السفر من أهم الوثائق المعمول بها في كتابة التاريخ قديمه وحديثه، ومن هذه الكتب كتاب رحلة بنيامين التطيلي اليهودي الأندلسي، كأول رحالة أوروبي من غير المسلمين والمسيحيين جاوز الفرات حتى وصل إلى بغداد وبلاد الفرس في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد عني هذا الرحالة بشؤون اليهود في أوروبا وفي مصر وبلاد الشام وجزيرة العرب، حيث تناول مذاهبهم وتوزعاتهم وأعدادهم ونشاطاتهم الاقتصادية: الصناعية والتجارية. ونحن إنما نعرف به لقلة من غطوا نشاطات الرحالة اليهود، ولأهمية الرحلة بآن واحد. فالقائم بالرحلة هو الربي[١] بنيامين Benjamin بن يونة Jonah التطيلي[٢] النباري[٣] الذي ارتحل من بلدة تطيلة Tudela في الأندلس، وجاب: جنوب فرنسا، وإيطاليا، واليونان، والقسطنطينية وبلاد الشام، والعراق، وبلاد العجم، والجزيرة العربية، ومصر، وعاد إلى الأندلس عام ١١٧٣م، وروي أنه كان مغرماً بالترحال حيث أمضى من عمره خمسة عشر عاماً زار خلالها ما يقرب من ثلاثمائة بلد في مختلف بقاع المعمورة؛ ولهذا قال فيه ابن زريق البغدادي:

«كأنما هو في حل ومرتحل، موكل بفضاء الأرض يذرعه»، وقد تضاربت الآراء حول بداية ترحاله، ولكن أقرب الروايات تفيد أنه

---

(١) الربي: مصطلح عبري يعني السيد أو الأستاذ يلقب به اليهود علماءهم ووجهاءهم.

(٢) التطيلي: نسبة إلى مدينة تطيلة شمال الأندلس.

(٣) النباري: نسبة إلى نبارة أو نبرة، كورة أندلسية قريبة من الحدود الفرنسية يرويها نهر إبرة».

ارتحل في بلاد الشرق في الفترة من ١١٦٥ - ١١٧٣م، فقد سبق ابن جبير في رحلته بسبعة عشر عاماً، وقبل رحلة «ماركو بولو» البندقي بأكثر من مئة سنة، وقبل رحلة ابن بطوطة بمئة وستين عاماً، في وقت كانت فيه دمشق حاضرة «نور الدين زنكي»، ومصر تحت حكم الفاطميين، وبغداد تحت حكم الخليفة المستنجد العباسي، كما يذكر الجزيرة العربية باسم صحراء اليمن، ويشكك بعض الباحثين في أنه وصل إلى اليمن وخيبر في الجزيرة العربية!

والتطيلي واحد من الرحالة اليهود الذين خالطوا عرب الأندلس في عصورهم الذهبية، وتأثروا بتفكيرهم ومنهجهم العلمي، كما أعجب بالأسفار البعيدة التي قام بها الرحالة المسلمون العرب مثل: المقدسي وغيره. وعندما شرع في الرحلة جعل من أهدافه الهامة:

١ - الاطلاع على أوضاع اليهود في بلاد المشرق الإسلامي.
٢ - زيارة بيت المقدس، والوقوف على أضرحة الأنبياء والصالحين الذين ذكرتهم كتب اليهود المقدسة.
٣ - التعرف على المدن الهامة ذات النشاط الاقتصادي المزدهر؛ لتأمين الأسواق الاقتصادية لليهود، وتنمية تجارتهم.

واليهود كانوا ولا يزالون رواد التجارة والاقتصاد في كثير من بلدان العالم. ففي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه: «.. إنهم يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور، ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون الفرما، يحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم[١]. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والحجاز. ثم يمضون

---

(١) القلزم: البحر الأحمر، والفرما مدينة تلقاء مصر.

إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين: المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك. ويرجعون إلى القلزم. ثم يتحولون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي، فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم. وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة فباعوها هناك. وإن شاؤوا حملوا تجارتهم في البحر الغربي فخرجوا بأنطاكية. فكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية. وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الراهدانية أو الراذانية».

وفي كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني أن المسلمين كانوا يطلقون على هؤلاء التجار اسم: «تجار البحر»، ويشير البيروني إلى أن بلاد كشمير كانت مغلقة الأبواب في وجه جميع التجار الأجانب، بينما يدخلها بعض التجار اليهود.

إن روح التسامح في ديار الإسلام جعلت الرحالة والتجار اليهود يهاجرون من الغرب إلى الشرق، لأن أيام القرون الوسطى كانت شديدة الوطأة على اليهود في الغرب، حيث الاضطهاد والتقتيل والتشريد. لقد عانت العناصر اليهودية من مذابح ارتكبها الصليبيون في حوض الراين في بداية الحملة الصليبية الأولى، وكذلك خلال الحملة الصليبية الثانية، وحتى الديار المقدسة في فلسطين أبعد اليهود عنها. وفي الوقت الذي كانت فيه محتلة من قبل الصليبيين، لم يكن في القدس أكثر من أربع أسر، وقيل مئتان. ولأن يهود المشرق أسعد حظاً، فقد احتضنهم المجتمع الإسلامي، ووجدوا فرصة كبيرة للعيش في أمن وسلام داخل المدن الإسلامية، وخاصة أن تلك المدن مثل: دمشق وحلب وقعت على خطوط التجارة العالمية. فكانت مراكز بالغة الأهمية لحركة التجارة القادمة من آسيا والمتجهة إلى أوروبا.

لقد كان اليهود في المشرق أهل تجارة يملكون السفن، وأصحاب صناعة كصناعة الزجاج النفيس في مدينة صور، والصباغة في بيت

المقدس، حتى صارت في تلك المدينة منحصرة فيهم. ويكفي أن نطالع أعداد اليهود التي ذكرها بنيامين في المدن الإسلامية، ونقارنها بالأعداد التي ذكرت في المدن التي يسيطر عليها الصليبيون؛ لندرك حقيقة الرفاهية والاندماج في المجتمع الإسلامي والرعاية التي كان يحظى بها اليهود في المجتمع الإسلامي، فهل يحظى المسلمون العرب بين اليهود اليوم مثل ما كان أجدادنا يحيطونهم به في الماضي؟!.

طبعت رحلة بنيامين لأول مرة بالعبرية في «استانبول» عام ١٥٤٣م، ولأهميتها ترجمت إلى عدة لغات عالمية، أما إلى اللغة العربية فقد قام بترجمتها الأديب اليهودي البغدادي عزرا حداد، وزودها بحواشي مستفيضة، وأغناها بالشروح وهو الخبير باللغة العبرية وآدابها، وبتاريخ اليهود وشرائعهم ومذاهبهم، وقدمها هدية للمحسن اليهودي «عزرا مناحيم دانيل» وقدم لهذه الترجمة المؤرخ عباس العزاوي عام ١٩٤٥م ومنها أعرف القراء بالمحتوى والمضمون.

أولاً - من الناحية العددية : أعطى بنيامين أرقاماً محددة لعدد اليهود في أشهر المدن الإسلامية، إلا أن هذه الأرقام يجب أن لا ينظر إليها كحقيقة مؤكدة، فعصر بنيامين لا يعرف الإحصاء الدقيق، وليس بمقدور شخص واحد أن يحصي مثل هذا العدد، وربما بالغ في طرح بعض الأعداد، وفي الصفحة التالية إحصائية لعدد اليهود في بعض المدن جمعت من المحتوى.

ثانياً - التاريخ والأحداث : بطبيعة الحال كانت الرحلة رحلة دينية بحتة كرست لأحوال اليهود في بلاد الشرق، ولكنها لا تخلو من الطرف والأحداث والوصف لبعض المدن، والجماعات والفرق، والولاة والخلفاء من غير اليهود. ومشكلة بنيامين أنه يورد العبارة مباشرة دون تنميق أو تزويق، والقارئ الذي

يود الاستفادة عليه أن يكون ملماً بالتاريخ اليهودي والمصطلحات اليهودية التي اقتبسها بنيامين من الكتاب المقدس، والتلمود وغيرها من كتب اليهود... ومن غير المعقول أن نغطي كامل صفحات الكتاب، ولكن أتوقف مع القراء في محطات خاصة مثيرة أراها تخدم غرض الترحال وأبحاث الرحالة التي وضع الكتاب من أجلها.

اسم البلد أو المدينة	عدد اليهود	اسم البلد أو المدينة	عدد اليهود
القسطنطينية	٢٥٠٠	الأنبار (على الفرات)	٢٠٠٠
أنطاكية	١٠	بغداد	٤٠٠٠٠
بيروت	١٠	الفلوجة (الفرات)	٥٠٠٠
صور	٤٠٠	بابل	٢٠٠٠٠
عكا	٢٠٠	الحلة	١٠٠٠٠
اللد	١	الكوفة	٧٠٠٠
نابلس	–	واسط	١٠٠٠٠
بيت لحم	١١	البصرة	١٠٠٠٠
الخليل	–	خوزستان	٧٠٠٠
الرملة	٣٠٠	العمادية	٢٥٠٠٠
عسقلان	٢٤٠	جزيرة قيس (على الخليج)	٥٠٠
دمشق	٣٠٠٠	سمرقند	٥٠٠٠٠
تدمر	٢٠٠٠	حلوان	٣٠٠
حمص	٢٠	الفيوم	٢٠٠
حلب	١٥٠٠	مصر (القاهرة)	٢٠٠٠
جعبر (على الفرات)	٢٠٠٠	دميرة	٧٠٠
الرقة	٧٠٠	الإسكندرية	٣٠٠٠
جزيرة ابن عمر (الدجلة)	٤٠٠٠	دمياط	٢٠٠
الموصل	٧٠٠	القدس	٢٠٠
الرحبة (على الفرات)	٢٠٠٠	أصفهان	١٥٠٠٠
قرقيسيا (على الفرات)	٥٠٠	شيراز	١٠٠٠٠
		القطيف (على شاطئ الخليج)	٥٠٠٠

الكوارث الطبيعية : يذكر بنيامين أن طرابلس الشام قد أصيبت بزلزال شديد قتل كثيراً من الناس قال:

«وقد أصاب طرابلس قبل مدة وجيزة زلزال شديد أدى إلى هلاك خلق كثير من اليهود وغيرهم، انهارت عليهم الدور والحيطان فطمرتهم. ونيف عدد من هلك بهذا الزلزال في فلسطين وحدها العشرين ألفاً». كما أهلك في حماة خمسة عشر ألفاً في يوم واحد، ولم يبق منهم إلا سبعون نفساً، ويبدو أن هذا الزلزال هو الذي أصاب بلاد الشام عام ٥٥٢هـ - ١١٥٧م فدمر حماة وأنطاكية وحمص واللاذقية وغيرها من المدن الشامية، ولا أدري فيما إذا كان هو الزلزال الذي أشار إليه ابن الجوزي في «المنتظم» أنه حدث يوم الخميس الموافق ٢١ رجب سنة ٥٥٢هـ - ٢٩ آب عام ١١٥٩م وضرب حماة وشيزر وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وأنطاكية وغيرها من البلاد، فأسقط الأسوار والقلاع، وهدم الدور فوق رؤوس ساكنيها؟! وقد اشتهرت هذه المنطقة بكثرة الزلازل في الماضي (حمانا الله منها) ففي مخطوطة قديمة وصف لزلزال مماثل حدث يوم الخميس من كانون الأول سنة ١٠٣٣م «إذ خرج الناس من البيوت إلى الشوارع، عندما رأوا الجدران تتداعى والسقوف تنفر من أعالي الحيطان، والأبنية المتينة تتساقط، والبيوت الجديدة تنهار، والناس يموتون تحت الأنقاض... خرج الناس من بيوتهم لا يلوون إلى شيء، تاركين وراءهم ما ملكوه من حطام أملاً بالنجاة بأنفسهم. وحيثما توجهوا كانوا يشهدون آيات الله. فالحيطان تتناطح ثم تتناثر، وما بقي منها واقفاً ظل مشققاً مائلاً.. وخرجت العقول من الرؤوس لهول ما رأته العيون وسمعته الآذان.. كان ذلك عند مغرب الشمس وعلى حين غرة، في الرملة وفي كل فلسطين.. رأينا الجبال ترتعش، تتراقص

كالحملان، صخورها تتفجر وآكامها تنود وأشجارها تنطوي، ومياه الآبار تغيض. إن اللسان ليقصر عن التبيان».

موكب الخليفة : والخليفة الذي يتحدث عنه بنيامين التطيلي هو المستنجد بالله العباسي، الذي يروى أنه كان من أفضل الخلفاء الذين رفضوا المظالم وأزالوا المكوس، وضربوا على أيدي أهل العبث والفساد، بالإضافة إلى ثقافته العالية وعلمه بالفلك وبقية العلوم، قال:

«أمير المؤمنين العباسي هو إمام الدين الإسلامي، يدين له بالطاعة ملوك المسلمين قاطبة. فهو بمقام البابا عند النصارى، وقصر الخلافة واسع الأرجاء، تنوف استدارته ثلاثة أميال. تتوسطه روضة غناء فيها أشجار مثمرة وغير مثمرة من كل صنف. وفيها من الحيوان ضروب كثيرة. وفي الروضة بحيرة واسعة يأتيها الماء من دجلة، يخرج إليها الخليفة للصيد والنزهة، وقد جمعت فيها أصناف الطير والسمك لرياضة الملك ووزرائه ورجال بطانته وضيوفه.

وفي هذا القصر يعقد الخليفة العباسي الكبير مجلس بلاطه، كان حسن المعاملة لليهود، وفي حاشيته عدد منهم، وكان عليماً بمختلف اللغات حتى العبرية... ومن عادة الخليفة أن لا يبارح قصره إلا مرة في العام، في العيد الذي يسميه المسلمون عيد رمضان[1]، فيحتشد الناس من أقاصي البلاد ليحظوا بمشاهدته. يمتطي الخليفة عند خروجه جواداً مطهماً، مرتدياً بردته المقصّبة بفضة وذهب، ومتوجاً الرأس بقلنسوة مرصعة بالأحجار الكريمة التي لا يعدلها ثمن. وفوق القلنسوة قطعة قماش سوداء اللون، فيها ما يشير إلى التواضع، وفيها موعظة للناس بأن هذه الأبهة كلها سيغشاها السواد عند انقضاء الأجل.

---

(١) المقصود هو عيد الأضحى وليس عيد الفطر، فالأضاحي تنحر في عيد الأضحى عند المسلمين.

فيتحرك ركب الخليفة يحف به نبلاء المسلمين وسراتهم، وكلهم رافل بالحلل الزاهية فوق صهوات الخيول. وهم أمراء العرب وعظماء الترك والديلم وفارس ومادي والغز والتبت ونواحي سمرقند التي تبعد ثلاثة أشهر عن بلاد العرب. فيتوجه الموكب إلى المسجد الجامع للمسلمين في باب البصرة. وتزين جميع الطرق والأسواق التي يمر بها أبدع زينة بالأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية. فيستقبله الناس بالهتافات والتهاليل، خارجين بين يدي هذا الملك الذي يسمونه الخليفة، وهم ينادون: السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام، والخليفة يرد عليهم التحية بلثم أطراف بردته والتلويح بها. فإذا ما دخل الجامع، يرتقي منبراً من خشب، فيشرع في إلقاء خطبته على الجماهير ويفسر لهم أحكام شريعتهم. ثم ينهض كبار المسلمين يرتلون الدعاء له ويشيدون بعظمته وفضله، فيهتف الجميع «آمين» ثم يمنحهم الخليفة مباركته ويؤتى له بجمل ينحره، وهذا قربان العيد عنده. فيوزع اللحم على العظماء والأمراء. والسعيد منهم من يذوق أضحية خليفته. وبعد هذا يبارح الموكب المصلى...» ويذكر بنيامين أن عدد اليهود في بغداد كان حوالي الأربعين ألفاً يرأسهم الربي دانيال بن حسداي الملقب بسيدنا رأس الجالوت، وهو منصب كان معترفاً به عند خلفاء بني العباس، ويسميه المسلمون «سيدنا ابن داوود» لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى نبي الله داوود عليه السلام. ويستمد صاحب هذا المنصب من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين، وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة، ويسري نفوذه على جميع اليهود في بلاد الشرق.. ويجري الاحتفال بتنصيب رأس الجالوت الجديد بمهرجان مشهور. إذ يبعث إليه الخليفة بإحدى ركائبه الملوكية، فيتوجه إلى قصر الخلافة، ومعه الهدايا والتحف النفيسة

للخليفة ورجال قصره. وعندما يمثل بين يدي الخليفة، يتسلم منه كتاب العهد، ثم يضع أمير المؤمنين يده على رأس الرئيس الجديد، ومن ثم يعود إلى داره بموكبه الخاص وحوله الجماهير الغفيرة، تنفخ أمامه الأبواق وتقرع الطبول.

هذا هو حال اليهود وهم ينعمون بالطمأنينة في حاضرة الخلافة العباسية، بينما كانوا مضطهدين في القسطنطينية عندما كانت قاعدة دولة الروم[١] المعروفين بالإغريق تحت قيادة الامبراطور «مانويل الأول» والروم أهل هذه المملكة كانوا معروفين بالغنى والمال الكثير من ذهب وجواهر، يرتدون الحلل الزاهية من حرير مقصب بالذهب وسائر المعادن النفيسة، حتى لتحسب الواحد منهم وهو ممتط جواده أميراً خطيراً. والمملكة واسعة الأرجاء ذات ثروة عظيمة وأهلوها يعيشون بنعمة وترف، ولهم حذق بالعلوم اليونانية.

يستأجر الروم جماعات من الأقوام الأجنبية المعروفة بالبربر، يستعينون بهم على مناجزة التوغرمين[٢] المعروفين بأبناء الترك، لأن الترف يقعد الأهالي عن الحرب والقتال، ويجعلهم واهني العزيمة مثل النساء. وتدل الوثائق اليهودية أن قياصرة الروم كانوا بشكل عام يعاملون اليهود معاملة سيئة، فالقيصر «باسليوس» عندما اعتنق النصرانية أجبر كل الناس على اعتناقها، ومن يأبى يقتل، فلم ينج من اليهود سوى عدد ضئيل بوساطة الشاعر الطبيب اليهودي «شفطية» الذي شفى ابنة الامبراطور من مرض الجنون، فلما فتح العثمانيون المسلمون المدينة في أواخر القرن الخامس عشر منحوا يهودها

---

(١) ظلت هذه المدينة عاصمة الإمبراطورية الرومية الشرقية (بيزنطة) حتى يوم ٢٩ حزيران عام ١٤٥٣م عندما فتحها الأتراك العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح.

(٢) التوغرمين: مصطلح يطلق على السلاجقة الأتراك.

الحرية المطلقة، واعترفوا برئيس حاخاميها ممثلاً لشؤون اليهود في بلاط السلطنة، واحتل اليهود مناصب هامة في الدولة أمثال: موسى هامون طبيب السلطان سليم الأول، وولده يوسف هامون طبيب السلطان سليمان القانوني، ويوسف دوق ناسوس وزير السلطان سليم وغيرهم.

يقيم اليهود في حي منعزل في القسطنطينية، وراء خليج مرمرة الذي يفصل بينهم وبين المدينة... وفي هذه المدينة نحو من ألفي يهودي، يحترف أغلبهم حياكة أثواب الحرير، وبينهم التجار ذوو الثروة الواسعة. ويلحق باليهود أذى شديد من قبل السكان، فهم لا يركبون الخيل باستثناء طبيب الملك الخاص اليهودي سليمان المصري، وبفضل نفوذ هذا الرجل يتمتع اليهود ببعض الامتيازات وسط موجة من الاضطهاد الذي يحيط بعامة اليهود، وخصوصاً عمال الدباغة الذين كانوا يسكبون المياه الآسنة في الأزقة والشوارع المحاذية لمحلات الدباغة الخاصة بهم، فيزداد كره الناس لهم، فيصبون جام غضبهم على اليهود البرئ منهم والمذنب إذ كانوا يضربونهم على رؤوس الأشهاد، ويعاملونهم معاملة قاسية. ويعرف حي اليهود في هذه المدينة باسم حي البيرة.

الفتن والثورات : لم تخل مذكرات بنيامين التطيلي من أخبار الفتن والثورات، وقصص الخارجين على القانون، ونوادر المشعوذين في الوطن العربي المسلم، ونذكر منها:

(أ) جماعة الحشاسين : تعرض بنيامين لبعض القوى الدينية مثل الإسماعيلية النزارية والدروز، وقد اشتهر عناصر النزارية في القرن الثاني عشر بطاعتهم العمياء لقادتهم، فلو أمر أحدهم أن يتردى من جبل شاهق لفعل، وقد نشطوا لاغتيال خصومهم من الفئات

الأخرى والسياسيين[1] وممن اغتالوه من الأجانب الأمير الإنكليزي: إدوارد عام ١١٧٤م، ومن الولاةوالحكام المسلمين العرب:

١ - جناح الدولة حسين صاحب حمص عام ١١٠٣م.
٢ - خلف بن ملاعب صاحب أفامية عام ١١٠٥م.
٣ - شرف الدين موذود أتابك الموصل عام ١١١٣م.
٤ - أحمد بل صاحب مراغة عام ١١١٤م.
٥ - اقسفقر البرسقي أتابك الموصل عام ١١٢٦م.

وعلى الرغم من أن الإسماعيلية النزارية قد تحالفت مع الصليبيين بعض الوقت، إلا أن بعض القيادات الصليبية لم تسلم من الموت طعناً بخناجر الفداوية مثل: أمير طرابلس ريموند الثاني عام ١١٥٢م، وكونراد المونتفرتي عام ١١٩٢م، وأشار إلى هذه الطائفة الإسماعيلية المعروفة ابن بطوطة في رحلته، وذكر بعض حصونهم في القصير، والقدموس، ومصياف. قال ابن بطوطة: «وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه... ولهم مرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوله أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده. ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله» كما ذكرهم «ماركو بولو» في حديثه عن بلاد الشام، ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن قيادة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، في الوقت الذي قام فيه بنيامين التطيلي برحلته تمثلت في راشد الدين سنان[2] الذي تمكن من السيطرة الكاملة على أتباعه، وقدر له أن يتولى قيادتهم لأمد طويل

(١، ٢) الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩ - ١١٨٧م. مكتبة مدبولي، القاهرة.

بلغ ثلاثين عـامـاً (١١٦٣ - ١١٩٣م) واسـتطاع أن ينافس القـيـادة الإسـمـاعـيلية الأم في قلعـة «ألمـوت» في بلاد فـارس، وأوجـد مـذهبـاً خـاصـاً به في الشـام عـرف بالسنانية، وعـد في ذلك الوقت من أقـوى قيادات الإسماعيلية في الشام خلال عصر الحروب الصليبية.

إن التطرف ليس جديداً في تاريخ هذه الأمـة، كمـا أن الاضـطهـاد الفكري لم يكن نادراً بل مـارسه كثير من الخلفاء والولاة، ولا أريد أن أخـوض في فلسفة النزارية الإسـمـاعيلية ولكني أورد مـا سـاقه المؤلف عنهم وهو في مـعـرض الحـديث عن منطقـة جـبلة السـورية. قـال: «وبظاهرها تقـيم الطائفـة المـعـروفـة بالحـشـيشـيين. وهـم زنـادقـة لا يؤمنون بدين محمد[١]، ويتبعون تعاليم شيخهم «قرمط» يطيعونه طاعة مطلقـة للمـوت أو للحـيـاة. يأتمـر بأمـره سكان الجبل ويسمـونه شـيخ «الحشيشيين» أما مقامه فحصن يدعى القدموس. وهؤلاء الحشيشيون متضـامنون مع بعضـهم إذعاناً لتعاليم شيخهم. حتى إنهم ليضـحـون بالنفس طوعـاً، ويفـتكون بالملوك والأمـراء إذا اقـتـضـى، ومـسـيـرة أراضـيهم ثمانية أيام، وهم في نزاع مستمر مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشـام».

ويربط بنيامين بين دعوتهم وحمدان بن قرمط[٢] أي أنهم بالأصل الفكري قـرامطة. قـال فـخـر الدين الرازي: «كـان حـمـدان قـرمط رجـلاً متوارياً صـار إليه أحد دعاة الباطنية، فدعاه إلى معتقدهم فقبل الدعوة، ثم صار يدعو الناس إليها فضلّ بسببه خلق كثير، واجتمع منهم قوم وقطعوا الطريق على الحج وقتلوهم. وأرادوا أن يخربوا مكة فدفع الله تعالى شرهم، وقتلوا عاقبة الأمر».

(١، ٢) إن تاريخ النزارية الإسماعيلية معروف في كتب التاريخ العربي القديمة وفي آثار المعاصرين أمثال: عبدالرحمن البدوي، وحسن إبراهيم حسن، والدكتور عارف ثامر.

إن عناصر الإسماعيلية النزارية قد لعبت دوراً بالغ الخطورة في بلاد الشام، وجاءت انطباعات الرحالة الأندلسي بنيامين التطيلي لتوضح دورهم التاريخي، لقد عملوا على تصفية المخالفين والمعارضين لهم جسدياً، كما أرهبوا الآخرين، وفرضوا سيطرتهم وسطوتهم بالقوة المسلحة. وبطبيعة الحال قد فتّتْ هذه الفتنة في عضد الأمة الإسلامية، وأضعفت تماسكها في وجه الغزاة الصليبيين».

(ب) **فتنة داوود ابن الروحي** : في تاريخ أمة الإسلام أكثر من رجل ادعى النبوة وزعم أنه المسيح المنتظر. ومن أشهر هؤلاء الأدعياء الذين نشأوا بين اليهود في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى:

١ - دجال ظهر خلال حكم الخليفة عمر بن عبدالعزيز ما بين ٧٢٠-٧٢٤م.

٢ - عبيد الله أبو إسحاق بن يعقوب الأصفهاني في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد.

ومنهم أيضاً داوود بن الروحي الذي يعد بنيامين التطيلي أول المؤرخين اليهود يروي قصته، كما أن العرب لا يعرفون عنه شيئاً سوى ما ورد في رسالة «بذل المجهود في إفحام اليهود» للسموءل بن يحيى المغربي. وفتنة هذا الرجل تذكر في حدود سنة ١١٦٠م، في خلافة المقتضي لأمر الله العباسي، ومسرح هذه الفتنة قلعة العمادية شمال العراق على بعد ١٦٨ كيلومتراً من مدينة الموصل.

إنه داوود بن سلمان المعروف بابن الروحي من أهل الموصل، كان شاباً وسيماً، انتقل إلى بغداد ليتعلم علوم الدين اليهودي، فبرع بعلوم العربية وبالسحر وإتقانه لفنون الشعوذة، ولما عاد إلى العمادية

استخف بعقول الناس وقد شبه لهم أنه يمكنه الوثوب إلى القلعة، وأنه المسيح المنتظر.. وكتب إلى اليهود في كل المشرق الإسلامي أنه جاء لانقاذهم وخاطبهم بأنواع المكر والخديعة، فتبعه خلق كثير من اليهود.. وقد منَّاهم وحدد لهم ليلة يطير بهم في الهواء من العمادية إلى بيت المقدس، ولما استفحل أمره أرسل الخليفة العباسي من يقتله وقيل قتله صاحب العمادية.. هذا هو ملخص السيرة في أحد ملاحق المذكرات، أما بنيامين نفسه فيقول: «وقبل عشر سنوات قامت في العمادية فتنة داوود بن الروحي. وكان قد تلقى العلم في بغداد.. فتضلع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم، وبرع بلغة المسلمين وآدابهم، ونبغ بفنون السحر والشعوذة. فدخل في روعه أن يعلن العصيان على ملك العجم، ويجمع اليهود حوله.. ومقاتلة النصارى المتمكنين من القدس والاستيلاء عليها وطردهم منها. كان يقول: إن الله قيضني لفتح القدس وإنقاذكم من الاستعباد. ومن الأوهام التي يرويها بنيامين عن هذا الرجل أن ملك العجم اعتقله وسجنه مدى الحياة، وبعد ثلاثة أيام وبينما كان الملك في مجلسه طلع عليه داوود بن الروحي طليقاً، فأمر الملك بإلقاء القبض عليه ولكنه توارى عن الأنظار بينما بقي صوته بينهم، فتبعه السلطان إلى شاطئ النهر فرأوه ينشر عباءته فوق الماء ويعبر النهر، وأنه تمتم بتعاويذ ونطق باسم الله الخفي،فقطع في يوم واحد مسيرة عشرة أيام. وقد أصاب اليهود أذى كبير في بلاد العجم، فكتبوا إلى رأس الجالوت ببغداد يستحثونه لإنقاذهم من الهلاك المحقق بأن يرشد داوود إلى طريق الصواب ويحقن الدماء البريئة... فأرسل إليه رأس الجالوت اليهودي في بغداد برسالة، وتوسط لحقن الدماء، لكنه لم يعدل عن زيفه وأباطيله.

وقد جاءت نهاية هذا الرجل على يد أمير من أمراء السلاجقة

الأمير زين الدين، وهو من أتباع ملك العجم. دبَّر مكيدة للقضاء على داوود بن الروحي. فأرسل بطلب حميه ومنحه عشرة آلاف دينار إن هو أجهز على صهره داوود. فدخل عليه، وهو يغط بالنوم في فراشه ،.وهكذا انتهى أمره وتخلص اليهود من شره».

الحواضر والمدن : يعتمد بنيامين أسلوباً واحداً في التعريف بالمدن والحواضر، فهو يبدأ بذكر موقع المدينة أو البلد ثم يذكر أعداد وأحوال اليهود فيها، وقد يعرج على أشهر الأحداث والمعالم بأسلوب يعد غاية بالبساطة، فمن وصفه الموجز لمدينة تدمر قوله: «بناها الملك سليمان بن داوود بظاهر الصحراء وبنيانها من حجارة ضخمة، يستدير بها سور. وهي تبدو مسيرة ثلاثة أيام عن بعلبك. يقيم فيها نحو الألفين من اليهود، وهم أشداء ذوو بأس، يعاونون جيرانهم المسلمين والعرب من أتباع نور الدين في حربهم مع غزاة النصارى، ومن رؤسائهم الربيون: إسحق اليوناني وناثان وعزئيال. ويقال بأن مدينة دمشق هي من أقدم مدن العالم، فتاريخها يعود لأكثر من خمسين قرناً، وينسب بناؤها إلى عوص بن إرم بن سام بن نوح، ويروي ابن خرداذبه إنها إرم ذات العماد المذكورة في القرآن الكريم. أورد نص بنيامين التطيلي في وصفها كمثال على وصفه للحواضر والبلدان.

«دمشق Damascus البلدة العامرة حاضرة نور الدين[1] سلطان التوغرمين المعروفين بالترك. وهي مدينة واسعة الأرجاء، جميلة المنظر، تدور بها الأسوار المتينة. وتمتد رياضها وبساتينها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً من كل جانب. ولم أجد مثل فاكهتها وأشجارها في أي مكان آخر في العالم. وينحدر نحو المدينة نهران

---

(١) هو محمود نور الدين بن عماد الدين زنكي. حكم سورية ما بين ١١٣٥ – ١١٧٣م.

يأتيانها من جبل حرمون هما أبانة وفرفر... ويشرف الجبل على ظاهر البلد. أما أبانة فيجري في داخل المدينة، ويوزع ماؤه على البيوت الخاصة بقناطر تمر بالأسواق والأزقة. وأما فرفر فيسقي البساتين والغياض خارج البلدة.

وفي دمشق جامع للمسلمين يعرف بجامع دمشق[١] لم أجد بناءً آخر يضارعه جمالاً... وفيه من الشمسات بعدد أيام السنة وكل شمسة مقسمة إلى اثنتي عشرة درجة بعدد ساعات النهار تمر منها أشعة الشمس بالتدريج فيعرف الوقت بواسطتها. وبهذا الجامع حياض موشاة بذهب وفضة، مستديرة الشكل. وهي من الضخامة بحيث تتسع لوضوء أشخاص عديدين بوقت واحد. ومن آثار هذا الجامع عظم جسيم، قيل إنه من ضلع أحد العمالقة، طوله تسعة أشبار، وعرضه شبران. ويقال أيضاً إنه من عظام الملك «عاناق» واسمه محفور على حجارة قبره[٢]. وكان هذا الملك يحكم العالم بأجمعه.

ويقيم بدمشق نحو ثلاثة آلاف يهودي، بينهم العلماء وذوو اليسار. وفيها مقام رأس المثيبة[٣] لعلماء فلسطين الربي عزريه ومعه أخوه قاضي القضاة سرشالوم والربي يوسف.. والعميد الواعظ الربي مئير، والطبيب الربي صادق. وفيها نحو المائتين من القرائين[٤] ومن الكوتيين (السامريين) نحو الأربعمائة شخص، وهذه الجماعات على صفاء فيما بينها. لكن أفرادها لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم».

أما الجزر والمدن المطلة على الخليج، فيذكر بنيامين التطيلي أن

---

(١) هو الجامع الأموي المعروف.

(٢) هذا مما سمعه بنيامين في دمشق.

(٣) الميثبة: المجلس.

(٤) انظر المصطلحات والتسميات.

جزيرة «قيس» في شمال الخليج كانت مركزاً تجارياً يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والماش والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر أنواع الحبوب والبقول. ويأتيها تجار الهند بالعطور والتوابل فأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار، وأنه يقيم في هذه المدينة خمسمائة يهودي. كما يصف القطيف في أرض البحرين ففيها خمسة آلاف يهودي، وأهلها يغوصون في البحر لاستخراج الدر من المحار، ففي الرابع والعشرين من نيسان في كل عام تسقط قطرات المطر الكبيرة على سطح الماء، فيلتقطها المحار وينطبق عليها ويغوص في قعر البحر. وفي منتصف تشرين يحضر الغواصون فيربطون حول أحقائهم الحبال فيغوصون في الماء طلباً للمحار، يخرجونه ويفتحونه فيجدون الدر في جوفه.

من طرائف الأخبار : لا تخلو المذكرات من الأخبار الطريفة عن طوائف اليهود وغيرهم، فيهود خوزستان (الإقليم الواقع شرقي شط العرب) اختلفوا بشأن قبر النبي دانيال الذي يعتقدون أنه مدفون في إحدى كنائسهم هناك، ذلك أن اليهود يقيمون بالجانب المعمور من المدينة حيث الأسواق والمتاجر وبيوت الموسرين. أما الجانب الثاني فيسكنه الفقراء الذين لا أسواق لهم ولا متاجر ولا رياض أو بساتين؛ فدفعهم الحسد إلى الاعتقاد بأن هذه الرفاهية التي تعم أهل الجانب الأول إنما جادت ببركة النبي دانيال، وعندهم قبره. لذلك طالبوا بأن ينقل مثوى النبي إلى جانبهم، فأبى أهل الجانب الأول، فنشبت بين الفريقين فتن ومشاحنات دامت أمداً طويلاً، واصطلحوا أن تجمع رفاته وتبقى سنة حولية عند أحد الطرفين ثم تعود إلى الطرف الآخر ويروى أن ملك العجم قام بتعليق الرفاة في موقع وسط بين الحيين.

ويبدو أن بنيامين كان متأثراً بالأساطير وأقاصيص البحارة في القرون الوسطى، ففي أرض الصين التي يعدها وراء البحر المتجمد «عندما تدخل الشمس برج الجبار، يهتاج البحر من عصف الرياح الشديدة، وتطوح بالمراكب نحو البحر المتجمد حيث تستقر مكانها، لا تستطيع حراكاً، حتى ينفد الزاد من الركاب، فيهلكون جوعاً عن بكرة أبيهم. وقد هلكت على هذه الشاكلة مراكب لا حصر لها ولا عد. ويدبر سكان هذه البلاد حيلة يتخلصون بها إذا اهتاج البحر أثناء سفرهم. وحكاية هذه الحيلة أنهم يحملون معهم جرباناً من جلود البقر. فإذا عصفت الرياح وأنذرتهم بقرب الهلاك، دخلوا هذه الجربان ومعهم سكين ماضية، وربطوها من الداخل ربطاً محكماً لكي لا يتسرب الماء إليها. ورموا بأنفسهم في لجة اليم. فيهجم على هذه الجربان طائر عظيم الخلقة يدعى طائر الرخم، ظناً منه أنها جيفة حيوان، فينشب مخالبه الحادة فيها ويحملها إلى اليابسة فيطرحها فوق قمة جبل أو في بطن واد ليأكلها. وعندئذ يخرج من في الجراب سكينه التي يحملها معه فيشق الجلد ويخرج فيستولي الرعب على الطائر ويلوذ بالهرب، وبهذه الحيلة يتخلص الركاب من الهلاك فيعودون إلى الأماكن المأهولة».

ويذكر مترجم المذكرات أن اسم الطائر الذي يقوم بذلك هو «غريفان» واللفظة محرفة عن اللاتينية Gryphon ومعناها طائر الرخم أو طائر الرخ الذي نقرأ عنه في أقاصيص البحارة العرب في القرون الوسطى. ويروي الرحالة الأوروبي «ماركو بولو» أنه شاهد هذا الطائر في بحار الصين، يدفعه الهواء من ملبار إلى مدغشقر، وأنه أضخم من النسر، يحمل الفيل بين مخالبه ويرتفع به في الهواء فيطرحه حتى يتهشم ويشرع في أكله، وهو الوصف ذاته الذي يطلقه القزويني على طائر العنقاء؟!

مصطلحات ومسميات : قلت بأن المذكرات تحتوي تعاريف ومصطلحات خاصة بالمجتمع اليهودي تتطلب من القارئ أن يلم بالتاريخ اليهودي، وبالطوائف اليهودية، مع بعض المسميات الصليبية في فلسطين عندما كانت تحت سيطرتهم. ومن هذه المصطلحات والمسميات:

١ - **الربانيون** : اليهود الذين يتبعون تعاليم التلمود في شرح وتفسير أحكام التوراة.

٢ - **الأبيقوريين** : طائفة من اليهود كانت تقيم في قبرص، ويعرفون بالقرائين، يكرهها اليهود لأن أتباعها ينتهكون حرمة يوم السبت، ويحتفلون بيوم الأحد بدلاً عنه.

٣ - **القراؤون** :ويلقبون بالعنانية، فرقة من اليهود أسسها في العراق «عنان بن داوود» المتوفى بحدود ٧٩٠ - ٨٠٠م نتيجة لخلاف حول توليته منصب رأس الجالوت، ويسمون بالقرائين لتمسكهم بالمعنى الحرفي للتوراة، ورفضهم لما عداها من كتب التشريع اليهودي.

٤ - **البكاؤون** : فرقة من يهود العراق قديماً.

٥ - **الكوتيون أو السامريون** : أتباع فرقة دينية يهودية نسبت إلى بلدة السامرة في فلسطين. تذكر المصادر اليهودية أنهم كانوا من المهاجرين الذين أتى بهم الملك «صرغون» الآشوري من نواحي كوتا، وعندهم أسفار موسى الخمسة بالخط السامري القديم لا يؤمنون بغيرها. كما يعرفون بالهرونية نسبة إلى الكاهن «هرون» وذكر بنيامين التطيلي أنهم يعتزلون سائر البشر لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم، وليس في لغتهم لفظة الإحسان أو الهدي أو التواضع، ويعتبرهم غرباء عن بني إسرائيل، ومن عاداتهم؛ أنهم لا يقربون ميتاً أو عظماً بشرياً أو جثة أو قبراً، وهم يبتعدون عن

كل ما يدنسهم، وإذا قصدوا كنيستهم للصلاة انتضوا عنهم أثوابهم واغتسلوا بالماء واستبدلوها بأثواب غيرها، هذا جاري عادتهم يومياً.

٦ - **الاسبارتية :** فرسان صليبيون ينتسبون إلى مستشفى في القدس الشريف كان قد بناه جماعة من الصليبيين الإيطاليين، وكرسود للتدريب. أسس جماعة المستشفى من الفرسان جيرالد Gerald عام ١٠٩٢م.

٧ - **فرسان المعبد :** طبقة عسكرية من فرسان الصليبيين، كان لهم شأن خطير في تاريخ الشرق الأدنى قروناً عديدة، ويعرفون بفرسان المعبد، تأسست هذه المنظمة في القدس الشريف سنة ١١١٩م بقصد حماية حجاج النصارى الوافدين على بيت المقدس، فجعل للمنظمة نظام خاص عام ١١٢٨م ثم أدخل هذا النظام إلى إنكلترا عام ١١٨٥.. وكان المسلمون يسمون هذه المنظمة «فرسان الداوية».. أُلغي هذا النظام فيما بعد، وانقطعت أخبارها. ولكن يبدو أنها لا تزال قائمة فالقائد البريطاني اللبني عندما دخل القدس وتم طرد العثمانيين منها وصلته برقية تهنئة بالتحرير والاستيلاء على القدس باسم فرسان المعبد.

٨ - **الغاؤونية :** لفظة عبرية تعني العزة أو النيافة، استخدمها اليهود في العصور المتأخرة بمعنى الرئيس أو الزعيم، وأطلقوها على رؤساء مدارسهم الدينية الكبرى.

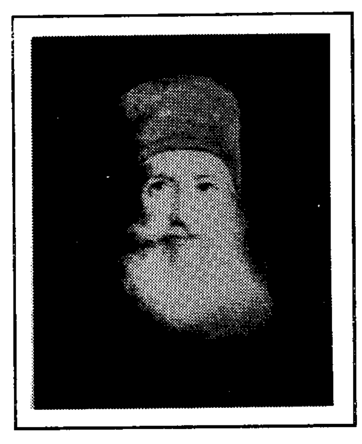
والخلاصة أن رحلة بنيامين التطيلي كانت ذات طابع ديني مكنتنا من الاطلاع على أوضاع اليهود في الشرق من النواحي التجارية والصناعية، ونشاطاتهم الاقتصادية بالإضافة إلى جوانب سياسية أخرى مما هيأ لهذه الرحلة أن تحتل مكانة خاصة في أدب الرحلات.

الكابتن ج. فورستر سادلير[1]

George Forster Sadlie

«بما أن الدرعية... أشبه بتفاحة موضوعة في وسط سجادة، فما علينا إلا أن ندحرجها شيئاً فشيئاً حتى تصبح التفاحة في أيدينا»

● إبراهيم بن محمد علي



محمد علي باشا. (١٧٦٩-١٨٤٩م) ضابط في الجيش العثماني في مصر استولى على الحكم، وقضى على المماليك. أمدته الدولة العثمانية لغزو الجزيرة العربية عام ١٨١١م. قابله أكثر من رحالة منهم: علي العباسي، وبوركهارت وغيرهم.

استمر مد الحركة السلفية الإصلاحية منطلقة من الدرعية عاصمة ابن سعود عام ١٨١٠م وكادت أن تصل بنفوذها أبواب دمشق في بلاد الشام، ولهذا أرسلت الحكومة العثمانية إمدادات إلى محمد علي باشا في مصر عام ١٨١١م وأمرته بغزو الجزيرة العربية والقضاء على الدعوة الجديدة فيها، فنزل طوسون باشا يقود الجيش المصري بثيابه الحمر، وتدريبه وتسليحه الأوروبي المتميز. جرت الحرب بينه وبين عبدالله ابن سعود، فسقطت مدن الحجاز الواحدة تلو الأخرى، وتحالفت بعض القبائل مع الجيش الغازي حتى عام ١٨١٤م. وعلى الرغم من محاولات الصلح إلا أن الأحداث أخذت تتسارع، فعهد محمد علي باشا إمرة الجيش إلى ابنه إبراهيم باشا؛ فاندفع نحو الدرعية في مارس عام ١٨١٨م، فحاصرها ستة أشهر فسقطت بعد أن خلفت المعركة آلاف القتلى والجرحى.

---

(١) تنقصنا كثير من المعلومات عن السيرة الذاتية لسادلير أكثر مما جاء في مذكرات الرحلة.

وأمام هذه التطورات الجديدة قررت الحكومة البريطانية في بومباي أن ترسل ضابطاً من ذوي المهام الخاصة كمبعوث دبلوماسي إلى المنطقة، فوقع اختيارها على الكابتن ج. فورستر سادلير في صيف عام ١٨١٩م الذي انطلق على ظهر بارجة حربية في مهمة خاصة محددة واضحة:

«تهنئة الباشا على النجاحات التي حققها ضد الوهابيين، والتي من نتائجها الاستيلاء على مدينتهم الأساسية «الدرعية»، واستطلاع مدى ميل إبراهيم باشا للتعاون مع الحكومة البريطانية لتخفيف أعمال القرصنة في مياه الخليج العربي»[١]. والقرصنة أو القراصنة Acins مصطلح جديد أطلقه الأوروبيون على قواسم رأس الخيمة، حيث أقضوا مضجع الإنكليز في مياه الخليج والمحيط العربي حتى السواحل الهندية، وعلى غيرهم من المسلمين الذين كانوا يتصدون للنفوذ الأجنبي،ويعتبرون ذلك جهاداً مقدساً.

لقد أرادت الحكومة البريطانية في الهند أن تفاوض إبراهيم باشا بعد وصوله إلى نجد والحسا، ليساعدها في وقف هذا الجهاد الإسلامي، الذي كان يهدد تجارتها من وإلى الهند، وما قصة التهنئة إلا ذريعة لتأمين مصلحة بريطانيا في المنطقة من جهة، واستغلال بعثة سادلير إلى الجزيرة العربية للحصول على مذكرة تفصيلية عن الوضع الاجتماعي للسكان بعد دخول جيش محمد علي إلى الجزيرة العربية، ورصد الجوانب الطبوغرافية، والمسالك والطرق المؤدية إلى أهم التجمعات السكنية فيها.

---

(١) عن كتاب رحلة عبر الجزيرة العربية، لسادلير (مترجم) نشر سعود بن جمران العجمي، الكويت.

ونظراً لجهل السلطات البريطانية في الهند بالمكان الدقيق لتواجد إبراهيم باشا في الجزيرة العربية فقد وجه الكابتن سادلير في البداية إلى عمان لزيارة سلطان مسقط سعيد بن سلطان، والتباحث معه عن كيفية القيام بهجوم مشترك ضد القواسم، وعن إمكانية التعاون مع إبراهيم باشا فيما لو كان ذلك هو الخيار الوحيد المتاح أمام بريطانيا، ولكن سادلير لم يجد الإمام على استعداد لقبول تلك الخطة، بل وجد فقط المعلومات الهامة التي تمكنه من اللحاق بإبراهيم باشا.

شرع سادلير في رحلته في الثامن والعشرين من شهر حزيران (يونيه) عام ١٨١٩م فاجتاز مضارب بني خالد وبلغ الهفوف في واحة الحسا، بعد خمسة عشر يوماً من السفر الممل، وكانت قبيلة بني خالد بقيادة الشيخ ابن عريعر من أقوى قبائل المنطقة، وليس في المنطقة الكثير من المدن، وكانت مدينة الحسا هي مقر الحاكم العام في المنطقة. وجد سادلير أن الإحساء والقطيف كانت تابعة للأتراك، وأن الباشا إبراهيم كان قد ترك المنطقة لجلفائه وانسحب. «كان سادلير الرجل الأوروبي الثاني الذي زار الهفوف بعد رينودي شاتيون ولم يقدم لنا من الوصف سوى ما ذكره عن أسوارها الطينية، وعن قصص الحرب التي تدور في المنطقة وأن في الحسا بحيرات وبعض الينابيع[(١)].

كانت خيبة أمل سادلير كبيرة عندما علم بأن إبراهيم باشا قد رحل إلى المدينة المنورة، وهذا يعني أنه سيواصل السفر ليقطع الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب قاطعاً اثنى عشر ألف ميل عبر البادية العربية من القطيف في الحسا وحتى ينبع على البحر الأحمر. لم ييأس وشد الرحال مع كتيبة للجيش الباشوي إلى سدير، مروراً

---

(١) اكتشاف جزيرة العرب، جاكلين بيرين.

بمنفوحة والرياض، وشاهد الدمار الذي لحق بالدرعية نتيجة للحرب، ثم انعطف في وادي حنيفة وعبر الرمال إلى شقرا، وبعد أن قطع بعض صحراء النفوذ وصل إلى عنيزة، وسمع هناك بأن الباشا كان قد توقف في الرس على بعد يومين للراجل من هناك فأسرع إليها، ولكنه لم يجد سوى الجيش، لأن إبراهيم باشا توجه إلى المدينة وصل هناك متعباً في صيف حار، فواصل السير إلى المدينة، ليقطع المسافة في سبعة أيام، فاحتجز في منطقة آبار علي ولم يسمح له بمقابلة إبراهيم باشا في البداية، وبقي ينتظر هناك أياماً طويلة.. وأخيراً سمح له الباشا بالمقابلة بوساطة من أطباء الباشا الأوروبيين في أيلول «سبتمبر»، فقدم للباشا بعض الهدايا البسيطة التي لم تعجبه، وبدوره قدم لسادلير هدايا متواضعة عبارة عن جواد عربي بجهاز بسيط ورسالة للحكومة البريطانية عديمة الفائدة، ثم لحق بالباشا في جدة واحتبس هناك لمدة أربعة أشهر ولم تكن النتائج بأفضل مما حققه في المقابلة الثانية، فصلف الباشا وكبرياؤه قد حالت دون التفاهم على ما تطلبه القيادة البريطانية. وأخيراً أجبر على السفر على ظهر زورق من ميناء المخا في شهر كانون الثاني «يناير» عام ١٨٢٠م.

«وعلى الرغم من أن الرحلة لم تكن لها أية نتائج سياسية، إلا أن قيمتها من الوجهة الجغرافية عظيمة جداً، ذلك لأن سادلير وإن لم يكن جغرافياً، إلا أن الطريق التي سلكها في قلب بلادالعرب قد حددت لأول مرة تحديداً قريباً جداً من مواقعها الحقيقية، وإلى جانب ذلك فقد أوضحت البعثة أيضاً بطريقة عملية إمكانية اختراق جيوش منظمة لصحراء نجد، وخاصة في شهري يوليه وأغسطس[1]...». سار

---

(١) الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين (مقال)، عبد الشافي غنيم عبدالقادر، مصادر تاريخ الجزيرة العربية.

سادلير في منطقة كانت تنقصه عنها كثير من الخرائط والمعلومات، ولم تكن لديه الأجهزة والأدوات الضرورية للرحلة سوى بوصلة جيدة كان يحدد بواسطتها اتجاهه، ولكنه كان يقظاً وحريصاً أولاً على تحديد اتجاه سيره، وثانياً على حساباته الدقيقة للمسافة التي عليه أن يقطعها كل يوم. وفي شهر أبريل من عام ١٨٢١م قدمت للجمعية الأدبية في بومباي أول التقارير التي كتبها سادلير عن رحلته، ولكنها لم تنشر للجمهور إلا بعد خمسين سنة، حيث قامت الحكومة البريطانية بطبع هذه المذكرات عام ١٨٦٦م في بومباي. وعُرِّبت بيد الأستاذ أنس الرفاعي، وحققت ونشرت بيد الزميل سعود بن غانم الجمران العجمي في الكويت عام ١٩٨٢م مرفقاً بها مجموعة من الوثائق والمراسلات الهامة التي توثق فترة دخول جيوش الباشا إلى الجزيرة العربية.



الكابتن «جورج فورستر سادلير» دخل ميناء مسقط على ظهر بارجة حربية بريطانية كمبعوث دبلوماسي لحكومة بومباي عام ١٩١٩م.

وليم جيفورد بالجريف

William Gifford Palgrave

١٨٢٦ - ١٨٨٨م

وليم جيفورد بالجريف W. G. Palgrave الرحالة اليهودي الإنكليزي الجنسية، اعتنق الكاثوليكية ثم البروتستانتية وقدم معلومات مهمة عن منطقة نجد ووصل إلى مناطق بعيدة في الوطن العربي.

رحالة رومانسي حالم أتحفنا بقصة «رحلة إلى البلاد العربية» نشرت عام ١٨٦٥م مرسومة بالحبر، ولا زلنا نسير مع الرحالة في ديار العرب في قافلة رسمت طرقها ومشاهداتها بالحبر، وهو ما عبر عنه الأستاذ سمير عطالله في كتابه الجميل «قافلة الحبر» حيث رصد كتابات الرحالة الغربيين ما بين عام ١٧٦٢ - ١٩٥٠م وأتحفنا بمعلومات هامة عن بالجريف وغيره[1] فصاحب الرحلة هو وليام جيفورد بالجريف ابن السير فرانسيس مائير كوهين مؤسس دائرة المحفوظات الوطنية البريطانية. ولد في بريطانيا عام ١٨٢٦م في أسرة علم وأدب، من العائلات الثرية في بريطانيا؛ فشقيقه روبرت بالجريف كان رئيس تحرير «الايكونومست» وشقيقه ريجنالد كاتب مجلس العموم البريطاني

---

(١) قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية ١٧٦٢ - ١٩٥٠م. سمير عطالله. دار الساقي ١٩٩٤، بيروت.

في زمانه ومن مشاهير المؤلفين، وشقيقه فرانسيس تورنر كان أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد، أما وليم صاحب القصة أو الرحلة فقد كانت تسميه العائلة «جيف» وهو اسم الدلع الذي عرف به بين أهله وأخوته، وعلقت عليه آمال كبيرة ليكون موظفاً كبيراً كإخوته فدرس في جامعة أكسفورد ولم يتم دراسته فيها لقد كان مولعاً بالرياضة، ومطالعة كتب القصص والروايات والمغامرات والرحلات فحصل تحول كبير في حياته بشكل مفاجئ ودون مقدمات، إذ ترك الدراسة ليلتحق بالجيش البريطاني العامل في الهند؟! ومنذ هذا التحول أصبح مغامراً لا يعرف الاستقرار في مكان محدد، ولا الاستقرار أو الالتزام برأي محدد. وما من ناقد يدرس حياة هذا الرجل ويخرج بنتيجة مقنعة لما كان يفعله. إنه خليط «كوكتيل» من المعارف والآثار، والأديان ممزوجة بالسياسة والترحال وتذوق الأدب.

كانت اليهودية ديانة آبائه وأجداده ثم تحول إلى النصرانية، فهو إنجليكاني قبل أن يسافر إلى الهند، ويسوعي في أديرة النصارى في الهند.. لقد تحول من رعاية الكنائس البروتستانتية إلى رعاية الكنائس الكاثوليكية.. وهناك من يشكك في نصرانيته لأنه أخذ يتسمى بعائلة كوهين اليهودية، ويحدث العرب في لبنان متأثراً بالأفكار الإسلامية، فيبدو أنه عاش دوامة الأفكار الدينية دون أن يثبت على واحدة تصنعاً ولم يفصح عن آرائه الدينية بشكل واضح طوال حياته.

جاء إلى لبنان أثناء الصراع الطائفي بين المسلمين الدروز من جهة وبين الموارنة المسيحيين من جهة أخرى. في تلك الفترة تجلى التدخل الأوروبي بشؤون الدولة العثمانية بشكل واضح عن طريق الصيد في الماء العكر وإدارة الأحداث من وراء ستار، وقد لعب بالجريف دوره ببراعة مما جعل نابليون الثالث يهتم به ويبارك

رحلاته في ديار العرب لعقد نوع من الصلات بين نهر الحياة الشرقية الراكدة وتيار التقدم السريع في أوروبا... بالجريف بريطاني الأصل كان يصر على ولائه لبريطانيا، ولكنه عمل ضد أهداف بريطانيا وأغراضها في منطقة الشرق الأوسط. وهناك من يقول: إن هذا البريطاني وجد نفسه متورطاً في الحرب الأهلية في لبنان التي دارت عام ١٨٦٠م، وبسبب خبرته العسكرية كان مع المدافعين النصارى عن مدينة زحلة، وعندما تدخلت فرنسا في لبنان بحجة حماية المسيحيين هناك، وجدت بالجريف في المنطقة، وهذه كانت بداية تعامله مع الفرنسيين، لقد كان معجباً بنابليون الامبراطور المغامر؛ ولهذا يبدو أنه كلف بإعداد خطة تجسسية لصالح الفرنسيين في الوطن العربي تمكنهم من غزو بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية، وهي المهمة ذاتها التي أرسل بموجبها لاسكاريس إلى الوطن العربي. إذ لا تزال تقاريره عن أوضاع لبنان والوطن العربي محفوظة في ملفات الخارجية الفرنسية حتى اليوم.

إن مهمة بالجريف وأسباب ترحاله غلفت وعللت بأسباب جغرافية وأدبية، وظل الاعتقاد سائداً عنه كذلك حتى وفاته في سبتمبر عام ١٨٨٨م. كانت مدينة زحلة نقطة انطلاقه إلى الجزيرة العربية، ولم يكن فيها وحيداً، بل اصطحب معه قساً نصرانياً هو «موسى الجريجوري» الذي تسمى باسم الشيخ بركات، بينما انتحل بالجريف شخصية طبيب سوري باسم «سليم أبو محمود» وهو يرتدي الزي العربي ويقوم بسلوكيته وفقاً للعادات العربية، وعندما وصل إلى مدينة معان قال: «عند هبوطنا كنا ننتظر عند باب مدينة معان الشرقي، وأدلاؤنا البدو قادهم المرافق سليم لملئ القرب من مياه العيون المجاورة... وقد أسرجت الخيل، وحملت الأمتعة على الإبل.. وأخذت

النجوم تتلألأ في سماء زرقاء خالية من الغيوم، وكان منظر الهلال رائعاً في ليل الشرق.. فهو يبشرنا بمسير ليلي أسهل من مسير النهار. ولم نلبث أن اعتلينا ظهور المطايا ذات الأعناق الطويلة، وكأننا نجلس على صارية أو جبل عال. كان الصمت يخيم في كل مكان، وحرص الأدلاء على ألا يقطعوا سكون الليل، ولهذا أخذوا يتبادلون الحديث بأصوات منخفضة، في حين كانت الإبل تجدُّ في السير وسط الظلام.

كان رفيقي بركات النصراني السوري يلبس مثلي لباس أبناء الطبقة الوسطى في سورية[1]... وبهذا اللباس جنبنا أنفسنا الأسئلة الفضولية التي يتعرض لها المسافرون في الصحراء».

وعلى الرغم من كون بالجريف نصرانياً كما يدعي، إلا أن صورة الاضطهاد التي صورها دوتي بسبب دينه لم تكن واضحة في مذكراته مما يعني أن دوتي بالغ في هذا الموضوع وهول وكأنه أحد قساوسة أوروبا الذين أشعلوا نار الحروب الصليبية بمبالغاتهم عن انتهاك حقوق النصارى في ديار المسلمين العرب، وعل العكس من ذلك كان ينوي تأسيس مدرسة تبشيرية في إحدى المدن الكبرى في الوطن العربي. أما عن خط سير الرحلة الذي ذكر في قصته فهو إلى الجوف عن طريق وادي السرحان، ومن الجوف إلى حائل ثم يدعي وصوله إلى الرياض وحتى الأحساء، وأنه عاد من هذه الرحلة إلى أوروبا عام ١٨٦٣م. وعلى الرغم من أن «فيلبي» يؤكد أن بالجريف لم يجرؤ على مغادرة منطقة حائل باتجاه الجنوب فإننا نضطر لمتابعة سرده للأحداث والوقائع التي نلخصها بما يلي:

---

(١) كان المسافر في تلك الطرق يلبس لباساً متواضعاً حتى لا يطمع به أحد فيسلبه.

يورد بالجريف قصة مقابلته لطلال بن رشيد وعمه عبيد بن رشيد: «كان طلال يلبس رداءً من القماش الكشميري يغطي ثوباً أبيض، وفوق هذا عباءة عمانية ذات صناعة فاخرة من وبر الإبل، وهي نادرة وغالية الثمن في هذا الجزء من الجزيرة العربية. وكان رأسه مزيناً بغترة مطرزة بخيوط من الذهب والفضة ومثبتة بعقال سميك من وبر الإبل محبوك بخيوط حريرية حمراء مصنوعة في مشهد علي[1] وعلى جانبه يتدلى سيف ذو مقبض مذهب. وكانت تفوح من ملابسه رائحة المسك... دخلنا عند الفجر من باب سري إلى غرفة منعزلة يقوم بحراستها عبيد سود، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون لا تصلهم أصوات المتحدثين، فوجدنا الشيخ طلال مستعداً لسماع حديثنا، فشرحت له باختصار أهداف رحلتي، وأطلعته على المكان الذي جئنا منه.. وما نرجوه هو عطفه ورعايته.. استغرقت المحادثات ساعة كاملة أُحيطت بالتكتم الشديد.. أما عمه عبيد بن رشيد فقد أرسل يطلبني ذات يوم لأفحص خادمه المريض.. وفي الحديث معه تجلى لنا حقده؛ إذ أخذ يكيل لنا الاتهامات بأننا نصارى نريد تدنيس طهارة الإسلام؟! قال: كونا من تكونا، وحتى وإن رضي ابن أخي وإن تنصر أهل الجزيرة العربية كلهم، فسوف أبقى وحدي على ملة الآباء والأجداد».

قال لورنس: «من المحتمل ألا تتوصل أبداً إلى التثبت من الحقائق التي أوردها بالجريف، وعلينا أن نقبل رأي «هوجاريت»[2] من أن بالجريف قام برحلته التي وصفها، ولم تكن سوى مجرد قصة، والقصة عمل فني يدخل عليه التشويق والتنميق والخيال حتى لا يمل القراء من عنصر سرد الأحداث».

---

(١) كان العقال العربي المضاعف المقرن (الكسروان) يُصنع في إيران.

(٢) هو جاريت عالم آثار ورحالة، وممن عمل معهم لورنس في رحلته وتنقيبه عن الآثار في شمال سورية.

ومن أحداث القصة التي دبجها بالجريف في الجزيرة العربية: إن أهل الجوف قد أكرموه، وأنه عندما أنهى ترحاله في منطقة حائل زوده الأمير طلال بن رشيد برسالة للأمير عبدالله الفيصل[1] ابن سعود يخبره فيها أن بالجريف ومرافقه ما هم إلا من السحرة وهذه تهمة عقوبتها الإعدام، ولكنه اكتشف الرسالة ولم يعطها للأمير عبدالله ابن فيصل، لأنه عندما وصل الرياض انتحل شخصية تنكرية (الطب والحكمة) استطاع عن طريقها التعرف على شخصيات أئمة آل سعود. فعبدالله الفيصل يشبهه بهنري الثامن من حيث الاعتزاز بالنفس والغلظة والشجاعة والمهارة السياسية، بينما أخوه الصغير سعود بن فيصل فقد كان شجاعاً متهوراً كضابط من فرقة «الهوصار» البريطانية[2] ويدعي بالجريف أنه تنبأ بالصراع على السلطة بين الأخوين السعوديين: عبدالله وسعود ابنا فيصل بن تركي آل سعود.. ثم تصل القصة إلى مرحلة العقدة التي تسبق الحل ومفادها أن عبدالله ابن فيصل قد اكتشفه فاستدعي للمثول أمامه بعد منتصف الليل، فقال له: «أنتم لستم أطباء، أنتم جواسيس نصارى وثوريون جئتم هنا لتخريب أوضاعنا والنيل من عقيدتنا نيابة عن الذين أرسلوكم، إن عقاب من هو مثلكم كما تعرفون هو الموت الذي عزمت على تنفيذه فيكم بلا تردد».. وقد افترى أنه في غمرة الخلاف بين عبدالله وأخيه كان قد اكتشف نوايا عبدالله العدوانية عندما طلب منه الأخير نوعاً من السموم هو سم «الستركنين» يريد به قتل أخيه وأنه أبى بشدة.. فبعد مكوثهم في الرياض، وتعرفهم على نوايا عبدالله الفيصل هربوا من المدينة خلسة، واختبؤوا في ثنية من الأرض خارج الرياض، فلما جن

---

(١) عبدالله وسعود ابنا الإمام فيصل بن تركي آل سعود.

(٢) الهوصار فصيل من الجيش البريطاني درب على الشجاعة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري.

الليل جاءهم الدليل ليهربوا معه إلى الهفوف، ومن هناك قصدوا زيارة القطيف، وبذلك تكون القصة قد اقتربت من الحل، لقد أبحروا في القصة لزيارة كافة المراكز المهمة على الخليج... ولكن السفينة غرقت وهي تبحر باتجاه عمان، ولم ينج من ركابها سوى تسعة رجال ومن بينهم بالجريف الذي نجا بأعجوبة، فعاد بالجريف من مسقط إلى سورية عن طريق بغداد؟!.

ولكن الادعاء الأهم الذي نفاه من بعده، وصفه لصحراء «نفوذ الدهناء» بأنها صحراء رهيبة لا يرى فيها إلا الرمل الخفيف الذي يشكل تموجات يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم، فيجد المسافر نفسه بينها كأنه سجين يختنق في هوة من الرمل.. وأن قوافل بكاملها يمكن أن تضيع فيها.

لقد نفى ابن عقيل الظاهري[1] كامل ادعاءات بالجريف عن الإمام عبدالله الفيصل ويجزم بأنه لم يشاهده البتة، وأن قصة وجوده في الرياض كانت مختلقة من أساسها، أما عن وصف صحراء نفوذ الدهناء فيؤكد الرحالة «بلي» والرحالة فليبي بأنه لم يكن صادقاً في وصف المنطقة، مما أحاط هذا الرحالة الرائد بالريبة والشك، وقد شغل الأوساط العلمية والأدبية بما وصف ردحاً من الزمن.

وأخيراً وصفه الشاعر البريطاني الرحالة ولفرد بلنت بأنه رومانسي حالم يكمل عجزه عن تدوين المشاهدات الحسية والحقائق بأفكار من عنده، ليكمل حياكة قصته الأدبية ومغامراته السندبادية.. «إن هذه المناطق الرملية تأوي خلال المواسم الماطرة من كل سنة طوال بضعة أشهر؛ قبائل البدو الرحل ومواشيهم وهي تحتوي على

---

(١) مسائل من تاريخ الجزيرة العربية. ابن عقيل الظاهري، دار الأصالة، الرياض ١٩٩٤م.

سر الحياة البدوية، لأنه ما من مكان آخر يشبهها في خصب المرعى، ولولا هذه البادية البالغة الخصب لتعذر وجود البدو الرحل الرعاة فيها».. ولولا ضيق المجال لسردت أحداث مروياته عن قطر، وأختم الموضوع بالسنوات الأخيرة التي قضاها من عمره على النحو التالي:

١ - نقل ليعمل قنصلاً لبريطانيا في شرق الأناضول ما بين عام ١٨٦٦ - ١٨٧٣م.

٢ - تنقل بعدها في مهام عدة منها عمله في جزر الهند، والفلبين حتى عام ١٨٧٨م.

٣ - اقترح اسمه ليكون مساعداً «لجوردن» في السودان، ولكنه رفض فذهب إلى بانكوك ومنها إلى«مونتفيديو» كوزير بريطاني مفوض فيها، حيث توفي عام ١٨٨٨م فنقل جثمانه من هناك إلى لندن ليدفن فيها.

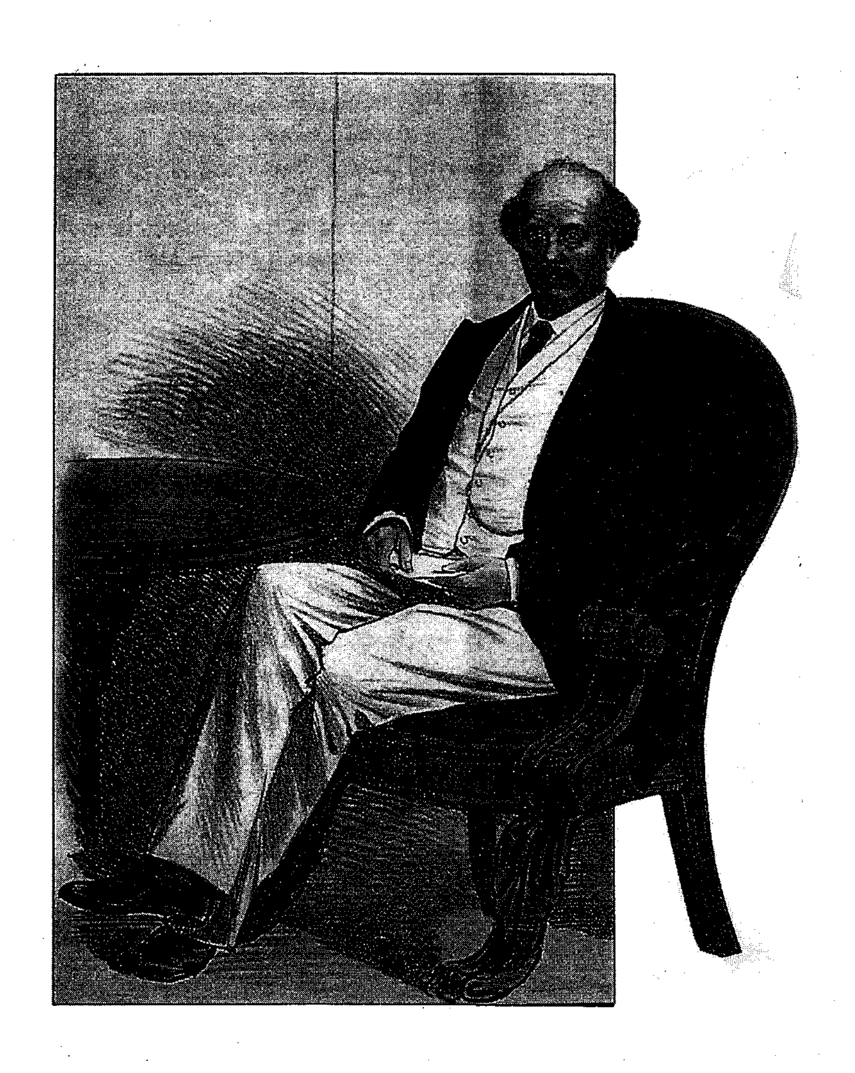
هذه هي سيرة هذا الرحالة الحالم، المتأثر بالروائي الفرنسي لامارتين، لقد كان مزيجاً من المعتقدات والأفكار، صدق في بعض ما قال، وكذب في بعضه الآخر، ولا يزال في أفكاره وترحاله مادة خصبة يتناولها النقاد بالبحث والدراسة.

الكولونيل الرحالة لويس بلي

Lewis Pelly

١٨٢٥ - ١٨٩٥م

رحالة مجد وعسكري ملتزم، دفعت به مصالح بلاده ليكون مقيماً بريطانياً في «بوشهر» على الخليج في الفترة (١٨٦٢ - ١٨٧١م)، كانت المقيمية البريطانية في بوشهر وكالة اضطلعت منذ أواخر القرن الثامن عشر بمهام رسم الخطط واتخاذ التدابير اللازمة لحماية طرق التجارة البريطانية إلى الهند، ورصد النشاطات التي يقوم بها الفرنسيون والروس في المنطقة، فبعد رحلة بالجريف وكارلو غوارماني إلى الجزيرة العربية لصالح الفرنسيين، خشي البريطانيون أن تؤدي تلك الرحلات إلى نتائج ضارة بمصالحهم، وهذا كان الدافع لرحلة بلي إلى المنطقة: أخذُ وعدٍ من الأمير السعودي فيصل بن تركي بعدم الإضرار بالمصالح البريطانية، وضبط القبائل الموالية على ساحل الخليج ومنع تعدياتها على طرق التجارة، مع دوافع علمية منها: التحقق مما ورد في تقرير بالجريف من أن وسط الجزيرة العربية رمال لا يمكن لرحالة أن يجتازها، وتحديد بعض الأماكن في المنطقة بالنسبة لخطوط الطول والعرض الجغرافية بالإضافة إلى الملاحظات الأنثروبولوجية عن سكان المنطقة والتعرف على الحيوانات والنباتات والمواقع الجغرافية والطبوجرافية في المنطقة الواقعة ما بين مدينة الكويت والرياض. لقد تمت رحلة بلي في ظروف غير عادية، ولكن بلي كان مؤهلاً للقيام بمثل هذه المهمة الخطرة كونه المسؤول الرسمي للمقيمية البريطانية في أعالي الخليج، وللجدية والحزم والثقافة العالية التي يتمتع بها هذا العسكري الرحالة.



الكولونيل لويس بلي المقيم البريطاني السابق في الخليج (بوشهر) في الفترة ١٨٦٢ - ١٨٧١م. شاهد فيصل بن سعود، واجتمع بحاكم الكويت السابق الشيخ صباح الثاني.. له مذكرات مطبوعة بعنوان: رحلة إلى الرياض.

● عن المكتبة البريطانية - مجموعات مكتب الشرق والهند

«ولد بلي في بريطانيا عام ١٨٢٥م[1] وبعد أن أتم تعليمه التحق بالقوات المسلحة لحكومة الهند في بومباي وأدى الخدمة العسكرية من خلال اشتراكه في الحرب الفارسية سنة ١٨٥٧م، وكلّف بكثير من المهام السياسية... فبعد أن قضى فترة قصيرة كمقيم سياسي في زنجبار، أرسل إلى الخليج ليكون معتمداً بريطانياً «في بوشهر» وظل في منصبه حتى سنة ١٨٧٣م، وفي سنة ١٨٨٣م دعاه العاهل البلجيكي ليوبولد، ليكون مديراً للكنغو، لكن بلي فضل أن يكون عضواً في البرلمان البريطاني، وأخيراً وافته منيته في سنة ١٨٩٥م».

وبهذه المقدمة نكون قد عرفنا بالرحالة الكولونيل لويس بلي وبأهداف رحلته قبل الخوض ببعض التفاصيل من خلال جولة في تقريره عن الرحلة.

وصل بلي إلى الكويت في يناير من عام ١٨٦٥م، وفيها أخذ يعد العدة لرحلته إلى الرياض بصحبة مجموعة من المختصين في ميدان العلوم والسياسة وهم على النحو التالي:

١ - الدكتور و. هـ كولفيل Colvill طبيب المقيمية البريطانية في بوشهر، وهو خبير بالجيولوجيا والنبات والمسؤول الصحي عن الرحلة، وكان من قبل طبيب القنصلية البريطانية في بغداد، ومصدراً كبيراً للمعلومات الطبية والإنسانية عن أمراض المنطقة، وقد شاهدته الرحالة آن بلنت البريطانية هناك عام ١٨٧٨م.

٢ - الملازم ديفز E. Davies من ضباط البحرية البريطانية في الهند، والخبير الجغرافي المسؤول عن تحديد أماكن المدن بالنسبة لخطوط الطول والعرض.

---

(١) مقدمة ترجمة مذكراته (رحلة إلى الرياض) ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، د. عويضه بن متيريك الجهني. جامعة الملك سعود عام ١٩٩١م الرياض.

٣ - المترجم «لوكاس» وهو مسيحي من أهل الموصل يدعي أنه أسلم وحوَّل اسمه إلى عبدالله.

٤ - مجموعة الحراس وقادة الإبل والخدم الهنود حتى أصبح تعداد الرجال ثلاثين رجلاً ومعهم كوكبة من الإبل.

وصل إلى الكويت وهي تحت حكم الشيخ صباح الثاني[١] أي الشيخ صباح بن جابر الصباح (١٢٧٦ - ١٢٨٣هـ) - قال بلي: «في يناير ١٨٦٥م عبرت الخليج إلى الكويت، وهناك التقيت بالشيوخ وأخبرتهم بوجهتي إلى الجنوب العربي نحو الرياض، وأن أعود إلى الساحل عبر الأحساء والعقير.. وقد وافق شيخ مشايخ الكويت على وجهة النظر هذه، ثم قال بإيجاز: «خذ الإبل والله معك.. ولكن يوسف البدر الذي كان معروفاً فترة طويلة في سوق الخيل في بومباي كمصدر للخيول العربية، اعترض بجدية.. وقرر الشيوخ أنه من الأفضل أن أتريث قليلاً لتوفير الإبل المناسبة والمرشد المناسب ولتحسس الأخبار في نجد» ولقد شكر بلي يوسف البدر لكرمه، فهو المزواج ابن الثانية والسبعين.. خرج معه للصيد في بادية الجهراء وزوده بخبرته عن الخيول العربية وبقائمة عن سلالات الخيول العربية في الكويت[٢] ومجالس أهل الكويت كان يرى الناس يمضون الليل يتسامرون.. فهذا يروي طرفة، وآخر يروي حكاية، والقهوة «والنارجيلة» تدار على الناس، والداخلون إلى المضافة يتربعون ويضعون سيوفهم أمامهم ينصتون إلى الحديث الجاري، وإذا ما نهض أحدهم، فإنه ينهض فجأة وينصرف دون مقدمات... وكثيراً ما تسمع داخلاً ليعلن عن امتلاكه لجواد أصيل يريد بيعه؛ ليوفر المؤن

(١) من المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر كتاب «الخيول العربية في مذكرات السياح والرحالة». لأسعد فارس.

والحاجيات لعياله، وآخر يدلل على الصوف والسمن، وكان حديث الناس يدور حول حر الصيف والمعيشة. ومن الطرائف أن يأتي قادم ليوفي ذمته ويطلب التسامح معه لأنه ذاهب لأداء فريضة الحج.

أما بالنسبة لمن يريد الدخول إلى مدينة الكويت، فالناس يدخلون من البوابة الرئيسة، وهناك يرمون أسلحتهم ويقابلون الحاكم والقضاة والوجهاء... جاؤوا لسماع أخبار الناس.. والغريب لا يجد الفنادق بل يجد بهواً كبيراً يقدم فيه الطعام مجاناً للغرباء، وقد لاحظ بلي أن العملات التي كانت متداولة إنما هي: «دولار مارياتيريزا» والكروان الإيراني، والقروش التركية، والليرات الذهبية.

وعلى الرغم من كون الجو حاراً إلا أن المنطقة تبدو ذات أمراض قليلة، فسكان الساحل يأكلون السمك وبعض التمور، وسكان المناطق الداخلية طعامهم التمور والذرة وحليب الإبل، فحليب الناقة عظيم الفائدة لصحة العين ولمقاومة السمنة، وتربية مهار الخيل. ولم ينس بلي سنة سقط فيها المطر وجاءت بعدها أسراب الجراد، فخرج الناس لجمعه وطبخه لأنه طيب المذاق.

تميزت مذكرة بلي عن الرحلة بمجموعة من الملاحق:

الملحق الأول : عن عينات الصخور التي جمعت ونقلت إلى لندن، فحللت هناك مثل: الأحجار الجيرية والجيرية السيليكونية، والحصى والصوان المستدير الحافة، والأحجار الرخامية وغيرها من أنواع الصخور.

الملحق الثاني : عن الفلورا النباتية الممتدة بين مدينة الكويت والرياض، والفلورا هو الغطاء الأخضر من النباتات التي تكسو سطح الأرض وتعيش طبيعية.

وقد رصدت البعثة العلمية في الرحلة حوالي ستين نوعاًنباتياً تعود لأكثر من ثلاثين عائلة نباتية، ومن أشهر هذه النباتات نبات العرفج الذي يكثر في الصحراء الممتدة بين الكويت والرياض وهو الزهرة الوطنية لدولة الكويت.

الملحق الثالث : وكثير من الملاحق الأخرى عن أسماء الطرق في المنطقة والمسافات التقديرية بين المناطق التي مروا بها في الطريق وعن نوع المياه في الآبار.

ومن الملاحق الأخرى ملحق عن أسماء القبائل وعدد رجالها، وعن سلالات الخيول العربية كسلالة: الصقلاوي الجدراني، وكحيلان العجوز، وعبية شراك، ودهمان شهوان، ووذنان الأخرس وغيرها من السلالات.

هذا عن الأحداث العلمية والمقدمات والنتائج أما عن مسير الرحلة وأحداثها، فالقافلة انطلقت من الكويت في السابع عشر من شباط (فبراير) ١٨٦٥م على طريق الوفرة، ومنها إلى سدوس في عريضة، ومنها عادت لتأخذ الطريق هبوطاً في وادي حنيفة لتصل الرياض في الخامس من آذار قبل وصول القافلة إلى الرياض استقبلهم سكرتير الأمير فيصل بن تركي، فأبقاهم مدة لأن بينهم من يدمن عادة الدخان «المخزي» كما سأل عن الرجل الذي يلبس القبعة البحرية، وأفاد بأن هذا الزي مكروه في الرياض لأنه من الرجال الذين يحاصرون السفن العربية في الخليج، فاختفت تلك القبعة كما أقلعوا عن التدخين احتراماً لمشاعر مضيفيهم. في اليوم التالي لوصولهم استقبلهم الإمام فيصل بن تركي في قصره ومعه ابنه الصغير عبدالرحمن الفيصل فبحث معه على مدى يومين موضوع الصداقة بين بريطانيا وحكام نجد، وعن إمكانية مد مشروع للبريد والبرق، وقد سأله الإمام فيصل بن تركي

فيما إذا كانت بريطانيا تنوي مساعدته في حربه مع أعدائه، أو أن بريطانيا سوف تكتفي بالتحالف معه ضد تركيا؟! ثم أخبره الإمام أن شبه الجزيرة العربية هي بلادنا، وأنكم تستغربون كيف نعيش في هذا المكان المنقطع من العالم ومع ذلك فنحن راضون عنا وعن بلادنا.

ثم طلب منه الإمام أن يزور مرابط الخيل في السيح بالخرج لكن الظروف لم تكن مواتية، فعرض عليه الإمام جوادين عربيين كهدية، وانطلق بلي عائداً من الرياض في الثامن من آذار ومعه ساعة ذهبية للإمام لإصلاحها، فتم إصلاح الساعة في لندن وأعيدت للرياض.

في اليوم الثامن عشر من مارس وصلت القافلة إلى مرسى السفينة في العقير ومنه إلى مقر عمله، ومن هناك أرسل بتقرير إلى حكومة بومباي يحتوي على معلومات بالغة الأهمية عن علاقة بريطانيا بنجد حتى وفاة الإمام فيصل بن تركي في ديسمبر عام ١٨٦٥م. وجاء في التقرير «لقد شعرت واثقاً أنه إذا ما استطعت أن أعيد إقامة العلاقات مع حاكم مثل فيصل فإننا نستطيع أن نتوقع فائدة من نفوذه على رؤساء الساحل دون أن نخشى أن هذا النفوذ سيبذل في اتجاه يتنافى والاتجاه التمديني» لقد كانت كل الأطراف تعترف بأن الإمام الفيصل كان عادلاً ويسيطر على كثير من القبائل بنجاح، وتحت حكمه يذكر بلي إحدى عشرة قبيلة متحالفة لها فروع متعددة، وإذا ما شب نزاع بين فروع القبائل، فالأمر يسوى بينهم، وعندما يستعصي عليهم الحل يرفع النزاع للأمير الذي كان يعاقب على الجرائم الكبيرة بالقتل، وقد يحكم على بعض المجرمين بالنفي للقطيف، وهو يشابه القتل لأن المنفيَّ ربما يموت بحمى الملاريا هناك. هذه هي خلاصة أحداث رحلة الكولونيل الرحالة لويس بلي ذات الطبيعة العلمية والسياسية، وقد أعطت نتائجها إذ كانت فاتحة للتعاون بين بريطانيا

وحكام نجد في كثير من المجالات.

الملحق رقم (١٠) من كتاب رحلة إلى الرياض

تقرير يبين أسماء قبائل نجد وعددها التقريبي وما تدفعه كل منها سنوياً لأميرها.

أسماء القبائل	عددها	العوائد السنوية بالدولار	ملاحظات
سُبيع	٨٠٠	٦٠٠٠	نادراً ما تُدفع العوائد نقداً،
السُّهول	٦٠٠	٨٠٠٠	وإنما تُجنى عيناً: جمل من
العُجمان (الرَّخم)	١٢٠٠	٨٠٠٠	كل أربعين، وخروف من
قَحْطان	٦٠٠٠	١٦٠٠٠	كل مائة، وفرس من كل
قَحْطان (جَنْب)	١٠٠٠	٤٠٠٠	عشرين وهكذا.
عُتَيبة (بأقسامها الثلاثة)	١٤٠٠	١٢٠٠٠	
حَرْب	١٠٠٠	٨٠٠٠	
عنْزة (في نجد)	٦٠٠	٤٠٠٠	
بُرَية (من مطير)	٨٠٠	٤٠٠٠	
مِطير (ومعهم هيتم)	٤٠٠	٤٠٠٠	
الصُّهَبة (مطير)	٢٠٠	٢٠٠٠	
بنو خالد والعُجمان في الأحساء	٢٠٠٠	٢٠٠٠	
بَنُو هاجر	٥٠٠	٣٠٠٠	
المَنَاصير (في نجد)	٤٠٠	٢٠٠٠	
آل مُرَّة	٦٠٠	٣٠٠٠	
الدِوّاسِر	١٦٠٠	١٢٠٠٠	
الإجْمالي	٢٠٣٠٠	١١٤٠٠٠	

لويس موزيل وكارل شوان

Alois Muslis & Carl R. Raswan

رحالان أوروبيان أحدهما أكاديمي جامعي جمع بين التدريس والترحال والاهتمام بالعلوم الانثربولوجية، والثاني فارس وخبير بشؤون الخيل وقد جمعتهما في بحث واحد للأسباب التالية:

١ - كلاهما عملا لصالح التحالف العثماني الألماني، فهما من الرحالة الذين سبحوا بعكس التيار.

٢ - كلاهما انتسب إلى الرولة من قبيلة عنزة، فلويس موزيل التشكسلوفاكي انتحل اسم موسى الرويلي، وكارل شوان الألماني انتحل اسم رضوان الرويلي.

٣ - إن قبيلة الرولة من عنزة احتلت جانباً كبيراً من أبحاثهما ومذكراتهما.

فالرولة قبيلة عنزية معروفة في الجزيرة العربية كانت تنتشر من جنوب بادية الشام حتى شمال الجزيرة العربية، وتعد صلة الوصل بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال، وكثير من الطرق السياحية والتجارية كانت تمر بديارها، بالإضافة إلى قربها من العواصم الهامة كدمشق والقدس وحائل، كما أنها كانت نموذجاً للبداوة الخالصة، تمتلك الإبل وتنتقل عليها ضاعنة قبل الاستقرار والتحضر، وتملك الصقلاويات المشهورة من خيول العرب التي كانت بغية كثير من الرحالة الفرسان، ولقد ذكر هذه القبيلة أو قصدها وارتحل معها أكثر من رحالة غربي، فأغلب الرحالة الذين وطئت أقدامهم بلاد نجد وبوادي الشام زاروا هذه القبيلة، ولكن التفاصيل الدقيقة وأخبار

البداوة لا نجدها واضحة ومطولة مثلما نجدها في آثار هذين الرحالين موسى الرويلي، ورضوان الرويلي!.

«الرولة: والنسبة إليهم رويلي[1] هي قبيلة عظيمة وفروعها متعددة البطون، تنتسب إلى مسلم من عنزة... وتقع ديارها شمال تيماء ممتدة إلى بائر والأزرق في الأردن، وإلى شرق دمشق وحمص في سورية، وينزل الرولة في السابق بنجد، وغادروها في أواخر القرن الحادي عشر- فيما يظن - إلى الشام واصطدموا بالقبائل الأخرى واستطاعوا دحرها، وفتح الطريق أمامها حتى استقرت بالشام حول بئر القمة، عين الحياة، الفركلس، حسية، الجولان، غوطة دمشق، منطقة الخبرات في الحماد، القريتين من محافظة حمص... ويقيمون في الشتاء في منحدرات الشرق والجنوب من جبل عنزة حتى جوار الجوف، وإذا كانت المراعي جيدة يتخطون مسافة واسعة، ويقطنون الأرضين الواقعة شمال الوجه. وتنقسم الرولة إلى البطون التالية:

القعاقعة، الفرجة، الدغمان، الكواكبة، الدرعان... أما رئاسة الرولة فهي ما برحت منذ قرن أو أقل في بيت آل الشعلان بعد أن كانت في يد القعقاع». لقد عرّفنا بالقبيلة التي كانت محور اهتمام لويس موزيل، وكارل شوان، والآن إلى بعض من مشاهدات لويس موزيل وكارل شوال، وعن العادات والتقاليد والطباع!.

---

(١) جامع أنساب قبائل العرب، سلطان طريخم المذهن السرحاني. دار الثقافة، قطر.

لويس موزيل Alois Musils :

باحث تشكسلوفاكي ولد عام ١٨٦٨م، أجاد اللغة العربية، ومارس الحياة الأكاديمية في جامعة «تشارلز» في براغ.. واستوعب كل ما كتب عن تاريخ وأحوال المناطق الواقعة شمال نجد، والأردن وبادية الشام والفرات الأوسط، وهو من الرحالة الغربيين يستحق الاهتمام بما كتب عن ديار العرب، لأنه مزج العلم بالعمل، وقام بفحص شخصي لكل المناطق التي كان يدرس تاريخها في الجامعة، فهو إذاً الأكاديمي الجامعي الرحالة.

حظي الأستاذ موزيل بكثير من المساعدات من قيادة الجيش الألماني، ومن الحكومات التركية والنمساوية وهذه المساعدات مكنته من دراسة شؤون القبائل والأحوال الطبيعية في القسم الشمالي من جزيرة العرب، كما قام بتصوير بعض الأماكن الهامة، ورسم خرائط دقيقة لها، وقد عمل جاهداً لكسب ود رؤساء القبائل ودفعهم للتعاون مع العثمانيين والألمان، ويبدو أن النقاد قد شغلوا بآثاره العلمية عن أهدافه السياسية! ولم تكن هذه الأهداف خافية على أحد على الإطلاق.

ارتحل لويس موزيل رحلات عديدة امتدت لأكثر من عشرين سنة. كانت الرحلة الأولى ما بين عامي ١٨٩٦ - ١٩٠٢م للتنقيب في البتراء وأطراف الحجاز الشمالية وهو ما يعرف «بالعربية الحجرية» إثر منحة تلقاها من مجمع العلوم والفنون التشيكي للتنقيب في المناطق المذكورة، فاكتشف بعض القصور التي تعود إلى أوائل العهود الإسلامية. أما الرحلة الثانية فكانت ما بين عامي ١٩٠٨ - ١٩٠٩م إلى بادية الشام وتدمر، وأتبعها برحلة ثالثة ارتاد فيها الأطراف الشمالية من الحجاز ثم عاد في عام ١٩١٢م ليرتاد المنطقة الممتدة

من شرق تدمر إلى أواسط الفرات. أما رحلته الأخيرة فكانت في صحراء النفوذ والدهناء ما بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٥م.

إن هذه الرحلات الميدانية عززت قدرته على الربط بين الماضي والحاضر. والتعامل مع البيئة العربية بأبعادها البشرية والنباتية والحيوانية مع الاهتمام بالمعالم الطبوغرافية والآثار. وقد تميز هذا العالم الرحالة بالاستقامة والأمانة والإخلاص وتحرى الدقة في كل ما كتب مع سعة الأفق وعمق التفكير وشمول المعرفة؛ مما جعل آثار موزيل مصادر موثوقة وصادقة عن دراسة تاريخ وأحوال العرب بين الماضي والحاضر.

قامت الجمعية الجغرافية الأمريكية بطبع كتبه بالإنكليزية في نيويورك ما بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٨م ضمن سلسلة الاكتشافات والدراسات الشرقية في طباعة فاخرة مزينة بالصور والرسوم والمخططات وهي تتضمن رحلات موزيل على الشكل التالي:

١ - شمال الحجاز.

٢ - العربية الصحراوية.

٣ - الفرات الأوسط.

٤ - بادية تدمر.

٥ - شمال نجد.

٦ - تقاليد وعادات بدو الرولة.

«وكل هذه الكتب تجري على نسق واحد[1]، يخصص القسم الأول منها لوصف المنطقة التي يبحثها وصفاً دقيقاً مستوعباً، ويورد في

---

(١) مقدمة كتاب الفرات الأوسط، لموزيل ترجمة د. صدقي حمدي، وعبدالمطلب داوود.

القسم الثاني المعلومات التاريخية لبعض المواضع الواقعة في المنطقة التي يدرسها، فيورد كافة ما يتيسر من المعلومات المذكورة في النقوش البابلية والآشورية والكلدانية، وما في كتب الإغريق والرومان والآراميين والسريان، ثم ما في الكتب الجغرافية والتاريخية العربية المؤلفة في عهود الازدهار الإسلامي، ثم يعقب ذلك بما ذكره الرحالة المحدثون. وقد استوعب المعلومات في الكتب التي توفرت له، فكون منها صورة صادقة قد تغنيها، وتعززها المصادر التي طبعت حديثاً بعد صدور دراساته.

كان الأستاذ موزيل يجيد التحدث بلهجة البدو ويعرف الكثير من أحوالهم، وقد استطاع أن يعيش ويتنقل كواحد منهم. فتوثقت عرى الصداقة بينه وبين شيوخ بعض القبائل ومنهم: الشيخ نوري الشعلان[1] الذي تآخى مع موزيل واعتبره من الرولة فصار يعرف باسم موسى الرويلي.

ولم يكن تآخيه مع هذا الأمير الرويلي عبثاً، فشيوخ القبائل كان ولا يزال لهم ثقل في المنطقة العربية، وتحالفهم مع هذه القوة أو تلك يكون حاسماً وخصوصاً أيام الحروب والنزاعات، والنوري بن شعلان شيخ الرولة بالذات قضى أربعاً وثمانين سنة حافلة بالأعمال والأحداث الخطيرة:

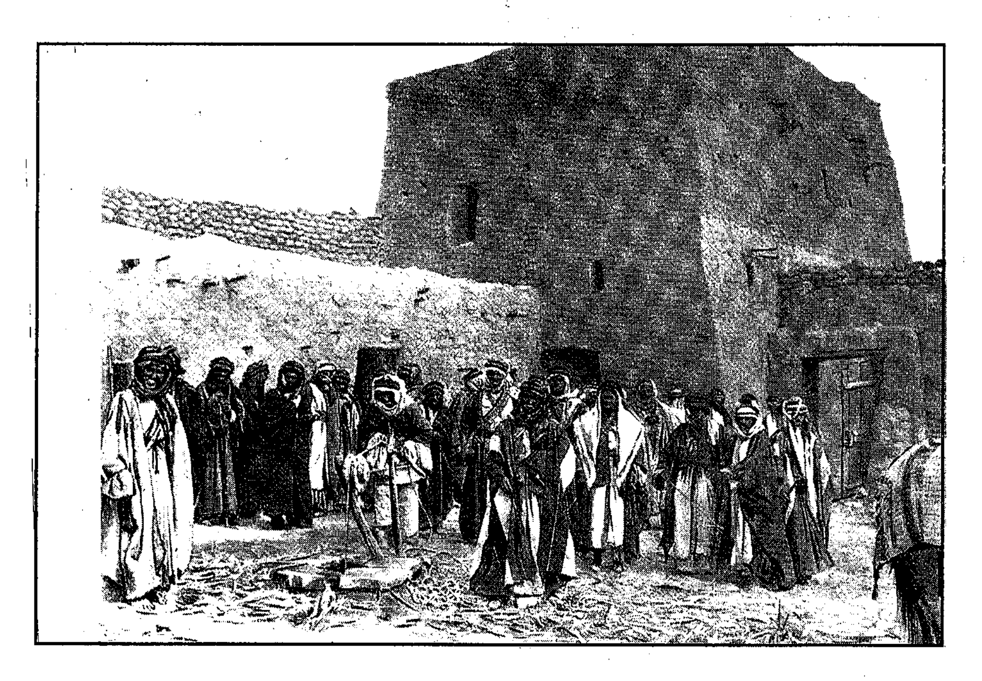
«رافق الوقائع[2] التي مرت ببلاد الشام خلال نصف قرن أو نحوه في عهد السلطان عبدالحميد والسلطان رشاد والاتحاديين، وسامي باشا الفاروقي وجمال باشا قائد الجيش الرابع، والملك فيصل

---

(١) نوري بن هزاع بن نايف آل الشعلان (١٢٦٧ - ١٣٦١هـ).

(٢) عشائر الشام لوصفي زكريا. ط ٢، دمشق ١٩٨٣م.

ابن الحسين، وعهد الجنرال غورو الفرنسي، وعهد الحكومات السورية المحلية على اختلاف ألوانها. واشتهر النوري بدرايته وحنكته البالغتين في موالاة جميع الذين تعاوروا الحكم المدني والعسكري في بلاد الشام حتى مات ودفن في قرية عذرا قرب دمشق عام ١٩٤٢م».



نواف بن نوري الشعلان تحيط به مجموعة من الرولة
في قصر مارد بمنطقة الجوف التقطها الرحالة موزيل عام ١٩٠٩م

كان موزيل يرحل وينزل مع الرولة، ويتحمل خشونة العيش البدوي، وعندما تنصب القبيلة خيامها ينكب على البحث والتأليف وتدوين المشاهدات، ورسم الخرائط والمناظر.. الأرض والسماء، وأحوال الناس والعادات والتقاليد. إن الأدب والتاريخ والتراث في ديار العرب مدينة لهذا الرجل بأشياء كثيرة، فهو وإن كان مندوباً للألمان

والأتراك في المنطقة بجانب أبحاثه العلمية، يكنُّ للرولة جل الاحترام، فكم من مرة تدخل وأخرج شيوخهم من السجون العثمانية، وكان ينصح الرولة وعموم القبائل بأن يصوبوا بنادقهم إلى الإنكليز بدلاً من استخدامها في الحروب العشائرية[١] وضد العثمانيين.

وفي آخر مهمة رسمية له جاء موزيل إلى دمشق عام ١٩١٤ - ١٩١٥م فوجد الشيخ نوري الشعلان معتقلاً في سجن الضمير قرب دمشق، فتوسط له لدى العثمانيين وأخرجه من السجن، فتعاهدا على الحرب ضد الإنكليز، ولكن الشيخ نوري ابن شعلان كان يحن إلى البادية، ويريد الابتعا عن مسرح الأحداث الحربية، فرحل ملتحقاً بجماعته في الحماد بعيداً عن مواطن الصراعات، وعندما علم موزيل بذلك تبعه بقافلة طافت طويلاً في الصحراء حتى وجدت مضارب الرولة فحل ضيفاً على النوري.

جلس موسى الرويلي بجانب أخيه الأمير، وهو يسأل بشوق عن رفاقه من فرسان الرولة: «أين ممدوح بن سطام، وعذوب بن مجول، وسعود النوري؟ فأجاب الأمير: «راحو».. قتل عذوب في الغزو وعادت فرسه ملطخة بالدم، وممدوح غزا عربان شمر بالنفوذ فغنم إبلهم، وغرب هارباً برجاله، فكمن له شمر في شعيب «العاه» جاءنا خبره بأنه قتل مع من نجو و«حنّا» بتل العامود، وسعود النوري قتله كلاب بن جازي عند ملتقى وادي النعيم بوادي السرحان شمال قراقر»[٢].

حزن موزيل على أصدقائه الفرسان، ولكنه لم يفلح بثني النوري

---

(١) كان الرحالة الموالون للإنكليز يعزفون على الوتر نفسه ويطالبون أن تتحد القبائل وتصوب البنادق نمحو العثمانيين.

(٢) عشائر الشام لوصفي زكريا. ط ٢، دمشق ١٩٨٣م.

ابن شعلان عن الانضمام إلى الإنكليزي لورنس وفيصل بن الحسين في حربهم ضد العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، فكان بدو الرولة والحويطات المطرقة التي حطمت تماسك الجيش العثماني في بلاد الشام الذي ظل صامداً طويلاً بوجه غزو الإنكليز القادم من مصر. وعندما نتخطى الجوانب السياسية نجد ما كتبه موزيل سجلاً حافلاً بالصغيرة والكبيرة عن أحوال بلادنا في الماضي، فصور الماضي وتراث الماضي أصبحت باهتة في ظل حياة النعمة والاستقرار. وكتابه عن قبيلة الرولة فيه (٧١٢) صفحة و(٢٣) فصلاً يصعب علينا تناولها إلا إذا طفنا بها كطيران الفراشة، فمن أين نبدأ؟! فالنجوم والكواكب لها مسميات، والمعتقدات البدوية أشبه بالأساطير، والجو والمطر والأنواء كذلك، فهم يسمون ماء المطر «بالحيا» أي أنه الحياة بذاتها، والله سبحانه وتعالى جعل من الماء كل شيء حي. ومن عادة أطفال البدو عند هطول المطر أن يحملوا دمية تلبس ثياباً وترفع على عصا وينطلقون بها إلى فناء المضارب وهم يهزجون ويعبرون عن فرحتهم بسقوط المطر:

يا م الغيث غيثينا ... بلي بشيت راعينا
يا م الغيث غيثينا ... من المطر واسقينا
يا م الغيث غيثينا ... من مد الله مدينا
يا م الغيث غيثينا ... من الويل واعطينا

إن البيئة التي يصفها موزيل في البادية عامرة بأنواع النباتات والمراعي الخضر في الربيع، وعامرة كذلك بأنواع الحيوانات كالضبعة، والقرطة والشيب والضربول والثعلب... وحيوان الصيد: المها والبدن والغزلان والأرانب والطيور والزواحف والحشرات. وما أجمل وصفه للخيام والإبل وعادات الزواج وقصائد الحب والغزل.

وحداء الخيل الذي كان يحدوه فرسان الرولة وغير الرولة من القبائل، فقد دون لويس موزيل بعض روائعه.. وهو لون من الشعر الشعبي يقال غالباً والفرسان على ظهور الخيل إما قبل الحرب لشحذ الهمة، أو بعد العودة بالغنيمة وفيه التغزل بالجميلات، أو الاعتزاز بأصالة الخيل، أو للعبرة والحكمة وإبراز الأحداث ومنه:

ليا جيت مزبور النهد
يا عيد سلم لي عليه
أبو ثمان مجليات
والقلب ملقوع عليه(١)

* * *

عمي شرالي مهرتي
لا يا بعد كل العمام
اليوم أروي حربتي
وأضرب على وسط الكتام(٢)

* * *

يا زيد عبده غربوا
اقعد تحيزم لا تنام
غدو بمنفش ذروته
هدوان زيزوم الجهام(٣)

* * *

(١) الثماني المحليات: الثنايا من الأسنان.. مجلية لشدة بياضها.

(٢) الكتام: غبار المعركة.

(٣) هذا الحداء للشيخ عاصي الجربا.. قاله بعد مقتل ولده الهادي، وزيزوم الجهام: عقيد الحرب.

ومن عادات البدو اصطحاب العطفة في الحرب، حيث يأتون ببنت من أكرم بنات القبيلة وأجملهن وأنشطهن وأطلقهن لساناً، كأن تكون ابنة الشيخ أو عقيد الحرب، فيركبونها ناقة عليها هودج يدعى العطفة يزينونه بريش النعام، وتدعى هذه البنت بالعمّارية، والعمارية تكون عارفة بفرسان القبيلة، فتسوق ناقتها وسط الجموع والرايات تنشد الشعر وتحرض الفرسان على القتال فيقوى الصراع حولها وتتجندل الفرسان. وفي عرف البادية: كل قبيلة تخسر العطفة، أو تؤسر صاحبة الجمل وتقع بيد العدو لا يحق لهم اصطحاب عطفة ثانية، إلا إذا عادوا بأخرى من الأعداء.



العطفة يتبعها العلم ويحيط بها الفرسان - عن أرشيف كارل شوان

أما القضاء البدوي، فهو وفقاً للعرف والعادة.. وليس لأحد الحق في أن يرد قضاء العارفة (القاضي) إلا شيخ القبيلة أعلى سلطة في القبيلة، ومن العوارف الذين ذكرهم موزيل في البادية:

١ - ابن جندل عارفة الجلاس.

٢ - الطيار عارفة بني وهب.

وحتى قضاء العرف والعادة له تخصصات ومجالات محددة، فهناك عوارف الخيل الذين يفصلون بين المنازعات المتعلقة بشأن الخيل، وهناك عوارف النساء والطلاق والزواج، والخيل والنساء تعرف بالمقلدات عند البدو[١] وهناك عوارف القتل والدية والقصاص والثأر وهم عوارف الدم ومنهم:

١ - آل كويكب من الجلاس.

٢ - ابن سمير وابن بطاح من بني وهب.

٣ - ابن دغمي من الجلاس.

أما عوارف بدو الشمال فقد ذكر منهم المقدم الفرنسي «مولر»:

١ - محمد الصايد من السبعة، وابن جروان وابن موينع من السبعة كذلك.

٢ - ابن علي من الفدعان.

٣ - جابر الصبيخان من العقيدات.

أما عادات الكرم والضيافة وحق الضيف: بإطعامه وإيوائه وحمايته فوصفها كثير في مذكرات موزيل، فأهل الحي يتسابقون لاستقبال الضيوف، فتدار آنية الطعام «الصينية» العربية يحملها عدة رجال مكللة باللحم والأرز يتقدمهم صاحب المضافة، وحالما توضع على الأرض يقول صاحب المضيف: تفضلوا على الزاد حياكم الله.

---

(١) من عادة العرب القدامى تقليد الخيل والنساء بأجمل القلائد فسميت المقلدات.

كارل شوان : Calr R. Raswas



الرحالة كارل شوان في ملابس عربية: الحطة والعقال الحجازي والخاتم الفضي كواحد من أبناء الجزيرة العربية

فارس ورحالة نستطلع سيرته الذاتية من خلال آثاره المكتوبة[١] فمنذ أن كان في الثامنة عشرة من عمره سافر إلى شمال أفريقيا ليخدم ألمانيا في مهام غامضة، ومن ثم ليخدم أغراض تركيا في الحرب العالمية الأولى.. ولكنه أسر ولم يطلق سراحه إلا بعد انتهاء الحرب وتوقيع الهدنة، وقد ارتحل إلى القبائل العربية في بادية الشام وذلك في المهمة ذاتها التي قادت موزيل إلى البلاد العربية، ولكن موزيل كان بحاثة أكاديمي بينما شوان عسكرياً وفارساً من ضحايا الحرب العالمية الأولى، فعندما تحطمت الامبراطورية العثمانية، وأصبحت منطقة الشرق الأوسط مقفلة بوجه الألماني جمع آخر ما لديه من نقود وسافر هائماً على وجهه حتى وصل «كاليفورنيا» في أمريكا وإذ به هناك لا يملك سوى دولار واحد، فاضطر للعمل في مزرعة لتربية الخيول العربية حتى عام ١٩٢٥م حيث قرر العودة إلى بلاد الشام ليعيش مع بدو الرولة من جديد وليصبح أشهر رجل يهتم بالخيول العربية، ويضع من أجلها التصنيفات والنظريات فأصبح يعرف باسم رضوان الرويلي الذي تعلق بأخيه فواز الشعلان وعمه النوري بن شعلان وطبع بحب البادية وعادات البادية العربية: الترحال

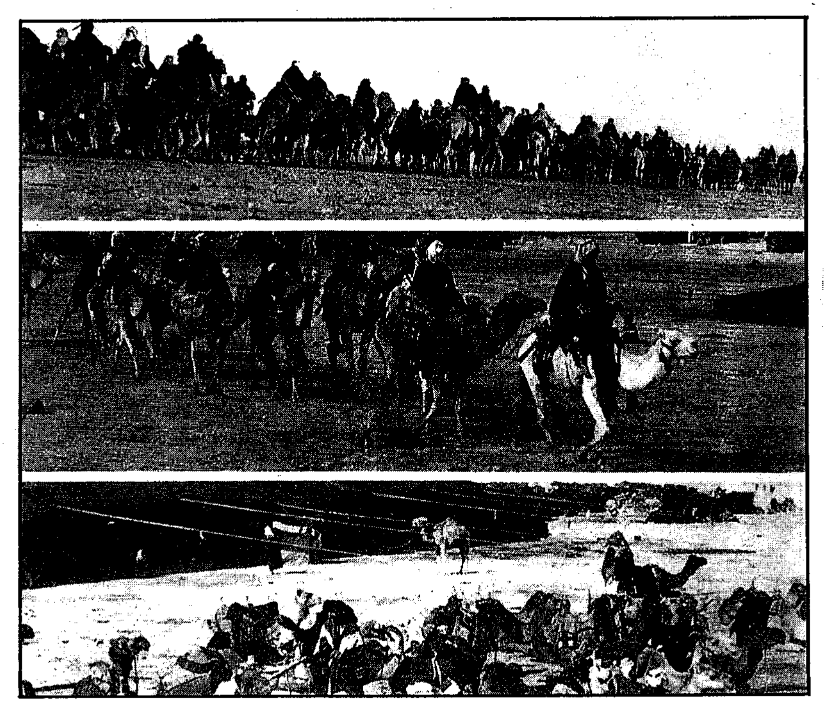
---

(١) الخيام السود في بلاد العرب. كارل شوان. ترجمة: عبدالهادي عبلة. دمشق ١٩٨٣م.

والفروسية والغزو. قال كارل شوان: إن روحي شديدة التعلق بالبادية العربية، والهدوء والسكون تجعلني عبداً لها.. في البادية أتنفس بحرية، وتذهب عني أعباء الحياة المتحضرة المتراكمة والتي تثقل الكاهل.. إن رحلاتي إلى البادية وإقامتي بين العرب لم يكن دافعها المطامع العلمية، ولكن الجواد العربي كان بمثابة المغناطيس الذي كان يجذبني إليها: الخيول العربية، الحصان العربي الأصيل... وهيامي بهذا المخلوق دفعني لأن أتبعه في مراعيه، وفي السهول التي عاش فيها وتوالد منذ القدم، وإذا ما وجد أي اهتمام آخر فهو بالنسبة لي اهتمام ثانوي لا يعدو حب الاطلاع على تحركات القبائل العربية».

جاء شوان إلى البادية العربية وفن التصوير قد بلغ أشده بصنع «الكاميرات» الدقيقة ولذلك يعد الأرشيف الذي تركه بعد وفاته من أغنى ما صور عن ديار العرب وعن البدو.. وبدو الرولة بالذات، حتى إن خبرته بديار العرب جعلته صديقاً لكتاب «سيناريوهات» الأفلام الأجنبية عن البدو، ومنها فيلم ابن الشيخ الذي مثله الممثل الأمريكي ذو الأصل الإيطالي «رودلف فالنتينو» الذي اشتهر بتمثيل الأفلام التي تصور الحياة العربية على أنها حياة البداوة والترحال والفروسية لا أكثر ولا أقل.

إن كتاب الخيام السود الذي تركه شوان الألماني يروي قصته مع قبائل البدو في الشام والحجاز، فمع أول سحابة مطر كان يرحل معهم إلى مرتفعات الحماد، والصحراء الصوانية، أو إلى صحراء النفوذ الرملية، وعلى العكس من ادعاءات دوتي قال: «ولكنني أدعي شيئاً واحداً هو أني خلال إقامتي في الجزيرة العربية عشت حياة بدوية خالصة، ولم أكن أبداً بحاجة إلى إنكار جنسي أو معتقدي بين



الجيش والهجن ومضارب البدو في شمال الجزيرة العربية

● **من أرشيف كارل شوان**

العرب. ولم أكن ولو لمرة واحدة موضع سخريتهم أو احتقارهم كما أنني لم أواجه منهم أية فظاظة... إنني أحجمت عن التدخل في شؤونهم السياسية إلا عندما يطلب مني إبداء الرأي.. والأكثر من ذلك: إني حرصت على الالتزام بكل عاداتهم وأهوائهم وخصوصاً ما يتعلق منها بالنساء، إنها صارمة ولا يستطيع أي أوروبي أن يأمل في ثقة البدوي الكاملة ما لم يتقيد بها تماماً».

فبعد عام ١٩٢٥ نجد أخبار كارل شوان في مضارب الرولة، وعند الجربا من شمر الجزيرة الفراتية حيث استقبله الشيخ مشعل الفارس الجربا، فبقي في ضيافته عدة أسابيع، وبعد انتهاء الزيارة حظي من الشيخ بهدية نادرة من خيول شمر الصقلاوية:

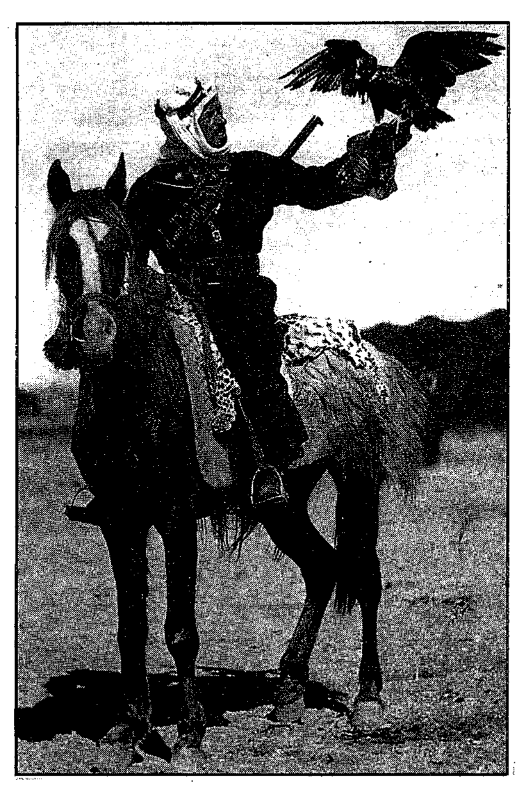
«بقيت ضيف مشعل لعدة أسابيع... واستطعت برفقة ابنه نايف أن أتفحص عدداً كبيراً من الخيول العربية لدى عشائر شمر المختلفة. وقد أعجبني جداً حصان من سلالة الصقلاوي الشعيفي كان عمره سنتين من آصل السلالات، وقد سألت السكرتير فيما إذا كان الشيخ يرغب ببيعي الحصان، فعلمت أن سلاح الفرسان الفرنسي كان قد عرض عليه مبلغ «٨٠٠» ليرة ذهبية، فالخيول العربية نادرة وغالية جداً.. ورجال البعثات الأجنبية ربما يدفعون في الصحراء ثلاثة آلاف ليرة ذهبية للحصول على مثل هذا الحصان.. سألني الشيخ مشعل فيما إذا كنت أعلم بأن والده فارس الجربا كان قد تآخى قبل خمسين سنة مع ولفرد بلنت وزوجته... حان يوم رحيلي، فتبادلت مع الشيخ بعض عبارات الوداع، ثم انتحى الشيخ جانباً وأخرج وثيقتين واحدة تخص نسب الحصان الصقلاوي وقال: لاحظت منذ مدة أنك أحببت المهر الصقلاوي، إنه أفضل حصان في سلالة خيولنا وإني لسعيد أن أقدمه هدية لك حتى تتذكر صداقتنا وخيولنا النبيلة. خذ معك الحصان ولا تذكر أية كلمة شكر أو أي ثمن حتى تبقى هذه الذكرى صافية في قلوبنا» وكرم الشيخ مشعل الفارس الجربا يذكره أكثر من رحالة، والرحالة لألمان بصورة خاصة وقد طفحت صفحات مذكرات العالم الأثري لألماني «أوبنهايم» بأخبار شمر الجزيرة[١].

كما نجد أخبار كارل شوان الألماني مع قبيلة طيء في الجزيرة، وهو يصطاد الذئاب برفقة شيخ القبيلة بواسطة الرماح، ومطاردتها بالخيل، وفي مذكراته وصف لاصطياد طائر النعام في البادية هذا الطائر الثمين الذي انقرض نوعه العربي من ديار العرب بشكل نهائي.

---

(١) زرت الأخ الفاضل حمود الملحم المشعل الفارس الجربا عام ١٩٩١م في مدينة القاشلي السورية وأهداني وثيقة تعريف باوبنهايم الألماني بخط الشيخ مشعل الفارس.

عاد رضوان الرويلي إلى دمشق ليجد النوري ابن شعلان حياً، فيعطيه الشيخ النوري مطايا، ويرسل معه مرافقاً من بدو شمر هو «فارس الصقعبي» ليكون دليله إلى بدو الرولة في وادي السرحان، قرب صحراء النفوذ، وهناك يجدد صداقته بالأمير فواز الشعلان بعد أن تركه صغيراً بين مضارب الرولة، ويجد في هذا الأمير الشاب بغيته في حب الصيد والفروسية والمغامرات، وليجد في ممارسة هذه الهوايات ترويحاً لنفسه من مشاكل الحرب



القنص والصيد والفروسية.. كانت هواية مفضلة لكارل شوان مع الرولة في بادية الشام

وأخبار السياسة التي حطمته، ولكن الأمير فواز أخذ يصطحبه - كما يقول - في الغزوات ونصب الكمائن، وكم من مرة عرض نفسه للموت وإطلاق الرصاص. ولم تخل المذكرات التي تركها من الإثارة فهو كأديب ورحالة يروي قصة حب بين فارس الشمري وفتاة بدوية اسمها «شويما» ولكن صاحبه ودليله فارس الصقعبي يقتل بجانبه في كمين نصبه لهم بدو السبعة من عنزة، نقل فارس إلى المضارب حياً ولم يمت مباشرة، فشاهد كارل شوان مأتم فارس الصقعبي بين أهله حيث زفت إليه عروسه «شويما» قبيل وفاته في عاصفة من الأهازيج

وأصوات طلقات البنادق ولما مات فارس حزن عليه كارل شوان، فأودع باسمه قصيدة قالها شاعر أوروبي معروف في رثاء فارس الصقعبي الشمري تقديراً لوفائه وشجاعته وتخليداً لقصته المؤثرة:

نم أيها الفارس ولا تكترث لسوافي الرمال.. الرمال تتلاطم كثبانها حول قبرك! أما آن لك أن تستريح أيها المحارب؟!.. لتعيش في الحياة الآخرة بأمان واطمئنان.. إن الرصاصة التي أصابتك عجزت من أن تحني هامتك الشجاعة... فأنت حي في موتك وفي حياتك. يا إلـهي! كل الفضائل أراها مجتمعة في شخصية هذا الرجل الذي جاء من نسل سيدنا إسماعيل وحين تزدحم الذكريات مع أزهار الجنة التي تسكنها تذكر.. تذكر العروس الناعمة شويما أتعرفها؟! إنها شويما ذات العينين الناعستين إنها تنتظر الفارس الشجاع.. لتزف إليه.

ولم يكن هذا الاهتمام والتقدير لفارس الصقعبي عبثاً.. لقد كان دليله في غياهب الصحراء، وتدخل لينقذه من الموت أكثر من مرة.. لقد وصف كارل شوان وقوعهم في كمين لمجموعة من البدو الغزاة، فأنقذه فارس ومن معه بخطة بارعة، قال:

«كنا ننوي الاستراحة لبعض الوقت، بعد أن راقبنا المنطقة المحيطة بنا بدقة، ولم نشاهد على امتداد البصر أي حركة لحيوان أو إنسان. وعندما بدأنا بتناول الطعام، ونحن في غمرة السرور انتصب أمامنا فجأة ستة رجال، كما لو أنهم خرجوا من باطن الأرض! لا يمكن أن يكونوا قد أتوا إلينا على ظهور الخيل.. لا بد أنهم زحفوا إلينا مع الأرض، واختبؤوا في مكان قريب منا... وجهوا مسدساتهم إلينا.. إنهم من قطاع الطرق، فتبادلت النظرات مع فارس وتحادثنا معهم:

ماذا تريدون منا؟

قالوا: يعلم الله

كيف وصلتم إلى هنا؟

قالوا: من هناك
أين أنتم ذاهبون؟
قالوا: إلى هناك
من أي قبيلة أنتم؟
قالوا: من بني آدم

وفي هذه اللحظة نزعنا «كوفياتنا والعقل» من رؤوسنا ورميناها على الأرض، وطلبنا الحماية والاستسلام، فطلب الحماية والذل مباح في هذه الحالة ومهم جداً لانقاذ الحياة في مثل هذه الظروف الحرجة».

ويستكمل شوان القصة ومفادها: أن فارس الصقعبي التقط البندقية وأطلق الرصاص بسرعة البرق فوق رؤوس المهاجمين، فانبطحوا أرضاً واستسلموا، وهذه أول مرة نرى فيها أحد الرحالة الغربيين لا ينسب البطولة لنفسه.. إن البدوي - كما يقول شوان - لا يفصح أمام الغريب عن اسمه ووجهته واسم قبيلته، لأن الحياة في الصحراء هي حياة الحذر الدائم والفطنة والذكاء والحركة السريعة.

وهكذا قد عرفت برحالين غربيين أحدهما الأكاديمي التشكسلوفاكي «لويس موزيل» والآخر الضابط الألماني الرحالة «كارل شوان» وستبقى الذكريات والمذكرات شاهدة على اسميهما البدويين: موسى الرويلي، ورضوان الرويلي.. حافلة بأخبار حياة بدو الرولة وغيرهم في بادية الشام.

رحلات المعتمدين البريطانيين في الكويت

ولـــيم شكسبير W. Shakespear
هارولد ديكسون Harold Dickson
١٨٧١ - ١٩١٥م، ١٨٨١ - ١٩٥٩م

قـام اللورد كـرزن Krezen نائب ملك بريطانيـا بالهند بجـولة في منطقـة الخليج عـام ١٩٠٣م وكـانت الكويت ضـمن البلدان التي يريد زيارتها[١] فاسـتعد الشـيخ مبارك حـاكم الكويت آنذاك لاسـتقبال هذا الضيف بموكب تعداده ٥٠٠ فـارس مع خمسـين من رجال الحـراسـة فارتدى هؤلاء زياً خـاصـاً للمناسـبة.. وبعد انتـهاء مـراسيم الاسـتقبال والحـفاوة التي اسـتقبل فيـها الشـيخ مـبارك ضـيفه أعلن أن الكويت سـتكون ذات رعـاية خـاصـة من جـانب بريطانيـا، وأنهـا قـررت تعـيين وكـيل سـيـاسـي لهـا بالكويت، فكان الكولونيل نوكس أول مـعـتـمـد لبريطانيا في الكويت عام ١٩٠٤م.

ومن الجـدير بالذكر أن المقـيمين البـريطانيين كـانوا ينتشـرون في كثيـر من بلدان الخليج من مسـقط حـتى بوشـهـر وأخـيراً في الكويت، وكـان نائب التـاج البـريطاني في الـهند وطاقـم الحكومـة هناك أقـرب المراجع البـريطانية التي يعود إليـها نشـاط هؤلاء المعـتمـدين. فلويس بلي الذي عـرفنا به من قـبل كـان المقـيم البـريطاني في «بوشـهـر»، والميـجر «س. ب مايلز» كان المعـتمـد السيـاسـي في مسـقط عاصـمـة عمـان ما بين عـامي ١٨٧٢ - ١٨٨٠م الذي أسـفر ترحّاله عن كـتـاب كـبـيـر عنوانه: «الخليج العـربي بلدانه وقـبـائله» وعلى الرغم من رداءة

---

(١) الكويت عبر التاريخ «يوسف شهاب ط ٢، ١٩٩٢، الكويت.

الطقس هناك، فمناخ مسقط بالذات كان قد أودى بحياة أربعة ممثلين لبريطانيا على التوالي.. «غير أن فضول هذا العسكري والسياسي الرحالة[1] دفعه إلى التعرف على أحوال المناطق الداخلية في عمان وفي عموم الخليج، لجمع معلومات دقيقة عن تلك المنطقة وأهلها، وذلك ليتيح لحكومة الهند أن تتعامل بكياسة مع الأحداث السياسية في البلاد. كما قام مايلز برحلات استكشافية عديدة إلى داخل عمان».

وهناك معتمدون بريطانيون كثيرون خدموا في الكويت نذكر منهم:

١ - شكسبير Shakspeare: ثاني المعتمدين البريطانيين ما بين ١٩٠٩- ١٩١٥م.

٢ - جيرالد غوري Gerald Guary: المعتمد البريطاني الثامن ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩م.

٣ - هاملتون Hamilton: ما بين ١٩١٦- ١٩١٨م.

٤ - هارولد ديكسون Harold Dickson: المعتمد البريطاني السابع ما بين ١٩٢٩- ١٩٣٩م.

٥ - ميجر مور Major More: ما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٩م.

٦ - الكولونيل جالوي Colonel Jaloy: ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤٤م.

بهذا التقديم نكون قد عرفنا بالمعتمدين البريطانيين والمهام المنوطة بهم. ونعود للتعرف على أشهر المعتمدين البريطانيين الذين مارسوا مهامهم في الكويت وكان لهم الأثر الكبير في رصد أحداث المنطقة الخليجية وما يحيط بها، وتركوا لنا كتباً في التاريخ والسياسة وأدب الرحلات لا تزال تعد مصدراً من مصادر تاريخ المنطقة العربية.

---

(١) الخليج بلدانه وقبائله، س. ب مايلز ، ط ٤ المترجمة ١٩٩٤، عمان.

الكابتن وليم شكسبير Captain W. Shakespear :



الكابتن وليم شكسبير
Captain W. Shakespeare
ثاني المعتمدين البريطانيين في الكويت ما بين عامي ١٩٠٩-١٩١٥م

القليل من الناس من يعرف هذا الرجل إلا من خلال نشاطه السياسي كدبلوماسي معتمد من قبل بريطانيا في الكويت، أما الجانب الآخر من حياة هذا المعتمد هو كونه عالم ورحالة متميز.. عرف المنطقة العربية بدقة متناهية، ويعرفه أهل هذه المنطقة كثاني المعتمدين البريطانيين في الكويت ما بين عامي ١٩٠٩ - ١٩١٥م. ولا أدري في أي جانب من أدوار حياته نوغل؟! الجانب السياسي، أم جانب وصف الطبيعة والترحال؟! ولكن قبل هذا وذاك نقول: ولد شكسبير في الهند عام ١٨٧١م حيث كان والده يعمل في الجيش البريطاني في الهند، واسمه المقترن باسم الأديب والكاتب شكسبير المعروف ما هو إلا من قبيل تشابه الأسماء لا أكثر ولا أقل. ولد هذا الطفل وبريطانيا كانت في أوج مجدها وعظمتها.. وتحقيقاً لأمجاد بريطانيا عكفت والدته على تربيته مع أخوين له تربية القوة والكفاءة والاندفاعة لتكون مواكبة لاندفاعة الأمة.. كان طموحها يفوق حدود التصور، فانعكس هذا الطموح على شخصية شكسبير أحب ولد إليها: فنشأ محباً للرياضة وألعاب القوى، ومنشغلاً بالنوادي العلمية والرياضية، وما إن أنهى دراسته الثانوية حتى الالتحاق بالكلية الملكية ذات الصفة العسكرية الرياضية، وقاده ذلك إلى الالتحاق بكلية ساندهرست العسكرية، فتخرج

برتبة ملازم ثان وعمره عشرون عاماً، التحق بعدها في بومباي في الهند ليعمل في الجيش البريطاني هناك.

وعلى الرغم من صغر سنه كانت مؤهلاته تدفعه لتسلم المهام الكبرى التي رسمت الخطوط العريضة للسياسة البريطانية في طول الشرق الآسيوي وعرضه. ومن مهامه التي اضطلع بها:

١ - منصب مساعد المقيم البريطاني في مسقط عام ١٩٠٤م.
٢ - منصب المعتمد البريطاني في الكويت من عام ١٩٠٩م حتى عام ١٩١٥م.

كان يعمل برفقة سياسي بريطاني متمرس هو «كوكس» ومنذ أن أصبح معتمد بريطانيا في الكويت كان عاصفة في زهوه وعنفوانه، شديد التعلق بالرسميات؛ ولهذا شابت العلاقات بينه وبين الشيخ مبارك الصباح بعض الشوائب، وحصلت بعض التوترات،. ولكن الأمور سارت بعدها في مجراها الطبيعي بين حاكم للبلد ومبعوث دبلوماسي مهم في المنطقة.

كان شكسبير المعتمد البريطاني الأكثر تعاطفاً مع ابن سعود حتى الحرب العالمية الأولى، كما أنه قدم للعالم الخارجي وللمرة الأولى صورة واضحة لابن سعود «عبدالعزيز» والقوات السعودية[(١)] لقد كان الشيخ عبدالرحمن الفيصل آل سعود يفاوض الحكومة العثمانية بشأن نجد وأولوية التعامل مع تركيا، بينما كان ولده عبدالعزيز آل سعود يراقب الموقف ويوازن بين أهمية القوى في المنطقة وعندما قتل الحاكم الرشيدي لحائل عام ١٩٠٦م في معركة روضة مهنا تأكد لبريطانيا أن عبدالعزيز آل سعود هو سيد الصراع وأقوى الأطراف

---

(١) ابن سعود مؤسس مملكة لزلي مكلوغلن، ترجمة محمد شيا، ١٩٩٥م. بيروت.

التي تسيّر الأحداث في الجزيرة العربية[1] ولكن البريطانيين كانوا على حذر في مفاوضاتهم مع ابن سعود، فبينما كانت كتلة في حكومة الهند (البريطانية) ترد إليها تقارير المندوبين لتنصح حكومة صاحب الجلالة بضرورة إظهار مزيد من التأييد لابن سعود، كان لدى مكتب الخارجية البريطانية تصورات ذات بُعد استراتيجي أهم وأشمل تتمثل في عدم دفع الأتراك العثمانيين إلى أحضان ألمانيا.. وكان النقاش يحتدم بين لندن ودلهي حول كيفية السماح لفرد واحد هو الكابتن شكسبير، أن يقيم اتصالات مع ابن سعود والتفاوض معه. ولكن اللقاءات غير الرسمية كانت مستمرة بين الرجلين وللمرة الأولى تخرج إلى خارج الجزيرة العربية صورة عبدالعزيز آل سعود مع وصف مفصل عن شخصيته قال شكسبير: «يولد الانطباع بأنه ذو شخصية مستقيمة صريحة وكريمة، لقد عاملني بأقصى درجات الضيافة والصداقة، ولم يبد هو ولا أشقاؤه روح التعصب... وأراني مقتنعاً بصدق انطباعاتي عنه» وعندما انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا، أصبحت بريطانيا أكثر تصميماً على حشد ما أمكن من الحلفاء، فجرى التقارب بين ابن سعود وبريطانيا، بعدما تبين أن ابن رشيد في حائل أصبح في صف الأتراك. وكان لشكسبير دور كبير في إبرام الاتفاقية «الإنكليزية - السعودية» التي وقعت عام ١٩٠٥م.

وعندما نعرض عن منجزاته السياسية والأدوار الخطيرة التي لعبها على الساحة السياسية في الخليج، نجده عالماً وجغرافياً ورحالة لا يشق له غبار، فهو أول بريطاني يشاهد عام ١٩٠٨م في الخليج يركب سيارة وينتقل بها من مكان لآخر، وحتى فترة الإجازة السنوية

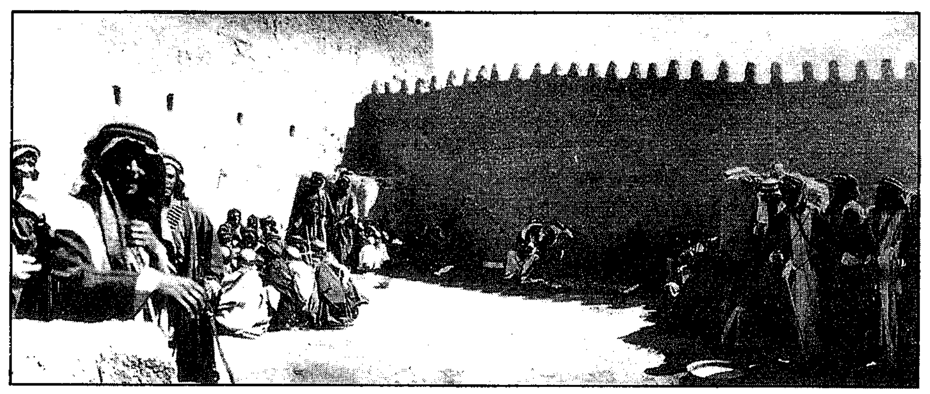
---

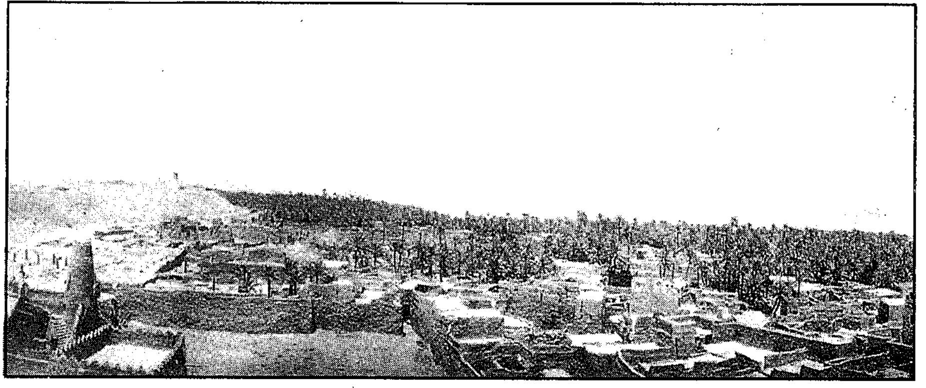
(١) ابن سعود مؤسس مملكة المصدر السابق نفسه.



الشيخ مبارك الصباح وضيفه الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل مع الشيوخ والوجهاء والمرافقين في الكويت عام ١٩١٠م - تصوير وليم شكسبير

كان يمضيها في الترحال في أخطر الظروف، ومن تهوره: قيادته لسيارته من إيران إلى العراق، ومن العراق إلى البلقان حتى بريطانيا. فخلال ست سنوات قضاها في الكويت، كانت لا تمر سنة إلا ويقوم فيها برحلة استكشافية، وأطول هذه الرحلات التي قام بها عام ١٩١٤م اخترق فيها الجزيرة العربية حتى وصل إلى السويس قاطعاً ١٨٠٠كم. يتميز هذا الرحالة بأنه كان يتقن مسح الأرض ورسم الخرائط الطبوغرافية التي تحتاج إليها الدراسات وحركات الجيوش، بالإضافة إلى قدرته على التعرف على المعالم الأثرية ونقل النقوش والآثار وتصويرها. كما صنف بعض الحيوانات والنباتات التي كان يجدها في طريق رحلاته.





وليم شكسبير يتناول طعام الإفطار مع نوري الشعلان في دومة الجندل عام ١٩١٤م.

إن الجوانب العلمية في حياة هذا العسكري الرحالة لم تكن مطروحة على الساحة الثقافية فيعتبر وليم شكسبير من أبرز الرحالة المغامرين الأجانب في شبه الجزيرة العربية.. إنه الرائد الأوروبي الأول في رحلاته التي قطع فيها الجزيرة العربية من الكويت إلى الرياض فالجوف فالعقبة وسيناء حتى السويس، وله رحلات متعددة أخرى، ومع ذلك لم يحظ بالصيت الذائع كدوتي ونيبور وبالجريف أو لورنس وفليبي وغيرهم. إلا أن «المستر ونستون» كان قد عرّف بترحاله، ونقل عن الملك عبدالعزيز بن سعود أنه قال بحقه: «إن شكسبير أعظم أوروبي عرفته في حياتي كلها» ويبدو أن آثاره العلمية

قد أودعت سجلات الجمعية الجغرافية البريطانية في لندن، فبقيت بعيداً عن أيدي الباحثين حتى السنوات الأخيرة، حيث تعرض لها السيد «دوجلاس كاروترن» فجعل كتاباً بعنوان: «الرحلة الأخيرة للكابتن شكسبير» وفيه رسومات طبوغرافية عن الباطن، وفوق الحفر ولشعيب جلاجل في السدير ولسهول الدبدبة جنوب الكويت، فضلاً عن النقوش السبأية التي نقلها عن صخور المنطقة.

كان شعور هذا الرجل بأمجاد بلاده طاغياً، فهو وأمثاله كانوا يشعرون منذ الصغر بأنهم غير بني البشر.. ولهذا كان يختار أصعب المهام إلى درجة التهور والجنون، ولعل تهوره هذا هو الذي قاده إلى الموت في معركة جراب بين السعوديين وآل الرشيد.. إننا نعجز في هذا البحث من أن نغطي كامل رحلات شكسبير أو أن نوجزها، ولكن أختار منها الرحلة الثانية ولقاءه مع الملك عبدالعزيز:

كان شكسبير على قناعة بقيام كيان عربي مستقل عن الدولة العثمانية، وأن الملك عبدالعزيز هو أنسب مرشح لتولي زعامة الجزيرة العربية... وكانت هذه القناعة لا تلقى قبولاً لدى القيادة البريطانية في البداية التي لا تريد تعقيد علاقاتها مع الدولة العثمانية، إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى عزّز وجهة نظر شكسبير. فبدأت الرحلة الثانية في كانون الثاني عام ١٩١٠م من الكويت إلى آبار الحفر، ثم واصل إلى وادي الشق في الجنوب الغربي حتى قطع مائة ميل في الصحراء، فهبت على القافلة رياح عاتية كادت أن تقتله ورفاق الرحلة ولكنه يواصل الرحلة، وعندما وصل إلى حوض الصفا في شعيب الفيصل وبينما كانت القافلة تخيم تعرضوا لهجوم ليلي قام به بدو قبيلة العجمان، فقتلوا أحد المرافقين لشكسبير.. ولكنه واصل حتى أتى منطقة «حلايبة» وهناك توقف ليدرس الجدران المهدمة وجذوع النخل

والآبار.. في هذا المكان التقى بقافلة كويتية بقيادة جابر المبارك الصباح، فأخبره بأن الملك عبدالعزيز هو في زيارة خاصة للكويت، فعاد شكسبير بسرعة إلى الكويت،وما إن وصل حتى انضم إلى حفل عشاء أقامه الشيخ مبارك الصباح على شرف ضيفه الكبير عبدالعزيز ابن سعود، لتعزز الصداقة ولتستكمل صورة عبدالعزيز ابن سعود بكامل أبعادها في ذهنه. وعندما نقيم الرحلة الثانية، نجدها بشكل عام نافعة، ولكنه لم يتوغل فيها كثيراً في الصحراء، إلا أن الرحلة الكبرى هي الرحلة السادسة في شباط من عام ١٩١٤م حيث كان يمتطي ناقته «ذهيبة» وبصحبته الدليل «عبدالعزين» مع قافلة من الإبل فيها عدة الرحلة والذخيرة والبنادق للدفاع عن النفس، انطلقت من الجهراء في الكويت إلى بندر الشيوخ ومن ثم على امتداد الباطن عبر صحراء الدبدبة، وفي ١٢ شباط كانوا في الحفر حول مجموعة من الآبار. وفي ٢٥ من شباط كانوا في «زلفا» في منطقة وعرة يسميها بالجريف: «قوقاز البلاد العربية».. وهكذا حتى وصلت القافلة إلى الرياض في آذار عام ١٩١٤م. وصف شكسبير عمران الرياض، وأخذ يصور الناس والمناظر الطريفة، وقد لاحظ أن أهل الكويت كانوا ينفرون من التصوير والوقوف أمام عدسة «الكاميرا» بينما وجد أهل الرياض متسامحين في هذه الناحية.. وفي يوم من أيام آذار من عام ١٩١٤م كانت القافلة في شعيب أم سدر في قرية شقرة فانضم إلى جلسة عربية مع الشيخ محمد ابن سعود، فسمع كثيراً من الأحاديث والقصص العربية، ولعنيزة على وادي الحرمة نصيب من وصف شكسبير حيث أعجب بمستواها الحضاري، وهناك استضافه صالح بن زامل من وجهاء عنيزة.. ومن منطقة القصيم عبرشكسبير إلى منطقة جبل شمر فتعرضت القافلة لعواصف رملية، لكنها واصلت مسيرها،

ومن نوادر شكسبير في طريق هذه الرحلة أنه وجد ثمانية جراء للذئب فحمل واحداً منها ورباه على حليب الغنم وهو في طريقه إلى الجوف، وفي الطريق هاج عليه وجع الضرس فتألم كثيراً مما اضطره لخلعه بطريقة بدائية.. وفي الجوف وضواحيها توقف لوصف قبيلة الرولة من عنزة، فوجدها عامرة بقيادة آل الشعلان، حيث دعاه الشيخ سطام بن نواف بن نوري الشعلان إلى وليمة من اللحم والرز، فسعد باللقاء وعرف مكانة الرولة بالنسبة لقبائل شبه الجزيرة العربية، وهاله تعداد خيامها وكثرة فروعها القبلية. ومن أخطر ما واجهه شكسبير في هذه الرحلة المتاعب التي لقيها وهو يريد العبور من الجوف إلى العقبة ومن ثم إلى صحراء سيناء، فلم تعد تسعفه الخرائط ولا خبرة الدليل في الاهتداء إلى الطرقات الموصلة إلى هناك، فالمنطقة هي منطقة قبيلة الحويطات بقيادة الشيخ عودة «أبو تايه» ذلك الرجل الشجاع المخيف الذي يروى عنه بأنه قتل أحد أعدائه فشوى قلبه وأكله[١] لقد جالس عودة وطلب مساعدته ولم يكن معه من النقود سوى ٢٧ جنيهاً أخذهن الشيخ عودة منه ولم يبق في جيبه سوى سبعة جنيهات.. وفي الطريق مرض مرضاً شديداً ألزمه أن يتهالك على قتب ناقته أياماً والقافلة تسير حتى وصل إلى بئر عباس في سيناء، فوجد طلائع الجيش البريطاني، عندها توقف للراحة وللعلاج، ولما فرغ من مشاغله الخاصة انكب على كتابة رحلته الطويلة ذات الألف والثمانمائة ميل في الصحراء.

وعندما نلخص شخصية هذا العسكري الدبلوماسي الرحالة نجدها من نمط لا يماثل أنماط كثير من الرحالة: ففيه تتمثل الجدية والحزم والصدق والابتعاد عن الكذب في تهور ومبالغة ممزوجة بالفطنة

---

(١) لا أدري مدى صدق هذا القول... فمن عادة الرحالة التهويل وتضخيم الأحداث.

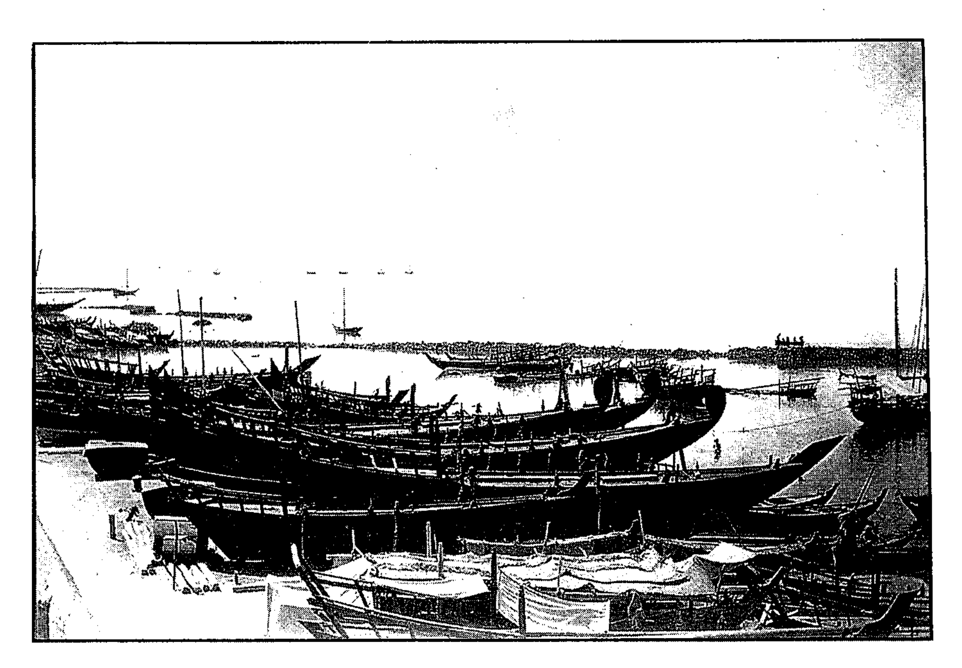
والذكاء.. كان يصف ويرسم والرمال تملأ فمه وخياشيمه، والموت يحيط به من كل جانب.. ولم يترك شاردة ولا واردة إلا ودونها حتى وسوم الإبل، وفروع القبائل والنباتات وأنواع الثعابين والعناكب، لقد استفادت قيادة بلده من جميع ما كتب وشاهد أو اقترح.

أما النهاية فكانت في الرابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٥م حيث قام الأتراك بتسليح ابن رشيد، فتحركت قواته ضد ابن سعود في منطقة «زلفى» شمال الرياض، وكان شكسبير قد انضم للتو إلى صفوف الجيش السعودي.. جاء ليتفاوض مع عبدالعزيز ابن سعود بعيد إعلان بريطانيا الحرب على تركيا في تشرين الأول عام ١٩١٥م(١) لقد تحركت قوات عبدالعزيز ابن سعود لمواجهة القوات الزاحفة وبدأت المناوشات والكمائن، وفي إحدى المواجهات وقعت بعض قطع المدفعية في قبضة السعوديين.. في ذلك اليوم بالذات تلكأت طلائع خيالة الجيش السعودي بالهجوم على خيالة الرشيديين حول منطقة «جراب» مما سمح لخيالة ابن رشيد باختراق الخطوط الدفاعية السعودية والانقضاض على قطع المدفعية، وبينما كان شكسبير يقف قرب المدافع، مرتدياً ثياباً كاكية ومعتمراً قبعته العسكرية ليساعد في توجيه المدافع أصابته ثلاث رصاصات فقتل على الفور.

غضب الملك عبدالعزيز لمقتل ضيفه الكابتن شكسبير خصوصاً وأنه رجاه أكثر من مرة أن يترك ساحة المعركة حرصاً على سلامته، فكتب ابن سعود بعد ذلك معزياً ومعرباً عن أسفه العميق لخسارة صديق حميم ومخلص، راجياً حكومة صاحب الجلالة قبول أسفه وتعازيه.

---

(١) ابن سعود مؤسس مملكة. المصدر السابق نفسه.



كان الأسطول التجاري في الكويت يضم أكثر من ثلاثمائة سفينة بما فيها سفن صيد اللؤلؤ... صورة لميناء الكويت التقطها الكابتن وليم شكسبير عام ١٩١١م.

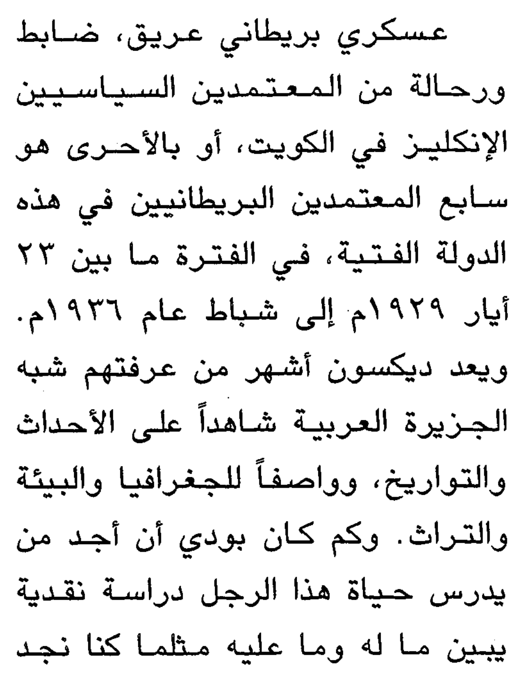
وهكذا نتوقف عن المضي قدماً في سيرة هذا الرجل الرحالة المغامر... فسواء أكنا في موقف العجب أم في موقف الحسد، فنحن أمام تراث سياسي ورحالة مغامر خدم بلاده حتى آخر لحظة من حياته.

اللفتنانت كولونيل هارولد ديكسون:

Lieutenant Colonel Harold Dickson



الكولونيل هارولد ديكسون
L. Colonel Harold Dickson
سابع المعتمدين البريطانيين
في الكويت في الفترة ما بين عامي
١٩٢٩ــ١٩٣٦م



عسكري بريطاني عريق، ضابط ورحالة من المعتمدين السياسيين الإنكليز في الكويت، أو بالأحرى هو سابع المعتمدين البريطانيين في هذه الدولة الفتية، في الفترة ما بين ٢٣ أيار ١٩٢٩م إلى شباط عام ١٩٣٦م. ويعد ديكسون أشهر من عرفتهم شبه الجزيرة العربية شاهداً على الأحداث والتواريخ، وواصفاً للجغرافيا والبيئة والتراث. وكم كان بودي أن أجد من يدرس حياة هذا الرجل دراسة نقدية يبين ما له وما عليه مثلما كنا نجد في ترجمات غيره من الرحالة، ولكن لم يسعفني أي مصدر موثوق في هذا المجال مما دفعني لتتبع أخباره من الآثارالمكتوبة التي تركها مثل كتاب: الكويت وجاراتها، وكتاب عرب الصحراء.. وهذا يعني أنني أروي بلسان ديكسون نفسه، وليس ما رواه عن نفسه بقليل! ولد ديكسون في بيروت عام ١٨٨١م في عائلة امتهن أفرادها الطب والجندية والدبلوماسية؛ ولهذا أعجب ديكسون الابن بأمجاد العائلة وتاريخ أجداده وارتباطهم بديار العرب، فسار على خطاهم مفنياً عمره ما بين الهند وجنوب العراق والكويت.

كان الجد الأكبر جون ديكسون طبيباً جراحاً في البحرية الملكية.

وبعد الحروب النابليونية أقام في طرابلس الغرب حيث أصبح كبير الأطباء في مقر الباشا العثماني، أما الجد المباشر «إدوارد دالزل ديكسون» فهو من مواليد طرابلس المذكورة، وقضى ستين عاماً طبيباً مغامراً في الفرق الطبية للجيش التركي، وطبيب السفارة البريطانية في «استانبول» وخلال تلك الفترة كان الطبيب الخاص لثلاثة من السلاطين: عبدالمجيد، وعبدالعزيز، ومراد الخامس.. وظل في مهنته الطبية حتى تقاعد وأخلد إلى الراحة[1] في تلك المدينة العظيمة في التاريخ. أما والده فقد قضى معظم حياته في خدمة القنصلية البريطانية في الشرق وخاصة في سورية التي كانت تضم فلسطين ولبنان في ذلك الوقت، وتوفي في القدس عام ١٩٠٦م ودفن في المقبرة الإنكليزية على جبل صهيون هناك... لقد ذكرنا كل ذلك لنشير إلى أن تاريخ أجداد ديكسون يمت بصلة إلى شمال أفريقيا إلى العرب والأتراك مما كان له أثراً بالغاً في حياته وحياة والده. بل نجد ديكسون الابن يرضع لبن امرأة بدوية في بادية الشام في قصة طريفة، حيث توفيت والدته ونقل صغيراً إلى دمشق إلى كنف الليدي جين دغبي البريطانية الشهيرة[2] وكنف زوجها مجول المصرب من بدو السبعة من عنزة، لقد تطوع الشيخ مجول بشهامة ودفع بهذا الطفل إلى مرضعة من بدو السبعة، فرضع لبنها حتى كبر، فهو أخ غير شقيق لبدو بادية الشام في سورية.. ترعرع هذا الطفل بعدها في مسكن الليدي دغبي في دمشق، وكانت هذه المرأة الفاتنة البيضاء في الستين من عمرها تصيف في دمشق، وترحل مع زوجها البدوي إلى حماد بادية الشام في الربيع... إنها بمثابة والدته، ولكنها توفيت

---

(١) الكويت وجاراتها، هارولد ديكسون، ط ٢: ١٩٩٠. دار صحارى للطباعة والنشر.

(٢) سيرد تعريف هذه المرأة الرحالة في مكان آخر من هذا الكتاب بإذن الله.

في دمشق عام ١٨٨١م، فاستأجر والده هذا البيت.. بيت الليدي دغبي حيث أمضى ديكسون طفولته يلعب حول الحديقة الجميلة ذات الأزهار الجميلة، بين أشجار البرتقال والليمون، وقد كانت فيما مضى مصدر هناء وراحة وسعادة لمجول المصرب والليدي دغبي، أما هو فقد تربى في حجر والده القنصل البريطاني في دمشق في ذلك الوقت... ومن طرائف ما يتذكره في البادية السورية أيام الطفولة ركوبه الجمل برفقة ابن الشيخ مجول المصرب... وهذه أول خبرة عملية له بحياة البادية وأهلها.ولا غرابة أن يسمي نفسه في الكويت بأبي سعود وزوجته «فوليت» بأم سعود.. لقد عاش عربي النشأة والمولد، وأحب الأرض العربية وتأقلم معها، ولكنه خدم بلاده بالدرجة الأولى، وأخلص لها ولمصالحها بصدق وأمانة حتى آخر يوم من حياته.

شب ديكسون عن الطوق فوجد المدارس العربية لا تلبي طموحه فانطلق إلى بريطانيا ليدرس في جامعة إكسفورد، فأنهى دراسته فيها عام ١٨٩٩م، ثم انضم إلى الكليات العسكرية، ونال منها عدة رتب حيث خدم بعدها في الجيش البريطاني في أيرلندة عام ١٩٠٣م وبعد سنتين نقل إلى الفرقة الثانية من الجيش البريطاني وبقي يعمل هناك حتى عام ١٩٠٨م. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى أرسلت كتيبته إلى فرنسا، ولكن الجيش البريطاني احتاج إلى خدماته كرجل ناطق باللغة العربية فأعيد إلى الهند ومن الهند إلى العراق في تشرين الثاني عام ١٩١٤م. ومن هنا كانت البداية:

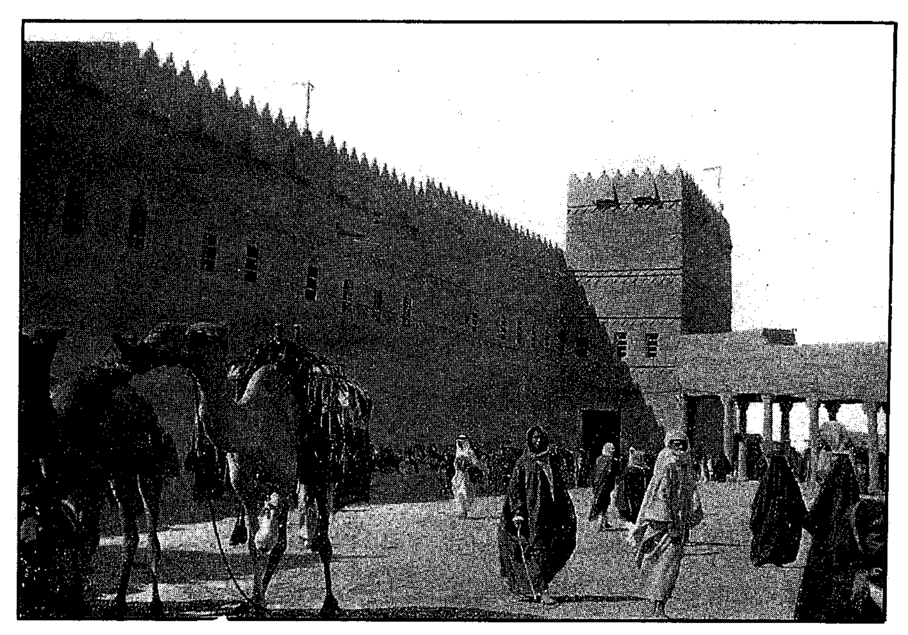
اشترك ديكسون في جميع العمليات التي أدت إلى احتلال الجيش البريطاني لمدينة البصرة والقرنة والناصرية بما في ذلك معركة الشعيبة قرب الزبير، وبعد احتلال الناصرية في تموز عام ١٩١٥م

عمت مدن لواء المنتفق الفوضى والاضطراب بابتعاد الجيش العثماني عنها، ولتمردها على كل سلطة، وتمهيداً لوصول الجيش البريطاني إليها كان يكلف بعض الضباط الذين لهم دراية بالشؤون العربية بمهام خاصة أمثال: جيرارد ليشمان Leachman[1] وديكسون، يقوم كل واحد منهم بدراسة أحوال المنطقة وإحصاء الرجال المتنفذين فيها واستمالة ضعفاء النفوس بالمال، ولهذا أرسل ديكسون كضابط للاستخبارات إلى سوق الشيوخ المدينة الصغيرة على الفرات في وسط قبائل المنتفق، ولما وصل إلى هناك وجد القبائل منقسمة على نفسها، والفوضى عارمة في غياب الشبانة[2] والسواري، والجنود البريطانين أو الهنود. فعاش وحيداً في هذه المدينة، وهو يتوقع المفاجآت في كل لحظة ولكنه بقي حياً بمساعدة الحاج حسن حمدان رجل مدينة سوق الشيوخ القوى الذي أغراه ديكسون بالمال فجمع رجاله حتى بلغ تعدادهم مئتي رجل لغرض الأمن والقانون في المدينة، فعاش في ظل الحاج حسن وأقام في منزله وهو يدير الأحداث من وراء ستار تحت حماية السلطة المحلية الموالية للإنكليز.

وجرياً على عادة شيوخ القبائل قام ديكسون ببناء مضافة ودار استراحة كبيرتين من قصب البردي وسط المستنقعات فرشت بالحصر والسجاد، تدار فيها القهوة ويستقبل فيها الزوار، ويقيم الولائم ففي عيد الميلاد ذبح ثلاثين خروفاً ووضعها مطبوخة فوق أكوام الأرز وحولها الحلوى والفواكه.. فتدفق الناس إلى الطعام وهم

(١) رحالة عسكري من ذوي المهام الخاصة، أسر في جبل شمر لمدة ستة أشهر للاشتباه بأمره، وعندما أطلق سراحه كان مستشاراً للجيش البريطاني في العراق، وحاكماً للواء الدليم في أحداث ثورة العشرين حيث قتله الشيخ ضاري بن محمود من شيوخ الزوبع... إنه الضابط الإنكليزي «نجيمان» المعروف بطول الفرات وعرضه.

(٢) العسكر الخيالة.



من أقدم القصور الملكية في الرياض - تصوير هارولد ديكسون

يسبون أيام المجاعة وأيام العثمانيين وأيام الماضي.. وقد دون ديكسون في أحد كتبه أخبار هذه التجربة في سوق الشيوخ وقد ملئت بالحكايات والقصص والأحداث. فهو وحده الشاهد على ما يروي من أخبار الفتاة التي التجأت إليه بعد أن هربت مع من تحبه، إلى أخبار المشاجرات والبطولات التي قام بها، وإن كان لي من مأخذ واضح على حكايات ديكسون في الجزيرة العربية فهو خوضه بصراحة في وصف نساء بعض الأسر العربية، وقد استغل كون زوجته تستقبل النساء العربيات والمرأة تسر للمرأة، وما كنا نود من أبي السعود أن يفشي أسرار الناس بعد أن وثقت به بعض النساء العربيات وبزوجته!

انسحب العثمانيون من ديار العرب، ووقعت الهدنة عام ١٩١٨م فنقل ديكسون إلى الناصرية ليعمل ضابطاً سياسياً في لواء المنتفق مسؤولاً عن القبائل، تاركاً في سوق الشيوخ الكابتن «ديتشبورن» وقد

استسلم من استسلم، وهاجر مع الأتراك إلى الشمال كثير من زعماء المنتفق أمثال: عبدالله فالح باشا السعدون وعجمي السعدون. لقد ظل عجمي السعدون[1] موالياً للأتراك طوال فترة الحرب ولما انسحب معهم أقام في ماردين فترة طويلة، ولما طالت الغربة عاد عبدالله سراً إلى الجنوب، ويروي ديكسون أنه التجأ إليه فحماه وأمنه على حياته مقابل غرامة قدرها عشرة آلاف روبية، فأقر السير بيرسي كوكس ديكسون على ما فعل.

وتتداخل مهمة ديكسون بمهام قام بها «جون فيلبي» من الدائرة السياسية في حكومة الهند، فقد كان يقوم بمهام خاصة ١٩١٧م في العراق. ومن ثم أرسل في بعثة إلى المملكة العربية السعودية لدفع أهل نجد لمهاجمة ابن رشيد حليف الأتراك في وقت حاصر فيها الأسطول البريطاني موانئ الكويت عام ١٩١٨ بحجة أن المؤن والذخائر تهرب إلى الأتراك في دمشق من الكويت عبر الصحراء. وتعود بدايات خبرة ديكسون بمنطقة الكويت إلى إنذار وجه للشيخ سالم الصباح بأن مصير الصداقة التي تربط بريطانيا بالكويت مرهون بمنع كافة الأعمال التي تضر بمصالح بريطانيا عبر أراضي الكويت.

ومنذ عام ١٩٢٠ أصبح ديكسون وكيلاً سياسياً في البحرين، فزار الهفوف وحل ضيفاً هناك على الملك عبدالعزيز آل السعود، وتعرف على الشيخ فيصل الدويش، وتعرف هناك لأول مرة على الحركة الإصلاحية الدينية التي بدت كمحاولة جديدة لتطهير الدين

---

(١) إني على دراية بأخبار الشيخ عجمي السعدون في ماردين بعد الهدنة، لقد كان والدي ممن قابله في ماردين وتزود منه بالسلاح لمحاربة الإنكليز والفرنسيين برفقة الشيخ رجا ابن دندل من شيوخ العقيدات في الفرات.

الإسلامي من الشوائب التي علقت به بفعل النفوذ الأجنبي، ولن نذهب مع ديكسون في وصفه للأحداث في معركة الجهراء، ولكن ما نود القول: إن صمود أهل الكويت وتدخل الحكومة البريطانية ومساعدتها لدفع العدوان جعل ديكسون على مقربة من الأحداث، وشاهداً على حل الخلافات ومؤتمرات ترسيم الحدود. أما دوره الحقيقي في الكويت فقد قام به عندما عين معتمداً سياسياً فيها من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٦.

«وقد شاءت إرادة الله[١] أن يبقى ديكسون مع عقيلته فوليت بقية حياتهما في هذا البلد الذي أحباه.. فقابلهم الكويتيون من مواطنين وحكام بالمحبة والاحترام.. برهن ديكسون على دبلوماسية فذة في جميع معاملاته.. وعندما تقاعد عين في منصب الممثل المحلي الرئيسي لشركة نفط الكويت الحديثة العهد، حيث سكن هو وعقيلته في مقر المعتمدية البريطانية القديمة. توفي ديكسون عام ١٩٥٩م ودفن في مدينة الأحمدي بعد أن نشر كتابين أحدهما بعنوان «عرب الصحراء» والآخر الكويت وجاراتها. أما السيدة فيوليت ديكسون «أم سعود» فقد عاشت في الكويت لمدة ثلاثين عاماً بعد وفاة زوجها وانتهت حياتها أثناء الغزو العراقي للكويت حيث نقلت إلى إنكلترا عام ١٩٩١م ووافتها المنية هناك».



السيدة فوليت ديكسون (أم سعود) في منزلها في الكويت.. الذي عاشت فيه حتى آخر عمرها.

---

(١) الكويت وبريطانيا (قرنان من الصداقة) معرض المجلس الثقافي البريطاني، الكويت.

هذا هو التعريف بديكسون انتزعته من مؤلفاته، فنحن في محراب عسكري وسياسي ورحالة. وفي الصفحات التالية جولة مع ديكسون في ترحاله وطرائفه.



ديكسون أبو سعود.. في رحلة قنص في البادية يرافقه سعود بن نمران صقّار الشيخ أحمد الجابر الصباح.

تعد الآثار المكتوبة التي تركها هارولد ديكسون وثيقة تاريخية لمنطقة الكويت وما حولها في شمال شرق الجزيرة العربية، فهو شاهد عيان لكثير من الأحداث التي رواها ولكن من وجهة نظر غربية بحتة، وعلى الرغم من أنه غير ضليع بصنعة الكتابة، فقد ترك كتباً تستحق الدراسة، فمن الناحية الجغرافية فيها وصف دقيق لمدن وبلدات وبادية الكويت وما حولها «فكلمة كويت هي تصغير لكلمة كوت»(١)، والكوت هو الحصن الصغير، وقد أطلق المستوطنون الأوائل من آل الصباح وآل خليفة هذا الاسم على المعقل الذي بنوه وسط الخيام التي نصبوها عند قدومهم إلى المكان.

---

(١) الكويت وجاراتها، لديكسون ج ١.

وفي الكتب والسجلات البريطانية القديمة يشار إلى الكويت عموماً باسم «القرين» وهو اسم أخذ بدون شك من منطقة القرين المعروفة التي تبعد مسافة قصيرة عن مدينة الكويت وإلى الغرب منها. تبعد مدينة الكويت عن البصرة ٨٠ ميلاً.. وتبعد ٢٨٠ ميلاً من البحرين. وهي تتجه إلى الشمال الغربي وتقع على الشاطئ الجنوبي لخليج الكويت، في مكان هو ثلث الطريق بين مدخل الخليج في رأس العرض ونهاية الجهراء. والجهراء أو جهارة واحة وقرية كويتية تقع عند أقدام خليج الكويت.. إنها المركز الزراعي الرئيسي في الكويت وأكثر الأماكن استراتيجية بنظر البدو. هواؤها جاف ومناخها صحي ومياه الشرب فيها ممتازة. من الجهة الغربية.. تقع في سهل رملي مكشوف تنتشر فيه الأعشاب يبعد ثلاثة أميال ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من الفجوة المعروفة بالمطلاع في تلال الزور. ويملك شيخ الكويت هناك مسكناً يدعى القصر الأحمر، وسمي كذلك لكون جدرانه حمراء اللون.. طوله ٨٠ ياردة وعرضه ٨٠ ياردة أيضاً وفيه أبراج على الزوايا الأربع وفوق المدخل الرئيسي الذي يتجه إلى الشمال الغربي، تبلغ سماكة جدران القصر قدمين وارتفاعها ١٥ قدماً وتعلو الأبراج فوقها ثمانية أقدام. وجدران القصر وأبراجه مليئة بالثقوب التي خصصت لإطلاق النار... وفي القصر اسطبلات تكفي لإيواء مئة فرس، وهي تستخدم اليوم للاعتناء بالخيول العربية الأصيلة التي يملكها سمو حاكم الكويت.

إن أغلبية سكان الجهراء هم من المزارعين النجديين الذين يزرعون الأرض التي يملكها شيخ الكويت وتجارها، كما يشمل الوصف قبائل وعائلات الجزيرة العربية من البدو والحضر[1]: «عنزة،

---

(١) الكويت وجاراتها، لديكسون ج ١.

شمر، حرب، مطير، العجمان، الظفير، بنو خالد، بنو هاجر، آل مرة، قحطان، عتيبة، الدواسر، السهول، المناصير، بنو ياس، بنو سبيع، القواسم، بنو يام، زغب، بنو تميم، العوازم، الرشايدة».

وفي آثار ديكسون تتداخل الفصول التي كتبتها زوجته فوليت «أم سعود» مع الفصول التي كتبها هو بنفسه، فنجدها تكتب وصفاً لعرس في الكويت، ورقصة الحرب أو العرضة النجدية في الرياض «ففي حوالي الساعة الثامنة صباحاً كانت الطبول تقرع في الساحة والرجال يرقصون رافعين السيوف بأيديهم، ومنهم من كانت أذرعهم متشابكة.. يروحون ويجيئون على النغم وهم ينشدون أغنيات الحرب المليئة بأخبار الحرب والفروسية. وظهر الأمير سعود تحتنا مباشرة ونحن في شرفة القصر، كان يلبس ثوباً من الحرير الأبيض وفي وسطه خنجر ذهبي، وعلى رأسه عقال مذهب فوق كوفية (غترة) من الحرير الأبيض. وكان معه حوالي ٢٧ شاباً من أولاد الملك وأولاد ابن جلوى حاكم حائل وغيرهم من فتيان البيت السعودي.

وانضم الجميع في صفوف مستقيمة.. حتى أصبح الرجال سبعمائة أو ثمانمائة يرقصون بشكل منتظم، فاشترك سعود في الرقص يحيط به رجال يضربون طبولاً صغيرة. ويبدو أن أم سعود كانت خبيرة بالبيئة الحيوانية والنباتية في الجزيرة العربية، فقد أعدت إحصاءً للطيور التي تهاجر عبر الكويت كالسنونو، والمرعة، والخضري وهزاز الذنب، وأبي زريق، واللواء، والهازجة، والغراب الزيتوني، والقطا وغيرها. كما لا ننسى أخبار البادية والأشعار والقصص الشعبية. وعجبت أم سعود من الذكاء الفطري لفتيات البادية.. فعندما كانت في رحلة مع زوجها تخيم في الصحراء مع البدو فُقدت فتاة راعية للإبل في جو عاصف ماطر، إنها ابنة جارهم «دغيمة» ابنة مزيد الظفيري،

ونظراً للبرد الشديد والمطر فقد الأمل من العثور عليها حية، وفي الصباح بعد هدوء العاصفة خرج الناس للبحث عن دغيمة، فوجدت على قيدالحياة ولكنها في حالة إعياء كامل وغير قادرة على التحرك من البرد، فحملت إلى المخيم، وبعد أن أدفئت بجانب النار وأعطيت شراباً ساخناً أفادت الفتاة: أن إبلها ضاعت في الليل عندما بدأ المطر يهطل بغزارة، ولكنها كفتاة بدوية ذكية، قررت أن تجد لنفسها مأوى بالرغم من الخوف والمطر والظلام والبرد القارس. ورأت وهي مبللة بالماء تعاند قوة الريح، أن تحتمي وراء تلة رملية حولها فأخذت تحوم في المكان بحثاً عن واحدة كبيرة. قالت دغيمة: «إنني لم أبك ولكنني كنت خائفة، وساعدني الله بأن قادني إلى وكر للثعالب أخذت أكبره وأعمقه، ولم يكن ذلك صعباً لأن الرمل كان رطباً. ثم زحفت إلى الوكر هرباً من الريح التي كانت تهب فتزيح الرمل حتى تبدو جذور نبات الثندي التي تنمو فيها.. فنجوت والحمد لله إذ لم يصل إلى داخل الوكر إلا القليل من المطر» وكم هو طريف قَصَص البادية وخصوصاً الأساطير الشعبية كاعتقاد قبيلة بني مرة بأن جدتهم العليا جنية، ومثل هذا القصص مشهور في البيئة العربية منذ أقدم العصور.

اندمج ديكسون وزوجته بخصوصيات ديار العرب، والمجتمع العربي في الكويت بالذات إذ شاركا الناس الأفراح والأتراح، وما نقلاه لنا يعد صورة حية لما كان يحدث في الماضي في هذا البلد وما حوله من البلدان، وحتى على المستوى البيئي تعد ملاحظات ديكسون شاهداً على التبدل الحيوي بين الماضي والحاضر.. وممارسة لهوايتي في مراقبة الحيوان في البيئة العربية[١] افتقدت بعض عناصرها في

---

(١) تخصص المؤلف بعلم تصنيف الأحياء، وله هوايات بكل ما يخص البادية العربية.

الكويت مثل حيوان «الدلدل» أو راشق السهام، فنفى وجوده كثير من الناس ولكني دهشت لموسوعة علمية تؤكد وجوده في بر الكويت في الماضي، وتستشهد بقول ديكسون أنه اصطاده في الصفاة عام ١٩٣٦م. وديكسون بالإضافة إلى مهامه السياسية ومسؤولياته هو صياد ماهر، ففي أحد أبحاثه بعنوان: «رحلة صيد مع أهل الكويت» عام ١٩٣٤م خرج ليخيم مع الناس في البر، فأخذ يمضي ويبعد لمطاردة طائر الحبارى بالصقور حتى وصل إلى حوض الدبدبة برفقة رجال العوازم وحملة الصقور والخبراء بالبر أمثال: سعود بن نمران، وعداس الصقري وغريب القادر على مشاهدة الحبارى عن بُعد، وسعد الكشاف، ومرشد الشمري، وسيف التهامي. كان الخير كثيراً في البر الكويتي والطرائد متوافرة. أما شيوخ وأمراء الكويت فهم من الصيادين الماهرين ومن محبي رياضة الصيد بالصقور، فصقر الشيخ أحمد الجابر كان من أمهر الصقور وأغنمها وأكسبها، فهو وحده يصطاد في اليوم أكثر من اثني عشر طائراً من الحبارى وعَدَّ ديكسون من الصيادين الكبار في الكويت كلاً من:

١ - الشيخ أحمد الجابر الصباح.
٢ - الشيخ علي الخليفة الصباح.
٣ - الشيخ سليم الحمود الصباح.

إنهم كانوا يخرجون للصيد مرتين أو ثلاث في الأسبوع، يعيشون في الهواء الطلق بلا أغطية ولا فرش، ودون خيمة أو ملجأ.. وهذه هي حياة الرجولة والعيش الطبيعي والحرية المطلقة فوق أرض الله وتحت قبة سمائه الواسعة.

وأختتم الحديث عن ديكسون بروايته عن جده قصة مقتل السلطان العثماني عبدالعزيز وموت مدحت باشا في سجن الطائف التي



أمير الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح في الفترة (١٩٢١ - ١٩٥٠م)
قاد بلاده في ظروف صعبة فحافظ عليها وأوصلها إلى بر السلامة[١]

(1) Dame violet Dickson. by Claudia Farkas Al-Rashoud. Kuwait 1997.

كثرت حولها الأقاويل وتعددت بشأنها الروايات[1] والاتهامات بين مدحت باشا[2] والسلطان عبدالحميد الثاني من سلاطين بني عثمان، فالسلطان عبدالحميد هو ابن السلطان عبدالمجيد[3] لما توفي والده خلفه عمه السلطان عبدالعزيز الذي انفتح على الغرب وسار بأجهزة الدولة على النهج الغربي، ولكنه عزل بتدبير من جماعة «تركيا الفتاة» وتم تدبير مقتله بعد أربعة أيام من توليه الحكم، وقيل بأنه انتحر، فتولى السلطة شقيق عبدالحميد السلطان مراد الخامس ولكنه لم يدم طويلاً في الحكم بعد أن أصابه الجنون فتولى الحكم أخوه السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٨٧٦م وكان في الرابعة والثلاثين من العمر... فتصارع في السر والعلن مع جماعة «تركيا الفتاة» القومية المعجبة بالنهج الغربي في الحكم، ومن أعضاء هذه الجماعة كان مدحت باشا ذلك الإداري المصلح.. كان قليل الخبرة فأوقعه ذلك بأخطاء فادحة، استغلها السلطان عبدالحميد وسجنه في سجن الطائف في الجزيرة العربية، واتهمه بالاشتراك بقتل عمه عبدالعزيز وقال: إن موت السلطان لم يكن انتحاراً، بل كان قتلاً متعمداً.

كان «إدوارد.. ديكسون الجد» طبيب السلاطين، وطبيب القنصلية البريطانية في «استانبول»، ولم يسبق لديكسون حفيده أن رآه إلا في عام ١٨٩٩م وذلك لأول مرة وآخر مرة في حياته.. جاء ليقابله في العاصمة العثمانية، فأعجب به واستمع إلى أحاديث كثيرة رواها له هذا الطبيب الرحالة الهرم، وإن كانت قصة حياته لم تكتب ولكن ديكسون

---

(١) «قصص وروايات جدي» لديكسون من كتاب الكويت وجاراتها.

(٢) مدحت باشا «١٨٢٠ - ١٨٨٣» من رجالات الإدارة في الدولة العثمانية مات مخنوقاً في سجن الطائف.

(٣) السلطان عبدالمجيد: (١٨٢٣ - ١٨٦١م) من سلاطين بني عثمان، اجتمع حوله رجال الإصلاح والمعجبون بالنظام الغربي في إدارة البلاد وشؤون الحكم.

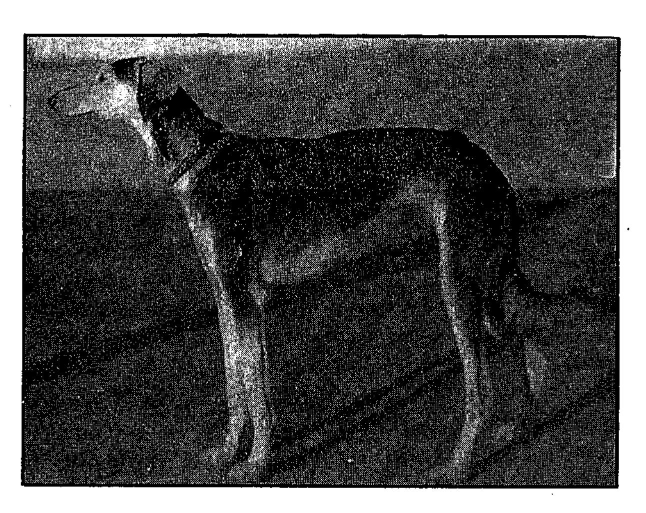
حفيده قد أورد بعضاً منها: «أبلغني جدي أنه بعد نيله شهادة الطب من لندن وأدنبرة ساورته فكرة أن يكتب بحثاً عن الرق في أفريقيا، عندما كان يُجلب العبيد من أفريقيا ويباعون في أسواق تركيا ومصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى والجزيرة العربية. كان يريد أن يشتهر ويضع لنفسه اسماً كبيراً في وقت كان العالم العربي يستفيق على بشاعة تجارة العبيد.. لقد كانت فكرة تحرير العبيد الشغل الشاغل للمفكرين، عاد إلى طرابلس (الغرب) بعد تخرجه بقصد الحصول على معلومات عن الموضوع الذي يريد بحثه. فانضم إلى قافلة من تجار العبيد عبرت الصحراء الكبرى. وبعد عدة شهور من العذاب والعواصف والحرارة الشديدة وصل إلى بحيرة تشاد في أقاصي نيجيريا.. ومن بحيرة تشاد رافق جماعة أخرى من تجار العبيد اللذين توغلوا في رحلتهم جنوباً إلى الكونغو وبلاد الأقزام.. وبعد ثلاث سنوات من السفر المتواصل عبر إلى شواطئ المحيط الهندي.. حتى عاد إلى السويس.. ليصف الأحداث وجلب معه أحد الرجال الأقزام.. وصف جدي بالتفصيل انتحار السلطان عبدالعزيز، في سنة ١٨٧٦م، كما وصف محاكمة مدحت باشا سنة ١٨٨١م الذي اتهمه عبدالحميد زوراً[١] بقتل السلطان عبدالعزيز. وكان جدي واحداً من سبعة عشر طبيباً استدعوا لوضع تقرير عن وفاة السلطان عبدالعزيز، ثم ينقل ديكسون مقطعاً من كتاب «حياة مدحت باشا» بقلم ابنه علي حيدر مدحت باشا. قال: «أعطيت الأوامر لاقتحام غرفة السلطان عبدالعزيز، فوجدوا السلطان وسط بركة من الدم.. سالت من جرحين في ذراعه. ومن الواضح أن الجرحين أحدثا بواسطة مقص عثر عليه مرمياً على

---

(١) إنني وجدت أكثر من رحالة غربي يتهجم على السلطان عبد الحميد الثاني ويُشنّع عليه فهل هو كذلك؟!.

الأرض بجانب الجثة. وأكد الأطباء الذين استدعوا أن السلطان فقد الحياة بسبب النزيف الشديد.. وقد وقّع هؤلاء بالإجماع تقريراً يفيد أن الموت ناتج عن الانتحار دون أدنى شك... وفي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليل ٦ نيسان عام ١٨٨٣م قتل مدحت باشا مع صديقه ورفيقه بالسجن في الطائف خنقاً، وهما في الفراش بناءً على أوامر مباشرة من السلطان عبدالحميد إلى الميجر بكر من الفرقة الثالثة الذي تولى تنفيذ العملية بنفسه» ويختتم ديكسون حديثه أنه منذ ذلك الوقت كره السلطان عبدالحميد، وقطع كل علاقة معه بالرغم من أنه طبيب السلاطين، وفي عدة مناسبات كان يعود مدحت باشا ويطببه، وكان مدحت من أعز أصدقائه.

هذه بعض القصص التي سمعها ديكسون عن جده، ودونها عنه قبل وفاته وما أكثر حكايات ديكسون في كتبه: الكويت وجاراتها، وعرب الصحراء، وغيرها من آثاره الكتوبة!.

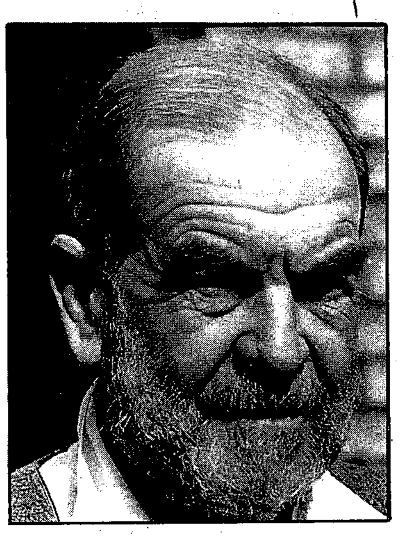


طرفة: الكلب السلوقي الخاص بالكولونيل الرحالة ديكسون.

هنري جون فيلبي (الحاج عبدالله)

H. St. John Philby

١٨٨٥ - ١٩٦٠م



المستشرق الرحالة جون فيلبي John Philby لم ينقطع عن الكتابة حتى آخر يوم في حياته وتعد كتبه مصدراً من مصادر تاريخ الجزيرة العربية.

هناك من يوصي بعدم قراءة التاريخ لأن التاريخ قد لا يكون مكتوباً بأيد محايدة في غالب الأحيان، والعدول عنه إلى السيرة التي تُعد الحياة من دون زخارف ولا مقدمات.. ودون فلسفة الأحداث والنظريات المستخلصة من ذلك(١).

وقد لا يوافق النقاد ومحبو التاريخ على هذا القول، فهم يعدون كتاب السيرة للرحالة الغربيين من أكثر الكذبة غروراً، فبضعة صناديق من الرسائل والمذكرات والصور لا تكفي لترجمة حياة رحالة ما وكشف خفاياها، خصوصاً وأن كاتب السيرة قد يلجأ إلى أدوات الروائي وما يرتبط بها كالسرد والبنية والتطور الدرامي والعقدة والحل.

وإذا ما أراد أي كاتب أن يخوض في سيرة الرحالة، فعليه أن يوازن بين الرأيين، فلا قيمة في النص بدون التوثيق الكافي للأحداث. كما أن النص سوف يصبح جامداً عسيراً على الفهم بدون التشويق وفن رواية الأحداث. وسوف نجمع بين الرأيين في تعاملنا مع معطيات سيرة جون فيلبي الرحالة المعروف.

---

(١) ابن سعود مؤسس مملكة، المرجع السابق نفسه.

إن سيرة جون فيلبي مليئة بالطرائف والأحداث الجسام في بلاد العرب. فهو العالم والرحالة والسياسي المحترف والممثل البارع لأخطر الأدوار في الجزيرة العربية على مدى أربعين عاماً قضاها في بلادنا، فمن هو فيلبي يا ترى؟! وكيف تحول باسمه إلى الحاج عبدالله فيلبي في جزيرة العرب؟!. كم من كتاب قرأته عن فيلبي، فأجده يهتم برحلاته عن الربع الخالي، وجهوده العلمية والثقافية. أما الدراسة النقدية التحليلية لحياة هذا الرجل فلا تتوفر بأيدينا؛ مما يضطرنا لتحريها في المصادر الأجنبية، كما أن حساسية وظروف المنطقة التي عمل فيها فيلبي تجعل كثيراً من الكتاب العرب يحجمون عن التعرض لها... وفي الحقيقة كنت قد جمعت الكثير عن سيرة هذا الرجل ورسمت لنفسي عدة محاور للمعالجة، وعندما قرأت أفكاره في كتابه: «أربعون عاماً في الصحراء» بعد أن خرج مطروداً من المملكة العربية السعودية، اختلطت عليَّ كل الأوراق عندما وجدته يقول: إنني أودع الصحراء العربية دون أن أذرف عليها دمعة واحدة؟! وأعود إلى بلادي عودة الابن الضال إلى أهله!... كل هذا يجعلني أن أسلك منهج التاريخ للوصول إلى حقيقة هذا الرجل بجانب معطيات الرواية خصوصاً ونحن في محراب واحد من مجموعة الرحالة الإنكليز؛ يطيب لي أن أدعوهم بالرحالة ذوي المهام الخاصة: أمثال سادلير، ولورنس، والسيدة بل البريطانية وغلوب باشا، وليشمان الذي عرفت به من قبل. والمهام الخاصة المعنية هي المهام السياسية البحتة بجانب الرغبة بالاستكشاف وحب الترحال وكتابه المذكرات، وبناء على المذكرات والتقارير التي كتبوها لبلادهم رسمت بريطانيا سياستها في ديار العرب، وتدخلت في أحداثها الهامة بعد تفكك الامبراطورية العثمانية حتى رست إلى ما هي عليه اليوم.

ولد هاري سنت جون فيلبي في سيلان عام ١٨٨٥م، واعتاد أن يداعب محدثيه بالقول عن نفسه أنه ليس جون فيلبي البريطاني، بل هو طفل محلي من سيلان التقطته عن طريق الخطأ ممرضة مهملة. وبعد تعليم مكثف وتخصص جامعي ناجح في «وستمنستر وأكسفورد» التحق بمجلس الخدمة المدنية في الهند حيث وصل إلى بومباي في أيلول من عام ١٩٠٨ عندما كان الجيش البريطاني في أوج قوته وعظمته هناك، وحكومته هناك تسمى الحكومة البريطانية في الهند. أمضى عامين فتزوج وكان أفضل صديق له هناك ابن عمه «منتغمري» الذي أصبح من أشهر قادة الحرب العالمية الثانية في الصحراء الليبية الفيلد مارشال منتغمري، ولقد ادعى بأنه أول اشتراكي يدخل مجلس الخدمة المدنية البريطانية في الهند، ويتميز فيلبي بأنه إداري ناجح ومحب لتعلم اللغات الشرقية، كالعربية والفارسية، مما هيأه للعب أهم الأدوار السياسية في بلاد الشرق في مطلع وأواسط القرن العشرين.

بعد إعلان الحرب على تركيا نزلت القوات ألبريطانية الهندية في العراق في تشرين الثاني عام ١٩١٤م واجتاحت في الحال ولاية البصرة، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا أن سجلات الحكومة العثمانية بكاملها قد أخفيت أو أتلفت؛ ولهذا كانت الحاجة ماسة لتوافر منظمين وإداريين أكفاء، فكان فيلبي من بين أولئك الذين تم اختيارهم، فوصل ليمارس أولى مهامه في البلاد العربية في تشرين الثاني عام ١٩١٥م، فتعددت مسؤولياته وكثرت حتى شملت جمع الضرائب، والتمويل والإمداد، وتحرير صحيفة دعائية، والاتصال بالمدنيين لتخفيف نقمتهم على البريطانيين الغزاة وحل مشاكلهم المعقدة..

والاتصال بالثائرين منهم، ومحاورتهم للعودة عن محاربتهم للجيش البريطاني، فالشيخ غضبان البنية - من شيوخ قبيلة بني لام - حارب الجيش البريطاني بشدة، فانسحب بعد احتلال البريطانيين لمدينة الكوت إلى الحدود الإيرانية عام ١٩١٦، فذهب إليه فيلبي هناك واستطاع تهدئته وأقنعه ببيع عشرة آلاف رأس من الغنم للقوات البريطانية بمبلغ مئة ألف روبية[١] ومع ذلك بقي هذا الشيخ لا يثق بالبريطانيين فلجأ إلى شيخ المحمرة خزعل المرداو حتى شكل فيصل الحكم الوطني في العراق عام ١٩٢١م.

كانت القوى الدولية في مطلع القرن العشرين تطمع أن يكون لها نفوذ قوي في الجزيرة العربية وبلاد الشام خصوصاً وأن الدولة العثمانية قد ضعفت فخسرت عدداً من المقاطعات في أوروبا لصالح روسيا والنمسا. أما في العالم العربي فإن مقاطعات كثيرة قد خرجت عن سيطرتها، فلقد خسرت تونس لصالح فرنسا عام ١٨٨١م، وخسرت مصر لصالح بريطانيا عام ١٨٨٢م، وطرابلس الغرب لصالح إيطاليا عام ١٩١١م. وفي الجزيرة العربية كانت كل الخيارات مفتوحة بالنسبة للقيادة البريطانية، فقد أبرمت إتفاقية مع الشريف حسين في مكة ووعدته بحكم عربي في حال انحيازه إلى بريطانيا ضد العثمانيين، وغازلت حكم آل الرشيد في حائل لمنعه من الانحياز للعثمانيين، أما القوة الثالثة التي عادت من جديد في الجزيرة العربية فهي قوة السعوديين بعد أن استعاد الملك عبد العزيز السيطرة على مدينة الرياض عام ١٩٠١م فتوالت تقارير الرحالة والمعتمدين السياسيين البريطانيين عن شخصية عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل

---

(١) الأوضاع القبلية في البصرة د. خالد حمود السعدون، مكتبة الربيعان ١٩٨٨م، الكويت.

آل سعود، وأول من تنبأ بالمستقبل الزاهر لهذا الرجل الشجاع هو الكابتن وليم شكسبير الذي التقى به عام ١٩١٠م. قال: «لقد وجد العرب الآن قائداً تعلو هامته هامة أي زعيم آخر، وهم يمحضونه إيماناً عميقاً. وبات الشيوخ الآخرون من الحلفاء العرب يحيلون إلى ابن سعود قضاياهم كافة، يطلبون فيها نصحه، وبخاصة ما ارتبط منها بعلاقاتهم بالتاج البريطاني».

لقد شغل الملك عبدالعزيز آل سعود العالم بأسره حتى شبه بعض الكتاب الغربيين ظهوره في ديار العرب بظهور ستالين في روسيا، «فكلاهما أسهم على نحو حاسم في تاريخ القرن العشرين. وكلاهما كان رغم مشاكله، ولنحو ثلاثين سنة، قائداً وزعيماً لبلاد شاسعة ذات ثروة ضخمة ظاهرة أو دفينة، وعلى قدر عال من الأهمية الاستراتيجية.. وكلاهما قد وافته المنية عام ١٩٥٣م».

ويشكو بعض الكُتّاب الغربيين من أنهم يعرفون كل شيء وبأدق التفاصيل عن حياة ستالين قبل موته وبعد موته، إلا أنهم يشيرون إلى ضآلة ما يعرفونه عن عبدالعزيز، وخاصة في المصادر الموثقة الصادرة باللغة العربية، ولا عجب أن يكون الملك عبدالعزيز في الرياض مستقبلاً لرجال السياسة والرحالة والمعتمدين البريطانيين وغيرهم، لقد كان بدوياً في صورة حاكم عصري تعتبر المعلومة الصحيحة لديه هامة جداً، فعلى ضوئها يرسم خططه ويحرك أدوات سياسته.. ومن المعروف عن الملك عبدالعزيز الذكاء والحكمة والفطنة.. فكل خطوة يخطوها كانت محسوبة، ولم يسْجل بحقه قط خطوة خاطئة غير مدروسة. كان له عيون وآذان في الكويت ودمشق يزودونه بالتموين والجرائد المحلية والمعلومات المتداولة، وبالمستشارين الأكفاء المستعدين للعمل معه، كما كان له صديق

بريطاني جديد هو المعتمد البريطاني في الكويت وليم شكسبير الذي أفاد في مذكراته أنه بحث مع ابن سعود ردود الفعل البريطانية المحتملة في حال مهاجمته للأحساء، ولم يقطع عبدالعزيز صلته بالأتراك، فقد دعاه والي البصرة قبل عام ١٩١٣ لزيارته، فسأله الوالي عن رأيه في تنامي الدعوة القومية في الوطن العربي، فكانت لقاءات عبدالعزيز بالغة **الأهمية**، فحسه السياسي ومرجعيته الثقافية المتنوعة مكنته من التقاط المعلومات وتحليلها بسرعة، فلقد توصل إلى استنتاج بأن الحرب العالمية الأولى سوف تقع في أوروبا لا محالة.

كما كان للملك عبدالعزيز قبل الحرب وبعد الحرب مصدر معلومات آخر هو العدد المتزايد من الرحالة «الذين كانوا يقصدون الجزيرة العربية وبعض ضباط المخابرات، بشكل أو بآخر مثل ليشمان الضابط المتطوع في الوحدة الخاصة "RSP" الذي قام برحلة جريئة عبر الصحراء من بغداد إلى نجد والرياض ثم الساحل[١]. قلنا إن كل الخيارات كانت مفتوحة أمام الإنكليز في الجزيرة العربية حتى شبت نيران الحرب العالمية الأولى ،وإنحياز ابن رشيد إلى تركيا وألمانيا رسمياً ومعاداته للسياسة البريطانية، وفي تشرين الثاني من عام ١٩١٧م كان الإنكليز قلقين بشأن المنافسة بين شريف مكة وابن سعود حاكم نجد فمرت العلاقات البريطانية بفجوة مع الملك عبدالعزيز لأكثر من عامين قطع بينهما الاتصال الرسمي، فغدا موقف ابن سعود حاسماً خصوصاً بعد قيام الثورة الروسية وخروج روسيا من قوى التحالف بعد وصول «البولشفيك» إلى السلطة، فتلقى فيلبي توجيهات محددة من كوكس للقيام بمهمة إلى الرياض لمقابلة الملك عبدالعزيز واكتشاف وجهة نظره الحالية فيما حدث، فتحرك في بعثة إلى ميناء

(١) ابن سعود مؤسس مملكة، المصدر المشار إليه سابقاً.

«العقير» قرب البحرين في الرابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٧م تضم كلاً من:

١ - بليني.
٢ - الكولونيل أوين المستشرق المعروف.
٣ - شوفيلد الاسكتلندي.
٤ - الكولونيل هاملتون الذي التحق بهم في الرياض قادماً من الكويت.



الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود.. واحد من أعظم صانعي التاريخ في الجزيرة العربية.. في صورة له على ظهر جواده أخذت في ميناء العقير عام ١٩٢٣م

وصل فيلبي إلى ميناء العقير مع أفراد المجموعة وهو يرتدي «بنطالاً» قصيراً مزموماً عندالركبتين، فطلب منه مضيفوه أن يكون أقل وضوحاً وذلك يتطلب منه أن يرتدي اللباس العربي، وأن يتكلم العربية بلهجة أهل نجد فبالرغم من عربيته الضعيفة في البداية، فقد كانت لديه مرونة في اكتساب اللغات، والاستعداد لإتقان اللغة العربية بكل وسيلة ممكنة.. فما زال فيلبي يزداد توسعاً وتعمقاً في أبحاثه حتى أصبح خبيراً باللغة العربية واللهجات العربية، وبأنساب وجغرافية بلاد العرب.

وصل فيلبي وصحبه إلى الرياض على ظهور الإبل بعد سبعة أيام

من السفر المتواصل، وقابل الملك عبدالعزيز لأول مرة في حياته، فدهش لشخصيته الجذابة وحزمه وتوازنه فاعتبره أعظم شخصية أنجبتها الجزيرة العربية لأكثر من ألف عام.. إنه المحارب الشجاع، والحاكم الحازم، والشاعر المفوه، عظيم الجسم، طويل القامة، سحره جذاب كقوامه، وبالوقت نفسه كان ذكياً، وكريماً ومضيافاً.

وبعد أيام قضاها أعضاء البعثة في الرياض تفرقوا بعد أن عجزوا عن تقييم مشترك للملك عبدالعزيز، فغادر أوين وهاملتون إلى الكويت غاضبين، وخصوصاً هاملتون الضابط الكبير الذي رفض أن يتاح لضابط أقل منه رتبة أن يختلي بابن سعود في جلسات طويلة على انفراد دون بقية أعضاء البعثة. كما تشير بعض المصادر البريطانية أن فيلبي تجاهل المهمة الموكل بتنفيذها تماماً وأخذ يتصرف بمفرده بمعزل عن السياسة البريطانية بمجرد أن تعرف على الملك عبدالعزيز.. وأقول المصادر البريطانية لأننا بحاجة إلى مصادر محايدة تثبت لنا ذلك، خصوصاً «وأن أول وثيقة بريطانية صدرت بالإنكليزية تسجل بالتفصيل المحادثات الشخصية الطويلة التي دارت باللغة العربية بين فيلبي وابن سعود في مطلع عام ١٩١٨، وهي أول وثيقة تفصيلية لشاهد عيان إنكليزي موثوق حول وضع ابن سعود في مطلع عام ١٩١٨م».

يبدو أن فيلبي تعلق بالملك عبدالعزيز، ووقع تحت تأثيره وتأثير الحضارة الإسلامية التي تمثلها في سلوكه، فترك كل ما يمت بصلة إلى الحضارة الأوروبية ما عدا أدوات المساحة ودفاتر المذكرات والبندقية البريطانية التي كان يحملها.. كان يأكل على طريقة البدو تماماً مثل ما كان يفعله غلوب باشا «أبو حنيك» بين بدو الشمال فتسمى باسم أبي فارس راعي البويضة، ومثلما كان يتصرف ليشمان

بين بدو الفرات عندما تسمى باسم حصانه نجيمان، ولا زال يعرف هناك باسم الكابتن نجيمان وليس باسم ليشمان الإنكليزي. ومنذ ذلك التاريخ أصبح فيلبي مقرباً من الأسرة الملكية يلعب مع الأمراء الشباب ويشاركهم رحلات القنص والصيد، ويحضر المجالس كواحد من أصدقاء الحاشية الملكية.

كانت الخطة البريطانية أن يتزامن وصول فيلبي إلى الرياض مع وصول مندوب بريطاني آخر من القاهرة إلى ميناء جدة، ومنها براً إلى الرياض، وهذا ما أحبطه شريف مكة الذي ادعى أن عبدالعزيز آل سعود لا يملك السيطرة على القبائل وأن مثل هذه الرحلة ستكون مستحيلة في المستقبل، كان هذا المندوب هو البريطاني «ستورن» الذي أصابته ضربة شمس حادة فتوقفت المهمة.

استغل فيلبي هذه الحادثة، وبدعم حماسي من الملك عبدالعزيز أراد أن يثبت بأن هذا غير صحيح؛ ولذلك قرر القيام برحلة إلى جدة بنفسه. زوده الملك بالإبل والحماية الكافية، فقطعت المجموعة ٤٥٠ ميلاً من الرياض إلى الطائف وذلك في خمسين يوماً. لم تكن الرحلة سهلة لأن صحبه كانوا يأنفون صحبة رجلٍ كافر، ولا يأكلون معه ولم يكن العرب مضيافين له على طول الطريق. ومن الطائف وصل إلى جدة. غضب الشريف حسين لما حدث فرد بمنع فيلبي من العودة على نفس الطريق، فاضطر أن يعود إلى الرياض بحراً من القاهرة إلى بومباي فالبصرة، فبعد أن أنجز مهام رحلة سياسية في جدة والقاهرة عاد إلى الرياض عام ١٩١٨م في مهمة جديدة هذه المرة: كانت المهمة إقناع الملك بمهاجمة ابن رشيد الذي يسيطر على شمال نجد في المنطقة التي تفصل بين أرض المعارك في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، وبالرغم من أن الملك عبدالعزيز كان يتحين الفرصة

لإنهاء حكم آل الرشيد في حائل، وأنه بالفعل قد اتخذ قراره بهذا الشأن في أيلول من عام ١٩١٨م، إلا أنه منع فيلبي من أن يصحبه في الحرب لأن الملك كان لا يود أن يحارب مسلمين آخرين بتحريض من الأجنبي. ولكن الحملة على كل حال لم تنجح فأراد الملك أن يدفع فيلبي للقيام برحلة إلى وادي الدواسر التي تبعد خمسمائة ميل جنوب الرياض، عاد منها فيلبي بمعلومات علمية هامة وبخرائط قيمة وتصميم جامح أن يكون أول من يعبر الربع الخالي.

وبعودة فيلبي إلى الرياض ثانية وجد أن الحرب قد وضعت أوزارها عملياً وأن السياسة البريطانية قد تغيرت، فقد أصبح من المرغوب فيه أن يبقى ابن رشيد حاجزاً بين العراق الذي يحكمه الإنكليز، وبين خطر التوسع السعودي، فغضب الملك عبدالعزيز وقال لفيلبي: «كيف تريدون من شعبي أن يثق بكم بعد ذلك؟! لقد وقفت ضد ميولهم وأقنعتهم بأن الصداقة مع الإنكليز هي لمصلحتهم.. ولكن ماذا بوسعي أن أقول لهم بعد الآن؟!».

وفي ضوء هذه المستجدات على الساحة النجدية استدعى فيلبي ثانية إلى عمله الرسمي في العراق تحت رعاية مباشرة من المستشرقة الرحالة السيدة «جيرثرود بل» وسرعان ما انغمس في نزاعات حادة مع القيادة التي وضعتها بريطانيا في العراق، حتى اتهم بأنه المشاغب الوحيد من بين المجموعة، ومما يسجل في حق فيلبي أنه كان طويل اللسان، ويحب البحث عن الخفايا والصغائر وتحري النقائص في كل شيء، من الحكومة إلى الدستور، وحتى قلم الحبر... كلها يرى أنها قامت على أسس خاطئة، ولعل جو عدم الألفة مع زملاء العمل دفعه للاستقالة بعد ثلاث سنوات من العمل في العراق في «يوليو» من عام ١٩٢١م، فقرر أن يسافر في إجازة بصحبة

مراسل صحيفة «التايمز» لكشف كافة الأسرار المحرجة للإدارة البريطانية في العراق. وربما كان محظوظاً عندما وصل عمان في الأردن عام ١٩٢١م ليعمل خلفاً للورنس الذي ترك المنطقة، لقد وصل



جون فيلبي فوق ناقته وحوله مجموعة الحراسة من العرب في طريقه إلى جدة عام ١٩١٧م.

وأحوال الأردن مضطربة والإمارة تشهد نشأتها الأولى بقيادة الأمير عبدالله بن الحسين، والعراق يشهد تكوين مملكة ملكها فيصل بن الحسين تحت الحماية البريطانية ودعمها. نعم فيلبي بعمل سعيد ولكنه خلال عامين أخذ يتشاجر مع الحاكم المحلي ورؤسائه وتطورت الخصومة إلى مرحلة اللاعودة فتم فصله في منتصف عام ١٩٢٤م. وخلال تواجده في شرق الأردن كان قد تعرف على كاتبة رحلات شهيرة تدعى روزتا فوربس Rosita Forbes في العشرين من عمرها، غامرت بزيارة منطقة الواحات الليبية في الصحراء بثياب تنكرية،

فكتبت عن تلك الرحلة قصة رومانسية لا تزال موصوفة في كتب أدب الرحلات البريطانية، حيث سبقها إلى هناك في ليبيا أوروبي واحد وأظنه محمد أسد صاحب كتاب الطريق إلى مكة!. وفي هذه الأثناء قدمت لها صحيفة «الديلي تلغراف» مبلغ «٤٠٠٠» جنيه لكي تعبر الربع الخالي في رحلة مرتقبة مع جون فيلبي، ولكن معوقات كثيرة حالت دون ذلك، منها: أن حكومات المنطقة لم تهتم بالرحلة ولم تخبر سلفاً لإزالة الشك حول حقيقة الرحلة، ولهذا انطلق كل من فيلبي وروزيتا بشكل مستقل إلى نجد ثم انطلقت هي إلى الخليج بينما انطلق فيلبي إلى جدة ومن هناك عاد والتقى بها في عدن، فرفضت السلطات مشروعهما بسبب أزمة ثقة بين المسؤولين البريطانيين - في عدن - وبين فيلبي. بكت روزيتا وذرفت دموعاً غزيرة على طاولة المندوب السامي ثم انسحبت وغادرت المنطقة بشكلٍ نهائيٍ، أما فيلبي فعاد إلى نجد ليجد الملك عبدالعزيز يستعيد مدينة حائل ١٩٢١م ويستولي على مكة في تشرين الأول عام ١٩٢٤م وبعد الاستيلاء على مكة زحفت قوات الملك عبدالعزيز إلى جدة لتحاصرها، فعرض فيلبي الوساطة ولكن الحكومة البريطانية أخبرته أن يلتفت إلى شؤونه الخاصة، ونهرته عن التدخل مهددة إياه بمنعه من الحصول على حقوقه التقاعدية[1] كما منع من الدخول إلى الداخل... عاد فيلبي وحده إلى لندن، وبعد مضي عام وفر له دعماً مادياً فعاد إلى جدة تحت حكم السعوديين ليؤسس شركة استيراد سماها «الشرقية» حيث أخذ يستورد السيارات، ويدخل الهواتف ومجموعات اللاسلكي إلى المملكة العربية السعودية لأول مرة، وفوق كل هذا وذاك استمتع كثيراً في أن مشروع التنقيب عن النفط في المملكة كان قد ذهب لصالح الشركات الأمريكية بدلاً من الإنكليزية لاعتقاده بأن الأمريكان أكثر تحرراً

---

(١) ابن سعود مؤسس مملكة المصدر السابق نفسه.

من شوائب الإمبريالية[1] ولم يدر أن ما قام به جعله أكثر التصاقاً بالجزيرة العربية التي أججت خياله.

استمر فيلبي بصداقته مع الملك عبدالعزيز، إلا أنه شعر بأنه لا يمكن له البقاء في المملكة لمدة طويلة لكونه غير مسلم، وكم من مرة عرف من الملك أنه لو كان مسلماً فسيكون قادراً على مرافقته في رحلاته ودخول مكة، وبوسعه بعدها الدخول إلى البلاط الملكي باستمرار، وهكذا اتخذ فيلبي خطواته التالية إذ أعلن إسلامه في صيف عام ١٩٣٠م.

جاء تحوّله إلى الإسلام بلمسة حانية حيث اتصل به الملك عبدالعزيز من الطائف لموافاته إلى مكة. وطلب من فؤاد حمزة وعبدالله سليمان أن يرافقاه في الرحلة، ليعلن فيلبي في الجامع الكبير تحت ضوء القمر قبوله الإسلام والنطق بالشهادتين، وفي اليوم التالي الثامن من آب ١٩٣٠م قدمه الملك إلى حاشية البلاط الملكي باسم عبدالله فيلبي. وجد فيلبي نفسه محاطاً بحاشية الملك وأبنائه، فيصل نائب الملك في الحجاز، وسعود نائب الملك في الرياض، وعبدالله السليمان مدير الشؤون المالية وعبدالله الدملوجي المسؤول عن الشؤون الخارجية بالإضافة إلى الدرزي اللبناني فؤاد حمزة، والسوري يوسف ياسين، وحافظ وهبه نصري وغيرهم من المساعدين الخبراء. ويبدو أنه في هذه الفترة على الأقل لم يكن على وفاق مع السلطات البريطانية وخصوصاً بعد أن أشهر إسلامه، وأصبح محط انتقاد كثير من الساسة البريطانيين ويمكنني أن أقتطف بعض المقتطفات من تقرير لبعض المصادر الأمنية البريطانية بعد عودته من حضرموت عام ١٩٣٧م: «كان فيلبي في أوج مزاجه البطولي... فبالإضافة إلى رغبته في نقل نور العلم للبشرية، يضيف الآن نية ملحّة لكي يعرض نفاقه المزعوم للعرب - في شبه الجزيرة

---

(١) ابن سعود مؤسس مملكة المصدر السابق نفسه.

العربية - الذين لم يكونوا قلقين جداً بشأن نفوذه المحتمل على ابن سعود، لأن الملك لديه من الحنكة والرصانة مما يقطع على أي شخص نواياه ومطامعه، أما الفرنسيون فكانوا يراقبون بغيرة وحسد ما اعتبروه نصراً للخدمة السرية البريطانية التي وضعت واحداً من رجالها في منصب يمكن من خلاله توجيه سياسة أمة، وأن يتآمر على مصالح فرنسا التي عانت طويلاً من المنافسة البريطانية».

كان فيلبي يلح في كل مجلس يحضره مع الملك عبدالعزيز بالطلب والترجي أن يأذن له بالقيام برحلة يقطع فيها الربع الخالي، وبتكرار الطلب ضجر منه الملك فقال له «اخرس» وأخرجه من مجلسه، ولكن الأمور تبدلت عام ١٩٣٢م فبينما كان الأمير فيصل يستعد لزيارة أوروبا، ذكر اسم فيلبي كأحد المرافقين، ولكن الملك عبدالعزيز قال: كلا فيلبي سوف يذهب إلى الربع الخالي، ففرح كثيراً إلا أن فرحته لم تكتمل عندما علم أن زميله وتلميذه «برترام توماس» كان قد سبقه في عبور الربع الخالي، وبمؤازرة من الملك عبدالعزيز توافر لفيلبي فريق عمل، ومعظم ما يحتاجه من خيام وأسرَّة وأطعمة معلبة.

انطلق فيلبي من الهفوف في نهاية عام ١٩٣١م بمرافقة أربعين رجلاً واثنين وثلاثين ناقة ومؤناً تكفي لثلاثة أشهر، وعلى الرغم من أن المسافرين كانوا يستثنون من الصيام، إلا أن كامل أفراد الرحلة كانوا يواصلون الصوم حتى المساء، وعندما تتفطر أقدام الإبل من المشي فوق الصخور ينزل الرجال الأشداء لطرحها أرضاً ويخيطونها بأشرطة من إطارات السيارات.

وكالعادة كان يتشاجر مع رفاقه العرب لأنهم يريدون السفر ليلاً تجنباً للحرارة، بينما هو كان يصر على السفر في النهار كي يرى ويرسم، هم يريدون السفر في الأراضي التي تكثر فيها المهاة

«الوضيحي» بينما هو يصر على ارتياد المناطق التي تكثر فيها الخرائب وبقايا المدن المهجورة، وقد أحرجهم مرة عندما أضرب عن الطعام، فصرخوا بوجهه: نحن نشقى بسببك دون جدوى، ونجهد مطايانا حتى تصاب بالإعياء دون جدوى أيضاً ومع ذلك فأنت دائم الاستياء والانتقاد؟!

بعد ٩٠ يوماً من انطلاقته من الهفوف وصل فيلبي إلى مكة بعد أن أمضى منها ٦٨ يوماً بين كثبان الربع الخالي، حيث جعل طريقه عبر واحة جبرين إلى آثار مدينة «وبرا» التي ذكر بأنها من بقايا مدن العرب البائدة، ثم اندفع جنوباً حتى واحة نايفة وتابع اندفاعه نحو الجنوب، إلا أن البدو المرافقين أقسموا أنهم لن يذهبوا إلى أبعد من ذلك، فانحرف غرباً ليصل إلى صلايل عند أطراف الربع الخالي في مطلع آذار عام ١٩٣٢م. وبعد مسير ثلاثة أسابيع وصل إلى مكة.

كان يقول لمرافقيه: بالنسبة لحدة الطبع في نفسي فالله وضعها فيّ عندما خلقني، ولكن أنتم تؤججون نارها بمعارضتكم لي فلولاكم لسرت جنوباً حتى المحيط الهندي، فيردون عليه: هذا مستحيل فنحن لا نعرف الطريق ولا القبائل التي تعادينا في الجنوب، والمجموعة كلها سوف تهلك بسببك. وقد عُلم فيما بعد أن أصحابه بعد مجادلة حادة كانوا يخططون لقتله وهو نائم، ولكنهم خافوا من عقاب الملك عبدالعزيز فقد لا يصمدون أمام التحقيق، ولن يكون بمقدورهم سرد قصة مقنعة لسبب مقتله. وعندما عاد فيلبي إلى الرياض كبَّر وقال لقد هزمنا الربع الخالي وقطعنا «١٧٠٠» كم في ثلاثة أشهر وعشرين يوماً من السفر الشاق والمتاعب. وبعد هذه الرحلة الكبيرة على ظهور الإبل، تابع رحلاته الاستكشافية في الجزيرة العربية بالسيارات ترافقه زوجته التي أصبحت أول أوروبية تعبر الجزيرة العربية من البحر إلى

البحر، كان فيلبي مثال المستكشف العصري، فهو لا يبني الخيمة إلا عند سقوط المطر، ولا يلبس ثوباً جديداً حتى يهترئ ثوبه. أمتعته الرئيسية كانت جهاز رسم الخرائط، وما تبقى فالسكاكين والناموسية ومصباح جذب الفراشات، وزجاجات وعلب حفظ العينات، وكان يصطحب جهاز الراديو الذي كان ينصت إليه في المساء، وعلبة لصحيفة التايمز فيها رزمة من الأعداد التي وصلت إليه حديثاً.. وكانت متعته قبل النوم حل الكلمات المتقاطعة التي يدعي أنه لم يغش فيها أبداً!

توجت رحلاته بمجموعة من الخرائط والمذكرات والوصف الدقيق الشامل بأسلوب مبسط بعيد عن تعقيدات الأدب.. لقد كان عالماً بالكثير من الجغرافيا والهندسة المساحية وحتى الصخور والطيور وباقي الحيوانات، فقد جمع «٤٠٠» نوع من الطيور في الجزيرة العربية أضيفت إلى مجموعات المتحف البريطاني.

في عام ١٩٣٣م كان «لكيم فيلبي» إسهام في تعريف العالم بالمملكة العربية السعودية عندما نشر والده عبدالله فيلبي وقائع عبوره للربع الخالي عام ١٩٣٢م حيث كلفه والده بمراجعة النسخة الأخيرة التي جاءت دون أخطاء[1] ففي هذا الكتاب وسائر كتب فيلبي استطراد، ولكنه كنز من المعلومات، ومهما كانت درجة تقصيره فهو يبقى أول مرجع يطبع بالإنكليزية ليصف جغرافية المملكة العربية السعودية.

للحاج عبدالله فيلبي ١٥ كتاباً، ألف أكثرها في المملكة العربية السعودية التي قضى فيها وفي البلاد العربية المجاورة ٤٠ عاماً، ومن هذه الكتب:

---

(١) كيم فيلبي هو ابن فليبي الذي اتهم في بلاده بالجاسوسية لحساب روسيا.

١ - تاريخ نجد.
٢ - الربع الخالي.
٣ - أربعون عاماً في الصحراء.
٤ - أرض الأنبياء (مدائن صالح).
٥ - قلب الجزيرة العربية.

وغيرها من الكتب الهامة التي تُعدُّ مصدراً هامّاً عن جغرافية وتاريخ الجزيرة العربية.

على الرغم من الصلة الوثيقة بين فيلبي ومسؤولي المملكة العربية، فقد شابت العلاقات توترات أدت إلى طرده وإنهاء وجوده هناك. ففي مايو عام ١٩٣٦ طلب منه الملك عبدالعزيز أن يرأس بعثة استكشافية ترسم حدود المملكة مع اليمن ووضع خرائط دقيقة لمنطقة نجران، وما بين أيار وأيلول من ذلك العام كان فيلبي ينفذ المهمة تحت حماية وحراسة سعودية مسلحة، فقام باكتشافات أثرية هامة، ولكنه تجاوز التعليمات الرسمية وتوغل في المحميات البريطانية في حضرموت والمكلا... كان هدفه منطقة شبوة التي يظن أنها مملكة سبأ القديمة، مما أغضب السكان المحليين والقيادة البريطانية، فقد ظن سكان شبوة أنه جاء لضمهم إلى المملكة العربية السعودية، فرحل إلى ساحل المكلا وهناك جاءت برقية من القائد البريطاني (لايك) تأمر بترحيله فوراً... فزاد الأمور تعقيداً تصريحه والقول: إنه بصدد مراجعة قيادته للإشراف على إخلاء المنطقة المحتلة. كان من نتائج هذا التصرف أن غيَّرت الحكومة البريطانية خطتها أمام الخطر القادم من الشمال فمدت منطقة الحماية لتشمل ٧٠ ألف ميل مربع إضافي وأحكموا سيطرتهم على حضرموت والمناطق المجاورة. وفي إثارة أخرى لإمام اليمن فبدلاً من أن يعود إلى مكة عرج على مدينة مأرب

في اليمن مما أغضب السلطات اليمنية، لكن فيلبي ورغم كل ما حصل كان قد أنجز على الأقل خرائط ممتازة لمنطقة نجران وشبوة وحضرموت حدد فيها طرق المواصلات ومراكز الاستقرار البشري، كما حدد المنطقة الأثرية لموقع مدينة شبوة التاريخي.

عاد فيلبي إلى بريطانيا في أوائل عام ١٩٣٩م وانغمس في السياسة المحلية والدولية، فعرض عليه العمل كضابط اتصال واستخبارات، لكن ماضيه شهد ضده، كما فشل في دخول البرلمان تحت شعار تحقيق السلام في العالم. وفي الفترة ما بين عامي ١٩٣٩ - ١٩٤٠م أصبحت العلاقة بين المملكة وفيلبي على كثير من الحساسية، ولكننا بحاجة إلى التوثيق لتقديم الوصف التحليلي لما حدث ونحن نجد البداية في صيف عام ١٩٣٧م عندما نشر ممثلو المملكة بياناً يفيد: «ربما يعتقد البعض أن آراء فيلبي تعبر عن آرائنا... من الضروري التأكيد أن هذه الآراء هي آراؤه الشخصية ولا تعبر في شيء عن أفكارنا» والمملكة معذورة فيما فعلت فعلى الرغم من أن فيلبي ليس مستشاراً ولا موظفاً رسمياً في المملكة، لكن أوساطاً كثيرة خارج المملكة كانت تعتقد أنه ربما كان الناطق باسم الملك عبدالعزيز شخصياً.

تدخل فيلبي في السياسة ودعا إلى نوع من التفاهم حول مشكلة فلسطين، وذلك حين اقترح «بأن العرب يجب أن يسمحوا لليهود بالاستيلاء على فلسطين باستثناء مدينة القدس، وأن يدفع للعرب ٢٠ مليون جنيه، على أن تبقى المدينة تحت سلطة ابن سعود» ولكنه بهذه التصريحات والاقتراحات خسر رصيده كله في ديار العرب. ومع ذلك أعطي فيلبي بيتاً في الرياض ليبقى تحت المراقبة.. ولكن فيلبي كثف تحركاته وسافر إلى كراتشي وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة

ليلقي مجموعة من المحاضرات، فوردت برقية بتفتيش حقائبه وتوقيفه ومصادرة كل ما يسيء إلى المملكة العربية السعودية، أو ينتقد السياسة البريطانية. وقد أخبره الملك نفسه بأنه كفى.. فنحن لا نحب طولة اللسان! ونتيجة لتدخل فيلبي في شؤون المملكة في حياة الملك عبدالعزيز وبعد وفاته؛ أصدر الديوان الملكي السعودي بياناً بطرده من البلاد في ١٧ أبريل نيسان عام ١٩٥٥م، ومنحه الممتلكات التي كانت له[1] إذ كان يعمل في الرياض كمستشار للملك عبدالعزيز آل سعود، إلا أنه أصبح من كبار رجال الأعمال فيما بعد.. وقد كان سبب إبعاده عن البلاد هو التدخل في الشؤون الداخلية.

سافر جون فيلبي إلى الأردن ومنها انتقل إلى بيروت حيث سمّى هذه الفترة بالانتقال إلى المنفى، وأخذ من هناك يمارس نشاطه السياسي حتى توفي في أول تشرين الأول عام ١٩٦٠م فدفن في مقابر المسلمين بعد حياة حافلة بالعمل السياسي والاستكشاف. فقد قام برحلات كثيرة واشترك في ١٠٠ مؤتمر ولجنة ومعاهدة. وتعرض للموت أكثر من مرة، وحين مات في بيروت عام ١٩٦٠م كان له من العمر ٧٣ عاماً ولم يشترك في تشييع جنازته أكثر من اثني عشر رجلاً؟! وكتب على قبره: «هذا قبر أعظم المستكشفين للجزيرة العربية» ويبرر ابنه كيم هذه العبارة بأن كثيراً من الرحالة لم يبق في الجزيرة أكثر من عشرين شهراً، ولكن فيلبي بقي هناك يكتب ويكتشف لأكثر من أربعين عاماً.

إن الترجمة لحياة جون فيلبي أو الحاج عبدالله تحتاج إلى المجلدات من البحث والدراسة مررت على معالمها الرئيسية، وبقيت

---

(١) مجلة الفيصل السعودية العدد ٤٨ عام ١٩٨١م.

فيها حلقات مجهولة وتساؤلات أولها: كان فيلبي في بداية حياته يدعي أنه أول اشتراكي يدخل سلك الخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانية، وفي كثير من تصريحاته كان يهاجم الإمبريالية ويستخدم مصطلحات اشتراكية.. فهل هناك من علاقة بين أفكار فيلبي السرية والعلنية واتهام ولده كيم فيلبي بالجاسوسية لصالح الاتحاد السوفيتي سابقاً؟. وهل تجد مؤمناً سليم العقيدة يدعو لتسليم أرض فلسطين لليهود؟ ويصف عودته إلى بلاده بعودة الضال إلى أهله بعد أن أمضى في بلادنا أربعين عاماً باسم الحاج عبدالله.. فهل ضل بعقيدته أم بجسده؟!. وهل كان سلوكه بمعزل عن رغبة الحكومة البريطانية؟! كل هذه التساؤلات تريد من يجيب عليها بصراحة في المستقبل بإذن الله، وكل ذلك لا يعفينا من تصنيف فيلبي مع مشاهير الرحالة في ديار العرب.



أسرة فيلبي عام ١٩٢٣ وهم من اليمين إلى اليسار: والدته، أولاده، بيت وكيم، الليدي دورا، فرانك، أفريل، دينا. عن كتابه «أربعون عاماً في الصحراء».

فايس ليبولد (محمد أسد)

Wiess Leopold

ليبولد صحفي رحالة أشهر إسلامه وتسمى بمحمد أسد[1] وقد اشتهر بهذا الاسم طوال حياته.

عاش محمد أسد أيام طفولته في بيت هادئ جميل في مدينة بولونية جميلة حيث الغابات التي لا مثيل لها في بلدان العالم الأخرى، وكان ينتقل في الصيف إلى ريف المدينة لاهياً بين الجداول وأشجار الصفصاف، والحقول وحظائر الحيوانات الأليفة، وقد مارس الترحال منذ الصغر مع والده في ضواحي فينا وبرلين وفي جبال الألب والغابات وبحر الشمال والبلطيق. ولتكرار رحلاته كان كلما سمع صافرة القطار يهرع إلى حقائبه ظاناً أن والده سوف يصطحبه في رحلة جديدة.

لا أدري كيف يمكن لفتى أوروبي منعم أن يترك بلاده ليعيش في الصحاري العربية، يصارع الموت بين حين وآخر؟! وقد غير اسمه الأوروبي باسم عربي، ومعتقده بالدين الإسلامي على غرار ما فعل علي بك العباسي ولكن ليثبت على دين الإسلام حتى آخر حياته، فسلوكيته وآثاره المكتوبة كلها تدل على صدق إيمانه. قال الأستاذ عبدالوهاب عزام في معرض تقديمه لكتاب محمد أسد «الطريق إلى

---

(١) فايس ليبولد: أشهر إسلامه وتسمى بمحمد أسد فايس، وأنشأ بمعاونة وليم بكتول الذي أسهم هو الآخر بمجلة الثقافة الإسلامية في حيدر أباد عام ١٩٢٧م وكتب فيها دراسات وافرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام ومن أعماله أنه:

١ - ترجم صحيح البخاري بتعليق وفهرست عام ١٩٣٥م.

٢ - ألف في الفقه الإسلامي، وكتاب الطريق إلى مكة، والإسلام على مفترق الطرق نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ عام ١٩٤٦م، وله نشاطات في تعليم اللغات... هذا بالإضافة إلى خبرته بالترحال.

مكة»: «إن كتاب محمد أسد هذا يفيض على قارئه في كل فصل حباً للعرب وإكباراً لأخلاقهم، وإعجاباً بالإسلام وقدراً لعقائده وشرائعه وسننه وآدابه، ولا يتهم محمد أسد بعصبيته للعرب والمسلمين، فما نشأ عربياً ولا مسلماً، ولكنه أحب العرب وآثرهم وفضل الإسلام واختاره ديناً بعقله المستقل، وفكره الحر، ونفسه التي تكبر الأخلاق أنى وجدتها. ويقوم الإنسان بإنسانيته لا بثروته، وبفضائله لا ببضاعته، وبأصغريه قلبه ولسانه، لا بأبهته وسلطانه».

تاه محمد أسد في صحراء النفوذ ثلاث ليال تعرض فيها للظمأ والخوف والعواصف الرملية، وعندما بركت ناقته سقط مغشياً عليه، وحين وقعت يده على المسدس هم أن يطلق النار ليخلص نفسه من الآلام، فتذكر قول الله سبحانه وتعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين» فمرت قافلة وأنقذته من الموت. وفي موضع آخر من الجزيرة العربية يهبط عند المساء ليتبرد في بئر، ومن قعر البئر شاهد قبة السماء، بنجومها المتلألئة ونظامها البديع، فطافت به الأفكار في ملكوت السماء والأرض، فعرف أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد. وفي يوم من أيام الصيف يتوقف به المسير في واحة فأخذ يغسل وجهه بالماء، فتناثرت القطرات على الأرض لتسقط على نبتة منطوية منكمشة عطشى فلما أحست بالماء أخذت وريقاتها تنبسط وتتفتح وتبتهج فسبحان الله الذي جعل من الماء كل شيء حي، فازدحمت في عقله الخواطر والأفكار والتساؤلات، وتلاطمت أمواجها حتى كان لقاؤه مع المغفور له صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز وهو فتى في مكتبة من مكتبات مكة.. أقبل ليصافح الفتى فيصل بن عبدالعزيز فانحنى أمامه على الطريقة الغربية، فقام فيصل رحمه الله ورفع جبهته

وقال له: نحن المسلمين لا ننحني إلا لله وحده.. هذه هي المقدمات التي نقلت محمد أسد من دين آبائه وأجداده إلى دين الإسلام، وعندما وقف في مكة حاجاً لم يتمالك نفسه حينما قال: «الله.. الله ها نحن هؤلاء نمضي طائرين على السهل يخيل إليَّ أننا نطير مع الرياح مستسلمين لغبطه لا حد لها ولا نهاية.. إخواني عن اليمين وإخواني عن الشمال ليس بينهم من أعرفه، وليس فينا غريب فنحن في هذا السياق جسد واحد نسير إلى غاية واحدة، لقد حادوا عن شعار القبيلة إلى شعار الإيمان، آلاف الناس بيض الثياب أولهم في الكعبة وآخرهم يغيب عن النظر» وبهذه المقدمة ندخل إلى رحاب سيرة محمد أسد من خلال آثاره المطبوعة: الطريق إلى مكة، الإسلام على مفترق الطرق، والترجمات التي أعدها بعض الكتاب بحقه.

كان جده حاخاماً يهودياً من أمهر لاعبي الشطرنج في بولونيا، ويجلس دوماً إلى قس نصراني يشاطره نفس الهواية، متأثراً بهذا القس وتحول إلى دين النصارى، وتبعه ابنه والد محمد أسد حتى أصبح جو العائلة يوحي بكثير من النفحات الدينية قادت محمد أسد لدراسة العلوم الدينية، وتعلم اللغات الشرقية ومنها العبرية، ولكنه أخذ يبتعد عنها تدريجياً حتى عام ١٩١٤م حيث هرب من المدرسة ليلتحق بالجيش النمساوي، فزادته الحياة العسكرية تشرداً، فالجيش لا يلبي طموح أمثاله. وما إن انتهت الحرب حتى وجد نفسه واحداً من ملايين الشباب في أوروبا طحنتهم الحرب، وتركتهم بدون فكر ولا قيم ولا أخلاق، لأن كل القيم والمبادئ كانت تداس في ساحات المعارك، فعمت الفوضى، وسادت الممارسات اللاأخلاقية، وتلقفت الشباب شتى التيارات الفكرية بعيداً عن تعاليم الأديان السماوية. وهروباً من هذا الواقع المؤلم تحول محمد أسد إلى ممارسة العمل الصحفي عام

١٩٢٠م في برلين ومنها سافر إلى الجزيرة العربية مراسلاً لصحيفة أوروبية، وهناك اعتنق الإسلام عام ١٩٢٦م وتجول كثيراً وعاشر عامة الناس ومختلف المسؤولين حتى استقر في الباكستان عام ١٩٤٧م.

نتوقف عن الترحال معه في أخباره السياسية والشخصية لنقتطف للقراء بعضاً من رحلاته ومغامراته في جزيرة العرب.

تعود به الذكرى عندما كان يتهادى مع زميله زيد الشمري على راحلتين عائدين من منطقة قصر عثيمين عند الحدود الشرقية لهضبة نجد، وطاب لهما أن يمضيا في الترحال إلى واحة تيماء القديمة على بُعد مئتي ميل إلى الجنوب الغربي، مما يُحتم عليهما عبور صحراء النفوذ مخاطرين بنفسيهما لولا أمل الوصول إلى تيماء التي كانت أيام الجاهلية مركزاً عظيماً من مراكز التجارة في بلاد العرب، وصحراء النفوذ عقبة كانت ولا تزال تعترض طريق كل مسافر ينتقل من الشام إلى نجد، ولكن محمد أسد المغامر الرحالة وثق بنفسه وقبل التحدي فصاحبه زيد من أدلاء البادية الذين يعبرونها في كل عام مرة أو مرتين. في صيف عام ١٩٣٢م كان محمد أسد وزيد ينتقلان من كثيب إلى كثيب رملي آخر، ومن بئر إلى أخرى، يقتلان وحشة الطريق بسماع أبيات من حداء زيد بصوته الأجش وكان الحداء ينطلق متناغماً مع وقع أقدام الرواحل على الأرض.. وعندما يريدان الراحة يتوقفان لصنع القهوة وإعداد الطعام واصطياد الحيوانات، وعندما يركبان تترامى أمامهما الصحراء وتنهض الشمس وتميل عصراً عن كبد السماء لتتحول المنطقة كلها لما يشبه الألعاب النارية.. وقد تمضي الأيام دون أن تصادفهم قافلة أو يمر بهم مسافر، وفي مرة اقتربت منهما جماعة من البدو، فقالوا: إلى أين يا رفاق الدرب؟ فأجابهم محمد إلى تيماء أيها الرجال، ولكن أنتم إلى أين؟! قال البدو

إلى قصر عثيمين إن شاء الله، فنظر محمد أسد في وجه أحدهم، فساوره الشك بأنه يتمتم ويقول: رجل كافر في ديار العرب. قال البدوي: من أي العرب أنت؟! ثم تذكر وابتسم وقال: لقد رأيتك مع عبدالعزيز منذ أربع سنوات، وعرفتك عندما جئت لمبايعته مع عشيرتي... نعم عبدالعزيز اسماً مجرداً من الألقاب لأن إنسانية البدو الحرة لا ترى في الملك إلا واحداً من الناس.. فتبادلا الذكريات والروايات عن الحياة في الرياض، لقد كانت صداقته للملك عبدالعزيز مؤثرة، فقد لقيه أول مرة عام ١٩٢٧م بعد أن اعتنق الإسلام، وتشاء إرادة المولى أن يفقد زوجته التي كانت تصحبه في مكة، فحزن محمد أسد ولزم منزله دون الناس، وانقطع عن الزيارة.. ولما تفقده الملك بعث من يطلبه فهون عليه المصيبة، ومن ثم تعلق بالأمير فيصل في صغره بعد أول لقاء له معه قال: «كان فيصل فارع الطول دقيق البنية يتمتع بمقام عال لا يتفق مع سنه.. فبالرغم من صغره عهد إليه الملك بمنصب نائب الملك في الحجاز.. كان الأمير حالماً لطيفاً.. لا يصطنع النبل اصطناعاً بل كان النبل طبعه وسجاياه».

كل هذه الذكريات تداعت في ذاكرته بمجرد أن شاهد هذا البدوي في الصحراء، لم تنته الرحلة في النفوذ بعد، وحل بهم التعب بعد سفر متواصل، فناما تلك الليلة بتثاقل حتى الصباح، وعنما نهض زيد ليتوضأ صرخ: يا إلهي لا أرى سوى ذلولاً واحدة لقد اختفت الثانية في الصحراء.. ولما اقترب اكتشف أنها راحلته، لقد اختفت ذلول زيد في الصحراء، فركب محمد أسد ليبحث عنها تاركاً زيداً في المكان برجل متورمة لأنه طارد بالأمس أرنباً ليصطاده من أجل العشاء.. ولم يدر أنها بداية الضياع في الصحراء. طال ركوبه ساعة بعد ساعة مقتفياً أثر الذلول على الرمال حتى تقدم النهار فنزل لشرب الماء وأكل

التمر، فهبت عاصفة هوجاء حركت الكثبان وعلت السماء بغبشة حمراء، ثم أظلمت وزمجرت الريح، وهذه ليست أول عاصفة تصادفه فالصحراء أصبحت جزءاً من حياته، وفي هذه اللحظة تذكر زوجته المسلمة الجديدة في المدينة وقد ولدت طفلاً، فهي الآن ترقب عودته فاستوحش وهو يصارع سوافي الرمل... فلما هدأت العاصفة وجد ذلوله نصف مدفونة ومنخرها مليء بالرمال، فتناول جود الماء وصب في أنفها شيئاً منه، فالماء ينعش الإبل بهذه الطريقة! اختفت آثار ناقة زيد، واختفت كل المعالم الدالة على الطريق، فقرر العودة للبحث عن زيد نفسه ولكنه ولم يعثر عليه.. فمضى كثيراً في الصحراء حتى نفد منه الزاد والماء، فأمسى ليلته ونهض في الصباح وهو في غاية العطش والجوع، جف حلقه والتصق لسانه بلهاته، فتحول عطشه إلى عذاب مؤلم، ولم يعد يفكر إلا في كيفية حصوله على الماء وسط هذه التلال من الرمال وحرها اللاهب.

شعر محمد أسد بالنهاية، فأخذ يدور في المنطقة، شاهد بقعة سوداء من بعيد، ولما جاءها، وجدها صخوراً من الصوان مرَّ بها مع زيد منذ ثلاثة أيام.. فاستنتج أنه منذ ثلاثة أيام كان يتحرك في حركة دائرية حول المكان.. شعر بالضعف فهوى على الأرض، فاستقبلته الرمال الناعمة، واضطجع على الرمال في ظل الناقة، وأخذت أنفاسه تضعف، ولم يعد يسمع أو يعي ما حوله سوى تنهدات الناقة. أخذ يصارع الموت، ويتلوى؛ وإذ بيده تصطدم بالبندقية والمسدس، ففكر بالانتحار وطافت به الذكريات وشده الشوق إلى جداول الماء في أوروبا وأشجار الصفصاف.. وفي غمرة هذه المحنة نخرت الناقة، وقامت تحرك رأسها، وجاءت ببشارة، فيبدو أنها تشم الماء أو أنها تشعر باقتراب قافلة ولكن بعد فوات الأوان: فمحمد أسد كان يحتضر.

قال محمد أسد: «قد سمعت صوت حداء البدو، فحاولت أن أصرخ، ولكن صوتي اختفى في حلقي.. بذلت جهداً لفك البندقية، فسحبت المغلاق وكأني أسحب جبلاً، بيد أني نجحت أخيراً وركزت البندقية على قاعدتها وضغطت على الزناد، فدوت رصاصة ثم تلتها لحظات... فأطل رأس من وراء التلة، ووراءه بعض الرجال، عندها غبت عن الوعي.. لا أدري رجل أم رجال.. كانوا يحاولون إنهاضي وتقطير الماء في فمي، فشعرت أن الماء يحرق حلقي وفمي، ورأيت وجه بدوي يمسح وجهي بخرق مبللة بالماء، والآخر يحمل الجود في يده، وبحركة لا شعورية فتحت فمي إليه ولكن البدوي دفعني للوراء، واستمر يصب الماء قطرات وراء قطرات في فمي، فأحرق حلقي، فأطبقت أسناني، ضغط أحدهم على أسناني بالقوة وألقى جرعة من الماء، لم يكن هذا هو الماء الذي أعرفه، بل هو النار والرصاص المسال، لقد أمسك بي الرجال الشياطين، وردوني إلى الوراء، ولم يمكنوني من الإفلات أو الدفاع، فشعرت أن الماء لم يعد يحرق حلقي، وأخذت أشعر بالارتياح والماء يبلل ثيابي، فغبت عن الوعي ونمت ثانية وكأني أنام في بئر سحيقة. فتحت عيني لأرى نفسي في خيمة عربية سوداء تنفذ منها فرجة إلى السماء، والخيمة بجانب خط من تلال الرمال، عندها سمعت صوت زيد يقول: إنه صاح.. إنه صاح. عرفت بعدها أن جماعة لإنقاذ كانت من شمر قبيلة زيد، فأخذ يقص عليهم زيد قصة الذلول الشاردة، فعندما وصلتهم علموا أنها لزيد وصاحبه، فانطلقوا للبحث عنهما في الصحراء، وكان اليأس يستولي عليهم لولا أن سمعوا صوت البندقية.. لقد أنقذوني وتركوني يومين في خيمتهم».

أحب محمد أسد بدو الجزيرة العربية فخصهم بكتاباته الصحفية،

ودوَّن أخبارهم وقصصهم وحكاياتهم الشعبية، وما أكثر القصص والحكايات، قصص عن الجن الذي يتمثل للمسافرين في صورة الحيوانات[1]:

«كانت الشمس على وشك المغيب عندما اعترضت طريقنا حية كبيرة سوداء.. كانت بثخانة ذراع الطفل وبطول متر واحد.. رفعت الحية رأسها باتجاهنا، وبحركة لا شعورية انزلقت من الشداد[2] وحللت بندقيتي، وسددت نحوها، فصاح مرافقي منصور: لا.. لا ولكني ضغطت على الزناد، فانتفضت الحية وتلوت ثم وقعت ميتة! نظرت إلى منصور وإذ به يلومني لما فعلت وقال: ما كان يجب أن تقتلها وفي وقت الغروب بالذات، لأنه في هذا الوقت تخرج الجن من باطن الأرض.. وربما كانت بهيئة حية، فضحكت وقلت وهل تؤمن يا منصور بأحاديث العجائز؟! قال: طبعاً نؤمن بالجن، ألم يرد ذكره في القرآن؟!.. أما عن هيئتهم فلا أدري، ولقد سمعت أن باستطاعتهم أن يتخذوا أغرب الأشكال وأبعدها عن التصور. قلت في نفسي قد يكون منصور على حق ألا يمكن أن نفترض وجود كائنات بجانب الكائنات التي تدركها حواسنا وتزوغ عن الأبصار؛ ولا تدركها حواسنا.. إن نفي مثل هذا يعد غطرسة عقلية تجعل الإنسان الحديث يرفض وجود أشكال حياتية بجانب الأشكال التي يشاهدها ويقيسها، إن وجود الجن لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية المحسوسة، ولكن لا نستطيع أن ننفي وجود كائنات قد تكون حالتها البيولوجية مختلفة عن حالات ما هو موجود مشاهد بحيث لا تستطيع حواسنا الخارجية إدراكها إلا بظروف استثنائية.

---

(١) الطريق إلى مكة لمحمد أسد.

(٢) الشداد قتب الناقة، أو السرج/ أو ما يشد على الناقة.

وبينما كنت أمتطي راحلتي ثانية تزاحمت الأسئلة في مخيلتي، فَعَلَتْ وجهيَ نصف ابتسامة تعبر عن الشك في نفس رجل جعلته نشأته صفيق الجلد أكثر من هؤلاء البدو الذين يعيشون كل أيامهم قرب الطبيعة. التفت إلي مرافقي الآخر زيد متودداً وقال: إن منصوراً على حق يا عمي، وما كان يجب أن تقتل الحية، فذات مرة منذ عدة سنوات كنت في الصحراء، فقتلت حية وأنا في طريق السفر، وكانت الشمس وقت الغروب، فعندما توقفنا من أجل الصلاة شعرت بتثاقل غريب ولم أعد أقوى على الوقوف، فغبت عن الوعي وسط ظلام دامس، وفي وسط الظلمة وقفت ثانية وإذ برجل عن يميني وآخر عن يساري يقودانني بما يشبه الحلم إلى قاعة كبيرة مليئة بالرجال، فأدركت أني في محكمة وأن الناس انقسموا قسمين، ووقف وسطهم رجل أشبه بالقاضي. قال أحدهم: قتله بطلقة نارية عند غروب الشمس إنه مذنب، فرد رجل آخر من المعارضين وقال ولكنه لم يكن يعرف من كان يقتل! وقد ذكر اسم الله عندما ضغط الزناد.. فصاح آخر: كلا لم يذكر اسم الله.. واستمر الجدل محتدماً بشأني حتى انتصر الفريق المعارض لي، فقال القاضي أرجعوه من حيث أتى، فأعادني الرجلان في الطريق نفسها، إلى الظلمة التي خرجت منها، ووضعاني على الأرض، ولما فتحت عيني وجدت نفسي ممدداً وفوقي قطعة قماش تظلني وقت الضحى.. لقد كان رفاقي في حالة استراحة وسمعت صوت الهاون.. فقلت أعطوني فنجاناً من القهوة فتراكض رفاقي صائحين: إنه يتكلم، إنه ينطق يا الله عاد يتكلم! فسألتهم: هل كنت في غيبوبة؟ فأجابوا: إنك لم تتحرك منذ أربعة أيام، وكنا نحملك في عدل على الإبل في النهار، ونطرحك على الأرض في الليل.. وكدنا أن

ندفنك ولكن الله سلم وهو الحي الذي لا يموت.. وهكذا يا عمي يجب على المرء أن لا يقتل الحية وقت الغروب».

هذه قصة ترحال محمد أسد مع البدو في الجزيرة العربية ولكن التاريخ يسجل له رحلة أخرى تُعد من أخطر الرحلات، هي رحلته إلى الجبل الأخضر في ليبيا معقل الثائر العربي المسلم «عمر المختار» حيث كانت تحتدم المعارك بين الجيش الإيطالي الغازي والمجاهدين الليبيين، قبل أن يُقبض على عمر المختار ويعدم عام ١٩٣١م.

وصل محمد أسد إلى مصر يرافقه صديقه زيد الشمري، وفي مصر اصطحب دليلين مصريين في الطريق الصحراوي من مصر إلى ليبيا أحدهما اسمه عبدالله. لقد تحول هذا السفر إلى ما يشبه الكابوس الطويل! وهم يمشون ليلاً ويكمنون نهاراً.. يشربون من هذه البئر، ويختبؤون في الوديان، حتى لا تكتشفهم الطائرات الإيطالية التي كانت تطارد كل من يتحرك في الصحراء.. وفي إحدى المرات اكتشفتهم الطائرات فانبطحوا أرضاً متظاهرين بالموت تاركين الرواحل تركض في كل اتجاه، عدا رفيقهم المجاهد خليل الذي أخذ يطلق النار من بندقيته على الطائرة التي يبدو أنها أصيبت فاستدارت نحو الشرق. ولما انتهت الغارة تفقدوا القافلة فوجدوا بعض الرواحل قد قتلت.. فتابعوا المسير ثلاثة أيام حتى دخلوا منطقة تنمو فيها أشجار العرعر تدعى منطقة وادي النعمان، فهناك التقى بالمجاهد عمر المختار فنقل إليه رسالة تزكية من الشيخ أحمد الشريف السنوسي الذي التقاه في موسم الحج في مكة... ولعل محمد أسد هو الصحفي الأوروبي الوحيد الذي شاهد عمر المختار عن قرب، وعرف طباعة، والثورة كانت تمر في أخطر مراحلها.

انتظر في ذلك الوادي ساعات طويلة قبل أن يصل عمر المختار.. بينما ركب زيد وخليل لملء القرب بالماء من بئر مجاورة، فلفت حوافر الخيل بالخرق حتى لا تحدث صوتاً فوق الأرض الصخرية.. بينما بقي هو ملتصقاً بزميله جسماً لجسم طلباً للدفء، لأن إيقاد النار مغامرة كبرى لا تحمد عقباها.. وبعد لحظات سمع حفيف أغصان أشجار العرعر، فاستعد الرجال لملاقاة القادم وأيديهم على الزناد، فعوى ثعلب، قابله عواء رجل آخر، لقد تم التعارف فالقادمون من الثوار. تقدم أحدهم وقال: في سبيل الله، فأجاب مرافقه عبدالرحمن: لا حول ولا قوة إلا بالله، فعرف أنها كلمة السر بين المجاهدين.. تصافح محمد أسد مع الرجال وقالوا له: سيدي عمر قادم.. وبعد دقائق جاء ثلاثة رجال والبنادق في أيديهم يتفحصون المكان، ثم رجعوا، ثم عادوا ليطل عمر المختار رحمه الله على جواد صغير لفت حوافره بالقماش يحيط به الحراس من كل جانب، همّ القائد بالترجل فساعده رفاقه لقد كان يعرج لأنه جرح منذ أيام في إحدى المعارك. قال محمد أسد يصف اللقاء: «على ضوء القمر الذي تجلّى استطعت أن أراه بوضوح، كان معتدل القامة قوي البنية بلحية قصيرة بيضاء، وتمر بوجهه الكئيب خطوط وتجاعيد، وكانت عيناه غائرتين.. وباستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا براقتين ضاحكتين ولكن في غير هذه الظروف العصيبة، فلم يعد فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة.. اقتربت منه محيياً فمد يده وضغط على يدي وقال: مرحباً بك يا ابني، وأخذ يتفحص كل شيء من حوله، لقد كانت عيناه عيني رجل خبزه اليومي هو الخطر وانتظار الموت. فرش أحد الرجال على الأرض فجلس سيدي عمر، وأوقد عبدالرحمن ناراً خفيفة تحت صخرة كنا نحتمي بها، وعلى ضوء النار قرأ سيدي عمر

الكتاب الذي حملنا إياه السيد أحمد الشريف السنوسي، فطوى الكتاب ووضعه على رأسه وقال: «لقد أطراك السيد أحمد بالمديح، فأنت جئت لمساعدتنا، ولكن لا أعلم من أين ستأتينا النجدة، إلا من الله العلي الكريم... إننا حقاً نوشك على النهاية». ولم أر في حياتي ابتسامة تدل على كل هذا القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر! لقد أذهلنا الخبر؛ لأن السيد أحمد طوال الأشهر الماضية كان يعلق الآمال على المقاومة في «الكفرة» أما وقد ضاعت الكفرة فلم يبق للمجاهدين سوى نجد الجبل الأخضر الذي طوقه الإيطاليون من كل جانب.

كيف سقطت الكفرة؟ فأومأ سيدي عمر إيماءة متعبة إلى أحد رجاله أن يقترب، وقال: دع هذا الرجل يقص عليك الخبر.. إنه أحد الرجال القلائل الذين هربوا من الكفرة.. ووصل إليَّ بالأمس: اتكأ الرجل الكفري وجذب برنسه البالي حوله وأخذ يتكلم ببطء دون انفعال، ولكن وجهه الناحل كان يعكس كل الأهوال التي لقيها: خرجوا علينا في ثلاث فرق من ثلاث جهات، ومعهم السيارات المصفحة والمدافع الثقيلة، أما طائراتهم فقد كانت تحلق على ارتفاع منخفض وتقصف بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل، لم يكن هناك سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح، أما الباقون فكانوا النساء والأطفال والشيوخ، لقد دافعنا عن أنفسنا بيتاً فبيتاً، ولكنهم أقوى وأكثر منا، وفي النهاية لم يبق لنا إلا قرية الهواري. لم تعد تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة، فطغوا علينا وتمكن عدد قليل جداً من الهرب.. وكنت طوال الليل أسمع وَلْوَلَة النساء اللواتي اغتصبهن الجنود الإيطاليون. وروت عجوز جاءت بالطعام لنا ونحن نختبئ أن الجنرال الإيطالي حشد كل ما تبقى على قيد الحياة أمام

قبر السيد محمد المهدي، وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن الكريم ثم رماها على الأرض، وقال: دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن إن استطاع! ثم أمر بقطع أشجار النخيل في الواحة، وبردم الآبار.. وفي اليوم التالي أمر بوضع بعض الشيوخ والعلماء في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق».

التفت إليَّ سيدي عمر وكرر القول: «إنك تستطيع أن ترى يا بني أننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا... إننا نقاتل، لأن علينا أن نقاتل في سبيل ديننا، وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت.. وليس لنا خيار غير ذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.. لقد أرسلنا نساءنا وأولادنا إلى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا أن نموت».. سمعنا هرجاً خفيفاً، فأرهفت سمعي تحسباً للخطر، ولكن استطعت أن أتبين أن الأصوات الخافتة كانت لزيد وخليل ومعهما الحرس جاؤوا بالخيول محملة بقرب الماء، وحالما وقع بصر خليل على سيدي عمر هجم لتقبيل يده، وبعد ذلك قدمت إليه زيداً فاستقرت عينا سيدي عمر على وجه زيد الرزين وقامته الهيفاء برضا واضح، ثم وضع يده على كتفه وقال: مرحباً بك يا أخي، من أرض أجدادي، من أي العرب أنت؟ وعندما أخبره زيد أنه من قبيلة شمر أومأ برأسه مبتسماً وقال: آه إذاً أنت من قبيلة حاتم الطائي أكرم الناس يداً.

قدم إلينا سيدي عمر التمر، ودعانا إلى طعام بسيط ثم نهض من مجلسه».

تحرك الرجال قبل الفجر لأنهم كانوا على مقربة من العدو، وإذ بهم كثر، ولكنهم كانوا كالأشباح وراء الصخور يحرسون قائدهم.. كانت وجهة التحرك إلى مقره في الجبل في مضيق عميق من أحد الوديان فشاهد فيه أكثر من مئتي رجل ينامون على الأرض، وبعضهم

كان ينظف الأسلحة. وبعضهم كان يطبخ ويوقد النار.. وكلهم يرتدون الأسمال البالية، ودهش محمد أسد لوجود امرأتين بين الرجال كانتا جالستين بالقرب من النيران مستغرقتين في إصلاح سرج ممزق بمخرز غليظ.. وعندما لحظ سيد عمر دهشة الصحفي محمد أسد قال له: «إن أختينا هاتين تذهبان معنا حيثما نذهب. لقد رفضتا أن تسعيا إلى مصر مع سائر النساء، إنهما أم وابنتها، وقد قتل كل رجالهما في الحرب».

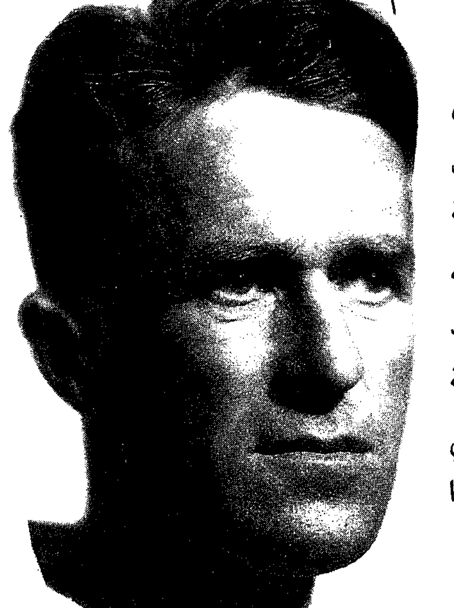
قضى محمد أسد يومين وليلتين مع البطل القائد عمر المختار، وتدارس معه سبل وصول الإمدادات من مصر، فالإنكليز هناك كانوا يعادون الثوار؛ لأن السيد أحمد السنوسي كان يؤلب ويحارب مع العثمانيين ضد الإنكليز.. ولكنهم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لديهم بعض الاستعداد لقبول ممثلي المجاهدين في مصر.. كانوا يتغاضون عن المجموعات المحاربة الصغيرة التي كانت تتسلل من مصر عبر السلوم.

انتهت مهمة محمد أسد في الجبل الأخضر، فتسلل إلى السلوم في الغرب عند الحدود المصرية الليبية، ومنها عاد إلى الجزيرة العربية، فقدم تقريره للملك عبدالعزيز الذي كان قلقاً وحانقاً لما يفعله الإيطاليون بالمسلمين هناك.. وكانت هذه آخر مقابلة صحفية يجريها مراسل حربي ورحالة مع البطل عمر المختار قبل أسره وإعدامه عام ١٩٣١.

توماس إدوارد لورنس

Thomas Edward Lawrence

١٨٨٨ - ١٩٣٥م



توماس إدوارد لورنس
Thomas Edward Lawrence
الرحالة اللغز.. والأسطورة!

توماس إدوارد لورنس سياسي ورحالة مات منذ أكثر من سبعين عاماً، ولا تزال آثاره وسيرته الذاتية تثير الجدل بين يدي الباحثين والنقاد، بعد أن وضعت من أجلها المؤلفات حتى وصلت إلى أكثر من خمسة عشر مؤلفاً تروي أحداث الحياة التي عاشها هذا الرجل حتى تحول إلى ما يشبه اللغز والأسطورة.

وما من كتاب نطالعه عن لورنس ونجده يقف في موقع الوسط، فهو إما أن يكون معه أو عليه، وما من باحث يعيد قراءة تاريخ لورنس حتى تتكشف لديه بعض المستجدات التي لم تطرح من قبل وخصوصاً وثائق الحرب العالمية الأولى التي أفرجت عنها خزائن الدول التي كانت متحاربة، وسهلت سبل الوصول إليها من قبل كل الباحثين. ولعل المشكلة التي تواجهنا تكمن في كون أخبار ترحاله متداخلة بشدة مع أخباره السياسية، فهذه مرتبطة بتلك في نسيج معقد أعقد من نسيج العنكبوت. فجل هذه الأخبار والحكايات تروى تفاصيلها في ديار العرب، ولهذا نسبوا لورنس إلى العرب حتى عرف بلورنس العرب.

تضطرب الروايات حـــول مـــولد ونسب لورنس، إلا أن أغلب المصـادر تذكر أن توماس لورنس ولد في «ويلز» ببريطانيا عام ١٨٨٨م لأبوين هما: «توماس روبرت تشابمان»، و«سارة مادن» عشيقته المدللة التي رحل بها من ايرلندا إلى بريطانيا، فهو الابن الثاني غير الشرعي من هذه العشيقة، وفي ويلز بدَّل الأب كنيته من تشابمان إلى لورنس. تعلم لورنس الابن من والده الولع بالمغامرة والصيد والترحال، وقيادة الدراجة النارية بسرعة جنونية، فبجانب واجباته المدرسية كان يطالع القصص الحربية ومذكرات الرحالة، فزادته تعلقاً ببلاد الشرق، وعلى الأخص رحلة دوتي الشهيرة إلى بلاد الشرق. بل وتبنى لورنس بعض أفكار دوتي التي تعرِّف بلادنا ببلاد ألف ليلة وليلة، ولهذا كله حول تخصصه في جامعة إكسفورد إلى دراسة علم الآثار، ليسهل عليه الوصول إلى تلك البلاد التي كان يحلم بها. كان إدوارد في صباه مع إخوته الأربعة يلبسون القصمان الصوفية الزرقاء المخططة ويركبون الدراجات، ويذهبون بواسطتها إلى المدرسة في طابور وفق تدرجهم في السن، ولكن توماس كان من بينهم مرهف الحس يتوعك باستمرار، وخصوصاً بعد أن علم بمولده غير الشرعي، فيبدو أن هذا كان يقلقه عندما يذكّره الأشقياء من زملائه بقصة أمه وأبيه، كما كان يعاني من مشاكل صحية في الغدد الصم؛ فنشأ قصير القامة حاقداً على والديه معقداً بعقد نفسية. كان مهملاً لنفسه، يلازمه الشعور بالخجل والحياء، وقد وصفه بعض من يعرفه بالقول: «كان لورنس من الصعب عليه أن يطيل النظر في وجه أحد.. عيناه كانتا في حركة تلصص وزوغان طوال وقته، وعندما يضحك يضحك بضحكة بلهاء وابتسامة صبيانية حتى بعد أن كبر.. كان سر مولده غير الشرعي يطرق مسامعه ويؤذي مشاعره، وكأنه يشعر أن كل الناس تدرك عنه هذه الصفة، فيشعر بالإحباط والخجل».

توفي والده عام ١٩١٩م بعد أن تخرج توماس من الجامعة، فتوجه إلى بلاد الشام لدراسة القلاع والحصون الصليبية في المنطقة، ومن ثم سافر في بعثة أثرية تحت إشراف الباحث الأثري «جيمس هوجاريت» للتنقيب عن آثار الحثيين في كركميش (جرابلس) عند دخول نهر الفرات من تركيا إلى سورية. ولا أجد وصفاً لترحاله في سورية إلا من خلال الرسائل التي كان يكتبها إلى أهله من هناك. لم يكن لورنس سائحاً أو رحالة بالمعنى التقليدي، إذ لم يرتحل في قافلة - كما يدعي - يرافقها الحراس والخدم، والخيام وأدوات الطبخ المحمولة على ظهور الدواب، بل كان يسير حافياً فقيراً يتجول على هواه بين مضارب البدو، ومساكن الفلاحين وأهل الأرياف في بلاد الشام طالباً المأوى والطعام. كانت الرحلة عام ١٩٠٩م وهو يعد رسالته الجامعية. إن عمله الأثري وترحاله جعله يتعرف على خليط من الناس، فمنهم العرب والأكراد والشركس والتركمان وعلى الأخص صاحب الحمار أو السقاء الصبي «داحوم» الذي كان يلازم لورنس ويسافر معه، كان داحوم في الخامسة عشرة من عمره لا يتمتع بذكاء كبير، ولكنه كان وسيماً بدرجة ملحوظة ويتمتع ببنية متناسقة، شديد التعلق بلورنس، أما صديقه الآخر فهو رئيس العمال في البعثة الأثرية حمودي «أو أحمد» الذي أعانه على الترحال وورد ذكره في رسائل لورنس إلى أصدقائه في أوروبا. ترك لورنس موقع التنقيب وسار مرتحلاً في الثاني عشر من تموز حتى شهر آب من ذلك العام.. وتابع سيره رغم شعوره بمرض الدوسنتاريا والحمى وآلام الأسنان، فوصل إلى قلعة أورفه على الفرات، ثم انتقل إلى مدينة حلب والأرياف المحيطة بها، فكان على طريقة دوتي يروي مواجهته للموت أكثر من مرة حيث سرقت منه «الكاميرا» وتعرض للضرب على أيدي

رجال من التركمان، ولما عاد من رحلته تفاخر بمقتنياته الفخارية ومكتشفاته.. لقد وجد في كركميش «جرابلس» في سورية بغيته ليكتب عنها مقالات عديدة وقصصاً متنوعة بينما كانت الحرب العالمية الأولى على وشك الوقوع، فالجيش البريطاني في مصر، تفصله عن بلاد الشام صحراء سيناء، والشام كلها كانت تحت سيطرة العثمانيين. إن سيناء كانت ولا تزال مفتاح بلاد الشرق من جهة أفريقيا، فأوفدت القيادة البريطانية علماء الآثار للتجوال فيها بحجة التنقيب الأثري. فكان من بينهم: «لورنس، ولّلي، نيوكمب» فبجانب التنقيب الأثري كانوا يرسمون الخرائط محددين عليها الطرق ومصادر المياه، والهضاب والمضائق الجبلية والموانع الطبيعية.



مجموعة العمال مع لورنس في كركميش «جرابلس» على الفرات في سورية: داحومي في أقصى اليسار، وعبدالعزيز سلام، ورئيس العمال حمودي

ولما انتهت المهمة عاد لورنس إلى كركميش ليعمل تحت إشراف أستاذه ومدربه الباحث «جيمس هوجاريت». كما استأنف هوايته في كتابه الرسائل إلى أصدقائه في أوروبا عن البلاد التي يعمل فيها، ورفاق العمل مصوراً نفسه بالرجل الذي عرف أهل الشرق عن قرب وتفاعل معهم فكرياً حتى ادعى أنه اتصل بجماعة التحرر العربي، واندمج في مجالسهم السرية في سورية، فكانت بداية الادعاءات لبطولات وأعمال خارقة يصعب على أي أوروبي قبله أن يقوم بها، إنه يدعي أنه شاهد الألمان يمدون قضبان سكة الحديد قرب جرابلس بحماية العثمانيين فقام بنصب مواسير المدافئ ليوهمهم بأنها مدافع معادية.. فتركوا العمل خوفاً على أنفسهم. إن وجود لورنس ورجال البعثة الأثرية بقيادة هوجاريت كانت ورقة رابحة بيد استخبارات الجيش البريطاني حيث قامت بتجنيدهم لأعمال تجسسية وهم يعملون ويتجولون في أقاليم عربية تحكمها الامبراطورية العثمانية في زي وتطلعات وتخصصات علماء الآثار. وعندما نشبت الحرب عام ١٩١٤م استدعت قيادة الجيش البريطاني أفراد هذه المجموعة وفتحت لهم مكتباً في مصر سمي بالمكتب العربي ضم كلاً من:

١ - الكولونيل جويس.
٢ - الميجر يولنغ.
٣ - جورج لويد.
٤ - السيدة بل.

كانت مهمة المكتب جمع المعلومات عن البلاد العربية، وتحديد قوة القبائل العربية، والتعرف على وجهة نظر هذه القبائل بالجيش البريطاني، والاهتمام بالناقمين على الجيش العثماني، ودفعهم للثورة وقطع خطوط تموين هذا الجيش. بينما تسارعت حدة المعارك على

جبهة سيناء المنيعة وفي جنوب العراق حيث توغل الجيش البريطاني هناك، فحوصر في منطقة الكوت والعمارة، ووقعت قيادته في مأزق كبير في مواجهة السكان المحليين والجيش العثماني بقيادة خليل باشا؛ فأوفدت أكفأ ما لدى بريطانيا خبرة بشؤون العرب وبالمنطقة التي تدور فيها المعارك عام ١٩١٦م سراً إلى جنوب العراق في أول مهمة خطيرة من نوعها وهم: عضو البرلمان هربرت، والكولونيل بتس، ولورنس، والسيدة بل. ووضعت تحت تصرفهم أكثر من مليوني جنيه استرليني.. وصلت المجموعة هناك واقتيدوا معصوبي العيون لمقابلة خليل باشا، فحاولوا رشوته للعمل على فك الحصار عن الجيش البريطاني هناك، وبعد مناقشات ومحاورات وإغراءات متكررة ترفع خليل باشا عن قبول الرشوة، فاستسلمت فصائل الجيش البريطاني في أقسى هزيمة لقيها في تاريخه، فعاد لورنس مع صحبه في أول فشل يصادفه، وهو يكيل التهم ويوجه الانتقادات لضعف استطلاع الجيش وقلة خرائطه ومعلوماته عن المنطقة؛ لعله يفوز بمنصب هام بين صفوفه. كتبت السيدة بل البريطانية عن تلك المغامرة فقالت: «في التاسع من أبريل عام ١٩١٦م دبت الحياة بيننا هذا الأسبوع بظهور لورنس الذي أرسل كضابط اتصال من مصر، وجرت بيننا أحاديث مختلفة.. وفي الرابع من شهر مايو بذل هربرت جهوداً كبيرة لفك الاشتباك وتبادل الأسرى، وقد اقتيد هو ولورنس معصوبي العينين داخل المواقع التركية، فحضرا اجتماعاً مع خليل باشا.. ولما كان الاستسلام محتماً، فقد بحث أمر التأكد من نية خليل باشا في معاملة الأسرى البريطانيين، والسكان غير الأتراك»... لقد كانت جبهات القتال صامدة بوجه الإنكليز حتى حدث ما لم يكن بالحسبان، وهو تحول بعض القيادات العربية في الشام والحجاز عن مساندة الجيش التركي، وأسباب هذا التحول كثيرة، فمنذ أن أطاح

الاتحاديون بالسلطان عبدالحميد عن سدة المسؤولية عام ١٩٠٩م، تنازعت القيادة في تركيا ثلاث شخصيات هم: أنور باشا، وطلعت باشا، وجمال باشا، وعرف جمال باشا من بينهم بالبطش والرغبة في إعدام كل معارض، وعندما تنامت سلطته أقنعه زملاؤه في الحكم بالانتقال إلى حكم سورية، فوصل دمشق في كانون الأول عام ١٩١٤م ليصبح الحاكم المطلق في بلاد الشام لمدة ثلاث سنوات تخربت فيها وتقطعت آخر العلاقات الطيبة بين تركيا والعرب. كان جمال باشا الرجل التركي المعاصر، لذا ترأس نادي الوطن التركي.. نادي الشباب والشابات، وقد ودعه شباب النادي وداع الأبطال متخيلاً نفسه عند انتقاله إلى سورية وكأنه الإسكندر يحاول فتح البلاد العربية، مع أنها في الأصل كانت تابعة للدولة العثمانية[1] وهو في الأصل قومي طوراني جاء حاقداً من منطلق قومي، فقابله العرب بدوافع قومية مماثلة، وطوال فترة حكمة في سورية كان يتصرف بمعزل عن كل رأي سديد، ويعد العدة ليستقل بسورية عن الدولة العثمانية نكاية بزملائه الذين استأثروا في الحكم باستانبول، بل وكان يفاوض روسيا وفرنسا سراً لتساعده للزحف إلى العاصمة التركية ليصبح الحاكم المطلق هناك[2] ومن الأخطاء القاتلة التي ارتكبها في بلاد الشام:

١ - شنق عبدالكريم الخليل ورفاقه في آب عام ١٩١٥م.

٢ - شنق مجموعة من الشباب القومي العربي في دمشق وبيروت في السادس من شهر أيار عام ١٩١٦م.

---

(١) تاريخ سورية د. علي سلطان، نقلاً عن تقرير لضابط المخابرات التركي عزيز بك.

(٢) عن وثيقة سرية نشرتها القيادة الروسية مع نصوص معاهدة ساكيس - بيكو عام ١٩١٧م بعد إعلان الثورة الشيوعية مباشرة.

بالإضافة إلى المجاعة والفوضى وكبت الحريات. وفي هذا الوقت كان الأمير فيصل بن الحسين في دمشق، ووالده في الحجاز كان قد أبرم اتفاقية مع الإنكليز يتعهد بموجبها بإعلان الثورة على العثمانيين مقابل أن تعترف به بريطانيا ملكاً على العرب. وبعد شنق الرجال في دمشق استل فيصل بن الحسين خنجره وأعلن الثورة: «طاب الموت يا عرب» فأخذ الحماس بعض ضباط الجيش العثماني من العرب لترك هذا الجيش والالتحاق بالحجاز والانضمام إلى نواة جيش الثورة الذي تكون من بعض أفراد القبائل والهاربين من الجيش العثماني وضباط الارتباط الإنكليز، وهكذا أعلنت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي وأولاده.

وقد تردد كثير من الضباط العرب للحاق بالثورة، فهم في جيش تعلن قيادته شعار الإسلام لتعادي به الغزاة الأوروبيين ومن يعاونهم من العرب، وفي نفس الوقت تضطهد الناس وتفعل أفعالاً لا تمت إلى الإسلام بصلة، وقد عبر عن هذه الحيرة أحد الضباط العرب في الجيش العثماني[(١)] قال: «كنت كلما شاهدت معدوماً أو جائعاً مريضاً ملقى على قارعة الطريق كأنه الهيكل العظمي، أو امرأة تبكي من الجوع، أو أخرى تجمع الحشائش من ضفاف النهر لتطعم أطفالها، أو فتاة تستر شحوب وجهها الحزين بالأصباغ لتعرض أقدس ما لديها من أجل رغيف خبز.. كنت كلما رأيت ذلك يثور في نفسي شعور بالألم والنقمة.. وعندما سمعت بثورة الحسين فكرت جدياً للالتحاق بها». وبالوقت نفسه كانت قيادة جيش الشريف برئاسة جعفر العسكري قلقة من صدق وعود الإنكليز، ويزداد الخوف على الوطن من استعمار أوروبي جديد بدلاً من العثمانيين. ولم يكن إدوارد

---

(١) لورنس كما عرفته. صبحي العمري. دار النهار ١٩٦٩ ، بيروت.



لورنس وبعض الضباط الإنكليز يقابلون فيصل في خيمته بوادي الصفرا عام ١٩١٦م

توماس لورنس بمعزل عن الأحداث، فقد سافر سراً إلى الحجاز في تشرين الأول عام ١٩١٦م في مهمة استطلاعية، فقابل فيصل بن الحسين في خيمته في وادي الصفرا وعاد إلى مصر ليقدم تقريراً إلى رئيس قلم المخابرات البريطاني في القاهرة «كلايتون» وبرفقته وصف لكل ما شاهده في الطريق، وهنا في سيرة توماس يختلط الترحال بالسياسة. قال لورنس: «ألفينا أنفسنا في بقعة خصبة من وادي الصفرا.. فالوادي الصلب يبدو مخضراً وإلى الغرب منه بدت بساتين النخيل.. اتجهنا يميناً لنجد أنفسنا في الوادي حيث تتربع في منتصفه قرية الواسطة أكبر قرية في هذا الوادي وبيوتها تحاذي التلال، ولهذا تركنا زمام رواحلنا لتمد أعناقها فترتوي من الماء وتأكل الأعشاب الغضة بعد يوم شاق من السفر قضيناه ونحن في حصباء متوهجة... حول السور الطيني للقرية، تابعنا المسير تحت ظلال النخيل حتى

وصلنا إلى أكواخ متناثرة، قادنا مرافقنا بينها حتى وقفنا بباب أحد الأكواخ، ولما دخلنا إليه وجدنا غرفة صغيرة بنيت من الطين ولكنها نظيفة سقفها من سعف النخيل والطين المضغوط.. أجلسنا مضيفنا لنرتاح على حصيرة في يوم حار، فأعدلنا صاحب المنزل وجبة طعام مؤلفة من الخبز والتمر الطازج الذي لم أذق مثله.. كان رب المنزل من قبيلة حرب وكل رجاله قد التحقوا بجيش فيصل. رأينا النساء يشرفن على الحلال من الإبل، والماعز، والغنم.. كما شاهدنا في هذه القرية العبيد السود الذين جلبوا من أفريقيا للقيام بالفلاحة.. بعدد ضخم حيث كانوا يسكنون ثلاث عشرة قرية في وادي الصفرا، يزرعون البطيخ الأحمر والشمام والخيار والعنب والتبغ ويعتنون بالنخيل. وكانت المحاصيل تصدر إلى السودان بواسطة السفن الشراعية، ويستوردون البضائع من أفريقيا وأوروبا مباشرة.

عند الغروب سرنا بمحاذاة جدول ماء حتى اختفى وراء الأسوار الطينية.. ثم مررنا بسوق القرية الرئيسي، حيث الدكاكين الصغيرة على الرغم من كون الواسطة كانت تعج بالسكان، ويروى أن القرية تتعرض للسيل باستمرار، فتهدم أسوار البساتين ويقتلع النخيل، وتغرق البيوت بالماء والطين»، كان هذا النص أحد النصوص التي كان يكتبها لورنس عن المنطقة العربية، وفيها يصف الجغرافيا والسكان والعادات والأحوال الاجتماعية.. ففي هذه المنطقة من الحجاز قابل فيصل بن الحسين لأول مرة وسجل انطباعاته عنه، ومن هناك عاد إلى مصر بطلبات فيصل الإمداد بالمال والسلاح، فكانت هذه المهمة بداية اعتماد لورنس كضابط ارتباط بين الجيش البريطاني في مصر والجيش العربي في الحجاز. لقد وجد لورنس في شخص الأمير فيصل بن الحسين بغيته لأنه الأجدر بالقيادة. قال: «كانت محادثاتي

مع فيصل» بمثابة استجمام له، فقد ملأ حضوري قلبه اطمئناناً.. كانت عيناه السوداوان قانيتين من التعب والإجهاد، ومع ذلك يبدو عليه الهدوء والاتزان.. فلا عجب فهو يعد نفسه ليكون القائد المنتظر.. لقد تحققت الغاية من وراء رحلتي وأصبح من واجبي أن أسلك أقصر السبل إلى مصر أحمل معي الأخبار والمعرفة التي اكتسبتها من اللقاء في تلك الأمسية.. لقد كانت حلقات الرجال التي شاهدتها حول فيصل تضم الأشراف والوجهاء وشيوخ القبائل من جهينة وعتيبة، وكنت أثير عمداً موضوع الخلافات الحادة بينهم كي أتعرف على آرائهم وقناعاتهم.. وكان فيصل الذي يكثر من التدخين يسيطر على المناقشات ويحسمها عندما تصل إلى ذروتها».

استغل لورنس علاقته بالأمير فيصل بن الحسين بذكاء وهو يخطط لنفسه سبل الشهرة، فعندما أهداه الأمير فيصل ملابس مكاوية[1] أخذ يحرص على ارتدائها في كل المناسبات في لندن والقاهرة، والحجاز، فالزي العربي فتح أمامه أبواباً كانت مغلقة بوجه أي أجنبي مثله، وخصوصاً بينه وبين البدو، فقد أزالت من نفسه الرهبة باتجاه الغرباء، فها هو بزي عربي بين جموع العرب، بالإضافة إلى كونها الملابس المناسبة لحياة البادية وركوب الخيل والإبل. لقد كان يلفت النظر بهذه الملابس: العقال الذهبي، والخنجر والناقة المطهمة فأصبح ينظر إلى نفسه ملكاً من ملوك ألف ليلة وليلة، ولم يعد يحتمل هذا التحول الكبير في نمط حياته؛ فبعد لباس العمال والفلاحين في كركميش في سورية وصحبته لداحوم السقاء وحمودي العامل، ظهر في الحجاز بلباس الأشراف والحماية المحيطة بالأمير فيصل، وبعد أن كان يتلقى الضرب على أيدي السكان التركمان في سورية أصبح محمياً من فيصل، فأوهم رؤساء قبائل البدو أنه لا

---

(١) هناك بعض المصادر تؤكد أن تلك الملابس كان قد اشتراها له بعض عملائه من النجف وبغداد.

يختلف عن أي واحد من الأشراف. بل وطمع أن يقبّل الناس يده مثلما يقبلون أيدي أشراف مكة. أما على مستوى العسكرية البريطانية فكان يحلم أن يصبح من كبار القادة، وإن عجز عن تحقيق ذلك فعلى الأقل عن طريق الدعاية والافتراء ونسبة المعجزات إلى نفسه. قال: «في هذه المناسبة حملتني الذاكرة إلى إحساس غريب إلى أربع سنوات خلت كنت أحلم أن أصبح جنرالاً من طبقة النبلاء لدى بلوغي الثلاثين». لقد كان لورنس رومانسياً في تصرفاته وكتاباته، ولا نستغرب منه مثل هذا السلوك، فطبيعة نشأته وتكوينه كانت تدفعه إلى ذلك، ولكن الذي نستغربه كيف تحول التهريج اللورنسي إلى قصة وأسطورة يصعب تفنيد أوهامها ونزعها من أذهان الناس! لقد كانت مذكرات لورنس ورسائله تطفح بذكر شيوخ القبائل الذين التفوا حول الأمير فيصل، أمثال نوري الشعلان الذي ترك الولاء للعثمانيين وألمانيا، وابتعد عن موزيل وكارل شوان ورحل إلى البادية ليلتحق بفيصل وثورته تحت ضغوط وأماني كثيرة: المال والشهرة، والدولة العربية الموعودة والمرتقبة خصوصاً وأن قبيلة الرولة التي يقودها النوري تحتل مفارق الطرق التي توصل الجزيرة ببلاد الشام، أما الشيخ الثاني فهو داهية البادية «عودة أبو تايه» شيخ قبيلة الحويطات التي كانت تنتشر بكثافة بين منطقة معان في الأردن والوجه في الحجاز على مساحة استراتيجية من الأرض تبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر مربع، والشيخ عودة يعرفه الرحالة الأجانب الذين جابوا جزيرة العرب من شكسبير حتى لورنس، فقل من يعبر ديار الحويطات دون أن «يخويه» الشيخ عودة أو يسلبه نقوده بالإضافة إلى كونه محارباً شرساً لا يتورع عن البطش بأعدائه كلما وقعوا بيده. إن الحويطات بقيادة عودة كانوا الورقة الرابحة بيد فيصل والجيش البريطاني الذي عجز عن اختراق الجبهة العثمانية في سيناء التي بقيت صامدة بوجههم ستة أشهر.. قابل عودة أبو تايه الأمير فيصل ليطلع على

طبيعة الحركة، وبعد حوار طويل عاهد فيصل على الانضمام للثورة مثلما فعل نوري الشعلان أمير قبيلة الرولة من عنزة.. كان عودة يتحدث إلى فيصل فقاطعه، وقال: انتظرني قليلاً يا فيصل، فخرج من الخيمة إلى الظلام فسمعه فيصل يحطم شيئاً بين الصخور، فخرج إليه وإذ به يحطم "طاقم الأسنان الصناعية التي صنعتها له طبابة الجيش العثماني، وقال: من غير المعقول يا فيصل أن أحاربهم وفضلهم لا يزال موجوداً في فمي! طلب لورنس من قيادة الجيش البريطاني أن تعلمه تركيب التفجرات واقترح أن يقوم بعيداً عن جبهات القتال بالتسلل إلى البادية لتخريب الخط الحديدي الحجازي، فأعطاه الشيخ عودة مفرزة من رجاله لتولي هذه المهمة.

وأثناء تواجد لورنس مع هذه المفرزة ادعى لنفسه البطولات الخارقة، وأشاع عن نفسه أنه بطل الثورة، وأنه القائد الذي حطم جبروت الجيش العثماني الرجل الأوروبي «السوبرمان» الذي لا يقهر، وأعود إلى شخصية الشيخ عودة من خلال صورة نادرة له وجدتها في مصدر فرنسي وقصيدة نبطية رائعة تصف عناد وجرأة هذا الرجل.

خرجت مفارز جيش الشريف في ٩ أيار عام ١٩١٩ لتحرير العقبة بقيادة الشريف ناصر يرافقه نسيب البكري، وزكي الدوربي وعرب الحويطات بقيادة عودة أبو تايه، ولما اصطدموا بالجيش العثماني كُسروا وانهزموا شرَّ هزيمة، فغضب عودة ورمى بعقاله على الأرض وصاح بالحويطات، فكّروا مراراً حتى تحقق النصر وأسروا أكثر من ثمانمائة بين جندي وضابط من الجيش العثماني، فقام شاعر نبطي من الحويطات بإنشاد قصيدة تصف عودة بالعقيد الذي ما إن يصيح منادي الحرب حتى يلحق فرسانه على ظهور الخيل العربية. ويكفي أن يدعوهم مرة واحدة فتجدهم يتأهبون للقتال وقد ألقوا بعصائبهم السمراء من فوق رؤوسهم في خرج مطاياهم.. فكم من

فرس سابقة تجندل عنها فارسها بعد أن أعطبه ببندقيته ذات الطلقات الخمس، وكم من فتى قاتل في يوم كريهة حتى يصبح ريقه مراً، وهمه النخوة من أجل فتات القبيلة مجدولة الذوائب.

صاح صيّاح الضحى والحس جرّه
لحقم الفرّاس من فوق العرايب
يوم أخو «عليا» نخاهم بس مرّة
بالمزاهب قرطم سمر العصايب(١)
كم سبوقٍ راحت الحبلة تجره
بأم خمس معطبة عطب الضرايب(٢)
كم صبيّ هاش والأرياق مرّة
ينتخي لعيون مجدول الذوايب



زعيم قبيلة الحويطات الشيخ عودة أبو تايه يعرفه معظم الرحالة الذين جابوا الجزيرة العربية، وقطعوا منها إلى مصر عبر العقبة وسيناء.. وأغلبهم دفع له «الخوّة» قبل المرور بديار الحويطات.. محارب شرس عنيد وكأنه فارس من فرسان العصور الوسطى. قال لورنس: إذا مات هذا الرجل فهذا يعني أن عهود القرون الوسطى قد انتهت من ديار العرب.. والصورة عن كتاب
Travellers in Arabia by: Robin Bidwell

---

(١) المزاهب حقائب قماشية يحملها المسافرون.

(٢) أم خمس بندقية ألمانية كانت مشهورة في زمن عودة.

لقد اختار لورنس أسهل المهمات وأخطر المهمات تأثيراً، لأن الخط الحديدي الحجازي أخذ يربط بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب، وينقل الحجاج والبضاعة وهو ما لا ترغبه القوى الاستعمارية حتى اليوم.

كانت سكة حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد، ففي سنة ١٩٠٠م بوشر بمد الخط من دمشق إلى المدينة المنورة، ليكون بديلاً عن طريق القوافل التجارية التي تنتقل على ظهور الإبل، وتقطع المسافة بأربعين يوماً. كان لهذا الخط أهداف إسلامية واقتصادية وعسكرية، فهو يسهل وصول الحجاج إلى الديار المقدسة، ويربط العالم الإسلامي بعضه ببعض، ويسهل كذلك وصول الإمداد إلى الحاميات العسكرية الواقعة على طريق هذا الخط. وما إن تمت الدعوة لإقامة هذا الخط حتى توالت التبرعات الإسلامية للهيئة القائمة على التنفيذ، حيث بلغت التبرعات ثلث عملية التكلفة. وفي عام ١٩٠٨م وصل بناء الخط إلى المدينة المنورة[١] وكان يوم وصول أول قطار يوم فرحة كبيرة فالرحلة التي انطلقت من الشمال اجتازت المسافة في ثلاثة أيام، وقطعت خلالها ٨١٤ ميلاً.

قام المهندس التركي مختار بك برسم مسار الخط على الطرق ذاتها التي كان يمر بها الحجاج حيث تتوفر الآبار ومصادر المياه.. ولا ننسى دور السلطان عبدالحميد نفسه، ودور عزت العابد الدمشقي والشيخ أبو الهدى الصيادي الرفاعي[١] في إنجاح المشروع الذي بلغت كلفته ثلاثة ملايين ليرة ذهبية ونصف المليون. وقد وصف الخط أحد

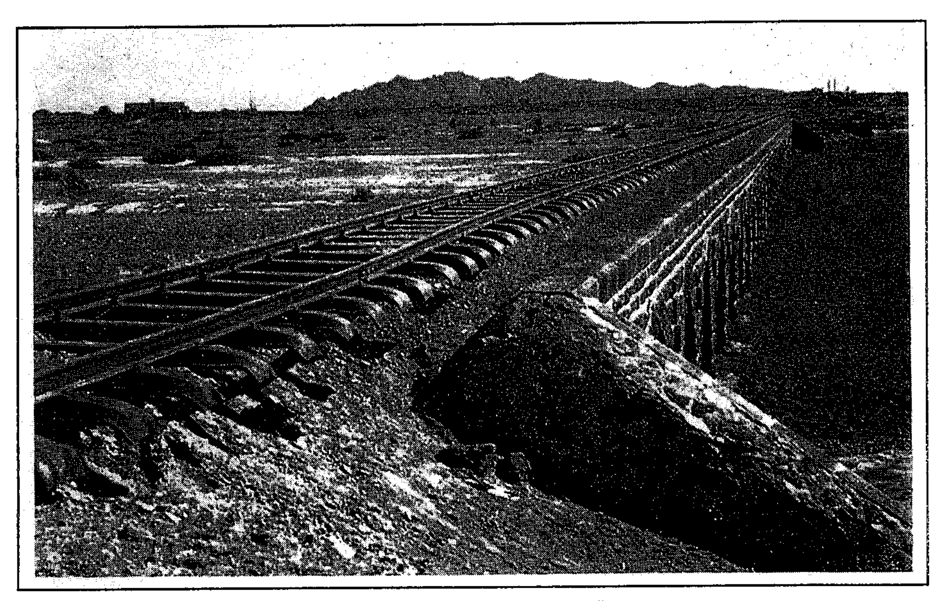
---

(١) صحوة الرجل المريض (أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية). موفق بني المرجة، مؤسسة صقر الخليج للنشر والإعلان، الكويت ١٩٨٤م.

الرحالة العرب بقوله: «إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون مسلم.. وأن يقيم البرهان على قوة الشعور الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة» لقد أغضب قيام هذا الخط القوى الاستعمارية الحاقدة، لأنه كان فعالاً ومن أعظم الإنجازات في طريق الوحدة الإسلامية، ولهذا ما إن شبت نار الحرب العالمية الأولى حتى كان هذا الخط هدفاً للتخريب، وبالرغم من أن الجيش العثماني دافع عنه بعنف إلا أن مفارز لورنس، والعصابات التي يقودها بعض الضباط الإنكليز كانت وراء تخريبه عمداً. كان بالإمكان قطع هذا الخط عن طريق نسف معابره الشمالية في مضائق الجبال وكفى، وتركه لتستأنف عليه الحركة بعد انتهاء الحرب! لأنه منشأة مدنية تفيد عامة الناس.

قام لورنس بالاتصال بالعمال العرب والشباب العاطل عن العمل ممن كان يسكن أهلهم على طريق هذا الخط، وأغراهم بالمال لتخريبه، كما استدعى بعضهم لتدريبه على النسف بواسطة المتفجرات، وادعى لورنس بأنه صاحب فكرة تفجير الديناميت عن طريق الشرارة الكهربائية، وقد وصف لورنس شعوره بالفرحة التي خالجته وهو يلمس بيده حديد هذا الخط. لقد طار فرحاً عندما رأى قضبانه تتعطل بفعل التفجير بالديناميت. لقد تعطل هذا الخط ولم تفكر الدول العربية بتسييره من جديد حتى اليوم.

لقد حرص لورنس على مرافقة الجيش الزاحف لتحرير العقبة من الجيش العثماني، وقد دهش المراقبون للنصر الذي تحقق وكثرة الأسرى والمتطوعين الجدد مما شكل عبئاً تموينياً على جيش الشريف



سكة حديد القطار الحجازي، ويبدو جسر السلطان الذي تمر فوقه السكة فوق وادي العقيق في ضواحي المدينة المنورة. عن كتاب «أربعون عاماً في الصحراء» لجون فيلبي.

فتطوع لورنس للذهاب إلى قيادة الجيش البريطاني عند حدود سيناء لطلب العتاد والتموين والإمداد، فواصل السير من العقبة إلى السويس قاطعاً مسافة ١٥٠ ميلاً، وانتقل منها إلى القاهرة مباشرة ليزف البشرى إلى «كلايتون» وقابل الجنرال اللنبي قائد جبهة سيناء وقال له: «كانت خطة تحرير العقبة ضرورية جداً بالنسبة للثورة، وقد شاركت أنا شخصياً في إعداد تفاصيلها» موهماً القيادة البريطانية بأنه كان وراء هذا الانتصار الكبير. كما تحدث إلى مراسلي الصحف ووكالات الأنباء وهو بثيابه العربية، كما زودهم ببعض الصور، وما إن وصلت الأخبار إلى أوروبا حتى أخذت الدعاية تكيل المديح للعفريت الأشقر الذي قاد العرب من الوجهة حتى افتتح بهم العقبة، محققاً الحلم الكبير للجيش البريطاني. وفي الحقيقة لم يكن لورنس هو الأوروبي الوحيد الذي كان يرافق مفارز جيش الشريف، بل كان

مرؤوساً لعدة ضباط إنكليز مع ضابط فرنسي، إلا أن وسائل الإعلام قد نسبت كل ما تحقق للورنس دون بقية زملائه؟! هذا فضلاً عن المتطوعين العرب الذين قاتلوا بعنف ودون ضجة إعلامية بقيادة عودة أبو تايه والشريف ناصر.

كان لورنس في العقبة معروفاً لكل من اشترك في المعركة.. كان خائفاً يجرجر نفسه خلف آخر جمل في القافلة يحيط به بعض الرجال لحراسته، ويجبن عند سماعه لإطلاق النار، بل وتخيفه حتى الحية التي تسير في الأرض. وكيف يمكن لمدني برتبة فخرية أن يقود جيشاً ويخطط لمعركة بوجود كبار الضباط المتخصصين في الميدان؟ فعندما احتدم القتال شمال العقبة كاد الجيش أن يلقى هزيمة منكرة لولا صمود الحويطات، لقد شن الجيش التركي هجوماً معاكساً وكادت بعض مجموعاته أن تصل إلى لورنس نفسه، فأخذ يطلق النار دفاعاً عن نفسه بطريقة عشوائية، فسقط جواده ميتاً ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق وجد أنه قتل جواده بنفسه. وقد احتج بعض الضباط العرب على ادعاءات لورنس وكتبوا الواقع الذي شاهدوه في مذكراتهم ومنهم:

١ - الضابط صبحي العمري في كتابه «لورنس كما عرفته».

٢ - سليمان موسى في كتاب «لورنس والعرب».

لكن لورنس لم يكف عن التمثيل والتهريج، فبعد كل معركة كان ينشط من عقاله، ويضيف إلى سجله بطولات وهمية جديدة. قال العمري: «بعد معركة الطفيلة الأولى غنمنا كمية كبيرة من العتاد والرشاشات، وأسرنا قائد الفرقة التركية كنعان بك، ولم يكن للورنس دور في المعركة، ولما انتهت هرع إلى ساحتها وأخذ يلتقط الصور، وقف لورنس إلى جانبنا وأعطى آلة التصوير لمرافقه فالتقط لنا معه صوراً جماعية، وبطبيعة الحال لم نكن نهتم بالتصوير لضيق الوقت

ولأننا لم نكن نملك الكاميرات عدا الضابط سعيد عمون الذي لم يكن يعتني بمقتنياته.. انتهت الحرب وإذ بالصور تزين مقالاً عن قصة انتصار لورنس في الطفيلة منشورة في إحدى المجلات البريطانية»[١] وأن الأتراك أعلنوا مكافأة مئة جنيه لكل من يقتل إنكليزياً.. وعشرة آلاف جنيه لمن يأتي بلورنس حياً أو ميتاً.

قال لورنس[٢]: «بعد عودتي من العقبة كرست الأيام الباقية لتنظيم شؤوننا الخاصة، وكان أول ما فعلته هو تشكيل فرقة لحراستي الشخصية.. وهكذا جمعت حولي فرقة بلغ تعداد أفرادها التسعين. نصفهم من بني عقيل، كنت أدفع لكل واحد منهم ست ليرات ذهبية في الشهر اخترتهم فرداً فرداً مع مطاياهم بصورة دقيقة جداً.

ومن الجدير بالذكر أن رجالي هؤلاء ينتسبون إلى ثلاثين قبيلة مختلفة بينها دماء وثارات، ولولا سهري عليهم وتشددي لقتلوا عدداً جديداً من الناس كل يوم. كان تباغضهم يمنعهم من التكتل ضدي، كما كان الخلاف المستحكم بينهم ييسر لي إيجاد الجواسيس لنا في كل مكان من العقبة ودمشق وبئر السبع وبغداد.. ستون منهم ماتوا في خدمتي... كان الشريف ناصر يتولى تصحيح لهجتي حتى بات من يسمع حديثي يعتقد أني واحد من البدو الأميين».

وفي الواقع لم يذكر رفاق لورنس حوله سوى ستة عشر رجلاً من البسطاء الفقراء، ألبسهم الملابس المبرقشة الزاهية برئاسة «عبدالله أبو صالح» وملابس لورنس الخاصة كانت تتألف من قميص وسروال من الحرير الأبيض الخالص، وعباءة من الصوف الرقيق مطرزة بخيوط

---

(١) لورنس كما عرفته. صبحي العمري.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة. للورنس.

ذهبية، كان قد أوصى بطلبها من أسواق القاهرة وبغداد والنجف، أما عقاله النجدي المذهب والحزام والخنجر الذهبيين فقد باع كل مدخراته للحصول عليها وليس صحيحاً إنها هبة من الأمير فيصل.. لقد باع لورنس ذلك الخنجر عندما سرح من الخدمة ليصلح بيته وليعود إلى قيادة الدراجة في كوخ متواضع حتى مات. كان لورنس يتكلم العربية بركاكة، ويعرف هويته الأوروبية كل من يراه عند أول كلمة ينطقها مع زرقة عينيه ولون بشرته وتقاطيع وجهه التي نادراً ما نجدها في شخصية البدوي. انطلق لورنس بمفرزة صغيرة لنسف الجسور القائمة على وادي اليرموك في منطقة الأزرق في الأردن ففشل وعاد مدعياً أن بعض مرافقيه أفسدوا مهمته بإنذار الأتراك مسبقاً بهدفه.. وفي الطريق فجر الألغام تحت سكة الحديد البعيدة في الصحراء، وبينما هو يفعل ذلك شاهد قطاراً تركياً قادماً فكمن له فشاهد القائد التركي محمد جمال باشا وبجانبه شيخ معمم يظن أنه الشيخ أسعد الشقيري الموالي للعثمانيين، فصوب إليه النار فقتله. ولا ندري كيف قتل الشقيري وترك القائد التركي؟! علماً أن الشيخ أسعد الشقيري «والد القائد الفلسطيني أحمد الشقيري» مات على فراشه في مدينة عكا بعد الحرب، ولم يسافر في حياته قط مع محمد جمال باشا.

إن من يؤرخ للورنس عليه أن يكون حذراً لكثرة النصوص والآراء والروايات، فيجب أن ينسق بين المفاهيم والأفكار والحقائق بشكل موضوعي وواقعي. ومن الصعب على الباحث أن يجد فقرة من آثاره المطبوعة ولا يجد من يكذبها، أو يعدلها، أو يطعن في مصداقيتها. قال الميجر جنرال «رانكن» قائد فرقة الفرسان الرابعة في الجيش البريطاني في فلسطين: «يعتبر لورنس بلا مراء أحد الدجالين الكبار في حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨م ولولا لويل توماس الذي كتب عنه لما سمع بخبره أحد».

وتعد غراميات لورنس وقصة شذوذه مادة مثيرة في قصة لورنس في ديار العرب، لقد قدم لكتابه أعمدة الحكمة السبعة بقصيدة مهداة إلى: «س، أ» يقول فيها: «لقد أحببتك، ولذا جذبت بيدي هذه الجموع من الناس مسطراً إرادتي بالنجوم عبر السماء.. كي أحصل على الحرية.. المنزل الجديد بك، منزل الأعمدة السبعة لعل عينيك تشعان من أجلي عندما أقابلك». لقد طالعت أكثر من مصدر للاستدلال على شخصية هذا الرمز الذي أهدى الكتاب له ولم أجد الجواب الشافي، فبعضها يروي أن لورنس كان على علاقة غرامية مع فتاة يهودية تدعى «سارة ارتسون» كانت تعمل في قلم المخابرات البريطانية في فلسطين، وربما كان هذا الرمز يشير إليها! ولكن المتتبع لتاريخ تلك المرأة يجد أنها لم تغادر فلسطين مطلقاً، وأنها كانت مسجونة في السجون التركية وماتت فيها عام ١٩١٧م، ويبدو أن المرأة لا وجود لها في حياة لورنس، لأنه أقسم على عدم الزواج لأسباب عديدة، فربما لانشغاله بالحرب والسياسة، أو لحقده على المجتمع بسبب مولده غير الشرعي. وبعضهم يرجح أن تلك القصيدة كانت مهداة للصبي «داحوم» رفيقه في كركميش والذي اصطحبه فيما بعد معه إلى أوروبا، ومن طبيعة المسلم أنه يتوقف عن الخوض في أعراض الناس، ولكن قصة شذوذ لورنس الجنسي معروفة ويرويها هو عن نفسه، ويحاول أن يسقطها على غيره، فعند عودته من مهمته الفاشلة في الأزرق يدعي أنه تنكر مع نساء الغجر وتسلل من منطقة تل عرار ومزيريب في جنوب سورية لاستطلاع مدينة درعا، وأثناء تجواله اشتبه به الحراس الأتراك فاعتقلوه، فتذرع بأنه شركسي ولم يصدق الجند، فبات ليلته في حامية درعا التركية، وفي منتصف الليل ساقه بعض الجنود إلى ضابط الحامية الذي جرده من ثيابه وسراويله محاولاً اغتصابه! وقد تفنن لورنس في وصف الضابط الذي كان

يغتصبه ويغرس أسنانه في لحمه ليشبع نهمه الجنسي، موحياً أن كل قادة الجيش التركي هم من الجماعة اللوطية. ولم يخجل لورنس عندما خدش شرفه بيده وهو يدبج هذه القصة، وقد أقسم ضابط عربي أن لورنس تجنى على أشرف وأتقى ضابط في الجيش العثماني، وأن القصة مكذوبة ومختلقة من أساسها، وأن خنجره المذهب الذي سلبه الجنود الترك باعه في لندن ليعتاش به عندما طرد من الخدمة. ولم تخل مغامرة منطقة الأزرق من حكاية للورنس بشأن رفيقٍ صاحبه فيها هو الأمير عبدالقادر بن محي الدين الجزائري حفيد المجاهد الجزائري عبدالقادر الذي استوطن دمشق. فالأمير عبدالقادر الابن وأخوه سعيد كانا على رأس الجالية المغربية في دمشق، وكان لهم دور كبير في حفظ الأمن وحماية الناس في أصعب الأوقات.. شنق الأتراك عمهم عمر الجزائري مع من شنقوهم في ساحات دمشق، وأدخلا السجن في «برسه» التركية، ولكن الأمير عبدالقادر هرب من السجن ولجأ إلى مكة، وهناك التقى الشريف حسين فعاهده على الثورة في الوقت المناسب، فأعطاه الشريف راية خضراء ليرفعها عندما تحرر دمشق، وطلب منه أن يرجع إلى دمشق سراً ليهيئ الجو، ويعد الناس لقبول جيش الشريف الزاحف إلى دمشق، فانطلق بالمصادفة مع مفرزة لورنس، إلى الأزرق ووادي اليرموك.. فاكتشف هذا الأمير المسلم لورنس وعرف هويته الحاقدة وألاعيبه وتجسسه، وتنبأ بالنتيجة الحتمية لثورة حسين بن علي، ولما افترق عن لورنس قاصداً دمشق رجع الأخير عن أداء المهمة مدعياً أن عبدالقادر الجزائري وشى به عند العثمانيين. وصل الأمير عبدالقادر دمشق سراً واختبأ في بيته وهو متعب النفس.. كيف يقاتل الأتراك لتؤول أمور البلاد بعدها إلى الأوروبيين؟

دخل الجيش العربي دمشق في الأول من تشرين الأول عام

١٩١٨م وسط هتاف المواطنين، وعمت المظاهرات شوارع دمشق، وقبيل دخوله تم تحرير السجناء ومنهم: شكري الأيوبي، ورضا الركابي المكلف بتشكيل حكومة وطنية، فقامت الحكومة فتولى الأمير سعيد حفظ الأمن في المدينة، وفي حفل الانتصار الذي أقيم في سرادق نصب في مرجة دمشق اكتشف الأمير عبدالقادر أن لورنس يجلس بجانبه نكاية وهو يتحرش به، فاستل الأمير خنجره وهم بقتله لولا تدخل الشيخ عودة أبو تايه في الوقت المناسب، فأخذ لورنس يتحين الفرصة ليوقع به، فوجه لورنس حديثه إلى نوري السعيد وقال: «إن هذا الجزائري الأحمق يحفر قبره بيده» ولم تمض عشرة أيام حتى اتهم الأمير عبدالقادر بتدبير العصيان فاغتيل بيد الشرطة المرتزقة التي كان يقودها «أبو شاكر وأبو رباح» وسط شائعات تقول: إن لورنس ونوري السعيد تآمرا على قتله وتصفيته. وقبل أن نختتم البحث علينا أن نتساءل: هل كان لورنس مخلصاً للقضية العربية؟ أجيب على هذا السؤال من واقع تجربتي وخبرتي بالعديد من المصادر التي تحدثت عن لورنس في ديار العرب، ومن كوني أحد أبناء البادية العربية المهتمين بتراثها وتاريخها أقول: افتتح مهرجان كان السينمائي عام ١٩٨٩م بعرض فيلم قديم بعنوان لورنس العرب، وذلك الفيلم الذي استهلك وعرض في كثير من البلدان العربية والأجنبية، وقد حضرت حفل الافتتاح شخصيات سياسية وثقافية مهمة جاءت من مختلف البلدان، وقد رافق ذلك قيام معرض في العاصمة البريطانية لأدوات وحاجيات لورنس وتراث لورنس، وغطت المهرجان والمعرض كثير من وسائل الإعلام العربية والأجنبية وكأن لورنس كان قد خرج للتو من الحرب العالمية الأولى، أما الكتب المعروضة بحقه فحدث عنها ولا حرج ومنها كتاب «نانتنغ لويس توماس» الذي جاء في تعريفه: «إنه البريطاني الذي خطر بالعباءة

العربية، واعتمر الكوفية والعقال وتمنطق بالخنجر، وخاطب العرب بلغتهم وحاربهم بعاداتهم دون تكلف أو تصنع.. لكأنها طبعه الأصيل.. لقد كان الضرام الذي ألهب أرض الجزيرة العربية بشواظ نار الثورة.. إنه الذي ترفع عن تسلم أرفع وسام من يد مليكه لشعوره العميق بخيانته لقضية العرب التي عاد ليلعب دوره السياسي من أجلها في القاهرة» وقد ساد هذا الاعتقاد حتى بين أوساط بعض لمثقفين العرب، فهذا سعيد الجزائري صاحب كتاب المخابرات في العالم يقول في كتابه المذكور عن لورنس: «وأنا ككاتب أستخلص العبر من بين السطور وجدت أن لورنس يجب أن لا يعد خائناً للقضية العربية، إنه كان يعي دوره وقصده ووعوده للعرب.. كان يتمنى تحقيقها ولكنه كان ضحية ظروف وسياسات دولية كانت أكبر منه»، وقد أعددت هذا البحث مع أبحاث أخرى أرسل بها بعض الزملاء إلى دار الإذاعة البريطانية[١] مستنكراً كل هذه الضوضاء عن لورنس، ومفنداً كل ما نسب إليه، فأجابني مخرج البرنامج الثقافي في ذلك الوقت الأستاذ نبيل اسكندر: إن ردك قد وصل وهو جدير بالاهتمام وأكاد وزملائي نسمع بمعلومته لأول مرة، ووعد بإذاعته، ولكن أصواتنا قد ضاعت في ضجيج الزحام ولم تسمع... ونشرت البحث في بعض الصحف العربية، فجاءتني رسالة عتاب من باحث فرنسي من أصل عربي[٢] يعاتبني بشدة على حملتي بشأن لورنس، وقال لقد ظلمته ألم تره في نهاية الفيلم يقف محزوناً مخذولاً لأن دولته قد خذلته عندما تنكرت لوعودها للعرب. وبطبيعة الحال نجد قطاعاً كبيراً من مثقفي العالم لا تتعدى حدود معرفتهم بلورنس حدود ما نشرت عنه الصحف والمجلات، وأحداث فيلم لورنس العرب.

---

(١) كان البرنامج المذكور قد أذاع لي عدة أحاديث ثقافية في عام ١٩٨٦م.

(٢) هو الدكتور سلمان قطاية المقيم في فرنسا.

إن لورنس في الحقيقة يعد من أردأ نماذج الرحالة، ولا يعتد بقوله في كتاب أعمدة الحكمة السبعة، وقد كشفته وثائق الحرب العالمية الأولى التي أفرجت عنها الدوائر الغربية مؤخراً، ففي واحدة منها قوله من تقرير يرفعه للقيادة البريطانية: «إننا كبريطانيين إذا تصرفنا مع العرب كما يجب فإننا سنتمكن من تصفيتهم وتجزئتهم إلى إمارات صغيرة شبيهة بالموزاييك السياسي، تغار بعضها من بعض، وتحارب بعضها بعضاً، وتبقى عاجزة عن الوحدة والتكاتف بعد ذلك» وهناك وثائق أخرى خطيرة[١] نشرت في كتب متفرقة ولا زالت تنشر في المستقبل تؤكد ازدواجية لورنس، وأنه كان يعيش بوجهين وجه لنا ووجه علينا، فهو يدعي أنه لا علم له بالاتفاقية التي عزم الأوروبيون بموجبها على تقسيم البلاد العربية، وإعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين «إتفاقية سايكس - بيكو» وفي مشادة بينه وبين الجنرال اللنبي أخذ لورنس يسب ويشتم ويمثل هذا الدور فما كان من اللنبي إلا أن أوقفه عند حده وقال له[٢] : إنك تعلم بها منذ البداية، وكف عن هذا التهريج وخير لك أن تلتحق ببريطانيا فوراً. وبغض النظر عن إدعاء لورنس أنه يسعى إلى منح العرب الحرية والاستقلال، فقد كان مصمماً على ربط البلاد العربية ببريطانيا، ولكن لماذا أعطى لورنس الوعد بأن بريطانيا سوف تفي بتعهداتها للعرب؟ إن دوافع لورنس تتركز في يقينه أن ذلك الوعد هو الوسيلة الأفضل لدفعهم للقتال إلى جانب الإنكليز رغم معرفته أن السياسة البريطانية لن تنفذ ذلك الوعد أبداً. وإلى هذا المعنى أشار لورنس في مذكراته: «ولو

---

(١) الوقائع السرية في حياة لورنس العرب. فيليب نايتلي، وكولين سميسون. دار نلسون ١٩٦٩م. لندن.

(٢) تاريخ سورية. د. علي سلطان.

أنني كنت مستشاراً شريفاً، لسرحت رجالي ولما تركتهم يعرضون حياتهم للخطر من أجل هذه المغامرة، ولكن الحماس العربي كان أداتنا الوحيدة لكسب الحرب، ولهذا أكدت لهم بأن بريطانيا سوف تحافظ على كلمتها قولاً وعملاً... عندما أتحدث عن الشرف أشعر وكأنني قد فقدته قبل سنة عندما أكدت للعرب أن بريطانيا سوف تلتزم بكلمتها». إن لورنس لم يكن في أي لحظة من حياته نصيراً للقضية العربية، فما هو إلا ذلك الصليبي الحاقد تلميذ دوتي، وخريج الدوائر الصهيونية، ويكفي أن نذكر بأن الجنرال اللنبي توقف بجيشه عند مشارف القدس بعد أن انسحب الجيش العثماني منها، وأصر ألا يدخلها إلا برفقة لورنس في كانون الأول عام ١٩١٧م ومعه الضباط الفرنسيون في فرحة عارمة، وما إن دخلوا المدينة حتى عقدوا اجتماعاً مطولاً مع «حايم وايزمن» لولب الحركة الصهيونية في ذلك الوقت ليعدوا الترتيبات لتنفيذ وعد بلفور وتهويد القدس، وفي اليوم نفسه وصلتهم برقية من جماعة فرسان المعبد في أمريكا تهنئ بتحرير القدس من أيدي الكفار على يد أحفاد ريتشارد قلب الأسد، ومنهم لورنس ولهذا لم يكن تحويل نسبة لورنس من تشابمان إلى لورنس عبثاً فلورنس كان أحد أجداده القدامى أيام الغزو الصليبي لبلاد الشام، وفرسان المعبد اسم لفرقة عسكرية محاربة تواجدت أيام الغزو الصليبي فوق أرض القدس التي حررها صلاح الدين الأيوبي.

دخل فيصل بن الحسين دمشق ومعه مفارز الجيش البريطاني في تشرين الأول عام ١٩١٨م، وبعد هذا التاريخ طلب لورنس من الجنرال اللنبي إعفاءه من مهامه، واختفى عن مسرح الأحداث في الوطن العربي متخلياً عن أصدقائه الذين تشدق بحبه لهم في أصعب الأوقات. ظهر لورنس فجأة في القاهرة، والتحق بالوفد الذي ترأسه فيصل إلى مؤتمر الصلح في أوروبا عام ١٩١٩م فعمل مترجماً غير أمين

لفيصل، وقد فوجئ الأمير فيصل بوثيقة تطلب منه اعترافاً واضحاً بحق اليهود في الاستيطان بفلسطين، مقابل قيام الدولة العربية وتتضمن الوثيقة تسعة بنود فيها الاعتراف الواضح بدولة يهودية في فلسطين، فماطل فيصل وسوَّف ووضع شروطاً لتوقيعها، وقد غضب عندما علم أن لورنس ووايزمن كانا قد وضعا بنود الاتفاقية فقام فيص بطرد لورنس مباشرة، ومنذ ذلك اليوم لم يعد يرى في ديار العرب[1]. انتقل لورنس إلى لندن بعد أن رقي إلى رتبة كلولونيل ليمارس مهام غامضة في وزارة، نفذ دوره المرسوم بعناية عندما رفض تسلم وسام ربطة العنق من الملك جورج السادس احتجاجاً على تنصل بريطانيا من تنفيذ وعودها للعرب، كما رفض التخلي عن ارتداء الملابس العربية.. وفجأة يجرد من رتبه ومهامه.. ولكنه عاد ليعمل مستشاراً في وزارة المستعمرات بواسطة صديقه القديم «تشرشل» حتى عام ١٩٢٢م، فغاب بعدها عن الأنظار ليظهر في زي جندي من سلاح الجو البريطاني العامل في الهند تحت اسم مستعار هو الجندي «روس» ثم سرح بعد ذلك وعاد إلى بريطانيا منكباً على كتابة المذكرات، ولكنه قتل بحادث تصادم سيارة مع دراجته عام ١٩٣٥م وسط إشاعات تقول إنه كان عميلاً للألمان؟! وقد بكى تشرشل في جنازته[2] ووصفه بأنه الأكثر شهرة بين رجالات بريطانيا العظماء، مؤكداً أنه لن يظهر له مثيل، مهما كانت الحاجة إليه ماسة، فما هي يا ترى أسباب هذه الشهرة بعد كل ما قيل بحقه؟ يعود الفضل في ذلك إلى السيد «لويل توماس» من جامعة برستون الأمريكية المروج لبطولات المقاتلين البريطانيين في الشرق، بهدف

---

(١) نشرت الوثيقة في مجلة أوروبية بعد وفاة الأمير فيصل مباشرة ولكن دون شروطه التي وضعها من أجل التنفيذ.

(٢) كان تشرشل من المؤيدين للصهيونية.. وقد نفذ نصوص وعد بلفور بإعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين بكاملها، ولهذا أشاد بما فعله لورنس.

الدعاية المضادة للدعاية الألمانية من جهة، ولكسب الرأي العام الأمريكي لتدخل أمريكا الحرب مع فرنسا وبريطانيا ضد ألمانيا من جهة ثانية بتوجيه من الدوائر الصهيونية، وعندما زار «لويل توماس» القدس أثناء الحرب طار فرحاً بعثوره على قصة لورنس.. إنه الأوروبي في ثياب شهريار في قصة ألف ليلة وليلة، فالمادة مشوقة والحبكة الدرامية جاهزة، فأخذ يكتبها ويروجها في وسائل الإعلام الأمريكية حتى لقيت القبول الحسن، لأن البطل رجل غربي ذاعت شهرته منذ عام ١٩١٨م، انطلق «لويل» إلى مختلف العواصم الأوروبية يروج لقصة لورنس مستخدماً الصور والسلايدات والأفلام المدبلجة محاضراً عن لورنس الرجل «السوبرمان» الشجاع، ففي لندن خصصت له الحكومة البريطانية دار الأوبرا، وبعض الأندية الثقافية ليعرض فيها أبحاثه وصوره عن لورنس من أيلول عام ١٩١٩م حتى عام ١٩٢٠م، فتردد على المراكز والمعارض التي أقامها لويل توماس ملايين الناس من عموم قطاعات المجتمع خلال أربع سنوات في عموم دول الكومنولث؛ فأصبح لورنس لغزاً وأسطورة، تثار أحداثها وتعرض أفلامها بين حين وآخر، يظهر فيها لورنس في شخصية الممثل وهو يقود الملوك ذوي التيجان والعمائم المرصعة بالمجوهرات.. وشيوخ القبائل بلحاهم الطويلة، وراكبي الإبل وحاملي السيوف لينتصر بهم على العثمانيين.. ويخدعهم في النهاية.

آن الأوان لتحطيم هذا الصنم، وتصحيح هذا الوهم، ونزع الهالة القدسية التي أحاطت بهذا الرحالة الكاذب الجبان بعد أن فضحته الوثائق السرية التي نشرت بحقه، أما نحن المسلمين العرب فنعرف لورنس في الماضي، ونعرفه في المستقبل وليس بمقدور أحد أن يقنعنا بصدق أسطورته من خلال «ألبوم» من الصور، ورزمة من البرقيات والرسائل، ولقطات تمثيلية مثيرة في فيلم لورنس العرب.

النســـاء الـــرحـــالات

« أكان ترحال النساء الغربيات في ديار العرب مدفوعاً بهوس أم هاجس؟! أو بحثاً عن مغامرة فذة أو حب مثير؟! أو أنه جاء أحياناً بدافع العلم والسياسة أو غير ذلك؟!»

د. عدنان البنى عن كتاب: نساء على دروب تدمر(١)

بهذه التساؤلات والبحث عن الإجابة عليها يحدد أستاذي الفاضل الدكتور عدنان البنى الملامح العامة لأهداف ترحال النساء الغربيات في ديار العرب: الهوس والهاجس، والتأثر بالقصص والروايات المثيرة عن الشرق والصحراء.. بلاد ألف ليلة وليلة، والمغامرة التي تترك أحداثها لتقرأها الأجيال في المستقبل. وأحياناً الهروب من تجربة حب فاشلة بحثاً عن حب جديد على الطريقة الرومانسية، بعيداً عن صخب المدن الأوروبية وضجيج الحركة فيها. وبين تلك الأهداف تحتل الأهداف السياسية مكانة خاصة، إذ يقصد بها تحويل سلوكية المرأة العربية المسلمة من سلوكية محافظة إلى سلوكية أوروبية خالصة، وتحويل المجتمع من الهيمنة العثمانية والتقاليد الشرقية لينفتح على التقاليد والعادات الغربية من أوسع الأبواب.

إن من بين النساء الغربيات رحالات قمن بخدمة أوطانهن خدمة فاقت قدرات الرجال الرحالة جرأة وجسارة، وتركن بصمات واضحة في تاريخ أدب ارحلات، فبعد أن تجولن في بلادنا أصبح الشرق شغلهن الشاغل، وهنَّ أكثر استمتاعاً بسحر الشرق من الرجال. وكثير منهن من بقيت في بلادنا حتى ماتت ودفنت في الوطن العربي. وجنس النساء بطبيعة الحال يحترم ويبجل ويصان في مجتمعنا، ومن

---

(١) كتيب صغير، وبحث مكثف ألقي بشكل محاضرة وطبع ونشر وهو عظيم الفائدة. دار سومر ١٩٨٧م، قبرص.

المعيب أن يتعرض لهن أحد، ويضاف إلى ذلك أن الجبهات المنيعة كانت ولا تزال تخترق بواسطة النساء الجميلات. لقد أججت حكايات ألف ليلة وليلة الخيال الرومانسي عند الرجال قبل النساء في بلاد الغرب، إلا أن أحداث هذا الخيال كان لها وقعها الخاص لدى النساء الغربيات، من خلال مطالعة الكتب والروايات عن الملكات والأميرات الشرقيات الساحرات، والشرق عريق بأخبار النساء المغامرات حتى وإن كانت هذه القصص والأخبار خيالية!، ومن هؤلاء الأميرات: سميراميس أو سمرا ميس حوالي عام ٢٠٩٦ ق. م. التي ولدت في بلاد الآشور بين دجلة والفرات.. هجرتها أمها عند مولدها في الصحراء، فأطعمتها الحمائم حتى بلغ عمرها عاماً واحداً، فتبناها أحد الرعاة اسمه سميراميس فأخذت اسمه، بعد أن وجدها تدرج بين الصخور وهي آية في الذكاء والجمال، وعندما رآها الملك الآشوري وقع في حبها فتزوجها... فأخذت تدير شؤون المملكة، وتشارك بالحرب حتى تم للملك فتح بلاد الهند[١]. وهناك في مصر تدور أحداث قصة كليوباترة (٦٩ - ٣٠)ق. م. تلك المرأة الساحرة الذكية التي استخدمت عقلها وجمالها لترويض الامبراطور الروماني «انطونيو» وجعله رهن إشارتها حتى ماتت منتحرة بلدغة الأفعى التي أدخلت إليها مختفية في سلة تحتوي ثمار التين. أما مدينة تدمر في بادية الشام فكانت قبلة النساء الغربيات الرحالات، فيندر أن جاءت سائحة غربية أو مستشرقة أو رحالة غربية إلى بلاد الشام، إلا وتوجهت إلى مدينة تدمر التي تنتصب أعمدة أبنيتها القديمة في واحة جميلة في الصحراء تحيط بها بساتين النخيل والرمان، فتتأمل جمال الحاضر وروعة الماضي في آثارها الخالدة، فهل بنتها الجن لسيدنا سليمان؟!

---

(١) أشهر الملكات في التاريخ، ليديا هويت فارمر، دار الكتاب العربي، دمشق.

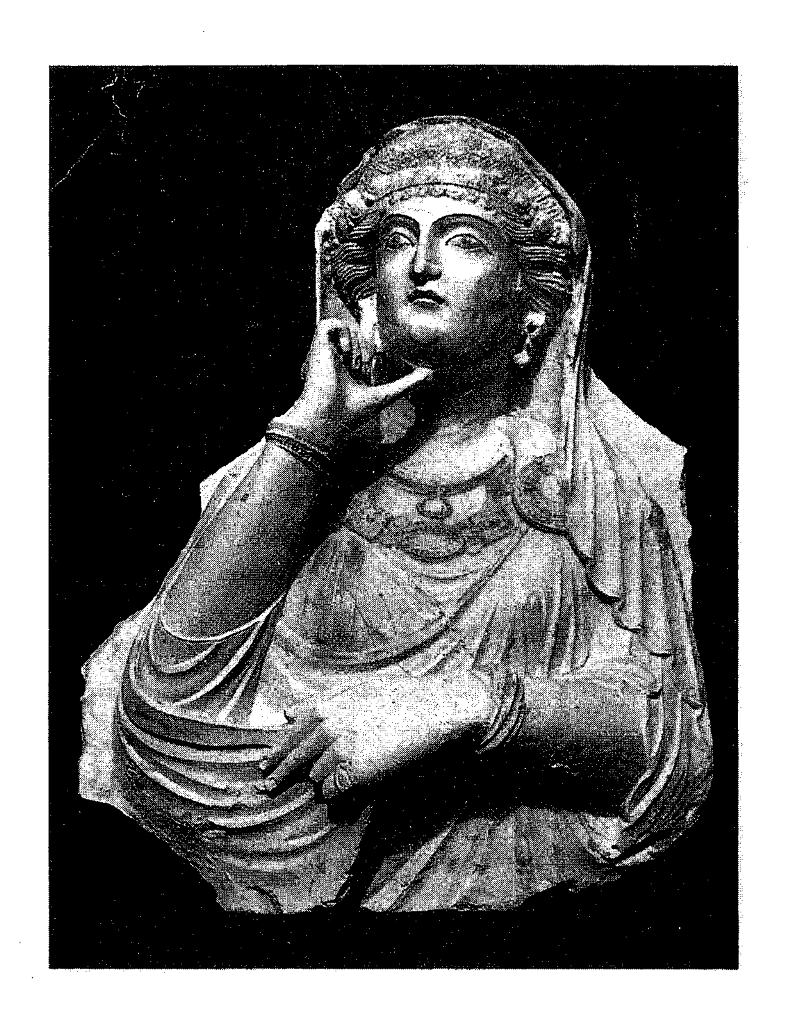
أم بنتها زينب ملكة تدمر وزوجها أذنية؟! ومما لا شك فيه أن زينب ملكة تدمر امرأة، وحماس النساء الرحالات لها هو من نوع الإعجاب بشخصية كل امرأة ذكية مغامرة ناجحة، ولهذا اندفعن إلى عرين تلك المرأة الملكة التي قاتلت جحافل ملوك الرومان،فأصبحت شخصية تاريخية آسرة، وعبقرية فذة في الحرب والسياسة والأدب، ففي حياتها المغامرة والشجاعة. ولا ندري فيما إذا كانت كل واحدة من الرحالات الغربيات ترى في نفسها وهي في البادية العربية شيئاً من زينب ملكة تدمر؟! وتحلم بأن تقلدها، أو على الأقل تحظى بزيارة مدينتها تدِمر، فتمضي أمسيات حالمة بنفسجية بين الأطلال في طيف زينب صاحبة الجلالة. وكل امرأة ناجحة مثيرة كان يطلق عليها الغربيون لقب زينب الغرب أمثال الامبراطورة الروسية كاترين الثانية[1] وعاصمتها الشهيرة «بطرسبورج». وقد اقترن اسم الملكة زينب باسم الزباء صاحبة جذيمة بن الأبرش وفي قصتها ظل أو إسقاط لقصة الملكة زينب في كتب التراث العربي[2] مع أن الملكة زينب شيء والزباء شيء آخر.

«كانت الزباء تصيف بتدمر، وسميت بتدمر بنت حسان بن أذنية، فهي التي بنتها، وفيها قبر، وإنما سكنها سيدنا سليمان من بعدها، ومن اللطائف الأدبية عن عبدالله العشري، قال: كنت مع مروان بن محمد في ناحية تدمر، فإذا جرن من رخام طويل،فاجتمع قوم فقلبوا الطبق، وظن مروان أن فيه كنزاً، وإذا بداخله امرأة على قفاها قد ألبست سبعين حلة، ولها غدائر سابغة قدرت إلى صدرها، وفي بعضها صفيحة من ذهب مكتوب فيها: أنا تدمر بنت حسان بن أذنية

---

(١) امبراطورة روسيا (١٧٢٩ – ١٧٩٦) زوجة الإمبراطور بطرس الثالث.

(٢) عن أبحاث د. عدنان البنى مدير التنقيب في مديرية الآثار والمتاحف السورية.



منحوتة لامرأة تدمرية تقلد صاحبة الجلالة زينب ملكة تدمر في لباسها: التاج المرصع بالجواهر، والأساور والرداء الذي يغطي الجسم ويلف جانباً.. إنه أشبه بالعباءة العربية السوداء التي تلبسها كثير من نساء العرب.. حتى قيل إن العباءة العربية لبستها نساء العرب لأول مرة في تدمر. إن طيف صاحبة الجلالة لا يزال يراود النساء في كثير من بلدان العالم.

الملك خرب الله بيت من خرب بيتي، فما لبثنا إلا قليلاً حتى جاء عبدالله بن علي لقتل مروان»[١].

والعرب لعظمة آثار تدمر تظن أن الجن قد بنتها لسيدنا سليمان. قال النابغة:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه
ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له
قم في البرية فأحددها عن الفند[٢]
وخيس الجن أني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد

إلا أن المعتمد في كتب التاريخ أن أذينة ملك عربي، شكل جيشاً وقاتل الفرس بهذا الجيش وهدد عاصمتهم المدائن ليثأر لأبيه.. فنال ثقة الرومان، فمنحوه لقب زعيم وقائد الجيش، ولكن أذينة قتل في ظروف غامضة، وترك زوجته زينب تربي أطفالها، وتدير شؤون المملكة، فأبدت مهارة في الحكم والسياسة والكرم والأدب، حتى غدت من كبار الملكات في العالم، ولما رغبت بالاستقلال عن الرومان، استولت على قسم كبير من آسيا الصغرى وسورية، ووصلت بجيوشها إلى حدود مصر.. ولكن الرومان أرسلوا الجيوش لقتالها، فقاتلتهم بشراسة وانتصرت عليهم في أكثر من موقعة، ولكنها كسرت، فانسحبت في اتجاه الفرات، فلحقتها جيوش الرومان، وأسرتها هناك،

---

(١) الروض المعطار. محمد الحميري. مكتبة لبنان عام ١٩٧٥م، بيروت.

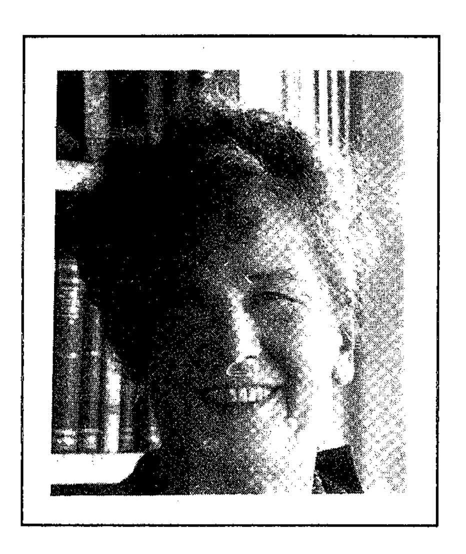
(٢) يراد به سيدنا سليمان عليه السلام، والفند: الخطأ.

وساقوها مكبلة بسلاسل الذهب إلى روما. هذا هو سر انبهار أهل الأدب والتاريخ بتدمر، أما الغربيون منهم بصورة خاصة فقد بهرهم سحر تدمر، وتاريخ تدمر، وحكايات ملكة تدمر، فانطلقت الرحالات الغربيات لزيارة آثار الملكة زينب ملكة تدمر.

أما في مجال الكتب الأدبية في أوروبا فلا تزال ملكة تدمر اسماً كبيراً وشخصية تاريخية آسرة.. فحياتها وأعمالها، ونهايتها المأساوية لا تزال تستهوي الكُتّاب الغربيين وعشاق الأدب، ففي القرن السابع عشر كانت موضوع رواية الناقد المسرحي الأوروبي «دوبينياك» ومحور قصة للمؤرخ «جان تريستيان» ومقالة مطولة للأديب «موليير» وكلها تهتم بالملكة الشابة السمراء التي لوحتها الشمس[1] كانت سوداء العينين، أسنانها كاللآلئ. ويشع من عينيها بريق عجيب، ذات صوت جهوري... خطيبة مفوهة، ومحاربة شجاعة كانت لا ترمي الخوذة عن رأسها، تركب الخيل والإبل، وتمتطي العربات الحربية، وتولع بالصيد، فكم من مرة خرجت مع أذينة زوجها لتدخل الغابات، وتنطلق في السهول لمطاردة الصيد وقتل الوحوش البرية. أما من حيث الثقافة والعلم فهي على درجة كبيرة من المعرفة؛ تتكلم التدمرية واليونانية والمصرية، ويؤم بلاطها العلماء والأدباء والمهندسون المعماريون، ويتحدث مؤرخو الرومان عن روعة بلاطها وسخاء ولائمها، أما ثيابها الملكية فكانت رائعة مزينة بالأرجوان ومرصعة بالحجارة الكريمة.. كانت مولعة بالترف بمقدار ولعها بالحرب والسياسة، وكانت عفيفة محافظة لا تشرب الخمر إلا نادراً، ولكنها كانت تميل إلى القوة وتقليد أفعال الرجال، فبعد هذا الوصف الجميل هل تلام الرحالات الغربيات بالتوجه إلى تدمر؟!.

---

(١) عن أبحاث الدكتور عدنان البني.



الصحافية الرحالة فرياستارك



الأديبة الرحالة ماري ورتلي مونتاغو



الأديبة الرحالة أليسون ليريك



الدبلوماسية الرحالة إيزابيل بورتن

وعندما نلقي نظرة عامة على السواد الأعظم من النساء الرحالات، نجد من بينهن نساءً للدبلوماسيين الغربيين في البلاد العربية، وأديبات شاعرات، وعالمات أو أديبات ينتمين إلى كبار الأسر الأوروبية، وأكثرهن من الإنكليزيات بصورة خاصة، فما أكثر النساء اللاتي لعبن أدواراً مهمة في تاريخ بريطانيا أمثال الملكة إليزابيث والملكة فيكتوريا[1] فالملكة اليزابيث كانت غير متزوجة، أنانية، فخورة بنفسها، ومتطرفة لا يهمها سوى شخصها، بينما فيكتوريا والدة شديدة العطف على أسرتها، نقلت بلادها من عهد العصور الوسطى إلى عصر الحضارة، ويطلق على عهدها اسم العصر الفيكتوري.

إننا لا نعجب عندما يرتحل الرجال من الغربيين في ظروف صعبة وقاسية، ولكن عجبنا يعظم عندما نرى امرأة أوروبية منعمة في بلادها تمتطي الجمل والفرس، وتحلب الناقة، وتعيش في الخيمة في بلاد العرب، ولا يقتصر الترحال النسائي على البريطانيات وحدهن فمنهن الفرنسيات والروسيات وغيرهن، فالروسية «إيزابيل أبرهارت» رحالة[2] جاءت إلى جنيف برفقة زوج والدتها الجنرال في الجيش الروسي، وهناك عصفت بحياتها الخلافات الزوجية بين أمها والجنرال، فاتجهت إلى مطالعة الكتب والروايات الشرقية، واستهوتها الحياة الشرقية؛ فاتجهت إليها ولكن ليس إلى بلاد الشام بل اتجهت إلى بلاد المغرب، فوصلت عنابة في الجزائر عام ١٨٩٧م وهي تنتحل اسم فاطمة النوبية، ولكن بلباس الرجال، فزي الرجل العربي في الشمال الأفريقي أعجبها أكثر من زي المرأة، فتحولت إلى اسم «السي محمود»، ولم تقف عند هذا الحد بل تزوجت جندياً جزائرياً اسمه

---

(١) أشهر الملكات في التاريخ المرجع السابق.

(٢) قافلة الحبر، سمير عطالله. دار الساقي. ١٩٩٤، بيروت.

سليمان، فأدهشت بهذه التصرفات رجل الشارع في مدن الجزائر، وأثارت غضب المحافظين على القيم والعادات، فقام شاب جزائري متحمس بطعنها بسكين، وكادت أن تموت لولا إرادة الله والعناية الطبية المكثفة، فقامت السلطات الفرنسية في الجزائر بطردها إلى مرسيليا خوفاً من غضبة الشعب، ولكنها عادت متسللة من مرسيليا إلى الجزائر لتعيش مع سليمان من جديد حتى ماتت عام ١٩٠٤م تاركة خلفها قصة أشبه بالأساطير.

ولم تكن المغامرة والترحال هواية النساء الغربيات فحسب بل هناك نساء عربيات قمن بالاغتراب والترحال في بلاد الغرب، فكانت مذكراتهن مزيجاً من المقارنة والوصف بين البيئة العربية والأوروبية ومن هؤلاء: الأميرة العربية سالمة بنت سعيد بن سلطان «سلطان عُمان وزنجبار» ما بين عامي ١٨٥٦ - ١٨٥٧م وهي المعروفة في ميدان أدب الرحلات بالأميرة إميلي روث، لأنها تزوجت رجلاً ألمانيا فأخذت اسم عائلته.

ومن أجمل الهوايات أن تجمع المرأة الغربية بين الأدب والترحال والصحافة، ومن بين هؤلاء: السيدة ماري ورتلي مونتاغو Mary Wortley Montagu «١٦٨٩ - ١٧٦٢م» التي كانت من أوائل الأوروبيات اللاتي دعين إلى إعادة النظر في نظرة الغرب إلى بلاد الشرق، والتعامل بصدق وموضوعية مع بلاد الإسلام والمسلمين. والسيدة فريا ستارك Freya Stark التي تعتبر من أهم الشخصيات المؤثرة في العصر الحديث حيث ولدت في باريس عام ١٨٩٣م وترعرت في إيطاليا، ومنذ عام ١٩٢٨م شرعت في الترحال في بلاد كثيرة: الشرق الأدنى وبغداد، وبلاد فارس، وجنوب الجزيرة العربية، ونشرت عدة كتب عن رحلاتها مزودة بصور نادرة، وعندما ماتت عام ١٩٩٣م تركت في قسم الدراسات الشرق أوسطية في جامعة إكسفورد «٥٠» ألف صورة نادرة من مختلف بقاع العالم، فقد كانت واحدة من أهم النساء اللاتي عملن في

خدمة الحكومة البريطانية ما بين عامي ١٩٣٩ - ١٩٤٥م في القاهرة وعدن وبغداد، ففي كتابها: «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» دراسة مستفيضة للسواحل الجنوبية من الجزيرة العربية.

ولفريا ستارك استطلاعات نادرة عن بعض الفرق الدينية، فقد استطلعت وديان الحشاشين في جنوب بحر قزوين عام ١٩٣٤م، وقد كانت في يوم من الأيام تحت إمرة ولاة الطائفة الإسماعيلية، كما استطلعت الطائفة اليزيدية في منطقة جبل سنجار في سورية والعراق، والتقطت صوراً لشيوخهم وعاداتهم ومعتقداتهم كما وجدت في «ألبومات» الصور التي تركتها بعض الصور الهامة عن البيئة الكويتية منها: صورة لأول طبيبة في الكويت، وأخرى لمقر الحاكم وبعض الشيوخ في ديرة الكويت، وصور لمواطنين عاديين منهم: يوسف المطوع والبريطاني جيرالد غوري في جزيرة فيلكا عام ١٩٣٧م.



شيوخ اليزيدية في جبل سنجار... تصوير فريا ستارك

وهناك ترحال نسائي من نوع جديد، ألا وهو انطلاق الدارسات في الدراسات العليا الأوروبية، أو الاستشراقية في الجامعات الغربية إلى البلاد العربية لاستكمال أدوات هذه الدراسة أمثال الدكتورة «السيون ليريك» التي جعلت رسالة نيلها للدكتوراة في الفلسفة من جامعة «برنستون» الأمريكية عام ١٩٨٤م في موضوع طريف هو جمع أخبار سيرة تغريبة بني هلال، وحروب آل ضيغم من أفواه الناس مباشرة في مدينة حائل شمال الجزيرة العربية، ومن بقية المناطق.. كانت هذه تميل إلى شعر الملاحم والسير الشعبية بالعربية واللاتينية والفرنسية واليونانية، ولهذا جاءت إلى الوطن العربي لتدوين الشعر الملحمي من أهل أو أبناء المنطقة العربية الذين لا زالوا يهتمون بهذا الشعر ويروونه.

ومن هؤلاء الدارسات أيضاً أذكر الزميلة فيوناهيل Fional Hill الاسترالية التي جاءت إلى الفرات في سورية لدراسة بعض المواقع الأثرية عام ١٩٨٨م، فقامت بدراسات اجتماعية وتراثية عن السكان، فساعدتُها في إعداد بعض فصول دراستنا، ولهذا أفردت لما قدمت بعض الصفحات في رسالة تخرجها، وأشادت بما كتبتُ في أكثر من موضوع من الرسالة[١].

إن الحديث عن النساء الرحالات ممتع وطريف، وسوف نتعرض بالتفصيل لسيرة أشهر النساء الرحالات الأوروبيات: «جين دغبي، وستانهوب، وإيزابيل بورتن، وآن بلنت، والسيدة بل» لما لهؤلاءالنسوة من أدوار خطيرة في تاريخ العرب.

---

(١) رسالة البحث والمراسلات المتبادلة موجودة في أرشيف المؤلف.

جين دغبي

Jane Digby

١٨٠٧ - ١٨٨١م



الليدي جين دغبي
Lady Jane Digby
عندما تزوجت لأول مرة.. ولجمالها البارع علقت صورتها في صالون الجميلات بمدينة ميونيخ

قصة مثيرة لفتاة انكليزية تبدأ مقدماتها في لندن، وتتفاعل أحداثها ما بين أوروبا وبلاد الشام، وتتعقد حتى نجد حل القصة في دمشق. جاءت بطلة القصة إلى سورية محطمة يائسة بعد حياة زوجية فاشلة وجموح عاطفي غير معهود في أمثالها من النساء، ولم يبق لها ما يسليها في حياتها سوى الترحال والعيش في الصحراء، ولهذا أضعها في مقدمة النساء الرحالات في ديار العرب.

ولدت جين دغبي في لندن عام ١٨٠٧م فهي ابنة أميرال البحر السير هنري دغبي، ولدت في فترة انفتاح الإنكليز على بلاد العالم وخروجهم من ظلام العصور الوسطى؛ فكبرت وعاشت متمردة على كثير من قيم وعادات المجتمع، ولكنها كانت مثقفة عالية الثقافة حيث أتقنت ثماني لغات أجنبية قراءة وكتابة بالإضافة إلى اللغة العربية، ورسامة ونحاتة وخبيرة بعلم الآثار. وبجانب ذلك كله كانت محدثة بارعة تستولي على قلوب مستمعيها حالما تبدأ بالحديث!. وتعرف دغبي بألقاب عديدة، وارتبطت بأسماء

كثير من الرجال فهي: «الليدي ألنبرة عندما كنت زوجة اللورد ألنبرة وزير العدل في العهد الفيكتوري وحاكم الهند فيما بعد، والبارونة فينجين عندما كانت زوجة للفارس البافاري الجميل البارون فينجين، والكونتيسة تيوتوكي عندما كانت زوجة للأمير اليوناني الكونت تيوتوكي، وخليلة ملك بافاريا لودفيك الأول وأخيراً البدوية البيضاء أم اللبن زوجة الشيخ مجول المصرب»(١).

أما في عالم الأدب فاسمها «أرابيلا دودلي» في رواية بلزاك بعنوان: «زنبقة اوادي» وأخيراً السنيورة في دمشق، والسنيورة لقب كان يطلقه أهل دمشق على كل سيدة أجنبية ذات شأن... تداعت في ذهني كل هذه الأفكار والذكريات التي جمعتها من صفحات الكتب وأنا أقف في مدخل متحف السيد رجب في حي الجابرية في الكويت عام ١٩٦٦م مشدوهاً أمام لوحة زيتية لامرأة بدوية بقامة هيفاء وزيّ عماتنا البدويات: العصبة والزبون والردون والأساور والشباشب والثوب الطويل الذي يلامس الأرض.. لقد كانت اللوحة للبدوية ذات الأصل الإنكليزي الليدي جين دغبي زوجة الشيخ السبيعي من عنزة مجول المصرب. فوقفت طويلاً أتأمل جمال اللوحة، وأطل من خلالها على الماضي لاستكشاف تاريخ هذه المرأة الرحالة المغامرة.

تزوجت جين دغبي اللورد ألنبرة الذي يكبرها بعشرين عاماً، ولما تسلم وزارة العدل في عهد الملكة فيكتوريا شغلته مهام الوزارة عن هذه الشابة الفاتنة الجميلة؛ فأخذت تزور جدها لارك ليستر لتطالع القصص والروايات والكتب في مكتبته الشهيرة، وهناك التقت مع ابن عم لها، ومع المشرف على المكتبة.. فاندفعت في لهوها منشغلة عن اللورد مثلما هو ينشغل في السياسة، في فترة كانت أخلاق المجتمع

(١) المنوليا في دمشق. إلفة الإدلبي ط ٢، دمشق ١٩٩١م.

الإنكليزي تمر في أزمة.. فأصبحت متقلبة الأطوار في جموح عاطفي عاصف حتى أصبحت فضائحها تطارد سمعة العائلة في كل مكان في لندن. ولم يمنعها تأنيب العائلة لها وتأنيب زوجها من المضي في طريقها الخاطئ، بل تمادت وأقامت علاقة حب مع الأمير «شفازن بورك» مستشار سفارة النمسا في لندن، فتحولت قصتها إلى قضية تماثل قضية الأميرة ديانا مع الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، فتدخل أهلها وزوجها لنقل الأمير إلى باريس، إلا أن جين دغبي ازداد عنادها فطلبت الطلاق من زوجها اللورد النبرة، وبقيت دعوى الطلاق سنتين بين أيدي القضاة، فلم تنتظر جين نتيجة القضية بل لحقت بعشيقها إلى باريس لتقيم بجواره سنتين كاملتين بعد أن افتتحت صالوناً أدبياً ليرتاده أشهر الأدباء الفرنسيين وغيرهم أمثال فيكتور هوغو، وألفرد دوموس، وجوته، وشوبان، وبلزاك، ولكن الأديب بلزاك كان أقربهم إليها فكانت بطلة روايته «زنبقة الوادي» ولعواطفها الجامحة كان يلقبها باسم عصفورة الصحراء، وعصفورة الصحراء التي تغرد في الربيع لتقترن بالذكور هي أمثولة عندهم لكل فتاة مندفعة جسورة متمردة[1] قال لها بلزاك يوماً: «إنك تنتمين إلى الشرق، وتعيشين بعواطف أفريقية.. فمن تجيد ركوب الخيل من أين أن يجد فيها الرجال الحنان الأنثوي» فأي شرق يقصده بلزاك؟! إنه شرق قصص ألف ليلة وليلة، الشرق الذي تخيلوه بعيداً عن الواقع، فلو كانت امرأة شرقية لما سمح لها المجتمع الشرقي بكل هذا المجون.

قدم اللورد ألنبرة ورقة الطلاق لجين دغبي، وسط سخط الصحافة ومجتمع الأدباء وحتى بسطاء الشعب، ومع ورقة الطلاق

---

(١) انظر قصيدة الليدي آن بلنت بعنوان قبرة الصحراء في مكان آخر من الكتاب.

ثلاثة آلاف جنيه ذهبية تقبضها كل شهر تعويضاً لها، فعاشت بها طوال حياتها، ولما طلبت الزواج الرسمي من عشيقها تركها في باريس وأخذ ابنتيه غير الشرعيتين منها وهرب إلى مكان مجهول فكانت صدمتها كبيرة عادت بعدها إلى بلادها متعبة محطمة النفس، ولكنها لم تكف عن مسلسل الزواج والطلاق والاقتران بالعشاق، وإذ بها تظهر فجأة في العاصمة البافارية ميونيخ عشيقة للملك لودفيك الأول لقد بهرته فأخذ يقول فيها الشعر، ويكلف الرسامين لرسم لوحات زيتية لها، وهي في الثانية والعشرين من عمرها، في ريعان صباها، كانت بيضاء فارعة الطول لؤلؤية الأسنان يتدلى على كتفيها شعر حريري أشقر طويل، ولكن حاشية الملك احتاطت لكبح اندفاعه نحوها، فتزوجها البارون فنجين أحد فرسان عصره فسافر بها بعيداً عن جو البلاد الملكي إلى مقاطعته الريفية فأحبت زوجها الجديد واحترمته وأنجبت منه طفلين، ولكن لا الزوج الجديد ولا الأطفال استطاعوا منعها من الحنين إلى حياة التفلت، وعندما زهدت في رتابة الحياة مع البارون فنجين تطلقت منه بعد فضيحة جديدة إذ هربت مع أمير يوناني هو الكونت تيوتوكي وقبل الطلاق طلب زوجها البارون فنجين مبارزة عشيقها الكونت فقبل، وتبارزا أمامها وما كان من زوجها إلا أن جرح عشيقها، ولما سقط توسل إليه العشيق وأقسم أنه لم يكن بينه وبين جين سوى اللهو البريء، فندم الزوج وعالجه على نفقته وطلقها عن طيبة خاطر لتتزوجه، فعاشت مع الكونت عيشة هانئة، وأحبها الشعب اليوناني، ولما أصبح زوجها ملكاً أخذت تمارس الحياة اليومية للشعب اليوناني، تبذل للمؤسسات الخيرية والكنائس، وتشرف على الأنشطة الثقافية وهي تركب حصانها الأبيض متنقلة من مكان لآخر، فرزقت من الكونت الملك بولد صغير أحبته وتفرغت له،

وعاش الطفل مدللاً ولكنه سقط من شرفة القصر على الأرض فمات، فحزنت عليه وانعزلت عن الناس متهمة الكونت بعدم المبالاة عندما لم يحزن مثلها على الولد، فأصيبت العلاقات معه بفتور، فتحولت إلى غيره. إن بطل أحلامها هذه المرة محارب ألباني هو الحاج بطرس أمير قبيلة كاريس الألبانية الذي قاتل مع اليونان حتى انتصرت على تركيا، ومن خلال تردده على القصر أخذت تصاحبه إلى الجبال الوعرة في رحلات القنص والصيد، كما أن الملكة اليونانية كانت تشنع عليها وتقوم بنشر فضائحها، فطلبت الطلاق وغادرت العاصمة اليونانية عائدة إلى بلادها، فلم تعد حياة القصور تعجبها، وملت العشاق المنافقين الذين كانوا يطمعون في ثروتها، فقررت ترك أوروبا بكاملها والترحال إلى بلاد الشرق التي قرأت عنها في مذكرات الرحالة وفي القصص الأدبية، خصوصاً وأن قريباً لها كان قد ارتحل في القرن السابع عشر في سورية فأقام في إسكندرون، وقال فيها شعراً، أما ابن عمها فكان ممن غامر للسفر مع صديق له بزي المسلمين لزيارة مكة المكرمة ولكنهما كشفا في مساجد حلب وضربا وأهينا بشدة، وصلت الليدي دغبي في حياتها إلى طريق مسدود، فأخذت تحس أن حياتها كانت فاشلة، ولم يبق لها ما ينسيها هذا الواقع الأليم سوى الترحال؛ فحزمت أمتعتها وسافرت إلى دمشق، ولما وصلتها كانت في الخامسة والأربعين من عمرها لكن من يراها كان لا يقدر عمرها بأكثر من خمس عشرة سنة، وهناك تعرفت على زوجة القنصل البريطاني السيدة إيزابيل بورتن، وأعلنت فور وصولها أنها تتطلع إلى زيارة مدينة تدمر والقدس وبغداد وبعلبك مما أحرج مسؤولي القنصلية هناك. قالت السيدة بورتن: «إن من يرى جين وهي في الخامسة والأربعين من العمر، لا بد له من أن يخطئ عندما يقدر

عمرها خمس عشرة سنة على الأقل مهما أوتي من فراسة» وعندما قررت جين السفر إلى تدمر عاصمة الملكة زنوبيا أخذت تبحث عن دليل وعن قافلة للحماية، فلم تجد سوى شيوخ البدو يضمنون لها سلامتها وحمايتها في الطريق، ففي دمشق كان يتردد أمامها اسم الشيخ صالح الطيار من شيوخ قبيلة ولد علي من عنزة، ولا أدري فيما إذا كانت قد تعرفت عليه فعلاً؟! كما ذكر لها مجول المصرب من بدو السبعة كأفضل دليل يرافق السياح إلى مدينة تدمر في بادية الشام، فهو واحد من تسعة أخوة علمهم والدهم في المدن، ومجول بالذات كان وسيماً ذكياً بأخلاق عالية، ويعرف التركية والفرنسية ويلم بالآثار والتاريخ، كما أن قبيلته كانت قوية تقيم في البادية المحيطة بتدمر، فاختارته ليرافقها في الطريق إلى تدمر فاصطحبها بقافلة من الإبل يحيط بها الفرسان المدججون بالسلاح... يطاردون الصيد في الصباح ويخيمون في الوديان في الليل، والناس يشوون اللحم ويلهون على ضوء النار المتقدة في حطب شجيرات البادية.. وعندما يتطاول بهم الليل كانت تسمع منهم القصص والطرائف وحكايات أهل البادية فتضحك للطرافة وتسر وتعجب بكل ما تسمع وترى، إنها حقيقة في بلاد الشرق، وها هي في شخصية عصفورة الصحراء بعد أن تنبأ لها بلزاك بذلك.

انطلقت القافلة في الصباح باتجاه تدمر فداهمها غزو ظهر فجأة، فخافت جين بشدة وجزعت،ولكن مجول المصرب قاد فرسانه لرد الغزو، فطاردهم وهزمهم فعاد إليها منتصراً فأحبته وأخذت تميل إليه، فبدأت قصة حبها وزواجها الأخير الذي أخلصت له حتى ماتت. زارت جين مدينة تدمر وأعجبت بحياة البادية فقررت البقاء فيها إلى الأبد ولكن مع من؟! لقد اختارت مجول المصرب زوجاً لها، ولمَّا فاتحته

بحبها رفض في البداية وبعد مشاورات ووساطات قبل مجول الزواج منها بشرط أن تخلص له وأن تعيش حياة بنات البادية بكاملها، واشترطت هي بالمقابل أن يطلق زوجته ويتفرغ لها، ويقال إنها دفعت له هدية ٢٥ ألف جنيه استرليني(١).

عادت جين إلى أثينا لاستكمال إجراءات الطلاق وجمعت أموالها وكل ما تملك وقفلت راجعة إلى سورية، فعقد قرانها على مجول المصرب في مدينة حمص السورية، وزفت إلى البادية في مراسيم عرس بدوي خالص، فاستقبلها أهل مجول بالأهازيج وكواكب الفرسان فعاشت في البادية خمس عشرة سنة ترتدي الثياب البدوية، وتخدم زوجها بطاعة وإخلاص حيث تكنس بيت الشعر وتمشي حافية القدمين، وتحلب الناقة، وتصادق الجميع وترشد النساء وتداوي المرضى، وتعتني بالخيل(٢) بعد أن كانت تعيش في بلاطات أوروبا وصالوناتها.

أما عن حياتها الخاصة وسيرتها في دمشق فقد أتحفتنا بها كثير من المصادر، ومنها: ما ذكرته الأديبة السورية ألفة الإدلبي التي كانت متعاطفة معها بشدة وقد جمعت أخبارها من عمتها التي كانت تعرف جين دغبي تمام المعرفة، وما دونته السيدة بورتن زوجة قنصل بريطانيا في دمشق في كتابها «الحياة الداخلية في سورية».

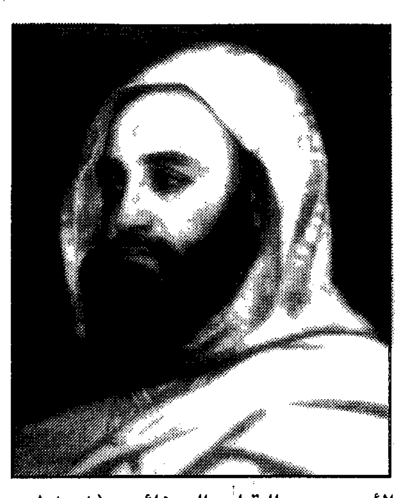
استأذنت جين زوجها مجول المصرب بأن تبني داراً لها في دمشق، وتنتقل معه ليعيش فيها بقية العمر، فوافق، فقامت الدار في حي مسجد الأقصاب بدمشق، وهي أشبه بالقصر «نوافذها بارزة الشرفات وبلورها ملون، وفيها دار للضيافة، ويلحق بها اسطبلات

---

(١) نساء على دروب تدمر، د. عدنان البني.

(٢) المانوليا في دمشق. إلفة الإدلبي.

للخيل وحديقة وحمام دمشقي رائع.. طابقه العلوي خصص للنوم، وفي حديقة المنزل زرعت الأزهار الجميلة بأنواع عديدة وشجيرات زهرة المانوليا[١] البيضاء التي أدخلتها إلى دمشق لأول مرة، فأصبح لهذه الزهرة عشاقها في دمشق حتى اقترن اسم جين دغبي بهذه الوردة. ومما ترويه ألفة الإدلبي: «قالت عمتي: أنا أعرف السنيورة تمام المعرفة، كانت صديقة لعمي السيد محمود الحمزاوي، مفتي الديار الشامية آنذاك، وكثيراً ما كانت السنيورة تزور عمي المفتي مع زوجها البدوي. وكنت أراها من وراء خصاص الشبابيك، سيدة أنيقة فارعة الطول، منتصبة القامة وقد تجاوزت السبعين من العمر.. وكثيراً ما كان يحدثنا عمي عنها ويلهج بالثناء عليها، وعلى ذكائها الوقاد، وثقافتها العميقة، وسرعة بداهتها، وخاصة على إتقانها لعبة الشطرنج. وكانت تقول للمفتي: أنت من القلائل الذين يغلبوني في هذه اللعبة. وكانت أيضاً تمارس لعب الشطرنج مع جارنا الأمير عبدالقادر الجزائري. وكان عمي يقول وهو يضحك: لا شيء يثير غضب الأمير الجزائري مثل أن تغلبه السنيورة بالشطرنج».. أما عن أناقة جين فحدث ولا حرج فقد كانت تجلب أثوابها من أشهر بيوتات الأزياء في أوروبا. وكثيراً ما كانت ترى في ثوب



الأمير عبدالقادر الجزائري (١٨٠٨ - ١٨٨٣م) كان منفياً في دمشق فقابل أكثر من رحالة: جين دغبي، وإيزابيل بورتن وزوجها الفهد بورتن، وولفرد بلنت وزوجته آن.. وعنه نقلوا التراث العربي والإسلامي وخصوصاً تراث الخيول.

(١) المانوليا Magnolia شجيرة أمريكية ذات أزهار بيضاء كبيرة أدخلت حديثاً إلى دمشق.

سماوي محلي بقطيفة سوداء ويرتفع عن الأرض شبراً، فأعجب فتيات دمشق بذلك الثوب، وقلدنه وارتدين مثله على طريقة جين دغبي. في بيتها كان يجتمع القناصل وشيوخ القبائل ورجالات دمشق، فالدار مضافة لكل الأجانب الذين كانوا يزورون دمشق، ومنهم ملك البرازيل.. ولأول مرة تطلب من مجول المصرب أن يأكل بالشوكة والسكين أمام هذا الزائر الغريب، ففعل وكأنه يتقن ذلك منذ زمن بعيد.

كانت جين تمضي الخريف والشتاء مع زوجها في دمشق، وفي الصيف والربيع تخرج إلى البادية لتعيش مع بدو السبعة الذين كانوا يسمونها – لبياض بشرتها – بأم اللبن حرمة مجول المصرب. ولم ينظر لها البدو أكثر من امرأة عادية، فالليدي آن بلنت عندما زارت بادية الشام عام ١٨٧٨م ذكرت أن البدو ما كانوا يولونها عنايتهم الكبيرة على الرغم من اهتمامها بهم كونها زوجة واحد منهم، لأنها ليست عربية، وبالتالي فهي لا تماثلهم في الأصل ونبل النسب[١]. ونظراً لكونها تدين بالمسيحية كان مجول لا يتدخل بشؤونها الدينية بل كان يسمح لها بزيارة الكنائس ورجال الدين المسيحي، وأثناء الفتنة التي نشبت عام ١٨٦٠م كانت دارها ودار الأمير عبدالقادر الجزائري تغص بالمسيحيين الخائفين من القتل حيث أتت مجموعات من بدو السبعة جاؤوا من البادية لحماية أم اللبن.

أما المال الذي كانت تملكه فتروي في مذكراتها أن مجول المصرب كان يرفض أن يأخذ منه شيئاً، وعندما تلح في الطلب كان يسمح لها أن تشتري ببعضه السلاح لأفراد القبيلة. ويروى أن جين دغبي بمجرد أن أحبت مجول المصرب عفت عن سلوك الماضي، وقد

---

(١) قبائل بدو الفرات، المرجع السابق.

حاول كثير من رجال السياسة في دمشق التقرب منها، فلم يفوزوا منها بطائل، كان إخلاصها لمجول يحول دون وقوعها في الإثم من جديد، وكانت تقول[1]:

«لم يحبني مجول لجمالي، فقد عرفني حين ذوى جمالي وفارقني الشباب، ولم يحبني لوفرة مالي، وماذا يستفيد منه وهو العربي الذي يأنف أن يمد يده إلى مال زوجته،ولم يحبني لعراقة نسبي، فهو لا شك يعتقد أنه أشرف مني نسباً.. وربما أعتقد أن زواجه مني كان تضحية كبرى، لأنه لا شيء يضاهي اعتزاز هؤلاء العرب بأنسابهم. وإنما أحبني مجول لشخصي فقط، وهذا لعمري أسمى أنواع الحب التي عرفتها، وقد جعلني حبه النبيل هذا أحترم شخصي وأقدسه، شخصي الذي يحبه مجول، فلا أتورط بما كنت أتورط به في الماضي».

وأعود إلى عالم الأدب والفكر وأسأل أمثال بلزاك لو كان حياً وكُتّاب الاستشراق، وأقول إن صحت الرواية: فهل الشرق أفسدها أم أصلحها؟! وهل هو شرق ألف ليلة وليلة الذي تخيلوه؟!.

أما كيف ذوت زهرة المانوليا في دمشق، ففي عام ١٨٨١م تفشى وباء الكوليرا، ففر كثير من السكان الأجانب منها، ولكن مجول المصرب أبى أن يترك دمشق، فاضطرت زوجته جين أن تبقى معه، فأصيبت بالمرض وتوفيت عن أربع وسبعين سنة، ودفنت في مقبرة البروتستانت في دمشق.

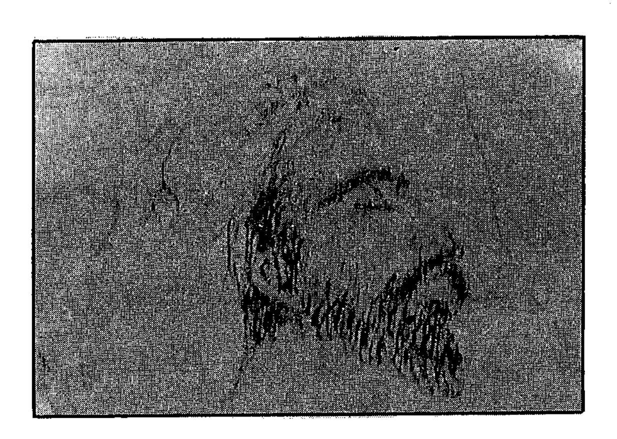
نقل جثمانها إلى الكنيسة في دمشق يشيعه أعضاء السلك الد وماسي وأصدقاؤها، ولما بدأت التراتيل النصرانية خرج مجول من الكنيسة مسرعاً، فظنه الناس متخلياً عن جين ولما خرج المشككون

---

(١) المانوليا في دمشق. إلفة الإدلبي.

بصدق حبه لها وجدوه يقف بحصانه الأدهم عند حافة القبر، ولما دفنت جرجر نفسه وهو يسحب عنان جواده باكياً على رفيقة العمر التي عاشت معه قرابة ثلاثين عاماً.

لا يزال قبر الليدي دغبي في دمشق في مقبرة البروتستانت القائمة على الطريق الذاهبة من قلب دمشق إلى المطار الدولي، وقد كتب على شاهدته بالعربية: مدام دغبي المصرب وبجانبه بالإنكليزية، «جين إليزابيث ابنة الأميرال سير هنري دغبي .G. C. B ولدت في ٣ نيسان عام ١٨٠٧م وماتت في ١١ آب ١٨٨١م وثقتي برحمة الله تعالى إلى أبد الآبدين» وقد نمت فوق القبر شجرة زنزلخت. وبهذا نختتم قصة مغامرة لعوبة جمحت في أوروبا، واستقرت في بوادي العرب، ونعود نتساءل مع الأستاذ الدكتور عدنان البنى: أكانت هذه الغربية مدفوعة بقدر أم بشوق أم بيأس أم بتكفير ذنب أم بشيء آخر لا ندري؟!. فالقصة أغرب من الخيال، ولله في خلقه شؤون.



الشيخ مجول المصرب نائماً... لوحة تخطيطية بريشة جين دغبي.

أيستر ستانهوب

Hester Stanhope

١٧٧٦ - ١٨٣٩م

« كانت إحدى العرافات قد تنبأت لها وهي طفلة بأنها ستتوج ملكة على اليهود في بيت المقدس، فأوحى لها وضعها في ذلك الوقت وكأنه مقدمة صحيحة لذلك المنصب الرائع الذي يهيئه لها المستقبل»

●بول هنري - بوردو[(١)]

أطلق عليها بعض المؤلفين اسم جنية الصحراء؛ لسلوكها المعقد وطرافة شخصيتها، إذ يصعب على أي باحث أن يسبر أغوار شخصيتها، أو أن يصل إلى طبيعة مشاعرها الحقيقية، كانت تؤمن بالسحر والتنجيم، وبعودة المسيح المنتظر، وفوضوية عنيدة إلى أبعد الحدود. ولم يكن ترحالها في بلاد العرب من قبيل المصادفة، بل هو نتيجة ظروف مرت بها هذه المرأة الساحرة دفعتها لترك وطنها والعيش في البلاد العربية وهي تحلم بالشهرة والعرش الملكي في امبراطورية عاصمتها تدمر في بادية الشام. ورحالتنا الجديدة هي أيستر ستانهوب المولودة في بريطانيا عام ١٧٧٦م ابنة اللورد تشارلز ستانهوب الجمهوري الساخط، وأمها الليدي ايتسريت كانت امرأة فاضلة ذات وقار وفطنة واتزان في نساء الإنكليز، أما جدها فاللورد تشاتام وزير سابق، وجدها الآخر الكونت ستانهوب الثاني. توفيت والدتها وهي في الرابعة من عمرها، فتعلمت من الأهل وحياة اليتم المعنى الحقيقي للحياة، ولم تكن وحدها تعاني فقدان الأم

---

(١) ساحرة الصحراء. بول هنري - بوردو. ترجمة ازدهارمتوج، محمد وليد الجلاد. دار الملاح، دمشق ١٩٩٢.

الحنون فمعها أختاها: غريسولدا، ولوسي راشيل. وعندما تزوج والدها بامرأة أخرى تفرغت الأخيرة لأطفالها الثلاثة ولشؤون زوجها، ولم يكن من اهتماماتها سوى المكياج ودار الأوبرا والحياة الرتيبة المجردة من الطموح، بينما انخرط والدها بالعمل السياسي والتبشير للثورة الفرنسية، وممارسة الرياضة. وبجانب ذلك كانت له مهارات يدوية في التخطيط لآلة ميكانيكية تدار بالبخار، وهو أول من وجه ذلك لتطبيقه في مجال تحريك السفن البخارية في البحار، ولهذا حاول توجيه أولاده لممارسة العمل اليدوي حتى أصبح ابنه الكبير من أشهر الحدادين، ولما جاء دور أيستر وجهها نحو الزراعة وتربية الدواجن ورعاية مزرعة الدجاج الرومي بصورة خاصة، ولكنها كانت بعيدة عن ممارسة هذه الهواية، بل أخذت تتمرد شيئاً فشيئاً، وفي إحدى المرات تسللت إلى شاطئ البحر لتستقل زورقاً مهجوراً بمفردها وتجدف به وسط أمواج البحر، ولما لحق بها خدم أهلها، أقسمت أن تكون كل حياتها المستقبلية حياة تمرد على كل ما هو مألوف، ولم يمض وقت طويل حتى برّت بقسمها عندما هربت لتعيش عدة سنوات في كنف جدها العجوز تشاتام مع أخواتها فلاحظ هذا الجد جدية هذه الفتاة وهي تعطف على أخواتها بأسلوب أبوي فريد، ولما أصبح خالها وليم بت نائباً وسياسياً كانت أيستر في السابعة عشرة من عمرها؛ فاختارها هذا النائب لتكون أمينة أسراره وسكرتيرته الخاصة عام ١٨٠٦م، فعرفت العمل السياسي لأول مرة وأصبحت ماهرة في السياسة لا بالفلاحة والمهارات اليدوية التي وجهها إليها والدها. ولما كانت في زيارة الملك جورج الثالث برفقة خالها أبدى الملك إعجابه بهذه الفتاة البيضاء الفارعة الطول ذات الحاجبين الطويلين المخمليين والعينين الرماديتين اللتين يشوبهما بريق أزرق وتنبأ لها بمستقبل

زاهر، ولهذا أخذت أيستر تتطلع إلى المستقبل بطموح زائد، ومما عزّز آمالها تولي خالها وليم بت رئاسة الوزارة البريطانية، فأتتها الدنيا من حيث لا تعلم، وفتحت أمامها آفاقاً جديدة حيث أخذت تجلس على موائد السفراء والأمراء، وتساهم بالجدل السياسي وتبادل الآراء والأفكار، وتصدر المراسيم بمشورة خالها، وتشارك في الاحتفالات العامة، وتعلق الأوسمة على صدور الضباط وأفراد الجيش.. كيف لا وهي أمينة سر خالها. وبالمقابل أخذ رجال السياسة يحسبون لها ألف حساب، فاندفعوا يحيطون بها ويمدحونها ويتملقون لها حتى أيقنت في قرارة نفسها أنها تسير لأن تصبح امبراطورة، أو ملكة مطاعة في مكان ما من العالم! وحتى الزواج لم تكن تواقة إليه فقد بلغت الثلاثين من العمر ولم تتزوج. وفي أوج إندفاعتها نحو المجد توفي خالها فجأة، فانفض المعجبون بها، وأصبح الذي يتمنى ودها ينظر إليها بثياب المسكينة البائسة، خصوصاً وأن خالها وليم بت لم يترك ثروة تذكر، فصدمت صدمة عنيفة جعلتها لا تفيق من هول المفاجأة إلا بعد فترة طويلة.

هبطت أيستر من برجها العاجي لتعيش كعامة الناس براتب شهري قدره «١٢٠٠» ليرة استرلينية أقرته لها الحكومة البريطانية. لم تكن مشكلة ايستر ستانهوب مع الجمال، فهي ليست بالجميلة ولا الدميمة، ولكن كانت مشكلتها الاسترجال وجنون العظمة، والرغبة في ارتياد المخاطر واكتشاف المجهول أما الحب والعواطف الجياشة، فلم تمر بها إلا عرضة، فقد مالت إلى «السيرجون مور» الذي سافر إلى أسبانيا فقتل[١] وبقربه شقيقها الذي سمعه يقول: «اذكرني عند شقيقتك» فحزنت لفقد خالها ومن تحبه دفعة واحدة.. ولكي تنسى هذا

---

(١) تقدم لخطبتها رجل إنكليزي مشهور، ولكنها رفضت لخلافه مع عائلتها.

الواقع المرير قررت أن تجمع كل ما تملك من ثروة وتقوم برحلة في أوروبا وبلاد المشرق. كان معها في سفرها «خادمها وأمين سرها الشاب ميكائيل بروس M. Bruce ابن أحد الأغنياء. وكان فيما يبدو مرافقاً وعاشقاً وممولاً، وكان أبوه يحلم أن يفيد ابنه من هذا الزواج ليؤمن مستقبلاً سياسياً لامعاً، والدكتور مريون Meryon طبيبها الخاص الذي كان يسهر على صحتها طوال إقامتها في الشرق ولم يتركها إلا قبل وفاتها بعام أو أقل. وعلاوة على هذين الصديقين كان هناك خدم وحراس وأدلاء وأصدقاء ظلوا معها طالما كان معها الجاه والمال[١].

أبحرت بفرقاطة نحو الجنوب إلى أسبانيا واستانبول وأثينا والمدن الإيطالية وجزر البحر الأبيض المتوسط ومعها صناديق فيها كل ثروتها، وفي استانبول أخذت تتحدث عن تدمر العاصمة السورية القديمة. مدينة الملكة زينب الطموحة التي حاربت ملوك الرومان وشيدت أركان مملكة.



الليدي أيستر ستانهوب في ثياب الرجال: سروال منتفخ، وقميص طويل، ورداء فضفاض، وعمامة مزينة؛ مما جعل الناس يتساءلون إلى أي جنس ينتمي هذا المراهق بقامته الممشوقة ولون بشرته الأبيض الكامد؟!

● عن كتاب ساحرة الصحراء.

---

(١) نساء على دروب تدمر. د. عدنان البني.

لكنها قبل أن تغادر العاصمة العثمانية، قررت أن تمتطي فرساً وتخترق شوارع المدينة لشماهدة موكب السلطان محمود وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة، والانكشارية بلباسهم الموحد الجميل يحجزون الجمهور عن الموكب، ولتلتقي بالسفير الفرنسي على شواطئ البوسفور، ولكنها كانت لا تنوي قضاء الشتاء هناك فأبحرت مع رفاق السفر على متن سفينة يونانية يريدون مدينة الإسكندرية في تشرين الأول عام ١٨١١م وعندما وصلت السفينة قرب جزيرة رودس هبت عاصفة هوجاء فمالت السفينة وتكسرت الصواري وأخذت تغرق، ولم يكن لديها وقت لإنقاذ ثروتها من الصناديق والمجوهرات والألبسة والأدوية، فقارب النجاة كان يغص بخمسة وعشرين شخصاً شقوا طريقهم على متنه باتجاه صخرة محمية من الريح، رست عليها الليدي ستانهوب، بينما ذهب بعض الرفاق يطلبون النجدة من مدينة رودس، فعادوا بقليل من المال والألبسة، ومن هذه الألبسة ثياب الحريم التركيات وألبسة الرجال، فاختارت لباس الرجال على لباس النساء وبقيت ترتديه طوال فترة وجودها في الشرق. ومن هناك أبحرت ثانية باتجاه الاسكندرية، وعلى الرغم من كثرة النصارى في هذه المدينة لكن أيستر ستانهوب لم يرق لها الإقامة فيها. فانطلقت إلى مدينة رشيد في دلتا النيل، لتستأجر مركباً أبحرت به إلى القاهرة، وفي الطريق شاهدت المراكب النهرية وهي تحمل عجول الجاموس والمؤن، واستمتعت برؤية معالم المدن القائمة على ضفاف هذا النهر العظيم، وشربت من ماء النيل، ومن كان يشرب من ماء النيل يتمنى أن يبقى على ضفافه ليعب من مائه العذب. وقبالة حي بولاق في القاهرة حمَّلت أمتعتها على ظهور الحمير ذات السروج المزينة بالمرايا وثمار البلوط والشراشيب المتدلية، ومن مقر إقامتها في القاهرة أخذت

تستعد لمقابلة حاكم مصر محمد علي باشا بملابسها الغريبة وبحزامها وسيفها المرصع بالجواهر، وقد كلفتها حلة اللقاء أكثر من ثلاثمائة ليرة استرلينية. استقبلها الباشا بقامته القصيرة ولباسة الأنيق، لقد دهش لجرأة هذه المرأة وصلابتها وإرادتها القوية، وملامحها المتعالية، ولهذا فقد أحاطها بالرعاية والتكريم خصوصاً وأنها تحمل إليه توصيات كبار الساسة الإنكليز. وصلت الليدي ستانهوب إلى القاهرة ومحمد علي باشا - منذ عام - كان قد دبر مذبحة للمماليك، ومن بقي منهم حياً توارى عن الأنظار وهرب أو اختفى! فقررت هذه السيدة أن تزور أرامل المماليك على الرغم من معارضة سلطات محمد علي لذلك التصرف، ويقال إنها أمضت شتاء وربيع عام ١٨١٢م في مصر، وفي أيار تهيأت للسفر إلى فلسطين فأهداها محمد علي فرساً عربية أصيلة مطهمة، وقائده عبدالله أهداها فرساً مماثلة نقلتها هدية إلى بعض الشخصيات في بريطانيا.

انتقلت ستانهوب من شواطئ مصر إلى شواطئ فلسطين، ومن هناك كونت قافلة للتجوال في المدن الهامة، ومعها الخدم وعناصر الحراسة، والدواب تحمل ست خيام خضراء كبيرة وبعض الصناديق التي حوت لوازم الرحلة عوضاً عن الصناديق التي غرقت في البحر قبالة رودس.

أخذت قافلة الليدي ستانهوب تنتقل من مدينة إلى أخرى في فلسطين ولبنان حتى وصلت إلى ضواحي بلدة دير القمر، وهناك توقفت لمشاهدة قصر المختارة الذي يقيم فيه الشيخ بشير، فأعجبت بجمال الوادي وبالمناظرالخلابة وبكثرة أديرة النصارى فقررت أن تبني لها قصراً في المنطقة تقيم فيه بقية أيام حياتها، ولكن ليس قبل أن تزور سورية وتتجول في ربوع دمشق، وتقف على أطلال مدينة تدمر.

إن أخبار الليدي ستانهوب في لبنان موثوقة وثقها الأمير حيدر الشهابي في تاريخه: «حضرت إلى مدينة صيدا فأرسل الأمير بشير عزمها، وحضرت إلى دير القمر وانشرح خاطرها في هذه البلاد. وقدم لها الأمير الخيل والذخائر. وأحضر لها كتابات من سليمان باشا والي الشام يكلفها إلى الحضور. فسارت إلى الشام وحصلت منه على كل إكرام... كان بيدها أوامر من الدولة العثمانية أن يقدموا لها كل إكرام أين ما حلت...». نصحها الأمير بشير بارتداء زي النساء المسلمات عندما تصل إلى دمشق، خصوصاً وأن دمشق لا تزال مغلقة بوجه الأوروبيين، والناس محافظون لا يروق لهم رؤية امرأة سافرة تجوب شوارع دمشق، ولكنها صرحت علناً أنها ستجوب شوارع دمشق سافرة على ظهور الخيل، وأنها سوف تتحدى الرأي العام الدمشقي، وأن تركب بزيها هذا في وضح النهار، ولما نفذت ما وعدت به وطافت حول الجامع الأموي بجوادها يحيط بها الحراس، التبس على جمهور دمشق[1] الثياب البهية وشخصية الليدي ستانهوب الرجولية التي خدعتهم بزيها، فظنها بعضهم سيداً من البكوات، واعتقد آخرون أنهم في حلم، ثم تيقن الجميع أنها امرأة، وقبل أن يستفيقوا من ذهولهم كانت قد تجاوزتهم ودخلت الحي المسيحي حيث ترجلت سالمة. ولتخفيف نقمة الناس على هذا التصرف غير المألوف سرت شائعة تقول: صحيح أن ستانهوب إنكليزية إلا أنها من أصل تركي، وأن دماء المسلمين تجري في عروقها.

أقامت هذه الرحالة طويلاً في بلاد الشام، ولم تكن بدون أهداف سياسية، فمداخلاتها كانت صارخة في سياسة البلاد. حيث قاومت إبراهيم باشا المصري بعنف. وعداء الإنكليز لإبراهيم باشا وأبيه

---

(١) ساحرة الصحراء المصدر السابق نفسه.

محمد علي باشا أمر معروف، وساعدت على قيام انتفاضات ونظمت مذابح في جبال العلويين وأججت الحروب الطائفية بين الدروز والموارنة، وعملت على تعزيز مكانة السلطان العثماني ودافعت عن حقوقه[١] ومن تدخلاتها الأخرى في شؤون أهل المنطقة تحمسها لقضية الكولونيل بوتان، وسوف نروي القصة من أحد المصادر الموثوقة[٢]. ففي سنة ١٨١٥م جاء سائح أوروبي يجول بلاد العلويين مستطلعاً ما فيها من قلاع وحصون مدهشة للصليبيين، كقلعة حصن الأكراد، وقلعة صلاح الدين، وقلعة مصياف، وقلعة المرقب، وكلها من أعاجيب الزمان والمكان.. وهناك فتك به بعض العلويين وقتلوه ابتزازاً لماله. واختلفت الروايات في ذلك الوقت لمعرفة القتيل، فقيل إنه من أشراف الإنكليز، وقيل إنه كان طبيباً إنكليزياً.. أما حقيقة القتيل فقد أكدتها الكاتبة الفرنسية الأديبة «بول هنري بوردو»... فتقول: إن ذلك السائح القتيل هو: الكولونيل بوتان الفرنسي، من رجال بونابرت، وأن اسمه الأصلي «فنسان كيفل بوتان» وأنه كان صديق الليدي ستانهوب النبيلة الإنكليزية الشهيرة، نزيلة لبنان في بلدة جون فوق صيدا في عهد الأمير بشير... وأنها هي التي أرغمت سليمان باشا والي عكا، إرغاماً على تكليف مصطفى بربر بالاقتصاص من العلويين، انتقاماً لمقتل صديقها «بوتان» وقد استحضرت إليه أوامر من الباب العالي بواسطة سفير بريطانيا في استنبول ليقتص من العلويين قتلة صديقها، الذي دعته في شكاويها وعرائضها أخاً لها بدليل أن الرحالة والسياح الفرنجة في الشرق كانوا يدعون أنفسهم اخوة فيما بينهم. ولموقف الليدي ستانهوب الإنكليزية من تلك الحادثة وملابساتها ظن مؤرخو عصرها أن المقتول إنكليزي مع أنه فرنسي.

---

(١) نساء على دروب تدمر. د. عدنان البني.

(٢) أسرار حملة نابليون على مصر والشام. حسني أدهم جرّار. دار الضياء، عمان ١٩٩٠م.

وعلينا أن نتساءل حقاً هل كانت الليدي ستانهوب تنظر إلى الرحالة الأوروبيين المعاصرين لها بالمنظار نفسه؟! أرسلت ستانهوب صديقها «بروس» لاستطلاع منطقة طبرية في إقليم الجولان، فاصطحب أعرابياً غريب الأطوار ولم يكن هذا الرجل سوى الشيخ إبراهيم أو الرحالة بوركهارت المتنكر في ثياب شخصية عربية، كان طويل القامة بديناً قوي البنية بملامح ألمانية وعينين زرقاوين فيهما بعض الجحوض.. وكان يتكلم الإنكليزية بلكنة استكتلندية، غير أن الليدي ستانهوب لم ترتح له، وكان يكدّرها أن تسمع شيئاً عنه وتظن فيه الحسد وسوء النية والمكر، ولم تكن تعلم أنه أمضى سنتين في بلاد الشام يقوم بجولة لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية، أما الرحالة لاسكاريس الفرنسي فقد تعرف على الليدي ستانهوب، وطلب منها أن تستخدمه مرافقاً ومترجماً لها بعد أن تخلى عنه الممول نابليون بعد اندحاره في روسيا، كان هذا الرحالة عميلاً لنابليون مع أنه كان إنكليزياً، وممثلاً فريداً من نوعه ومدعياً لأحداث نسبها إلى نفسه لم تحصل البتة، فانخدعت به الليدي وطلبت من الساسة الإنكليز المحافظة عليه ورعايته ليكون عيناً للإنكليز في الصحراء العربية بجانب عيون ومبعوثي فرنسا في المنطقة... وقد اعترفت ستانهوب أنها كانت مخدوعة به ولما علمت بازدواجيته، تركته لقاء إكرامية زهيدة، ووصفته أنه كان بقلب روماني ومكر يوناني، وأنه ادعى أشياء مختلقة، ونسب لنفسه النجاح في كل ما يفعل ومن ادعاءاته التي تكذّبها ستانهوب:

أولاً - حرب البدو الوهابيين عند أبواب مدينة حماة السورية.

ثانياً - قصة الأمير ناصر بن مهنا الفاضل أمير الحسنة من عنزة الذي يروي لاسكاريس أن زاهر بن الدريعي ابن شعلان قد قتله

عام ١٨١١م وقطّعه وأرسله إلى والده في الصحراء بينما تذكر الليدي ستانهوب أنه كان يقوم بزيارتها في دمشق عام ١٨١٢م وهو ناصر ذاته الذي رافق الليدي ستانهوب إلى مدينة تدمر.

إن هذه المستجدات عن لاسكاريس تبرر تصنيفي للاسكاريس بأنه كان من أردأ أصناف الرحالة وأكذبهم على الإطلاق. وعندما نترك لاسكاريس وصاحبه فتح الله الصايغ الحلبي وقصصهم المزعومة عن الصحراء، نجد من يوثق أخبار الليدي ستانهوب أمثال الأديب الشاعر الرحالة لامارتين الفرنسي، حيث زارها في بلدة جون قرب صيدا، ودون كل ما دار بينه وبينها من أحاديث بشأن السياسة والمعتقدات والأفكار، وعن قناعاتها بعد ربع قرن من إقامتها في بلاد الشرق، وذلك في فصل من كتابه «رحلة إلى الشرق» كما نجد أخبارها متناثرة في بعض الكتب والدوريات والصحف كمجلة «كونستلاسيون» الفرنسية[1]. وقد جاء في كتاب لامارتين عن الشرق، أن الليدي «أيسترستانهوب شابة جميلة ثرية غادرت بريطانيا بعد وفاة خالها وطوفت في أنحاء أوروبا، فكانت تستقبل حيثما حلت بالحفاوة والتكريم اللائقين بمكانتها المرموقة وثروتها وجمالها وذكائها المتوقد... فقصدت القسطنطينية ومن ثم إلى سورية. ولا يعرف أحد قط ما الذي دفعها للرحيل. فقد عزاه البعض إلى مقتل جنرال إنكليزي شاب كانت تحبه قتل في اسبانية، وعزاه آخرون إلى حبها للمغامرة الذي يسم طبعها الجسور المقدام»... ولما استقامت لها الأمور واعتادت لغة البلاد وملبسها وتقاليدها، جهزت قافلة ضخمة وحمّلتها أثمن الهدايا وراحت تجوب سورية كلها، فأقامت في القدس وحلب وحمص وبعلبك وتدمر. وفي المحطة الأخيرة - تدمر - أحاطت خيمتها بقبائل عربية كثيرة وتمكنت من زيارة خرائب المدينة، فتوجتها

---

(١) العدد ٤٦ شباط عام ١٩٥٢م.

القبائل ملكة على تدمر[1]، وحصلت من شيوخ القبائل على «فرمانات» تسمح لكل أوروبي يريد زيارة تدمر أن يحصل على تصريح من الليدي ستانهوب وهو آمن شريطة أن يلتزم بدفع أتاوة تعادل ألف قرش عثماني... وبعد زمن من التنقل في أقطار الشرق كلها اختارت الحياة في وحدة تامة في أحد جبال لبنان قرب صيدا، وقد وصف لامارتين قصر إقامتها بأنه دير قديم رممته وأحاطته بالأسوار التي تشبه تحصينات القرون الوسطى، وبالحدائق والبساتين الوارفة الظلال من أشجار التين والبرتقال والليمون. وعاشت في هذه الجنة سنوات تنعم برفاه الشرق، تحيط بها حاشية تضم عدة مترجمين من العرب والأجانب وعدداً من الوصيفات والخدم، في جو من العلاقات الودية والسياسية مع الباب العالي ومع عبدالله باشا الجزار والأمير بشير الشهابي عاهل لبنان، ومع شيوخ الصحراء من عرب سورية والعراق.

وفي أواخر أيامها بدد البذخ والإنفاق المسرف ثروتها، فهجرها الناس، وعاشت في عزلة تامة، وهي قانعة مثابرة دون أن تتحسر على الماضي، ولم ترضخ للبؤس والشيخوخة، بل زادت ديونها على عشرة آلاف ليرة، وبليت ثيابها وحُجر على راتبها الذي يصلها من لندن، فماتت فقيرة عام ١٨٣٩م، فقام الخدم بلفها بعلم بلادها ودفنها في الدير المذكور.

كانت هذه المرأة مخلوقة عجيبة، لا يطيب لها العالم إلا إعصاراً، ولا ترضى من السياسة سوى البلبلة، وعندما عجزت من أن تتوج ملكة في الشرق عاشت في عزلة قاتلة حتى ماتت. لقد عاشت وتصرفت كرجل في ثياب امرأة، وكأنها قد بدلت جنسها، وعاشت بأفكار غريبة حيث كانت تؤمن بالسحر والتنجيم ومما قالته للامارتين:

---

(١) قد يكون ذلك وهماً.. فأي القبائل توجتها ملكة؟ وتدمر كانت تحت حكم العثمانيين!.

«لا تحسبني مجنونة كما يظن بي معظم البشر، فثمة علم تفتقر إليه أوروبا اليوم، ولد في الشرق ولا يزال فيه، وأنا أملك مفاتيح هذا العلم.. إنني أطالع النجوم.. وما نحن إلاأبناء هذه المصابيح السماوية التي أشرفت على ولادتنا، وفالها الحسن والسيء قد كتب على جباهنا وبين عيوننا وفي قسماتنا وفي خطوط أكفنا.. وفي حركاتنا وخطواتنا... أما أسرار مصيري ومستقبلي، فإني أسيء الظن بالله إذا ما لجأت إلى أحد مخلوقاته لمعرفتها، وبالنسبة للمستقبل فأنا لا أؤمن إلا بالله وبالحرية وبالفضيلة!.. إن ما أقوله لكم يحيطه الغموض ولكن الذي سيأتي من بعدي سيحدثكم عن الروح الحقيقية... وتقصد بذلك المسيح المنتظر». وخلاصة القول: عاشت ستانهوب بأفكار مسيحية ممزوجة بالبوذية، وأفكار التنجيم.. وممارسة رياضة اليوغا والتعلق بالغيبيات التي لا يعلمها إلا الله.

همت بزيارة مدينة تدمر انطلاقاً من مدينة دمشق ضمن قافلة تحت حراسة عساكر الباشا ولكنها أعرضت عن الفكرة وسرحت العساكر، وفرقت القافلة في آخر حظة.. لقد قررت السفر وحدها في البادية والتعرف على شيوخ البدو في بادية الشام، وفي ضواحي المدن الكبيرة، جنوب حلب يقيم بدو الفدعان من عنزة وفي بوادي حماة وحمص حتى تدمر، يقيم بدو السبعة وبدو الحسنة من عنزة أيضاً، وفي جنوب دمشق باتجاه الجزيرة العربية يقيم بدو ولد علي بقيادة دوخي ابن سمير، وبدو الرولة بقيادة الدريعي ابن شعلان وكلاهما من عنزة. وبالرغم من أنها كانت تود التعرف على كل هؤلاء، إلا أنها اختارت جوار مهنا الفاضل أمير الحسنة قرب مدينة حماة، في وقت تسربت فيه الأخبار إلى كل القبائل في بادية الشام بأن أميرة إنكليزية وصلت دمشق محملة بالذهب، وتملك كتباً ومواد مثيرة تحول الحجارة إلى معادن ثمينة، وتملك قدرات خارقة.

كتبت سراً إلى الشيخ مهنا، فأرسل ابنه موفداً إلى دمشق، فاستقبلته بحفاوة، ودعته إلى حفلة غداء عامرة، وألقت عليه حلة كاملة تليق به كواحد من رموز البادية العربية في ذلك الوقت، وفي نهاية الاستقبال طرحت عليه فكرة السفر إلى البادية برفقة عسكر الباشا فرفض الشيخ ناصر بن مهنا وقال لها: عليك أن تثقي بالبدو، وعسكر الباشا لا يعرفون مداخل الصحراء ولا يستطيعون حمايتك من غارات الكمائن. وعندما قررت السفر وحدها دون حراسة أخذت معها لاسكاريس بصفته مترجماً، وعند مشارف مدينة حمص استقبلها بعض رجال الشيخ مهنا الفاضل واقتادوها إلى مضارب القبيلة في ليلة شاتية من عام ١٨١٣م. كان الشيخ مهنا يناهز الستين من عمره، ثقيل السمع، حفر الزمن في وجهه كثيراً من التجاعيد، ولكنه كان شعلة من الذكاء والفطنة، ولما مثلت بين يديه، قالت: «يا شيخ مهنا ها قد وصلت إليك وحدي وأنا أعرف أنك قادر على أن تفعل ما تشاء، وأصبحت رهينة يديك.. لقد تركت خلفي كل الحماية من الجنود والأصدقاء، والتجأت إليك طمعاً بحماية قبيلتك» فأكرمها الشيخ مهنا وأعلن حمايته لها وعرفها على الباشا العثماني في حماة، وعندما التحق بها رفاق السفر أقامت في حماة تنتظر انتهاء الشتاء، ولما انقضى الشتاء انطلقت بقافلة فيها أكثر من أربعين جملاً محملة بالخيام وأدوات الطبخ والمؤن والأرزاق، وهي على جوادها المطهم تشق شوارع مدينة حماة تريد مدينة تدمر، فتدافع الناس وهم يتصايحون: ها هي.. ها هي والحراس والانكشارية يبعدونهم من الطريق، وقد أرادت بكل هذه المظاهر أن تعلن للبسطاء أن من يريد العيش الرغيد عليه أن يكون بجانب الإنكليز.

كان رفيقها من البدو الشيخ ناصر بن مهنا الفاضل نفسه مقابل

ثلاثة آلاف قرش عثماني ومعه سبعون من الرجال يتسلحون بالرماح والسيوف، وقد استغرقت رحلتها من حماة إلى تدمر خمسة أيام مرت خلالها ببدو السبعة عند جبل البلعاس، ووصفت الظعينة والبدو أثناء ترحالهم حيث الهوادج على ظهور الإبل فيها النساء والأطفال، والحراس، والرعاة في صف طويل ينتشر في الصحراء. وفي اليوم الخامس صاح فرسان الحسنة: الحرب.. الحرب استعدوا أيها الرفاق لقد غزانا بدو الفدعان، فاندفع ناصر بن مهنا في كوكبة من فرسانه وغاب في زوبعة من الغبار.. أما الليدي ستانهوب بدلاً من أن تجزع اندفعت بجوادها للتصدي للمهاجمين، وعندما انجلى الموقف بدا لها أن هذا الغزو المزعوم إنما هو خدعة ومزحة ثقيلة، وتمثيلية قام بها ناصر بن مهنا ليختبر شخصيتها، فدهش بأنها رجل في ثياب النساء.. فطلبت منه أن لا يعود لمثلها لأن مزاح الحرب لا وجود له في الصحراء، فرد عليها الشيخ ناصر قائلاً: إن كنت يا سيدتي ابنة وزير فأنا ابن أمير من أمراء البادية، وأنت في حماية الحسنة ولا خوف عليك. وعندما أشرفت القافلة على أطلال تدمر خرج الناس لاستقبالها، المشاة والفرسان، والأهازيج وطلقات البنادق ورائحة البارود تدوي في المكان، وتوقفت لمشاهدة مباراة للفروسية العربية: الكر والفر... ها هي في تدمر بين الأعمدة الشامخة وبقايا الأبنية وبين جلاميد الصخور المتهدمة... إن كل ما فيها يوحي بعظمة الملكة زنوبيا أو زينب في الماضي البعيد.. وعندما دهشت لحرارة اللقاء تمنت أن يراها قومها في لندن عندما تخلوا عنها وهي تشعر أنها تتوج ملكة على تدمر من جديد.

لم يطل مقامها في تدمر حيث طويت الخيام في الرابع من نيسان من عام ١٨١٣م، وخفت القافلة بالمغادرة خصوصاً وأنها خشيت من

غزو كبير كان يعد له بدو الفدعان للهجوم على تدمر وسلب قافلتها. تركت ستانهوب مدينة تدمر وهي تقول:

«ليس في بادية سورية سوى تدمر واحدة ، كما أن السماء ليس فيها غير شمس واحدة» .

وأخيراً عادت لتعيش بقية عمرها في الدير الذي حولته إلى قصر في بلدة جون قرب صيدا «وهناك أنشأت قصر منفاها[١] امرأة جاءت من أوروبا. ومع أنها تقضي لياليها بالتبحر في علوم المجوس فهي ترتقي إلى الله في مسالك الحكماء. والله يعلم إن كان عملها هذا أضغاث أحلام أم حقيقة راهنة. ولكن الناس كلهم يحمدون لها كرم ضيافتها».

وبهذا نختتم التجوال في صفحات متفرقة من تاريخ حياة امرأة رحالة مغامرة، جمح بها الطموح في بلدها عندما كان خالها رئيساً للوزراء في بريطانيا، واندفعت نحو الشرق لتحقيق أمانيها في أن تكون ملكة على بيت المقدس، وملكة تدمر بعد الملكة زينب، ولكنها لم تفلح في تحقيق ما كانت تسعى إليه، فأمضت عشرين عاماً من الوحدة والعزلة والتأمل في ديرها المتهدم في لبنان حتى وافتها المنية عام ١٨٣٩م، ولم تترك لنا سوى هذه السيرة التي دفعت بنا لأن نصنفها في تعداد النساء الغربيات الرحالات في ديار العرب.

---

(١) عن قصة لامارتين (سقوط ملاك).

إيزابيل بورتن

Isabel Burton

في شتاء عام ١٨٦٩ نراهما يبحران معاً في الطريق إلى دمشق، حيث عينت الخارجية البريطانية معتمدها في العاصمة السورية. وما إن بدأت الرحلة حتى وقعت إيزابيل بورتن في مذكراتها: «إن وجهتي دمشق حلم طفولتي.. إنني سوف أعيش بين زعماء القبائل، وسوف أتنشق رائحة الصحراء، وسوف تكون لي خيام وخيول وأسلحة، وسوف أكون طليقة»

● سمير عطالله(١)

إيزابيل بورتن امرأة رحالة من طبيعة خاصة، فهي زوجة لعسكري ودبلوماسي رحالة معروف، خدم في الهند ضمن صفوف الجيش البريطاني وارتحل في بلاد الشام والجزيرة العربية، وانتهى به المطاف معتمداً للحكومة البريطانية في دمشق ما بين عامي ١٨٦٨ - ١٨٧١م.. وقد قلنا بأن القناصل الأوروبيين في ديار العرب يعتبرون بحكم عملهم أشبه بالرحالة، وكانت لهم مميزات خاصة في بلادنا عندما كانت تابعة للحكومة العثمانية، وقد استفاد هؤلاء من هذه المكانة وهذه المميزات، فاندمجوا في الحياة العامة للناس، وتدخلوا في مجريات الحوادث اليومية.. وتلك كانت من أولويات العمل الموكل إليهم، ويعد قناصل منتصف القرن التاسع عشر من أنشط المعتمدين لبلادهم في ولايات الدولة العثمانية عندما كانوا يدونون كل صغيرة وكبيرة كانت تحدث في العواصم والبلاد العربية والإسلامية.

«كانت إيزابيل بورتن - إذا ما قيست بزوجها - تبدو أحياناً ساذجة سطحية الانطباعات، تغلب عليها الطيبة، ومع ذلك كانت فارسة

---

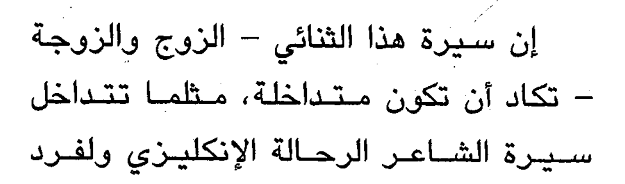
(١) قافلة الحبر، سمير عطالله، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٤م.

مقدامة، ومن طرائف أخبارها أنها كانت في بيتها بدمشق طبيبة الحي وصيدلانيته، وكان في دارها فهد وكلاب وسنانير، وماعز، ودجاج، وحمام حتى لقبت بالـ Zoo أي حديقة الحيوان»[١].

وما دام زوجها رحالة فهي مثله كانت تعشق الترحال، وتحلم أن تصل إلى الشرق وأهله، ويروى أنها كادت أن تطير من الفرح عندما أبلغها زوجها ريتشارد بورتن بالاستعداد للرحيل إلى دمشق. ودمشق بالذات كانت ولا تزال صلة الوصل بين البوادي العربية في الشرق والجنوب وبين السواحل المطلة على أوروبا من جهة الغرب، وللحياة بين ربوعها طعم خاص حيث الجمال والسحر في الغوطة الغناء وعلى ضفاف بردى، والتراث الرائع في الأسواق الشرقية، والمآذن، والطرق الصوفية، والحياة الاجتماعية الهادئة. وزوجها الذي تبحر معه إلى بلاد الشرق قادمين من بريطانيا كان كتلة من الطموحات والتطلعات، ذلك الفهد الأسمر صاحب الملامح الغجرية، كان مغامراً شجاعاً بشخصية شرسة لها سماتها الخاصة التي لا نجدها في كثير من الرحالة.



الرحالة ريتشارد بورتن
R. Burton
في طريقه إلى مكة
والصورة عن كتاب:
Travellers in Arabia



إن سيرة هذا الثنائي - الزوج والزوجة - تكاد أن تكون متداخلة، مثلما تتداخل سيرة الشاعر الرحالة الإنكليزي ولفرد

(١) د. عدنان البنى، نساء على دروب تدمر.

سكاون بلنت وزوجته آن بلنت، فمن يُعرّف بأحدهما لا بد له من أن يعرف بالآخر، فريتشارد بورتن (١٨٢١ - ١٨٩٠م) من العسكريين الرحالة، رائد مستكشف ورحالة قصصي، حيث أضاف من فنه الأدبي قصصاً جديدة أضيفت إلى قصص ألف ليلة وليلة. وقد نوهنا بأن هذه القصص هي الصورة التي حملها كثير من الرحالة الغربيين في أذهانهم عن الشرق وأهله. وقد شب بورتن على الترحال والتطلع إليه، فوالده كان ضابطاً ورحالة ورياضياً كبيراً، مل حياة السفر والترحال، فأراد لابنه أن يلتحق بسلك الكهنوت والتبشير للدين المسيحي، ولكن ريتشارد كان له ولع بالفروسية والمبارزة بالسيف والتمرد على كل شيء... حتى يصل إلى تحقيق كل ما يصبو إليه. وصل بورتن الابن إلى بومباي في الهند عام ١٨٤٢م وهو برتبة ملازم شاب في الجيش البريطاني، وقد وصفته في مطلع البحث بأنه كان من أنجح الرحالة في مجال التنكر، وكان يتقن فن التخفي والتنكر عندما كان يطلي جلده بالأصباغ التي يبدو بعدها أسمر اللون مصفراً كالأفغان والهنود، هذا بالإضافة إلى سحنته الغجرية التي ورثها عن والدته، التي ولدت ولادة مجهولة غير شرعية، وعندما قدم إلى دمشق كانت تعجبه الجلسات الانفرادية تحت شجرة وارفة الظل تنمو بجانب جداول نهر بردى، ليسمع خرير الماء، يدخن الغليون ويتحسى فناجين القهوة التركية السوداء. لقد أثرى أدب الرحلات بكتاباته عن الترحال الذي قام به إلى أفريقيا، بالإضافة إلى رحلاته في ديار العرب[١] وكان يلم بعدة لغات شرقية وأوروبية، ولجرأته ولونه الغجري لقب بالفهد الأسود. ويبدو أن كتب الرحلات التي تركها لم تكن تدر عليه مالاً مثلما درَّت عليه كتاباته

---

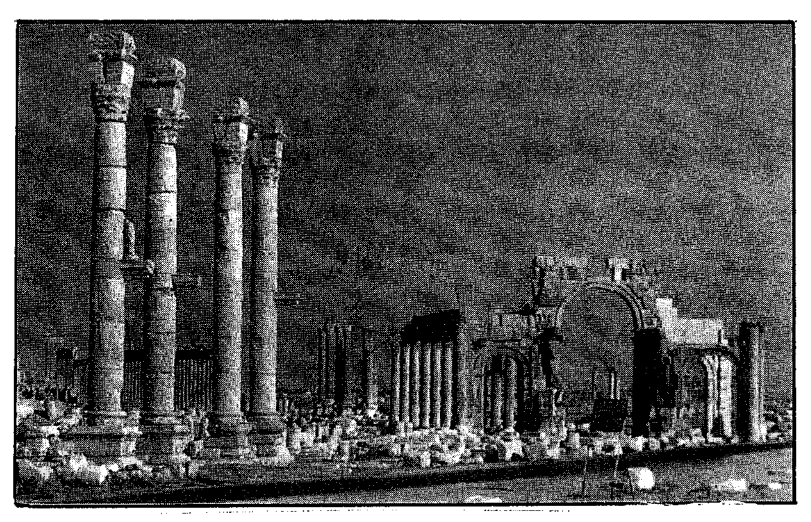
(١) رحلة بورتن إلى مصر والحجاز

(Pilgrimage to Al-Modina and Meccah) by: Richard F. Burtan.

عن قصص ألف ليلة وليلة، وخصوصاً القصص الداعرة التي تتنافى مع الحشمة والحياء، فأقبل عليها سواد الناس في أوروبا بشغف بالغ، فقد جنى منها حوالي ١٦ ألف جنيه استرليني.

وصل هذا الرجل فجأة إلى القاهرة، وادعى بأنه أفغاني، فأعانه الأفغان المقيمون في القاهرة للحصول على سمة دخول إلى مكة والمدينة في الحجاز على أنه الحاج عبدالله الأفغاني، ولما عاد من رحلته إلى مكة والمدينة ومشاهدته للشعائر الإسلامية كان بنفسية جديدة حيث تركت في نفسه تلك المشاهد آثاراً لا تمحى، حتى إن بعض الكتاب كان يروج بأنه أسلم وانتسب إلى الطريقة الشاذلية في دمشق.. وأن هذا الانتساب كان وراء استدعائه إلى بريطانيا عام ١٨٧١م؟! أما زوجته إيزابيل بورتن فقد أحبت في شخصه روح الاستشراق فجمعتهما الهواية وحب الترحال والمغامرة والرومانسية في بعض الأحيان، فتزوجته قبيل تعيينه معتمداً بريطانياً في دمشق... وعندما وصلت إلى دمشق وأطلت على الغوطة والمدينة من جبل قاسيون فاض عندها الشعور المبدع والوصف الجميل، وبهرتها روعة اللقاء. كانت معجبة بزوجها حتى إنها كانت تقلده في تصرفاته، فكم من مرة شوهدت وهي بلباس الفرسان، أو في زي رجل البادية تتدلى من حزامها الطبنجة ويرتكز الخنجر، وعندما تغادرها هذه النزوات تعود لترتدي لباس البارونة الإنكليزية، أو لباس الدمشقيات لتصبح طبيبة الحي، وصاحبة الذوق الرفيع والفن العريق، والدمشقية العريقة أكثر من الدمشقيات أنفسهن! كانت تشارك الناس في الأفراح وتحضر المآتم وهي محجبة بحجاب الإسلام، والأعراس الدمشقية وتقاليدها كانت من أكثر المحطات التراثية تأثيراً في شخصيتها.

لقد استفادت الليدي إيزابيل من عنصر الزمن واستغلت وقتها في كتابة الأحداث ورصد أحوال الناس، ولم تمض سنوات على إقامتها في دمشق حتى تمخضت جهودها في فن الكتابة عن كتاب رائع في أدب الرحلات اسمه: «الحياة الداخلية في سورية» وفي هذا الكتاب ذكر لولاة الشام وشيوخ القبائل، فصالونها في دمشق كان مفتوحاً للأدباء والشخصيات الهامة وجمهور المثقفين، فمن رواده الأمير عبدالقادر الجزائري الذي كان يعيش منفياً بدمشق وهو ابن الرابعة والستين بعباءته البيضاء وطلعته البهية، وهيبته التي كان يلقيها في قلب كل من كان يصادفه، كما كان يزور المنزل كل من مجول المصرب وزوجته الليدي دغبي لقضاء أمسيات جميلة، وفي تلك الأمسيات كانت تروى النوادر والحكايات والقصص الشرقية التي كان يدونها الزوج ريتشارد بورتن ويضيفها إلى حكايات ألف ليلة وليلة. وبطبيعة الحال كانت تدمر عاصمة الملكة زينب في صحراء بادية الشام محط



الأعمدة.. بقايا القصور والعمران في مدينة تدمر أمضت بينها الليدي بورتن وغيرها من النساء الرحالات أمسيات حالمة جميلة.. في طيف صاحبة الجلالة زينب ملكة تدمر.

اهتمامها مثلما كانت محط اهتمام ما قبلها من النساء الرحالات، وعندما قررت السفر إليها لم تجد أثراً للبدو الذين حملوا الليدي دغبي إلى الصحراء، وبالتالي لم تكن الإبل والخيل متوفرة لأن بدو السبعة كانوا في حالة حرب مع ولد علي المحيطين بدمشق، ولهذا كله فكرت بالسفر إلى حماة إلا أنها في النهاية قررت الانطلاق مع القنصل الروسي ورحالة فرنسي آخر إلى دوما من ضواحي دمشق ومنها إلى سهل القطيفة شمال شرق دمشق في ظروف جوية صعبة، ثم انعطف الركب إلى منطقة جيرود حيث كانت تقيم بعض الأسر الإقطاعية من آل سويدان والحويشان مع بدو السوالمة من عنزة، والدنادشة من تل كلخ. ولم تكن القافلة بدون حراسة بل كانت تحرس بخمسين من الجنود بقيادة دعاس آغا لحمايتها من غارات البدو وخصوصاً غزو ولد علي الذي لا يقل عن ٥٠٠ فارس ينتشرون عند منعطفات الطرق في الصحراء. ولم تنس إيزابيل بورتن الغبار الذي كانت قد خلفته غارة كبيرة من الخيل، فخافت وهلعت وإذ بالقادمين إليهم هم، خوري القريتين[١] وبعض شيوخ القبائل جاؤوا لتحيتها، فعلمت منهم أن الطريق إلى تدمر كانت محمية بحوالي ١٦٠٠ جندي من الخيالة يقودهم الضابط العثماني عمر بك.

كان عمر بك من المتعاطفين مع السياح والرحالة الذين يرغبون بزيارة تدمر، خصوصاً وأن زوجته كانت ألمانية مثقفة، فتعجبت من هذه المرأة الأوروبية التي تعيش مع زوجها في الصحراء وهي تحمل آلة البيانو على ظهر الجمل حيثما انتقلت، وعندما تقيم في منزله تحوله إلى حديقة حيوان حيث تربى فيه جراء الضباع والفهود.. فيبدو أن معظم النساء الغربيات الرحالات كن يتمتعن بمزاج غريب

---

(١) بلدة قريبة من تدمر في بادية الشام.

يتمثل بالرومانسية البنفسجية والاندفاع والطرافة! مرَّ الركب في بلدة القريتين على طريق تدمر، فتجمهر الناس لرؤية القافلة، واعتلت النساء العربيات أسطح البيوت وشرفات المنازل، وتسمرن خلف النوافذ وهن يرقبن موكب واحدة من النساء المسترجلات اللاتي يأتين من أوروبا لزيارة الشرق، ولا أدري فيما إذا كانت إيزابيل بورتن هي أيضاً كانت تهدف من ترحالها في مدن بادية الشام «بعث الحياة في مياه الحياة الشرقية الراكدة» كواحد من الشعارات التي كان يطرحها بعض الرحالة؟!

مضى على القافلة ثمانية أيام وهي تغذ السير بين السراب وأطلال الخراب والمدن المتهدمة في الطريق.. حتى بدت مدينة تدمر تلوح في الأفق: فالأعمدة أشبه ما تكون بكوكبة من الفرسان تسير في نسق واحد في منظر أدهش هذه الأوروبية.. فالأطلال راسخة عملاقة متجردة منفردة في مدينة مهدمة ولكنها كانت جميلة رائعة في يوم من الأيام! فكأن الجن الذي بناها لسيدنا سليمان لا يزال موجوداً فيها، ومن قمة أحد الجبال المطلة على المدينة تقوم قلعة ابن معن، فصعدت إليها لتشرف على الأطلال في سهل فسيح يتطاول نحو الشرق تحيط به بساتين النخيل ثم يتلاشى المنظر وسط صحيفة بيضاء من سراب البادية.. ولما هبطت وحان المساء أرادت أن تتجول لوحدها بين الأطلال على ضوء القمر، فوجدت في هذا المكان أفضل صومعة للتأمل واستحضار التاريخ. تاريخ الملكة زينب رمز الشجاعة لكل امرأة في العالم.

عادت إيزابيل بورتن من تدمر إلى دمشق وهي حالمة بسحر الشرق وتاريخ أهله، فوجدت دمشق جميلة كما تركتها، وهي التي أحبتها وتمنت أن تموت فيها مثلما أحبتها الليدي جين دغبي من قبل،

فقالت: «كنت أحب دمشق في الماضي لأنها دمشق، وليس لأنها مدينة جميلة، أما الآن فأحبها لجمالها أيضاً.. حيث الغطاء النباتي الأخضر يتطاول حولها باتجاه المدى البعيد.. وعندما تلج الغابات والبساتين، يأتيك الهواء برائحة الماء، وكأنك جواد يبحث عن الماء ليروي عطشه! وقد تسمع خرير الماء قبل أن تصل إليه، وتشم عبير الأزاهير وترى الفاكهة والأعناب، وتشتاق للقفز في الماء والشبع من الفاكهة.. ثم تستلقي بعد كل ذلك لتنام تحت الظلال الوارفة».

ولم يفسد على هذه النبيلة الرحالة زوجة القنصل البريطاني في دمشق سوى قرار نقل زوجها من دمشق عام ١٨٧١م بشكل مفاجئ. لقد كانت دمشق بالنسبة لهذه المرأة الرحالة الجنة بذاتها التي جعلها الله في الحياة الدنيا قبل الآخرة.



الجامع الأموي في مدينة دمشق يعد من أبرز المعالم الأثرية والحضارية التي كان ولا يزال يرتادها السياح والرحالة.

الليدي آن بلنت

Lady Anne Blunt

١٨٣٧ - ١٩١٧م

في الوقت الذي تتجه فيه الأنظار نحو الشرق تحاول آسيا بعد طول انتظار أن تأخذ دورها التاريخي القديم. وما نقدم له مشهد حي لما يجري في أشهر المقاطعات الآسيوية. وبودنا أن لا يمر هذا المشهد دون أن نلفت انتباه الرأي العام البريطاني إلى أن وادي الفرات هو طريق المستقبل إلى الهند، وأن امتلاكه من قبل قوة صديقة يدخل في صلب المصالح الحيوية للشعب البريطاني.

● **ولفرد سكاون بلنت**(١)

الليدي آن بلنت البريطانية سنيورة جميلة، ورحالة صادقة أضافت إلى أدب الرحلات رحلات فريدة إلى بلاد الرافدين وشمال الجزيرة العربية، وهي سليلة علم وأدب.. وحفيدة للشاعر البريّطاني الكبير اللورد «بيرون» وتتميز عن غيرها من الرحالات الغربيات اللاتي تجولن في الوطن العربي بكونها أديبة تتقن فن الوصف والتشويق، ولكونها واقعية موضوعية متزنة ذات أخلاق عالية، وشخصية جذابة فريدة. زوج هذه الرحالة هو النبيل الشاعر الرحالة الإنكليزي ولفرد سكاون بلنت الذي أمضى شطراً من حياته في الشرق الأوسط دبلوماسياً ومبشراً ورحالة كرس جهده للشعر والأدب والسياسة، والتفاعل مع الأحداث في كل من مصر والشام والجزيرة الفراتية وشمال نجد: عمل طويلاً في بغداد ضمن بعثة تبشيرية، وانتقل للغرض ذاته إلى

---

(١) مقدمة كتاب «قبائل بدو الفرات»، الليدي آن بلنت.

دمشق، فأحب أسواقها، واسطبلات الخيول، وله من الكتب الخطيرة والهامة: «أسرار الاحتلال البريطاني لمصر».

لقد جمع الترحال بين أديبين يعشقان الحرية، كما جمعتهما هواية الدراسات الشرقية، فتحولت الهوايات المشتركة إلى قصة حب عنيف طريف عاصف دفعهما للترحال في الديار العربية ما بين عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩م في رحلتين متتاليتين:

١ - الرحلة الأولى في الشمال ضمن الجزيرة الفراتية وبادية الشام، دونت أحداثها في كتاب جميل بعنوان: «قبائل بدو الفرات».

٢ - الرحلة الثانية في الجنوب إلى شمال نجد ومنطقة حائل، فكتبت أحداثها في كتاب آخر بعنوان «رحلة إلى نجد».

وللأمانة نقول: إن كانت الأحداث قد حررت بقلم الزوجة الليدي آن بلنت إلا أن الزوجين كليهما قد لعبا دور البطولة فيها وصناعة تاريخ الرحلة.

كانت بلنت تقف بقامتها الهيفاء بجانب ولفرد، فيبدو أنه يكبرها قليلاً، وعندما ترتدي الزي العربي تبدو في صورة رائعة لم يتقن رسمها سوى الرسام الأوروبي «مولوني» رافقت زوجها في الترحال إلى بلاد الشرق، فكانت الكاتبة والمؤرخة للأحداث، فجاء الوصف لوحة أدبية رائعة تختلف عن كل ما كتب في مجال أدب الرحلات من حيث العاطفة والأسلوب والإثارة ودقة التصوير، في مهارة تحملك معها وكأنك تعيش الأحداث للتو على الرغم من تباعد الزمن الذي يزيد عن مائة عام.

وعلى الرغم من تحفظاتي على أهداف الرحلة فقد أعجبت بهذين النموذجين من الرحالة، لروح المغامرة وحب الاستطلاع، والتمكن من

مختلف أصناف العلوم اللغوية والأدبية والعلمية كعلوم الفلك،والأحياء، والجغرافيا، والعلوم الاجتماعية، فكانا أشبه بالموسوعة المتحركة. «كان زوجها على خلاف كبير مع الحكومة لمعارضته سياساتها الاستعمارية، ولمناصرته الحركات التحريرية، وهو يشبه إلى حد كبير الشيخ عبدالله فيلبي، فقد قام مع زوجته برحلات طويلة في شمال أفريقيا والبلاد العربية الشرقية والهند، وأبدى تأييداً لحركة عرابي في مصر، وكان يرى أن المستقبل هو للإسلام، وكانت له صلات قوية مع الشيخ محمد عبده، وفي سنة ١٨٨٧م اعتقل في بلده وبقي لمدة شهرين لمناهضته سياسة الحكومة في ايرلندا»[١].

أتت الليدي إلى البلاد العربية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عام ١٨٧٧م في فترة مضطربة، كانت الحرب فيها مستعرة بين السلطان العثماني والقيصر الروسي.. كان معها في رحلتها زوجها ولفرد سكاون بلنت، وهو شاعر ورحالة وخبير بالخيل والقبائل.. كان الزوج لديه مشروع مملكة عربية متحدة يكون على رأسها الأمير عبدالقادر الجزائري.. وكانت زيارتهما لمنطقة الفرات والبادية بهدفين واضحين منذ البداية: استكشاف وادي الفرات، وعقد صلات حميمة مع قبائل البدو[٢]. ويعود اهتمام البريطانيين بمنطقة الشرق الأوسط وشمال الجزيرة العربية إلى عام ١٨٣٦م عندما قام الكولونيل الجغرافي المهندس «شيزني» بمسح وادي الفرات ودجلة، فأسفر المسح عن مجلدين من الوصف والخرائط لا يزالان باللغة الإنكليزية، وعندما قام الباحث البريطاني هنري ليارد عام ١٨٤١م بالتنقيب عن

---

(١) مقدمة الشيخ حمد الجاسر لكتابها المترجم «رحلة إلى نجد» ترجمة محمد أنعم طالب، دار اليمامة، ط ٢، ١٩٧٨م.

(٢) نساء على دروب تدمر، د. عدنان البني.

الآثار في منطقة الجزيرة الفراتية، كتب عن واحدة من القبائل الكبيرة في المنطقة ألا وهي قبيلة الجبور من بني زبيد.

تركت الليدي بلنت وزوجها لندن عام ١٨٧٧م عن طريق البحر إلى المغرب العربي، ومنه إلى ميناء الإسكندرون على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ومن الإسكندرون انطلقا في قافلة يقودها الحاج محمود الحلبي إلى مدينة حلب السورية، حيث أقاما شهراً في ضيافة القنصل البريطاني في المدينة السيد «سكين». ويُعدّ هذا القنصل الأب الروحي والمناصر لرحلات أبناء بريطانيا في بلاد الشرق، ومنه تعلما الظروف التي تمر بها المنطقة، وأحوال الطرق، وكيفية التعامل مع البدو، وسماع قصص البادية العربية، والتذكير بأشهر الفرسان فيها أمثال الشيخ أحمد الموالي، والشيخ جدعان ابن مهيد، والشيخ عبدالكريم الجربا وغيرهم. كما قاما بشراء كل ما يلزم للرحلة على طول الفرات من الرقة إلى دير الزور برفقة الحاج محمود الحلبي والخادم الطباخ حنا الحلبي مع مجموعة من الحراسة ورجال الدرك العثماني. وبوصولهما إلى الفرات تحقق أول أهداف الرحلة، فالفرات نهر جميل كانت تقوم على ضفافه غابات الحور والطرفاء المليئة بالسباع والنمور والطيور. وصلا إلى دير الزور في الفرات الأوسط فنزلا دار الحكومة بضيافة حسين باشا الذي حاول تعطيل الرحلة ومنعهما من رؤية بدو عنزة في بادية الشام «وبعد مشادة ومماحكة انطلقا إلى بغداد وحلا ضيفين على الباشا التركي وتعرفا على أحمد آغا من أمراء المسلمين في الهند الذي كان يعيش منفياً في بغداد.. وبمساعدته تمكنا من التسلل إلى بدو شمر في شمال الجزيرة الفراتية، فنزلا ضيفين عند الشيخ فارس الصفوق الجربا ثم عادا ثانية إلى الدير حيث تملكهما الخوف من غضب الحكومة العثمانية التي

كانت تشكك بالنوايا، ولم يطل بهما المقام هناك حتى أرسلهما الباشا ضمن فريق من الحراس ويقودهم دليل تدمري هو محمد بن عبدالله العروج من بني لام من قبيلة طيء، والوجهة كانت تدمر ومن ثم إلى دمشق. وبعد زيارة تدمر تحققت الأماني بهروبهما ثانية إلى البدو جنوب تدمر واللقاء بالشيخ جدعان ابن مهيد أمير قبيلة الفدعان من عنزة، وهناك تجولا في مضارب قبيلة السبعة والفدعان وولد علي، والرولة في المنطقة الواقعة جنوب تدمر باتجاه الغرب حتى مشارف دمشق، فكانت فرصة ثمينة لدراسة أحوال البدو، وخيول البادية وسياسة الحرب بين القبائل.

وفي العام التالي ١٨٧٩م كانت الليدي بصحبة أخيها الجديد محمد عبدالله العروج في طريقها مع زوجها والقافلة إلى مدينة حائل في شمال نجد، لقد أحبت الصحراء واعتبرت أن الحرية في العالم لا تمثل إلا في البادية بعيداً عن الباشوات واللوردات وشرطة الحكومة: «ها نحن في الصراء. صحرائنا.. إننا نشعر هنا بالألفة التي لا نحس بها ولا نجدها في المدن» ومما جعل الرحلة ناجحة نوعية الدليل الذي رافقها فهو من قبيلة بني لام المعروفة في الصحراء، ومن شيوخ تدمر، فعندما شاهدت محمد العبدالله مع عمه حسن في دير الزور بدا كلاهما بملبس حسن ولكن محمداً كان وسيماً عملاق القامة، مما يوحي بثقة كبيرة، ويمتطي فرساً أصيلة من سلالة شويما سباح، ورمحه بطول خمسة عشر قدماً، لقد تدخل محمد لإنقاذ قافلة الليدي بلنت من غزو بدو شمر، ومن غزو الرفدي من العمارات، ومن غزو ابن ضباع من بدو الرولة. انتهت الرحلة بتآخي محمد العبدالله مع ولفرد بلنت وزوجته، وللتآخي مع البدوي قصص طريفة حيث يقف

المتآخيان وسط حشد من الناس وجهاً لوجه، ويمسك كل منهما صاحبه من حزامه ويرفعان اليمنى ويرددان قسم الولاء:

«والله.. والله.. إخوان.. إخوان طول الزمان.. والذي يخون يخون بيه الله» وبعد القسم لا يجوز للأخ أن يأكل مال أخيه إلا بإذنه، وأن لا يناصر عليه أحداً، وأن يهب لنجدته حيثما كان، وكم كان صك التآخي مع شيوخ القبائل منقذاً لكثير من الرحالة في أحرج المواقف في البادية. ولم يأخذ محمد العبدالله شيئاً من أخويه سوى هدية متواضعة هي البندقية ذات الطلقات الأربع عشرة.

كانت الليدي آن بلنت تحب زوجها ولفرد بلنت حباً جنونياً، وأخلصت له مدة ثلاثين عاماً، وقد صورت هذا الحب على لسان قبّرة من قبرات الصحراء، ومن قبل كان بلزاك يصف الليدي دغبي بعصفورة الصحراء. فلماذا قبرة الصحراء؟! قبرة الصحراء المعروفة بأم سالم[1] وصفها أكثر من رحالة في ديار العرب، فهي تهزج للذكور وتغني في الربيع بصفير شجي، وإذا ما اقترنت بالذكر تقوم باستعراضات زفافية رائعة حتى أصبحت عند الأوروبيين رمزاً للحب والعواطف الجياشة.

سمعت الليدي بلنت أم سالم تغرد في صحراء تدمر في أبريل من عام ١٨٧٨م، فقالت: سمعنا لأول مرة صفيراً عذباً شجياً لقبرة صحراوية، الطائر الذي يهزج بأغنية غريبة مدهشة، فتساءلت ألا يوجد مسافر فطن ذو خيال فكر في لحظة رومانسية بأن هذه القبرة

---

(١) أم سالم Alaemon Alaudipes واسمها الإنكليزي Hoopoe Lark أي القبرة الهدهدية، قبرة صحراوية تغرد في الربيع، من العائلة القبرية Alaudidae، رتبة العصافير، وتسمى المكاء عند العرب، وهي من الطيور المستوطنة في الصحراء العربية.

تستحق الإصغاء إليها؟! إنها طائر رمادي بصدر مبرقش يقف عادة على القمم، ويقوم بين حين وآخر بطيران قصير ماداً الريش الخفيف في جناحيه، ثم يضمهما فجأة ويهوي إلى مجثم جديد وكلما قامت بهذا العمل تؤدي لحناً شجياً يمس شغاف القلب... إن طبيعة اللحن تشبه صوت الإنسان، وقدرنا أن يكون هذا الغناء صادراً عن قبرة تحن به إلى قرينها كما هي العادة عندالطيور التي تعيش بشكل أزواج، حيث يغني أحدهما للآخر في مطلع هذا الفصل ويبثه أشواقه وأشجانه، وقد أوحت لي مقطوعة لحنها بلحن حداء في لحظة معينة كان يغنيه أحد سائقي الإبل في القافلة[1]:

أيها الحب . . أيها الحب ، عبثاً ما كنا نعده من أيام الربيع

فكل عذاب الحب قد ضاع

وضاعت معه الأغاني الحلوة

كسحابة صيف . . أو إشراقة شمس . . شتاء

يتلوه الربيع ، وسنوات تذهب وأخرى . . تعود

بينما نحن نغني ونموت!

حب جذوته الشمس يتحول إلى عاصفة هوجاء

ويبدأ الحلم الجميل . . نلهو . . نحب تتعانق الأرواح

وتتحد

عندها سوف نغني للشمس . . . نغني لنتناسى الخلود

ومن بعد كل هذا نموت؟!

---

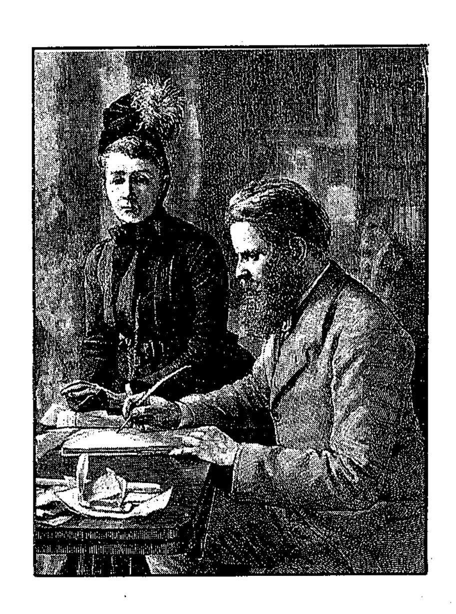
(١) القصيدة التي قالتها الليدي بلنت على لسان القبرة، عبرت فيها عن حبها العنيف لولفرد بلنت كحب قبرة الصحراء لقرينها، وقد كتبت للقصيدة «نوتة» موسيقية في كتاب قبائل بدو الفرات الذي ترجمناه ص ٣٢٩ – ٣٣٠.



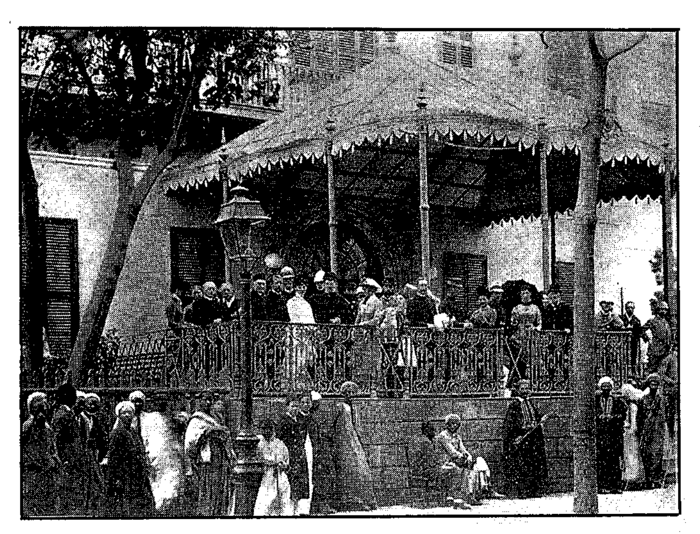
أم سالم أو القبرة الهدهدية Hoopoe Lark عصفورة جميلة حسنة الصوت في البادية العربية

انتقلت الليدي بلنت بعد الترحال إلى مصر مع زوجها لتؤسس مزرعة للخيول العربية في منطقة الشيخ عبيد في القاهرة ومزرعة أخرى في لندن، ولا أدري بدقة ماذا حدث بعد ذلك إذ أن جذوة الحب بين الزوجين قد خمدت وتم الطلاق بينهما فجأة بعد ثلاثين سنة من الحب العنيف.. فأخذت تسلي نفسها بركوب الخيل العربية في القاهرة، وتشرف على تربيتها، وفي ١٥ كانون الأول عام ١٩١٧م بلغت الليدي آن بلنت الثمانين من العمر.. أمضته كله في الترحال والسياسة والمغامرة، وفي هذا اليوم شعرت بالضعف والمرض، فنقلت إلى المستشفى «الأنغلو - أمريكاني» حيث ماتت ودفنت في مصر أحب ديار العرب إليها، ولم يمض وقت طويل حتى توفي ولفرد بلنت بعيداً عنها عام ١٩٢٢م فورثتهما ابنتهما البارونة ونتورث وحفيدتاهما الصغيرتان ابنتا ونتورث.

وفي الصفحات التالية مواقف وأحداث مختارة من كلا الكتابين: «قبائل بدو الفرات»، و«حج إلى نجد» أو رحلة إلى نجد للأديبة الشاعرة زوجة الأديب الرحالة الشاعر ولفرد بلنت.



الشاعر الرحالة ولفرد بلنت Wilfrid Blunt
وزوجته الأديبة الرحالة الليدي آن بلنت
Anne Blunt
عام ١٨٨٨ م
كان ولفرد من أبرز المنتقدين لسياسة البريطانيين في مصر في ذلك الوقت.



الشرفة المربعة لأقدم بناء فندقي في القاهرة عام ١٨٩٠م شيبرد هوتيل "Shepheard's Hotel" كانت معروفة لدى جميع الرحالة والزوار الذين يتجمعون فيها في المساء وسط القاهرة(١)

(١) الصورتان والمعلومة عن كتاب: The British in EGYPT by Peter Mansfield London. 1971



الليدي ونتورث ابنة الليدي آن بلنت ورثت مرابط الخيول العربية من والدتها عام ١٩١٧م.. قامت بتصفية المزرعة في مصر، وأبقت على الخيول العربية في لندن، وباعت أجمل الخيول العربية لمشاهير الرجال في أوروبا والوطن العربي.

زارت السعودية عام ١٩٢٤م وبقيت كوالدتها تحن إلى الشرق، وتتابع تطور تقاليد الفروسية في الوطن العربي، وتقرأ شعر الفرسان العرب كعنترة وامرئ القيس حتى ماتت عن عمر يناهز الثمانين عام ١٩٥٧م، ولا يزال المربط قائماً في بريطانيا حتى اليوم(١).

---

(١) انظر كتاب الخيول العربية في مذكرات السياح والرحالة. أسعد الفارس «تحت الطباعة».





المرأة العربية زوجة وفية.. عاقلة مدبرة.. وتتقن المهن والمهارات الخاصة بالمنزل.. تماماً كما تفعل النساء في الريف الإنكليزي.

●● الليدي آن بلنت.

أولاً - ملخص الأحداث في الرحلة الشمالية :

في غمرة الاستعداد للرحلة واجهت الليدي بلنت وزوجها ولفرد مجموعة من التحديات منها: قلة المعلومات الجغرافية المتوفرة عن المنطقة إلا ما يتوفر لدى الجمعية الجغرافية الملكية من خرائط ومخططات المسح الذي قام به الكولونيل شيزني لوادي الفرات عام ١٨٣٦م، والنية كانت الوصول إلى الفرات أو الدجلة، والإبحار على ظهر طوافة من الخشب يسافر عليها الناس وأرجلهم مدلاة في الماء. ومن التحديات الأخرى كون الطرق العامة في بلاد الشام محفوفة بالمخاطر بسبب عصابات الجنود الفارين من جبهات القتال بين السلطان العثماني وقيصر روسيا.. كل هذه الهواجس كانت تراودها وهما يبحران في السفينة في الطريق إلى ميناء الاسكندرون، كما أن مدينة حلب ينتشر فيها وباء حبة حلب التي تدوم سنة وتترك حفراً في الوجه، ولم تتوقف سلسلة المخاوف إلا بوصولها إلى ميناء الإسكندرون على الطرف الشمالي من البحر الأبيض المتوسط، وهناك تم التعرف على نائب القنصل البريطاني وعلى الحاج محمود صاحب القافلة التي أعدت لتقلهم إلى حلب مقابل أربعمائة قرش عثماني.

كان على القافلة أن تمر بممر بيلان الجبلي، ولما تسلقت الممر هبت عاصفة هوجاء كادت أن تطيح بالمسافرين أرضاً من ظهور المطايا، ولما انحدرت باتجاه السهل سارت فوق صخور زلقة وأرض موحلة جعلت فرس الليدي بلنت تركع على ركبتيها أكثر من مرة، وهي من البرد كانت أشبه بتمثال حي على ظهر فرس، في موجة من البرد القارس التي جمدت الأطراف إلى درجة انعدام الحس، ولكن المساء حل بهم في بلدة خان طومان عند مشارف حلب. وبدلاً من النوم في محطة المسافرين استضافهم فلاح صديق للحاج محمود في بيته المبني بالحجارة، فدهشت لنظافة هذا البيت وصاحبته حيث استقبلتها امرأة عربية أنيقة

تدعى أدوبة، تسامرت معها على نار كانون فيه جمر بعد أن فُرشت الأمتعة، وإذ بالليدي بلنت تجد نفسها وجهاً لوجه مع امرأة شرقية لأول مرة تغزل قطنها على دولاب من الخشب كان يطن طوال الليل وتهدهد ولدها الصغير أحمد.. وتدلله باسم أحمد بك، وكأنها تطلب من كل المقيمين في الدار وحتى الزوار السهر على راحة أحمد.

وما إن وصلت القافلة مدينة حلب حتى استقبلهم القنصل البريطاني هناك، وأسكنهم في دار القنصلية المطلة على نهر قويق، وفي حلب حظيا بالراحة الجسمية والمأوى والتسلية الذهنية التي تمثلت في معرفة المزيد من الأرض التي تمتد أمام الرحالين، فالقنصل كان في الستين من عمره، وله خبرة ثلاثين عاماً بالحياة الشرقية.. فالسيد سكين جعلهما يهتمان بالبادية وساكنيها من القبائل، وعرفا لأول مرة حالة الطرق المؤدية إلى دجلة والفرات، لأن القنصل سكين هو نفسه كان من الرحالة المغامرين الشجعان، وله بين شيوخ القبائل أكثر من صديق وخصوصاً بدو الفدعان وشيخهم جدعان ابن مهيد. فالشيخ جدعان كان ثائراً على الحكومة العثمانية وقد خذل عسكر الحكومة العثمانية في أكثر من موقعة، ومن قبل كان يعرف أمير الموالي أحمد بك الذي يُعد أشهر فارس في بلاد الشام ومتهوراً إلى درجة الجنون فقتل في حرب من الحروب القبلية، ويماثله في الجزيرة الفراتية الشيخ عبدالكريم الجربا، الذي قتله العثمانيون عند جسر الموصل، وله قصة حب طريفة في البادية، وأخبار كرمه كانت مضرب الأمثال[1]. وفي مدينة حلب زارا القلعة ومقر الوالي والسجن المركزي، فدهش الجميع لكون هذا السجن يعد أفضل سجن في العالم من حيث العناية بالسجين وحفظ كرامته.. ومن أشهر رواده السجين كرو الكردي قاطع الطريق أو اللص الظريف.. وفي سوق الخيل بمدينة

---

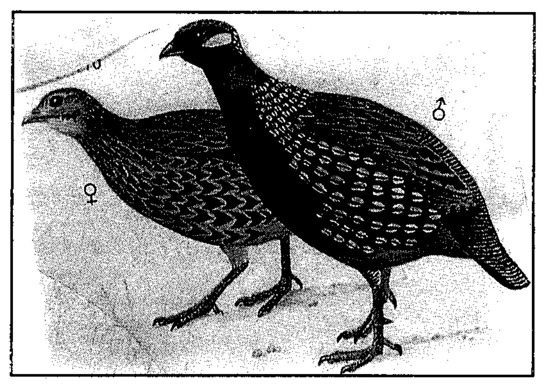
(١) مثلت قصة هذا الرجل الكريم بفيلم تلفزيوني فيما بعد.

حلب قامت الليدي بشراء فرس أصيلة من سلالة كحيلان اسمها هاجر، حملتها وزوجها في البراري حتى انتهاء الرحلة، ولم تكل ولم تمل تطارد الثعالب والغزلان.. وتلحق بالذئاب بسرعة البرق.

وعندما قررت الانطلاق أعدَّ لها يهوديان من حلب خيمة فارهة، فجاء الحاج محمود نفسه لينقلها وزوجها إلى دير الزور في الفرات الأوسط، ولم يكونا وحيدين هذه المرة بل اصطحبتهما كوكبة من الحراسة العثمانية بقيادة الرقيب سليمان ورافقهم القنصل، وأصبحت القافلة عامرة بالطباخين والخدم وعلى رأسهم الطباخ حنا الحلبي.

في مطلع كانون الثاني من عام ١٨٧٨م وصلا الفرات عند مشارف مدينة الرقة السورية، فوجدوا النهر يحفر سريراً عريضاً في البادية، ويترك على جانبيه جرفاً غضارية كلسية تتدلى بانحدار شديد في بعض الجوانب، ويتلوى النهر حتى يغيب في الأفق تحيط به غابات الحور والطرفاء، وتسكنه الأسود والنمور والخنازير البرية ومختلف أنواع الطيور، ومنها طائر الدراج النادر بلحمه اللذيذ ولونه المبرقش البديع، فقالت فيه شعراً منه:

لو لم يكن للدراج فخذ دجاجة لكان
أجمل طائر بجناحية قد طار



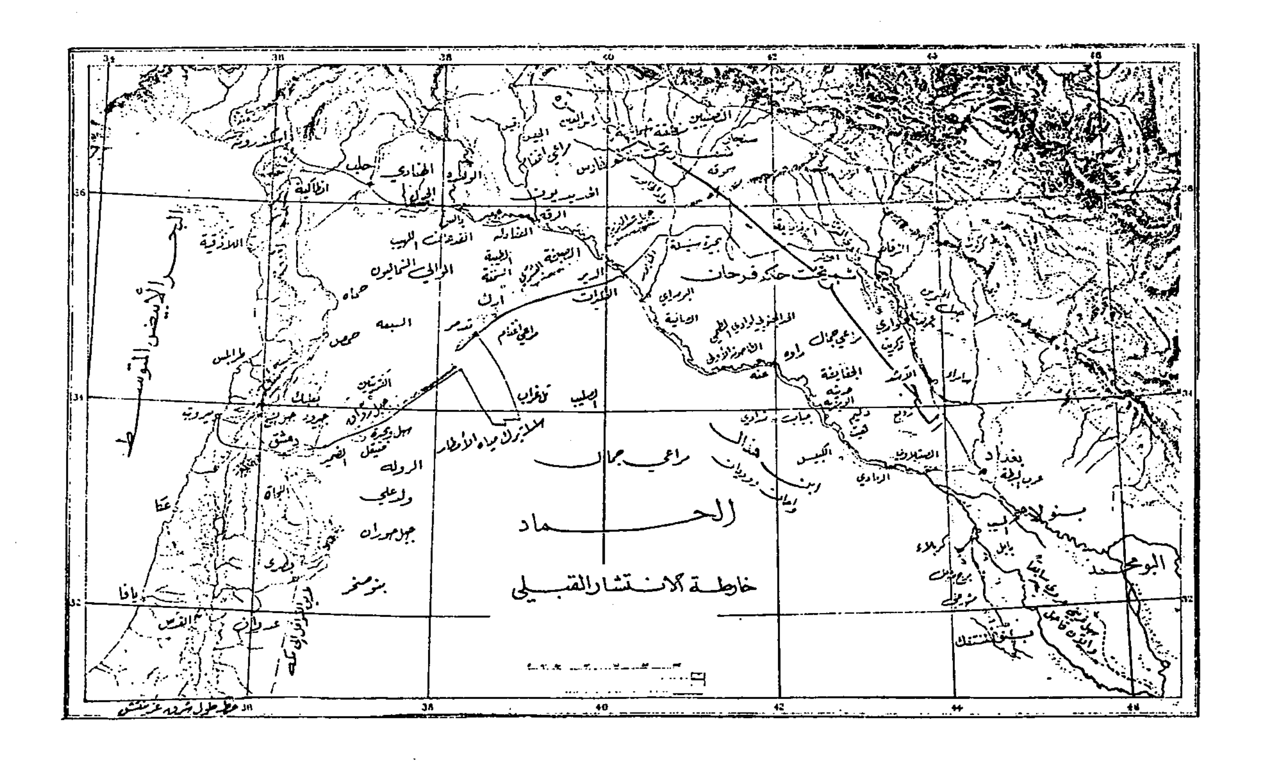
الدراج الفراتي الذي أعجبت به الليدي بلنت (الدجاجة، ♀ : الذكر.. ♂) صنفته الليدي من الدجاجيات واعتبرته من الطيور الجميلة في العالم. كما صنفته المصادر العلمية الحديثة تحت اسم الحجل الأسود واسمه العلمي فرانكولين Francoline Francoline من رتبة الطيور الدجاجية.

وفي الغابات المحيطة بقلعة جعبر يقيم بدو العفادلة[1] وهم من أمهر الرجال في صيد الأسود، وأسود الفرات قد انقرضت ولكن الليدي بلنت شاهدتها ووصفتها، فالأسد فيها يخلو من اللبدة المحيطة بالرأس، ويهاجم البشر تماماً كما تفعل النمور الهندية وخصوصاً عندما تتذوق لحم البشر، وروي لهم أن بدوياً من عنزة اسمه فوزان افترسه الأسد قبل أيام من وصول القافلة إلى منطقة الرقة.. قالت: «إن العفادلة كانوا كلما سمعوا بوجود أسد ذهبوا لمحاصرته مصطحبين قطيعاً من الجاموس، فإذا ما جرحوه ببنادق الفتيل أطلقوا عليه الجواميس لتطؤه بأرجلها حتى الموت، ومما يشجع على ذلك المكافأة التي خصصتها الحكومة العثمانية ومقدارها ثلاثة جنيهات لكل جلد أسد يتم إحضاره إلى دير الزور، وكم من مرة حصل السكان على هذه المكافأة في هذا المكان بالذات. فمنذ أسبوعين قتلوا أسدين في وقت واحد عندما وجدوا بقرة افترسها الأسد... فكمن رجل في حفرة قرب جثة البقرة، وجلس ينتظر قدوم الأسد ليلاً، وعند الفجر ذهب الناس لتفقد الرجل، فوجدوا الأسد عند الفريسة والرجل مشدوهاً في حفرته» قتلوا الأسد وهموا بسلخ جلده فهاجمتهم لبوة تزأر فقتلوها كذلك.

وبعد مسيرة أيام وصلت القافلة إلى دير الزور فاستقبلهم أهل الدير برفقة الباشا حسين الحلبي استقبالاً حافلاً، وأقسم الباشا عليهما أن يقيما في دار الحكومة، وبهذه المهارة من المجاملة منع الناس من الوصول إليهما إلا بإذن مسبق من الحكومة.. بل وحاول تعطيل المهمة من الترحال حتى دفعهما في النهاية بالسفر إلى بغداد في قافلة جديدة دون التوغل في البادية. وعندما طلبت الليدي من الباشا

---

(١) العفادلة من قبيلة الولدة من زبيد.



خارطة الانتشار القبلي في العراق والجزيرة وبلاد الشام

معربة عن كتاب قبائل بدو الفرات لليدي آن بلنت

التـجوال في شـوارع دير الزور، أذن لـهـا شـريطة أن تسـيـرراكـبـة.. فـانطلقت بـفرسـهـا في الشـوارع التي تكثـر على جـوانبـهـا حـفـر مـيـاه المـجاري فسـقطت في واحـدة كانت مـهجـورة ومـغطاة بأعـواد الشـجـر، فـهـب الناس لإخـراجـهـا من بين الردم ومن ثم إخـراج الفـرس التي حشرت لساعتين في الحفرة.

أسف الباشـا للحـادث وودعـهـمـا على مـشـارف دير الزور باتجـاه بغداد، فـمرا بهيت والرمـادي على الفرات وعبرت القافلة إلى الجزيرة حـيث تقيم عـاصـمـة الخـلافـة العـبـاسـيـة على نـهـر الدجلة، وفي مـدينة الرمـادي اتصـلا عن طريق البـريد الذي فـيـه تلغراف بأوروبا، وعـرفـا مـجـريات الأمـور في بلدهمـا لأول مـرة منذ أكـثـر من شـهـرين! وقـد تأسفت في بغداد لمصير هذه العاصمة التاريخية، حيث الأبنية الأثرية متـهـدمـة، وتتناثر أكـوام النفـايات التي تجـوبهـا في الليل الكلاب، وبنات آوى ، فـيبدو أن هذه العاصـمـة قد تجاوزت أيام شـبـابهـا وهـا هي تذبل داخل أسـوارهـا كـبندقـة ذبلت داخل قـشـرتـهـا.. وهنـاك أقـامت في دار المندوب السـامي المبنية على الطراز الأوروبي العـامـرة بمـا لذ وطاب على الرغـم من المـجـاعـة وظروف المـعـيشـة الصـعـبـة لعـمـوم السكان، وبعض الأوبئة وانتشـار مرض الطاعون الذي يروى أنه كـان مـتـفشـيـاً حوالي عام ١٧٧٤م.

لقد حظيا برعاية الدبلومـاسـي البريطاني الطبيب «كولفيل» وزارهما موفد الباشـا فدعيا إلى وليمة أقامـهـا أحمد آغا الأمير الهندي الذي كان يقيم فـي منفاه ببـغـداد، وشـاهدا لأول مـرة السـيـدة «البيجـوم» زوجـتـه وعادا من الزيارة بهدايا ثمينة وبود وصداقة دامت زمناً طويلاً. ويعـود الفضل لهذا الأمـيـر في ترتيب رحلة هذين البـريطانيين برفـقـة أدلاء من

البدو إلى شمر في الجزيرة الفراتية ديار فرحان بن صفوق الجربا وأخيه فارس.. دون علم حراس الحكومة العثمانية.. لقد كانت العملية أشبه بالهروب مما سبب لهما المتاعب فيما بعد، وكادت الحكومة العثمانية أن تقبض عليهما وتحاكمهما بتهمة التجسس.

في الرابع عشر من آذار عام ١٨٧٨م كانت الليدي بلنت وزوجها وعموم من في القافلة يحطون الرحال في مضافة فارس بن صفوق الجربا في الشدادي على نهر الخابور، فلا داعي للقلق لأن فارس الصفوق شاب شهم استقبلهما بحفاوة ومما وصفته الليدي: «وصلنا إلى خيمة كبيرة عند منعطف الوادي تقوم على سبعة أعمدة، عرفنا حجمها أنها لا بد وأن تكون خيمة الشيخ.. فركبنا إليها دون إعلان مسبق، وبدأنا نشعر لأول مرة بقلق عن طبيعة الاستقبال الذي يمكن أن يستقبلنا به الرجل الذي جئنا من ديار نائية لنراه ولكن لا داعي للقلق، فالقوم شاهدونا وتسابق الخدم لاستقبالنا.. أقبل الشاب فارس طلق المحيا وسيم التقاسيم من الخيمة الداخلية، وحيانا بابتسامة كانت تنطوي على شرف كبير ونية طيبة، وشعرنا في الحال أننا في أمان بين يديه».

كان فارس على خلاف مع أخيه فرحان، وهو يرعى أيتام الجربا الذين قتل العثمانيون آباءهم، ومنهم أولاد عبدالكريم الجربا بمساعدة والدته العجوز عمشة الحسين من قبيلة طيء.. هذه المرأة النبيلة التي كانت أجمل فتاة في بادية الجزيرة، وقد قابلها هنري ليارد عام ١٨٤٠م عندما كانت شابة، وهي أم مجموعة من آل الجربا لا زالوا يسمون بالعمشات.

تآخى ولفرد والليدي مع فارس وبعد أسبوعين ودعهم وهم يعودون إلى دير الزور لتصادفهم متاعب الباشا حسين والمخاطرة بالموت الذي نجوا منه بأعجوبة. أرسلهم الباشا تحت الحراسة إلى مدينة تدمر بمرافقة محمد العبدالله العروج من بني لام ومن هناك تسنى لهم مقابلة السبعة والفدعان بقيادة جدعان ابن مهيد جنوب تدمر، كما حضروا حرباً بين الرولة والفدعان، وقادة الحرب كانوا من جماعة سطام بن شعلان أمير الرولة من عنزة، كما قابلت محمد بن سمير أمير ولد علي عند مشارف دمشق. وفي دمشق سرحت الليدي المرافقين وباعت الخيل والإبل وتفرق الجمع للراحة واستعداداً للرحلة الجنوبية عام ١٨٧٩م.



الليدي آن بلنت بجانب فرسها الكميت من سلالة كحيلان وكانت هذه الفرس من أحب الخيول إليها. رسم للخطاط مولوني.

ثانياً - مواقف وأحداث من الرحلة الجنوبية :

في نهاية كانون الأول من عام ١٨٧٩م كانت الليدي آن بلنت وزوجها على موعد مع أخيهما البدوي التدمري محمد العبدالله العروج ليقود القافلة من دمشق إلى شمال الجزيرة العربية مروراً بوادي السرحان، والجوف حتى مدينة حائل معقل الأمير محمد بن عبدالله آل رشيد، وقد جمعت مشاهدات الرحلة في كتاب جميل بعنوان: «رحلة إلى نجد» فيه مشاهدات حية ووصف صادق جميل وطرائف من أدب الترحال لا يضاهيها سوى كتاب «قبائل بدو الفرات» الذي وضعته لوصف أحداث رحلتها الشمالية.

ويبدو أن الطريق التي سارت بها هي الطريق نفسها التي سلكها بالجريف عام ١٨٦٢م وشتان ما بين ادعاء بالجريف وما شاهدته الليدي بلنت ووصفته من حيث الصدق والموضوعية، ولهذا صنفت الرحالة بلنت في سجل الرحالة الشجعان في بلاد العرب، إذ لم يثنها الخوف من الغزاة في البادية عن المضي قدماً في تحقيق أهداف الرحلة، وقد وقعت فعلاً في كمين نصبه لها في الطريق ابن ضباع من بدو الرولة ففي مطلع كانون الثاني عام ١٨٨٠م كانت القافلة تسير في الطريق إلى الجوف، ولأول مرة تقترب القافلة وتخيم بالقرب من الآبار التي كانت تروي المسافرين في الطريق، فبعد ارتواء الرواحل من الماء وملء القرب انعطفت القافلة نحو الشرق يقودها ابن عروج بحراسة بعض رجاله وسلاحهم بأيديهم، فسارت في كثبان رملية تتناثر فوقها شجيرات الغضا هنا وهناك، ولعل انبساط الأرض، وتوفر الطرائد أغرت الليدي وولفر بالابتعاد عن القافلة باتجاه الأمام، فأووا إلى ظل شجرة توقفا عندها وربطا الخيل في جذعها وجلسا لتناول لقيمات من الطعام، بينما أخذت الكلاب السلوقية تمرح

حولهما.. ولم تعد تدري الليدي بلنت ماذا حدث: ضجة ووقع خيل تعدو باتجاههم.. فصاح ولفر هذا غزو هيا نركب! فزحفت الليدي بين الأشجار باتجاه الخيل المربوطة وإذ بالفرسان يشرعون الرماح ويندفعون بأقصى سرعة، وعندما وصلوا إلى بعد مئة ياردة ركب ولفرد بينما عجزت الليدي بلنت عن الركوب لقد كانت تعاني من آلام ركبة مرضوضة، وغاصت قدماها في الرمل ولما حاولت الركوب سقطت، فكان الغزو فوقهم فصرعوها بضربة، وأحاطوا بولفرد حيث أمسكوا بعنان فرسه، فتفقد البندقية فوجدها غير محشوة بالرصاص، بينما بندقية القتال كانت على الراحلة في القافلة، وانهال الضرب عليه من كل جانب، ولعل الثياب التحتية هي التي حالت بين رؤوس الرماح وجلده، فتناولوا بندقيته وكسروها فوق رأسه، فبدت المقاومة عديمة الجدوى، فصاحت الليدي: «أنا دخيلكم أنا في حمايتكم» بينما ولفرد يجتمع عليه اثنا عشر فارساً ولهذا رمى نفسه أرضاً واستسلم، ومضت لحظات لالتقاط الأنفاس ثم بدأ الاستجواب: من أنتم؟ من أين جئتم، فأجابوا نحن من الإنكليز الرحالة. جئنا من دمشق، وقافلتنا قادمة، ورويدكم لتسمعوا ما تريدون، بينما توقف محمد بن عروج عن بعد ورتب الإبل على شكل مربع واتخذ وضعاً دفاعياً يصعب على المهاجمين اختراقه خصوصاً وأنه يتسلح بأفضل بندقية. اقتادوا الليدي وزوجها باتجاه القافلة، فخرج إليهم محمد العبدالله العروج لمقابلة قائد الغزو فتبين له أنهم من الرولة والعقيد هو ابن ضباع.. والله، وقالوا من أنت؟ فقال محمد بن عروج من أصدقاء ابن شعلان أمير الرولة وسطام بن شعلان كان قد منحهم حمايته في العام الماضي.

قام ابن ضباع بإعادة كل ما سلب منهما: الخيل والبنادق وحتى

كيس الدخان، بينما تحسر بعض الرجال لأن الخيل والبنادق كانت كسباً لا يعوض.. واعتذر لليدي بلنت بشدة كونهم قد ضربوا امرأة فليس من الشيمة العربية ضرب امرأة ولكن ثيابها كانت توحي بأنها رجل.

تركت القافلة تسير في طريقها إلى الجوف، فعبرت الليدي عن شعورها بعد الحادثة بهذه الملاحظات: «بالرغم من خشونة التعامل في البدء، ولكن وجدنا فيهم رجالاً من أنبل الرجال.. لقد شعروا بالعار لأنهم استخدموا حرابهم ضدي كامرأة.. فالثياب التي كنت ألبسها أوحت إليهم بأني رجل، لقد تبودلت الاعتذارات والتحيات وهكذا ودعنا ابن ضباع وتركنا نذهب. ذهب الرولة الغزاة، فقمنا بإحصاء ما لحق بنا: جروح ولفرد كانت رضوضاً فقط، فالرماح لم تخترق ملابسه الكثيفة بشكل كاف، واللفافة التي كانت على رأسه تلقت وصدت كل الضربات، وبالرغم من أن خشب البندقية قد تكسر فوق رأسه إلا أن رأسه كان سليماً والحمد لله. أما أنا فلا جديد في حالتي قبل الغزو سوى زيادة في الالتواء.. أما رفيقنا محمد العروج فكان مطأطئ الرأس، بسبب عدم قيامه بالحماية، وبالرغم من أنه تحصن بالقافلة، إلا أن مثله الأعلى في الفروسية لم يتحقق هذه المرة، ويبدو أن نذراً كثيرة قد نذرت من قبل رفاقنا، ولهذا سوف تكون عندنا وليمة في الجوف من أجل السلامة عندما نصل هناك».

استقبلهم في الجوف الشيخ محسن بن درة من الأسر النبيلة، ولكنه الآن من رعايا ابن رشيد، فشربا القهوة في بيته وتناولا الحلوى المعروفة في الجوف والتمر الجيد، فأهل الجوف يكادون يعيشون على التمر، وهو بأصناف عديدة تماثل أصناف التفاح المتعددة في أوروبا، وفي الجوف صناعات ناشطة، مثل صناعة الأحزمة وعباءات الصوف، ومما يزيد المنطقة جمالاً القلعة المبنية من الحجر والتي يرجح أنها تعود

لعهد العصور الوسطى، أما عن مناخ الجوف فالضباب في الصباح والرعد والبرق عند هطول المطر طوال الشتاء.

وقبل أن تغادر الليدي الجوف عرفت لأول مرة تقاليد الزواج والخطبة في ديار العرب، حيث قامت بدور الخاطبة لأخيها محمد بن عروج، ومن قبل عرفت بعضاً من الشخصيات النسائية في البادية العربية، فبعد أدوبة في خان طومان عرفت النساء العربيات في دير الزور، ورافقتها نساء محجبات لضابط عثماني في الطريق من دير الزور إلى بغداد، كن يركبن هودجاً على راحلة ويخفين أعينهن عن الرجال، ومن منطلق تفكيرها الغربي خمنت أن بين هؤلاء النسوة والضابط أزمة ثقة، وإلا كيف يُرْسلن مخفورات كدجاج في قفص ولمسافة آلاف الأميال؟! أما نساء البدو فعمشة الطائية أم فارس الجربا كانت المرأة العجوز المثالية التي عرفتها، فبعد أن قتل الأتراك ولدها عبدالكريم هربت بفارس والأطفال إلى نجد حتى اكتملت رجولة فارس، وعادت به إلى الجزيرة الفراتية؛ ليقود شمر من جديد، أما فصال خاتون زوجة فرحان الصفوق الجربا فقد زارت بيتها في الشرقاط ووصفت ما بداخله، وعلى الرغم من كونها كردية إلا أنها كانت بمظهر حسن وأخلاق عالية. والمرأة المجاملة الثانية من نساء شيوخ القبائل كانت خزنة أم تركي زوجة جدعان ابن مهيد.. امرأة كريمة تقوم بواجبات الضيافة، فدهشت لمحياها الجميل ولعاداتها الطيبة، فلم ترض أن تقابل الليدي إلا وهي بلباسها الرسمي: العباءة البغدادية الموشاة بالذهب والأرجوان؛ فبدت أنيقة من بين كل النساء البدويات. أما من حيث الثقافة وبعد الأفق فجوزة زوجة سطام ابن شعلان كانت من أوسع النساء البدويات ثقافة فبدلاً من الأسئلة التقليدية عن الزوج والأولاد كانت تسأل الليدي عن النساء البدويات اللاتي قابلتهن في

البادية وخصوصاً نساء شيوخ شمر هل هن جميلات ونظيفات؟ وما هي حالتهن العامة، وعن أهداف الرحلة، والناس الذين تجولت في ربوعهم؟!:

أما عن الخيول العربية فحدث ولا حرج عن خبرة الليدي بلنت بسلالاتها ومواصفاتها ولم تعجبها فرس كما أعجبتها الفرس العبية فرس بطين ابن مرشد من بدو السبعة، فالليدي موسوعة متحركة مختصة بالشؤون الاجتماعية والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ وحتى العلوم البيولوجية، ويطول بنا الحديث عندما نتابعها في كل ما كتبت في رحلتها الجنوبية، ولكن نلخص انطباعاتها عن الأمير محمد بن عبدالله آل رشيد أمير شمر في حائل:

لم تكن حائل مدينة مبهجة عن بعد ولا يظهر منها سوى السور والقلعة والنخيل، ولعل البناء الكبير الوحيد في مدخل المدينة هو قصر الأمير محمد، وبمجرد دخول المسافر إلى المدينة يُدهش لطريقة البناء في المدينة والشوارع النظيفة.

دخل الزوار قصر الأمير فاستقبلهم عشرون من الحرس، وأجلسوهم قاعة الاستقبال، فكتبت الليدي انطباعاتها عن الأمير: «قال خادم الأمير إنه قادم فنهضنا جميعاً لاستقباله، فبدا وهو على رأس جماعته في أناقة ملحوظة لم نشاهدها من قبل عند البدو. سلمنا عليه فأبدى سروره بقدومنا، إن كل شيء على ما يرام.. إننا نعرف تاريخ حياته، وملامحه تذكرنا بملامح «ريتشارد الثالث» فهو نحيل الجسم والوجنات كانت غائرة شاحبة والشفاه رقيقة، كان يعصره الألم الداخلي.. يتبسم، واللحية سوداء خفيفة وعيناه نافذتان كعيني الصقر يحولهما بكل اتجاه وخصوصاً في وجه من يجالسه، ويداه طويلتان لا

تكفان عن العبث بالمسبحة أو بأهداب عباءته.. ومع كل هذا بدا الأمير طويلاً متميزاً، وكل جزء من جسمه يعبر عن سلوك ينم أنه ملك».

دعا الأمير ضيوفه «ولفرد وآن» لحضور مجلس القضاء، فتدافع الحضور لتقديم العرائض، والأمير يختم ويقرر، ولم يكن أحد يناديه بغير اسمه «يا محمد» وكل قضية لم تستغرق عنده أكثر من ثلاث دقائق، وكل القضايا حلت خلال نصف ساعة.

أعد الأمير مقراً لهما بالقرب من القصر، وذهب للصلاة ثم عاد ودعاهما لرؤية البساتين والحدائق التي ازدهرت بالنخيل ومختلف أنواع الأشجار المثمرة، وفيها الوعول والغزلان والمها. ثم سار بهما إلى اسطبل الخيول، ثم سمح لهما بزيارة المطبخ حيث شاهدا سبع عشرة قدراً، كل قدر يتسع لثلاثة من الإبل، خصوصاً وأن ضيوف ابن رشيد في ذلك اليوم كانوا مئتين بالإضافة إلى حاشية القصر.

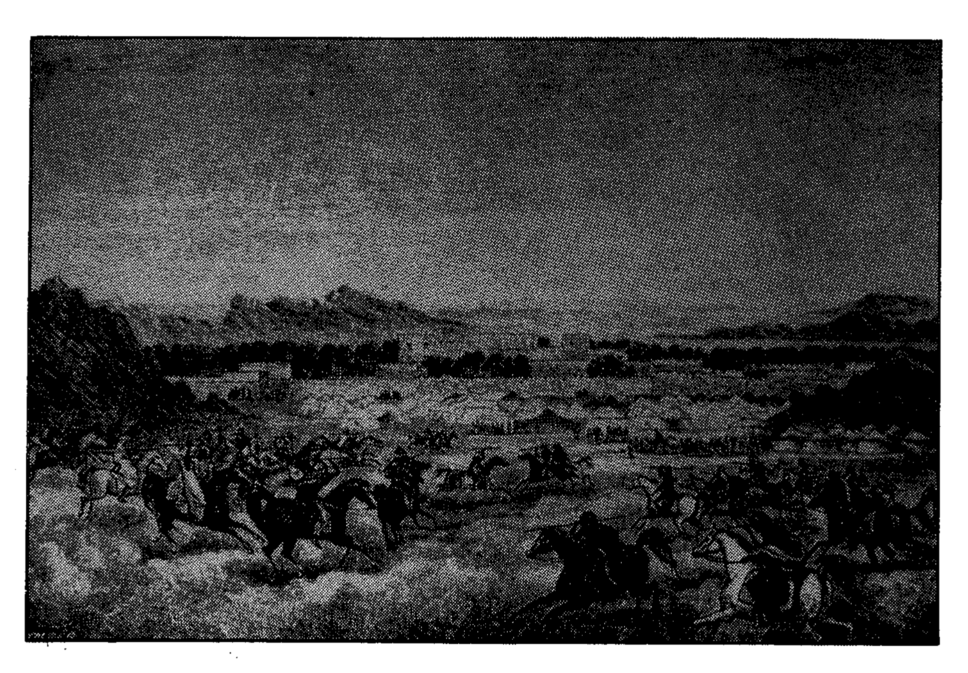
وفي المساء تسللت الليدي لزيارة نساء ابن رشيد فاستقبلتها عمشة بنت عبيد زوجة الأمير وابنة عمه، واشتركت معها في حديث شيق طويل، ولما دخل الأمير محمد مجلس النساء عجبت الليدي أن كل النساء وقفن عدا عمشة فهي ابنة عمه التي لا يعلو نسبه نسبها!.

وفي آخر يوم من أيام الزيارة دعي الضيفان لحضور العرضة بالخيل، والعرضة كانت معركة مصطنعة أو استعراض للقوة، فعلى بعد ميلين من غابة النخيل اندفع الأمير بفرسه، والتحم الجميع يطارد في معركة وهمية.. كان الأمير في البداية محافظاً على وقاره.. ولما رأى الخيل تجول في الميدان نسي هيبته وطباعه، فاندفع بين الجموع فسقط غطاء رأسه، فبدا حاسر الرأس، وجدائل شعره تتطاير في الهواء وهو حافي القدمين عاري الساقين، يطارد ويصيح، فعاد بدوياً

خالصاً لا يختلف عن أي واحد يطارده.

وما إن انتهت العرضة حتى دعي الجميع إلى سرادق في بستان، فتناولوا غداءً من اللحم والحلوى.. وأخيراً وجدت الليدي قافلة عائدة من الحج، فسارت معها برفقة زوجها إلى العراق باتجاه إيران.

وهنا نتوقف عن سرد المواقف والأحداث، فالحديث ذو شجون، وعبرة وطرافة تجعل الليدي آن بلنت وزوجها ولفرد بلنت في مرتبة الرحالة المتميزين الذين أثروا مكتبة الرحالة بروائع الكتب.

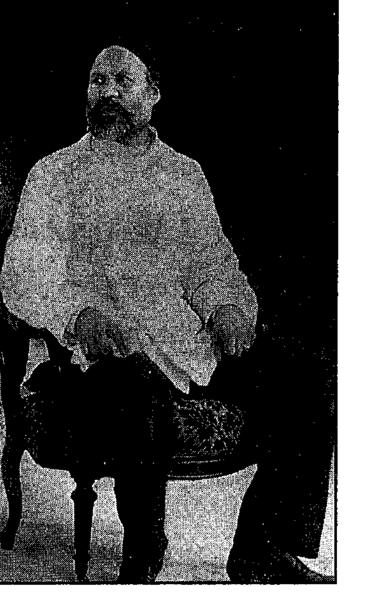


الفروسية والخيل في حائل... والمعركة كانت وهمية شاهدتها الليدي بلنت عام ١٨٧٩م.

ثالثاً - مشروع سكة حديد وادي الفرات :

كان الاقتصاديون في أوروبا يخططون لإقامة مشاريع كبيرة في الوطن العربي في القرتين الثاني عشرو التاسع عشر... ومن هذه المشاريع مد السكك الحديدية. ففي عام ١٧٤٢م طرح صاحب معمل ايرلندي مشروعاً طموحاً يمد بموجبه سكة حديد من كالية إلى استانبول ثم إلى كلكتا في الهند وحتى الصين، فسمى المشروع باسم«سكة حديد الأطلس» لوليام بين، وفي عام ١٨٤٣م عرض «الكسندر كابيل» مشروع سكة حديد «انكلترا - الهند» على شركة الهند الشرقية، فأعد للمشروع عدته ورسمت له الخرائط. وفي عام ١٨٤٩م عرض «جون رايت» مشروعاً آخر يمر بوادي الفرات، ولكن الدكتور ج. ب طومسون مات في استانبول عام ١٨٥١م وبموته قل الاهتمام بكل هذه المشاريع لأنه كان من المتحمسين للفكرة. وبعد ثلاث سنوات عاد الحديث عن مشروع سكة حديد الفرات كطريق يؤدي إلى الهند فقد جمع السيد «و. ب. اندرو» جماعة من المغامرين منهم: لنج، وشيزني، ومكنيل، فكونوا شركة تعد لتنفيذ مشروع سكة حديد البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، على أن تمر بسلوقية وانطاكية وحلب وقلعة جعبر على الفرات وهيت وبغداد ثم إلى القرنة والبصرة ومنها إلى منطقة كاظمة في الكويت على الخليج.. وقد ضربوا في تحقيق هذا المشروع على وتر الخوف من النفوذ الروسي في الشرق، والثروة العظيمة الكامنة في العراق، واستفادة حكومة تركيا وحكومة الهند من المشروع. والتوسع في التجارة مع الشرق الأقصى، وسهولة إنجاز المشروع من الوجهة الهندسية، وتوفر المواد الإنشائية في سورية. ففاز هذا المشروع بالتأييد الرسمي البريطاني بأمر من «بالمرستون، والسر سترانفور كايننغ» كما كانت الحكومة العثمانية

مستعدة لقبوله، ولكن جهود خمس عشرة سنة من الإعداد والتحضير ورسم الخرائط ذهبت سدى، حيث تبين عدم إمكانية جمع المال اللازم للتنفيذ؛ فترك المشروع كله بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م. وكان تقرير الليدي بلنت عن المشروع مثبطاً للهمة. إذ لم تكن مع فكرته، والتقرير هذا يقع في أحد ملاحق كتابها: «قبائل بدو الفرات» الذي ترجمناه، ونشر في دمشق. قالت بلنت: «اقترح عليَّ أن أقول كلمات تتعلق بمستقبل البلاد التي زرناها أو التي ذكرت في هذا الكتاب، وعلى الأخص فيما يتعلق بحصولنا على طريق بري نحو الهند، ومشروع الخط الحديدي المقترح بناؤه بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي. فليس من المستغرب أن يقوم خط حديدي في البادية، وكل شيء يمكن حدوثه في أيام الانتصارات الهندسية الرائعة في وقتنا الحاضر. ولكن هناك مجموعة من التحديات التي تواجه خطة التنفيذ والتي أخذت تواجه المشروع ذاته وإن لم يكن في البناء والتشييد فهي في كيفية العمل في مثل هذا الطريق! ويبدو أن الآمال في تحقيق المكاسب المالية من وراء هذا المشروع تعتبر الآن ضرباً من الوهم والخيال».



أحمد عرابي (١٨٤١ - ١٩١١م) ضابط مصري تزعم ثورة الجيش عام ١٨٨٢م للقضاء على النفوذ الأجنبي في البلاد.. وبعد فشل الثورة نفي إلى سيلان عام ١٩٠١ ثم عاد من المنفى بعد ١٩ عاماً... تعاطفت الليدي بلنت مع قضيته واعتبرته مع الشيخ محمد عبده من أفضل أصدقائها في مصر.

جرترود لوثيان بل

Gertrude Lowthian Bell

١٨٦٨ - ١٩٢٦م

يسمونها الخاتون أي سيدة البلاط... وقد وجدت في الآنسة بل موهبتين: لسانها وعقلها. إن مظهرها إنكليزي تماماً، وشعرها الفضي متناسق مع لون بشرتها.. إنها تملك ناصية الحديث بأيديها وتتحدث العربية دون لكنة تقريباً وتخلطها بشيء من الإنكليزية.. لقد أذهلتني طاقتها وسرعة الحركة لديها.

● **أمين الرحاني(١)**



الآنسة جرترود بل Gertrude Bell
كانت خبيرة بشؤون الشرق الأدنى . . . ساحت فيه وكتبت عنه، والصورة عن الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية

جرترود بل واحدة ممن لعبوا أدواراً هامة في العالم العربي، عندما كانت المنطقة العربية في مخاضها الكبير قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد سارت على خطى النساء الرحالات من قبلها: جين دغبي، ستانهوب، إيزابيل بورتن، آن بلنت، ولكنها تختلف عن كل هؤلاء النسوة بوضوح أهدافها السياسية التي تراوحت بين الجغرافيا والتاريخ والدراسات الشرقية، وبين الانتظام في سلك المخابرات وجمع المعلومات،

---

(١) أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠م). أديب لبناني مهاجر صنف بالعربية والإنكليزية، ومن كتبه: «ملوك العرب»، «وتاريخ نجد الحديث» وغيرها من الكتب.

فهي أول امرأة تعينها بريطانيا في منصب المعتمد السياسي، وأول امرأة تنال المرتبة الأولى في التاريخ من جامعة أكسفورد. وخلافاً للمألوف سوف أوجز حكايتها مع العلم والترحال والسياسة. تعد هذه المرأة الرحالة غامضة في حياتها الخاصة، إذ عاشت عزباء دون أن تتزوج، وأحاطت خصوصياتها بجدار من الكتمان يصعب اختراقه حتى من قبل أقرب الناس إليها. وقد أرادت وهي طالبة أن أتدرس التاريخ في جامعة أكسفورد، والزواج من رجل اريستوقراطي مفلس، غير أن أهلها منعوها من هذا الزواج، ويبدو أنها قررت الابتعاد عن جنس الرجال.

انصرفت جرترود بل بعد هذا الفشل العاطفي إلى متابعة البحث والدراسة وتنمية المواهب والهوايات، ومن هواياتها: الترحال وتسلق الجبال والمسالك الوعرة، فمنذ أن تخرجت من الجامعة عام ١٨٨٧م بدأت تجوب بلاد الشرق الأدنى والأوسط فمنذ عام ١٨٩٢م عرفت بلاد الشرق من خلال زيارتها لأحد أقربائها الذي كان يعمل وزيراً مفوضاً في بوخارست ثم في طهران. «وخلال وجودها في طهران تعلمت اللغة الفارسية وقامت لاحقاً بترجمة الأعمال الأدبية لشعراء فارسيين. وفي العام ١٨٩٩م توجهت إلى القدس حيث درست العربية ومن هناك سافرت إلى بعلبك والبتراء، وهي مغامرة في تلك الأيام بالنسبة إلى امرأة بمفردها. وفي العام ١٩٠٥ ذهبت إلى تركيا وسورية ثم إلى العراق في العام ١٩١٠م[1]».

وقد أتمت رغبتها في الترحال ببلاد الشرق ما بين عامي ١٨٩٩-١٩٠٥م وكونت فكرة عن واقعها الاجتماعي المعاصر، والتطورات السياسية التي تحدث فيها، ولعل أطرف رحلة قامت بها هي رحلتها من دمشق إلى حائل، فقد أعدت قافلة من الإبل يحرسها بدو الحويطات، وانطلقت في الصحراء ولكنها أسرت في الطريق لمدة

---

(١) قافلة الحبر، سمير عطاالله.

خمسة عشر يوماً، ثم أطلق سراحها لتتابع الطريق إلى عاصمة آل الرشيد من شمر في ذلك الزمان عام ١٩١٤م، ويقال إنها وصلت مدينة حائل ولكنها منعت من دخولها فبقيت خارج أسوارها مما دفعها لأن تتجه نحو العراق. وهي تعرف العراق جيداً ولهذا اختيرت مع لورنس وبعض السياسيين البريطانيين للسفر سراً إلى العراق لمقابلة خليل باشا القائد التركي العنيد الذي يحاصر بعض الفرق العسكرية هناك خلال الحرب العالمية الأولى، ويقال: إنها هي التي رسمت للورنس دوره في الحرب، ففي هذه الحرب وضعت خبرتها الجغرافية والتاريخية، ومعرفتها للغات الشرقية، والشخصيات البارزة في المنطقة في خدمة الحكومة البريطانية، لقد التحقت رسمياً بالمخابرات البريطانية منذ عام ١٩١٥م، فالمكتب البريطاني للمعلومات الذي أقيم في القاهرة كان بأمس الحاجة إلى خبرتها لكونها امرأة من جهة، وخبيرة بشؤون الشرق وأهله، وما إن انتهت الحرب حتى شغلت وظيفة ضابط اتصال بالمكتب العربي في بغداد، وسكرتيرة لرئيس البعثة العسكرية هناك، فلعبت أخطر الأدوار حيث مهدت لقيام الدولة تحت سلطة الحماية البريطانية والتمهيد لقدوم فيصل بن الحسين ليحكم في العراق يعد تنفيذ معاهدة «سايكس بيكو».

وقد كتب عن حياة الآنسة البريطانية «بل» كثير من الرحالة والكتاب، فالرحالة «برترام توماس» الذي عبر الربع الخالي، تحدث في كتابه في رحلة على ظهور الإبل من مسقط إلى ظفار «نذير وسفر في الجزيرة العربية» وفيه بحث عن مجلس الآنسة جيرترود بل في بغداد. قال:

«مرت الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠م بسرور في بغداد، فقد كانت هناك على سبيل المثال، عصريات بعد ظهر الآحاد مع الآنسة «جرترود بل» التي كنا نلتقيها عقب رحلات ـكوب الخيل في الصباح، التي غالباً ما كانت ترافقنا فيها تلك السيدة المميزة. كانت تلك

العصريات تعقد في حديقة الآنسة بل، وتدعى إليها النخبة السياسية في بغداد، وهي مجموعة من أولئك الذين كانوا في معسكر الأمير فيصل، أمير سورية، وكانت اللقاءات تتحول إلى حوارات حرة يقول خلالها الشباب العرب آراءهم في إتفاقات سايكس بيكو، والصهيونية ووعد بلفور، والإعلان الفرنسي البريطاني، وفي قضية الموصل والمسألة التركية، كما كانوا يعبرون عن طموحاتهم الحقيقية». وكل ذلك كان يقال في حديقة المعتمد البريطاني، وبريطانيا كانت تريد أن تسمع كل شيء.

ادعت بل أنها فوجئت بأن العهود التي قطعتها بريطانيا للعرب قد نكثت، وهي المقولة التي كان يرددها لورنس نفسه. وقد ماتت جرترود بل في ظروف غامضة، كما مات لورنس حيث أقدمت على الانتحار عام ١٩٢٦م؟!.

تناولت كتب كثيرة حياة الآنسة بل بالدراسة والنقد والتحليل، وتحدث عنها رجال العلم والسياسة، ولعل آخر الكتب التي كرست لها كتاب بعنوان: «ملكة الصحراء» لجانيت والاك، وبالرغم من دقة التفاصيل إلا أنه لم يأت بجديد... فيبدو أن الآنسة أقدمت على الانتحار عندما شعرت أن دورها في الوطن العربي قد وصل إلى نهايته.

أما على مستوى النشاطات الثقافية في البلد الذي أمضت فيه معظم أوقاتها، فقد أنشأت متحف الآثار في بغداد[1] وكانت أول مديرة له، ومن أهم مؤلفاتها:

١ - أشعار من ديوان حافظ ١٨٩٧م
٢ - الصحراء والبدر ١٩٠٧م
٣ - قصر ومسجد الأخيضر ١٩١٤م
٤ - عرب ما بين النهرين ١٩١٧م
٥ - صور فارسية ١٩٢٨م

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة.

سالمة بنت سعيد
« البرنسيس إميلي روث »
Emily Rose
١٨٤٥ - ١٩٢٢م

أنهيت منذ تسع سنوات كتابة قصة حياتي هذه، وكنت قد قررت كتابتها ليقرأها أولادي من بعدي حين يكبرون، فلم يكونوا في ذلك الوقت في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئاً عن ماضي حياتي وأصل منبتي وعن وطني زنجبار وقومي العرب. وكنت في حال من الوهن والسقم والإرهاق، لم أكن أتصور معها بقائي على قيد الحياة أمداً يكفي لأن أروي لهم سيرة حياتي بنفسي!

● البرنسيس إميلي روث
السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان(١)
برلين - ١٨٨٦م

امرأة شرقية عربية في اسم ألماني، لغز قد لا يصبر القراء معي بانتظار حله؛ ولهذا أوجز القصة باختصار، فالأميرة سالمة ابنة واحد من سلاطين مسقط وزنجبار هو السلطان سعيد بن سلطان، سلطان عمان وزنجبار (١٨٠٤ - ١٨٥٦م)، خرجت على تقاليد العائلة عندما تزوجت شاباً ألمانياً كان يعمل



الصورة الوحيدة للبرنسيس إميلي روث أو الأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان في كتاب مذكراتها الطريف.

---

(١) مذكرات أميرة عربية، إميلي روث أو الأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان، سلطان مسقط وزنجبار، ترجمة: عبدالمجيد حسيب القيسي، ط ٧، ١٩٩٤م، سلطنة عمان.

في التجارة في زنجبار عاصمة ملك والدها، من ديانة غير ديانتها؛ فتهجر من أجله وطنها وحياة القصور والرفاهية، لتعيش غريبة في برلين. خرجت من ديار الحجاب والحشمة إلى الحياة الأوروبية الصاخبة حيث السفور والاختلاط... كان اسمها سالمة بنت سعيد واليوم اسمها إميلي روث نسبة إلى زوجها وعائلته جرياً على عادات الناس في أوروبا، ولم تعد تعرف على المستوى الأدبي والثقافي إلا بذلك. وبعد عشرين عاماً ضاقت بالحياة الأوروبية ذرعاً، فحاولت العودة إلى وطنها بعد وفاة زوجها ومعها أطفالها، ولكن كونها تحمل الجنسية الألمانية، وخلافها مع أخيها السلطان الجديد برغش بن سعيد، تخفق بالحصول على موافقة السلطات للسماح لها بدخول زنجبار، إلا أنها عادت تحت حماية بحارة سفينة عسكرية ألمانية، ثم رجعت من حيث أتت حيث عكفت على كتابة قصة حياتها باللغة الألمانية، ولهذا جعلتها في مصاف الرحالات الغربيات، ولكنها ارتحلت في ديار أهلها قبل أن ترتحل في بلاد أوروبا.

إن كتاب مذكراتها «مذكرات أميرة عربية» طبع ونشر منذ ما يزيد عن قرن في ألمانيا، ولكن يندر من سمع به على الساحة الثقافية في الوطن العربي، كما أن كتب السير الذاتية أو كتب المذكرات مكتوبة بيد أصحابها تعد بشكل عام قليلة بجانب الركام الهائل من كتب السير والمذكرات في أوروبا، ومما يزيد في أهمية هذه المذكرات كونها تعني بأدب النساء، «خاصة وأن الكاتبة هي أميرة عربية مهاجرة إلى ديار الغرب بعد أن عاشت في أقصى بقعة من شرق أفريقيا حكمها العرب وهي زنجبار، فجربت حياة النعمة والجاه، وخبرت مراسيم القصر

السلطاني وآدابه، كما خبرت حياة الحريم وكيد النساء، ودسائس الرجال فجاءت تروي طرفاً من كل ذلك في مذكراتها...»[١].

ولا أجد شبيهاً لما فعلته الأميرة سالمة في كتابها سوى ما فعلته الشريفة مصباح حيدر في مذكراتها عن الحياة في بيوت شرفاء مكة في استانبول ومكة المكرمة في مطلع هذا القرن[٢]، ويؤسف أن يكون الكتابان حررا بلغات أجنبية مع أن الكاتبتين من بنات العرب والمسلمين ،وناطقتين بالعربية ! وقد لا تخلو مذكرات الأميرة سالمة من قناعات ووجهات نظر شخصية، ولكنها في مجملها كرست لقصة حياتها الطريفة، ولتكشف عن الجوانب الهامة في الحياة السياسية والاجتماعية في زنجبار في عهد السلاطين العرب، هذا البلد الذي ظل عربياً حتى عام ١٩٦٤م ثم فقدناه كما فقدنا الأندلس وفلسطين من قبل. وأستطيع القول: إن الكتاب يروي ويلخص تاريخ عرب البوسعيدي في مسقط وزنجبار، فالبوسعيد من الأزد القحطانيين جاؤوا من اليمن إلى عمان ليختلطوا مع القبائل العدنانية معتنقين المذهب الأباضي الذي من آرائه: ضرورة وجود إمام للجماعة يقودها ويهديها، ويدافع عنها خصوصاً وأن منطقة عمان وزنجبار أخذ يهددها غزو البرتغاليين، وتقلقها غارات الفرس على منطقة صحار، فنهض رجل من عامة الناس يملك الفطنة والقوة فقاد الجموع حتى أخرج الفرس من البلاد، فالتف حوله جمع غفير، وبويع بالسلطنة أو الإمامة.. إنه أحمد بن سعيد الألبو سعيدي مؤسس حكم البوسعيدي في عمان. توفي هذا السلطان عام ١١٩٨م مخلفاً عدة أولاد، وتولى الحكم ولده سعيد ولما مات آل الحكم إلى أخيه سلطان في ظروف

---

(١) عبدالمجيد القيسي في مقدمة ترجمة مذكرات أميرة عربية.

(٢) HRH. Princess Musbah Haider: ARABESQUE - London 1945.

صعبة شهدت بداية التنافس الأوروبي على الجنوب العربي، فدام حكمه ما بين ١٧٩٣ - ١٨٠٤م حيث ازدهرت البلاد، وبنى أسطولاً تجارياً وعسكرياً، ولكنه توفي في معركة حربية وهو يدافع عن البلاد، فترك ولدين أحدهما الفتى اليافع سعيد بن سلطان الذي عاش تحت وصاية عمته حتى استلم راية الحكم، وكان مدبراً وحاكماً ناجحاً سار بسفينة البلاد خمسين عاماً حتى أوصلها إلى بر الأمان، وعندما انتقل بفتوحاته نحو شرق أفريقيا وجد في زنجبار أفضل مكان يسكنه ويقيم فيه أكثر من خمسين مزرعة بالإضافة إلى القصور والقلاع وأعمال التجارة فنعمت البلاد بالهدوء والرخاء حتى قيل: «لو قرع سعيد بن سلطان طبله في زنجبار لرقصت غابات أفريقيا على إيقاعه» توفى سعيد بن سلطان عام ١٨٥٦م فخلفه ولده ثويني حاكماً في عمان، وابنه ماجد في زنجبار، ومن بعد ماجد برغش بن سعيد وخليفة بن سعيد.

هذا هو تعريف سريع بآل البوسعيدي حكام زنجبار وعمان الذين تحدرت منهم الأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان كما جاء في المذكرات وبعض المصادر الأخرى[١].

في بيت «الموتني» أقدم قصور السلطان في زنجبار ولدت سالمة، وفيه عاشت أسعد أيام طفولتها حتى السابعة من عمرها، والقصر يقوم على نهر الموتني حيث يتفرع إلى جداول صغيرة في بساتين القصر، ثم يصب في البحر الأزرق الجميل الذي يفصل زنجبار عن القارة الأفريقية، وقد تحول المكان إلى غابة من الأشجار وجميع أنواع الورود، كانت تزرع في أجنحة القصر المتعددة، وكل جناح يتألف من

---

(١) البوسعيديّون حكام زنجبار. الشيخ عبدالله بن صالح الفارسي، قاضي قضاة كينيا «زنجبار سابقاً». نُشر بالإنكليزية وترجمته وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط ٣، ١٩٩٤م.

أكثر من اثني عشر شرفة وغرفة تطل على البحر، تكثر في حدائقها مختلف صنوف الحيوان من الغزلان والنعام والببغاوات والطواويس والغرانيق وديوك الهند والوز وطيور الغرر، كانت تتهادى في سبيلها لتختلط بأطفال القصر، وتلهو معهم ومنهم الطفلة الأميرة سالمة بنت سعيد.

كانت سيدة القصر هي عزّة بنت سيف أحد فروع العائلة، وهي الزوجة الشرعية الوحيدة للسيد سعيد، وكان لها الحكم المطلق والكلمة العليا في تدبير شؤون القصر، أما أم سالمة الشركسية الأصل فكانت من الجواري والإماء اللواتي كان يشتريهن بين الحين والآخر، وقد ترك منهن عند وفاته خمساً وسبعين امرأة.. كانت الأم صلبة الرأي قوية العزيمة، ولكن صلابتها كانت تضعف أمام رغبات طفلتها المدللة سالمة. أما والدها السلطان سعيد بن سلطان فكان عاهلاً عربياً جليلاً عظيم القدر والحلم والعدل والرحمة، يعطف على أبنائه ويحيطهم برعايته دون استثناء، ولكن المشاكل السياسية وأمور الحكم والفتن والاضطرابات والحروب لم تدع له وقتاً ليفرغ لتربية أبنائه بنفسه الذين بلغوا العشرات، فنشأ الأولاد بين الضرائر والمربيات، ولم تكن سالمة تراه إلا نادراً، ولكنها لا زالت تحفظ في ذاكرتها قامته الطويلة النحيلة ولحيته البيضاء.. وتعرف فيه التقوى والتواضع والبساطة على الرغم من ثرائه، فقد كان يناديها: «بيبي» والبيبي في لغة أهل السواحل الأفريقية السيدة العجوز لأنها كانت تغرم بالحساء المطبوخ بالحليب المعد للعجائز الدرداوات.

ترك السلطان عند وفاته خمسة وثلاثين ولداً جميعهم من أبناء الجواري لأن سيدة القصر كانت عقيمة، ولهذا كانوا متساوين في الحقوق، ومن طبع السلطان أنه كان لا يفرق بين أحد من أبنائه بل

كان يبكي ويشقى لمرض أصغر واحد فيهم، وكثيراً ما تُلبس المربيات الأطفال أحسن الثياب والحلي لمقابلة السلطان في الصباح، ومرة ثانية في المساء. ومن بين هؤلاء كانت سالمة تجل وتحترم أخاها ماجداً وأختها خَولة بينما أخوها برغش كان صغيراً. ويبدو أن هذا الوسط والبيئة الثرية كانت وراء نمو شخصية سالمة وتفردها في اتخاذ أخطر القرارات، فقد كانت تمارس ركوب الخيل مع أطفال القصر مرتين في اليوم، فدروس الفروسية متعتها الوحيدة في غياب المسارح والحفلات. ويوماً بعد يوم أخذت الألفة تنمو بينها وبين أخيها ماجد الذي هو ابن جارية أيضاً، فأخذ يعلمها المبارزة بالسيف والرمح والخنجر، كما كانا يخرجان إلى بعض المزارع للرمي بالبندقية والمسدس.

لقد استولت عليها الهوايات الرجالية، بينما هواية مثيلاتها أعمال الإبرة والخياطة. أما أختها خولة فقد كانت تحبها وتعزها كوالدتها تماماً، خصوصاً وأن خولة كانت أجمل فتيات القصر وأحلمهن، حتى إن السلطان كان يطلق يدها في غرفة المجوهرات وبيت المال. ففي بيت المال كنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر، إلى جانب العملات الأجنبية، والمجوهرات النسائية النادرة والأحجار الكريمة والتحف التي أعدت للإهداء لكل شخصية رسمية أو ذات شأن تزور القصر.. إن خولة ابنة امرأة من بلاد الرافدين. أما من حيث التعليم فكانت سالمة فتاة، والفتاة يجب عليها أن تتعلم القرآن وتحضر الدروس اليومية لأطفال القصر حتى سن التاسعة، بينما يحظر عليها تعلم الكتابة، وتعاقب فيما لو أعلنت أنها تستطيع ذلك. وقد خرجت سالمة عن هذا التقليد حيث أخذت تقلد كتابة أحرف القرآن الكريم على صفيحة أعـ[illegible] من عظم البعير، ثم توسلت إلى أحد عبيد القصر المتعلمين ليعلمـ[illegible]

أصـــول الخط العـــربي، وعندمـــا انكشف أمـــرها قـــوبلت باللوم والاستخفاف، ولكنها لم تحفل بذلك وتابعت تعلمها حتى أصبحت من أمهر الكاتبات، فكانت الكتابة بالعربية وسيلتها للاتصال بأصدقائها في الوطن بعد أن هاجرت إلى ألمانيا.

كانت سالمة مولعة بالإتيان بكل غريب من الأعمال، فشدت إليها اهتمام أهل القصر لقدرتها على استعمال السلاح والمبارزة وصعود الأشجار العالية، وتعلم الكتابة، وأعمال الشيطنة والشقاوة، وطباعها هذه هي مفتاح التعرف على شخصيتها وتفسير تصرفاتها الغريبة التي دفعت بها إلى هجر وطنها والتشرد في ديار الغربة!

بقيت سالمة تنعم برعاية أبويها حتى بلغت التاسعة من عمرها حيث بدأت رياح التغيير تهب، ففجأة يرحل السلطان إلى عمان ليشرف بنفسه على شؤون القسم الآسيوي من ملكه، وليساعد ولده ثويني في تدبير الأمور والتصدي للفرس الذين أخذوا يهاجمون بتدرعباس. فأحدث رحيله فراغاً موحشاً أحس به كل فرد من ساكني القصر، وترك تدبير أمر رنجبار لولده خالد، ورعاية شؤون القصر لابنته خولة.. غاب السلطان وطال بعده، وعندما يسمع أبناؤه بقرب عودته تعم البشرى ويفرح الناس ويستعد كل من في زنجبار لاستقباله، لكن غيابه دام أكثر من سنتين.. وفي ظهيرة يوم ما كان الناس يؤدون صلاة الظهر، فسرت شائعة بثها أحد الصيادين أن السلطان قادم فهب الناس لاستقباله، ولبست نساؤه الحلي والثياب الفاخرة، وانطلق الطهاة يذبحون ويطبخون ويخبزون وانطلق الخدم يعطرون الغرف.. وانطلق ماجد في موكب من السفن لاستقباله، إلا أن السلطان لم يعد، وعندما حل المساء انتشر الرجال المسلحون في الشوارع، وساد الظلام ومنع الناس من الخروج إلى الشوارع، ولم يعد ماجد، لقد مات السلطان

فدبر ولده برغش مكيدة لاستلام الحكم، لكن ماجداً عاد وأعاد الأمور إلى نصابها وأصبح موت السلطان حقيقة.. وخسرت سالمة مثلها الأعلى والأب العطوف العادل. لكن أخاها ماجداً الذي تولى السلطة عوضها برعايته عن موت أبيها، وأحاطتها خولة برعايتها... كان ماجد مثال السماحة والطيبة وسمو الأخلاق فلم يتنكر لها عندما تآمرت عليه مع أخته خولة. مات والدها وهي في الثانية عشرة من عمرها ثم تلته أمها بعد بضع سنوات، فحصلت تغيرات على سلوكية أبناء السلطان ونسائه، فنساء السلطان اللواتي كن يمارسن السلطة عن طريق الزوج أصبحن أرامل، والبنات لا حول لهن ولا قوة مع حاشية السلاطين الجدد، وخصوصاً برغش بن سعيد الذي تولى الحكم بعد وفاة أخيه ماجد.

مرت أيام حالكة السواد في حياة الأميرة سالمة، كانت حافلة بالكيد والشجار بين أفراد العائلة، فتعرفت على شاب ألماني كان ممثلاً لأحد المحال التجارية الألمانية في زنجبار، وهو الشاب ذاته الذي قدر الله أن يكون زوجها. وسرعان ما شاع الخبر حتى وصل إلى مسامع أخيها السلطان ماجد بن سعيد، كما رويت قصص مبالغة، وقيل لغط كثير عن هذا الموضوع.. والحقيقة[1] أن الأوروبيين في زنجبار كانوا يحلون ضيوفاً على قصور السلطان ومزارعه، وقد أقامت سالمة وأختها خولة علاقات اجتماعية مع بعض العائلات الأوروبية يتم فيها تبادل الزيارات، ويبدو أن هذه العلاقات كانت بداية التعارف بين سالمة والألماني «هذريخ روث» فتحول التعارف إلى حب والاتفاق على الزواج ولكن في مكان غير زنجبار؛ لأن محاولات سالمة بالحصول على موافقة إخوتها على هذا الزواج قد فشلت، كما أن تقاليد المجتمع

---

(١) هذا ما جاء على لسانها في المذكرات، الفصل الثالث والعشرون بعنوان: الهروب من زنجبار.

والعائلة لا تسمح بذلك، ولهذا أعدت خطة سرية اشتركت في رسمها زوجة القنصل البريطاني في زنجبار، ففي إحدى الليالي نقلت الأميرة سالمة وزوجة القنصل في زورق كان يمتطيه الكابتن «باسلي» قبطان باخرة حربية بريطانية كانت ترسو قبالة زنجبار، وما إن وصلت الأميرة إلى السفينة حتى رفعت مراسيها والسلالم وغادرت للتو إلى الشمال حتى وصلت إلى ميناء عدن.

في عدن نزلت الأميرة بضيافة عائلة إسبانية، وهي تنتظر قدوم حبيبها إلى عدن، فطال انتظارها إذ لم يلتحق بها هناك إلا بعد عدة أشهر، لأنه كان مشغولاً بتصفية حساباته في زنجبار.. وفي هذه الفترة تلقت دروسها الأولى عن الدين المسيحي، وما إن عاد الشاب «روث» حتى تم تعميدها باسم «إميلي روث» النصرانية في إحدى الكنائس في مدينة عدن، وتلا ذلك مراسيم زواج وفقاً للشعائر الإنكليكانية، وأخيراً سافرت مع زوجها إلى هامبرج حيث استقبلها أعضاء أسرة روث بترحيب حار.

وفي ديار الغربة تكيفت سالمة لتعيش في بيئة جديدة ومعتقد جديد، فسجلت انطباعاتها عن الحياة الأوروبية في مذكرات خاصة، وعاشت ثلاث سنوات هانئة سعيدة مع زوجها، إلا أن الأيام لم تدعها تكمل معه مشوار الحياة فقد مات الزوج بحادث قطار تاركاًلها ثلاثة أطفال أصغرهم لم يتجاوز عمره ثلاثة شهور. فكرت سالمة بالعودة ثانية إلى زنجبار خصوصاً وأنها كانت تطمع بالعفو من قبل أخيها السلطان ماجد، وهو الذي أرسل لها هدايا ومؤناً تكفيها للعيش في أوروبا، كما كتبت إليها أختها خولة تطلب منها أن ترسل إليها أحد الأطفال لتتبناه، ولكن الأميرة سالمة رفضت العرض وقررت كامرأة شرقية الحنو على أطفالها وتربيتهم والتخلي عن فكرة الزواج بآخر

كما تفعل المرأة العربية في مثل هذه الظروف. ويبدو أن الفواجع أخذت تلاحقها، فماجد قد توفي بعد شهرين، وفقدت مقداراً كبيراً من ثروتها بسبب بعض الصفقات التجارية الخاسرة. وبمقدار ما كانت معجبة بالمجتمع الأوروبي، أصبحت متبرمة تنفر من الناس الذين أخذوا ينفضون عنها، ولم يعد يعاملونها معاملة تليق بالأميرة سالمة بنت سعيد، ولهذا انتقلت إلى «دريسدن» ومنها إلى برلين حيث تفهمت الموقف وعاشت الواقع؛ ففي برلين يستطيع أولادها متابعة التعلم، كما حظيت باهتمام العائلة المالكة الألمانية السابقة، وبقيت تكن لهم المعروف والود حتى ماتت. أصبح حلم الأميرة مستحيلاً بالعودة إلى زنجبار بعد تولي أخيها برغش بن سعيد حكم السلطنة، فبرغش كان يكن لها العداء بسبب خروجها عن تقاليد العائلة وزواجها من رجل مسيحي، لكنها كانت تؤكد أن هذا العداء كان بسبب مودتها لخصمه اللدود وأخيه السلطان ماجد. إن هذا الموقف من السلطان لم يفقدها حنينها بالعودة إلى بلادها، والعيش بين أهلها ثانية بالرغم من كل ما حصل.. وقد فرحت عندما قرأت في الصحف أن السلطان برغش بن سعيد سوف يزور لندن في عام ١٨٧٥م فسافرت إلى لندن لعلها تلتقي به هناك، ووصلت قبل وصول السلطان إليها طالبة مساعدة السلطات البريطانية في حل مشكلتها مع أخيها.. ولكن السلطات بدلاً من المساعدة استجوبتها عن مهمتها وطبيعة هدفها من القدوم إلى لندن خصوصاً وأن بريطانيا ترى فيها سيدة عربية بجنسية ألمانية، وربما كانت تسعى لتعكير صفو العلاقة الطيبة بين السلطان وبريطانيا لحساب ألمانيا البلد الذي تنتسب إليه[١]. وقيل لها صراحة: أيهما أكثر

---

(١) كانت الأميرة أخت السلطان، وقادرة على الاتصال به وتحذيره من مغبة عقد المعاهدات مع بريطانيا، لكن بريطانيا منتها بالوعود، ولما رجع السلطان إلى زنجبار تنكرت السلطات البريطانية لوعودها للأميرة فبعد توقيع الاتفاقيات لم يعد بإمكانها أن تضر بمصالحهم.

أهمية لك، المصالحة مع السلطان أم ضمان مستقبل أولادك؟ ففي هذا السؤال تهديد مبطن فهمت أبعاده ونتائجه ففضلت سلامة أولادها على مختلف الأهداف فعادت بهم إلى ألمانيا.

اتجهت الأميرة بعد هذا الفشل إلى الحكومة الألمانية ذاتها، وطلبت منها المساعدة كامرأة ألمانية لها ميراث في زنجبار تطالب به.. وقد أصبحت تستطيع مشاورة ابنتيها وولدها بعد أن شبوا عن الطوق فشجعتها إحدى البنات للمضي بمطالبها ونهتها الأخرى.. وفي غمرة أحزانها وصلتها رسالة من وزارة خارجية الامبراطورية الألمانية تطلب منها الاستعداد للسفر إلى زنجبار، فركبت البحر مع أطفالها في تموز عام ١٨٨٥م باتجاه ميناء الإسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وما إن رأت منارة الإسكندرية وتجولت بين مساجدها وحاراتها حتى طغى عليها شعور غامر بالشوق والحنين إلى الأهل والوطن في زنجبار. ولا أدري كيف أولت الحكومة الألمانية (ممثلة بالامبراطور ومستشاره بسمارك» هذه الأميرة جل عنايتها حيث لقبت رسمياً بلقب الأميرة أو البرنسيس، وقد لا نسيء الظن إذا ما قلنا أن الحكومة الألمانية ربما استغلت هذه الأميرة لنصرة رغبتها في منافسة بريطانيا على أفريقيا وجنوب الوطن العربي، وربما انساقت الأميرة وراء تحقيق هذا الهدف، ولتحقيق رغبتها الشديدة بالعودة إلى زنجبار والانتقام من أخيها الحاكم برغش بن سعيد؟! ومما يعزز هذا الرأي إشارة بعض المصادر إلى أن الأميرة قد كتبت إلى أخيها برغش تنصحه بفك ارتباطه مع بريطانيا وتحثه لمصادقة الألمان. قالت: «أخي أريدك أن تفهم أن البريطانيين يرغبون في تحطيم اسمك وسلطانك وهم ينتظرون الوقت المناسب لابتلاع زنجبار كما ابتلعوا مصر مؤخراً. إن حاكم ألمانيا وكل عائلته يعطفون عليَّ وقد ذهبت لزيارتهم عدة مرات فإذا أردت أن أعمل لك شيئاً مع الامبراطور. فإني أقدر أن أذهب إليه شخصياً وأكلمه عنك».

وبالرغم من رفض السلطان ومعه الإنكليز رغبة الأميرة بالعودة إلى زنجبار فقد عادت هذه المرة متحدية في حماية الأسطول الحربي الألماني، ففي مدينة بورسعيد انتقلت مع أطفالها إلى السفينة الحربية الألمانية «أدلر» التابعة إلى الوحدة البحرية الألمانية في شرق أفريقيا، فأمضت سبعة أيام مبحرة إلى ميناء عدن، ومنه إلى زنجبار، فلما أطلت على زنجبار عبرت عن عواطفها الجياشة برقة وحنان: «تأملات وذكريات انهالت أمام ناظري.. صورة طفولتي وشبابي في هذه الأوطان، ثم ما جرى لي بعد ذلك من غرائب الأحداث وصروف الزمان؛ فعجبت لتفاهة الإنسان في هذا الكون؛ ولغرابة الصدف في هذه الحياة. فالمرء في هذه الحياة لا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا يعرف ما يضمر له الغد من عبر وأحداث! فهنا ولدت ونشأت عربية مسلمة وفي أعز دار، ثم حكمت الظروف عليَّ بالهجرة إلى بلاد لم أكن قد سمعت بها أو رأيتها من قبل، وها أنا أعود إلى بلادي نصف مسيحية ونصف ألمانية، ومن غرائب الصدف أن تكون عودتي إلى وطني بعد هذا الاغتراب الطويل في نفس الشهر الذي غادرته فيه قبل تسعة عشر عاماً، ولعل الأغرب أن يتفق هذا اليوم - يوم وصولي إلى زنجبار - مع نفس اليوم بل ونفس الساعة التي توفي فيها زوجي قبل خمسة عشر عاماً.

لقد شهد أولادي ذهولي وانشغال بالي فظلوا ينظرون إليَّ بصمت وتقدير، ولم يقطعوا عليَّ حبل أفكاري. ولكن عيونهم الذكية اللماعة كانت تفيض حباً وحناناً، وإني لأحمد الله تعالى أن وهبني هؤلاء الأولاد[1] سلوى وقرة عين بعد أن سلبتني الحياة أعز ما أملك».

---

(١) يكفي أن نقارن بين سلوك جين دغبي التي تركت عدة أطفال لها مشردين في أوروبا، وجاءت لتعيش في سورية، دون أن تذرف عليهم دمعة واحدة، وسلوك الأميرة التي عزفت عن الزواج بعد وفاة زوجها وحنت على أطفالها، لنحكم على تباين العلاقات الاجتماعية والقيم والمفاهيم بين المجتمع الشرقي المسلم والمجتمع الغربي المتعلق بالأحاسيس والماديات.

نزلت الأميرة في وطنها زنجبار ثانية، ولكن السلطان كان يوقع العقوبة بكل من يرافق موكبها، إلا أن عبيدها القدامى كانوا يوصلون إليها أخبار إخوتها وأخواتها وأقاربها ورسائلهم، لقد أحست بخطورة الموقف، ولهذا جنبت الناس المتاعب، فلم تعد تتصل بأحد إلا للضرورة.. فالجواسيس والمخبرون كانوا ينطلقون معها حيثما حلت، ولم تأبه لذلك لأنها كانت تحت حماية الألمان.

لم تكن الظروف تسمح لإقامة الأميرة في زنجبار وأخوها السلطان برغش بن سعيد يناصبها العداء، ولكنها طالبت بحقها من ميراث أبيها، ولما عادت ثانية إلى ألمانيا روجت الصحف للثروات الخيالية التي عادت بها إلى ألمانيا، إلا أنها تروي: أنها لم تستلم شيئاً؛ لأن أخاها برغش عرض عليها ستة آلاف روبية، فرفضت المبلغ وعادت من حيث أتت.

وعند هذه المرحلة تقف بنا المذكرات، فلم نعد نعرف عن مصير هذه المرأة شيئاً إلا ما أشارت إليه الأخبار المتناثرة، فيروى أن مكتبة هامبورج في ألمانيا تحتفظ بأوراق الأميرة سالمة ومجموعة رسائلها وأنها لا تزال تحاط بالسرية؟! لكن ابنها الذي أسمته «سعيد رودلف روث» يعتبر وريثها، فقد ألف بالإنكليزية كتاباً عن جده السلطان سعيد فنشر عام ١٩٢٩م[١] ومن الطريف أن السيد خليفة بن حارب بن ثويني سلطان زنجبار السابق كان قد زار لندن عام ١٩٢٠م، فأقامت له الجمعية الآسيوية حفل تكريم حيث ألقى في الحفل ابن عمته الألماني سعيد رودلف محاضرة قيّمة عن تاريخ البوسعيد في عمان وزنجبار، وقد زاره السلطان خليفة في بيته فأخرج له مخلفات والدته: المكحلة الفضية والشال الأخضر، وفناجين الذهب والخزف الصيني،

---

(١) عن مقدمة المذكرات للقيسي بتصرف.

وقدم له كتاب تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان وكان عمره آنذاك ٦٨ سنة.

نشرت مذكرات الأميرة في برلين عام ١٨٨٦م، وفيها ذكريات وأخبار ممتعة طريفة عن زنجبار وسلاطينها في أسلوب يتميز بالبساطة والسهولة والصدق والعفوية، دبج بيد كاتبة أديبة، وعلى الرغم من أن المذكرات قد كتبت للجمهور الألماني إلا أنها أضافت شيئاً جديداً في مجال أدب الرحلات وكتابة المذكرات يهم القارئ العربي قبل القارئ الغربي. والكاتبة رغم تنصرها وحياتها الطويلة في بلاد الغرب وتنكر أهلها لها، فقد ظلت وفيّة مخلصة لأهلها وبلادها ودينها الأول، فخورة بهم دوماً.. فهي إذا اضطرت إلى ذكر شأن من شؤون الشرق مما لا يستسيغه الغربيون.. نراها تنبري للدفاع عن الفكرة. فتربيتها الشرقية القويمة ومكانتها جعلت حياة الغرب لا تؤثر فيها، ويبدو من مذكراتها أنها لم تستسغ قط نمط حياة الغربيين وطبيعة مجتمعهم. وقد يقسو البعض في حكمهم . على هذه المرأة[١] أنها خرقت تقاليد قومها وأساءت إلى سمعة بيتها الكبير، ولعل لها عذراً لكن الناس تلومها، ويكفي أنها دفعت ثمن غلطتها حياة طويلة من الغربة والتشرد والكفاح المرير من أجل العيش لها ولأبنائها.

صدرت مذكرات الأميرة سالمة في ألمانيا عام ١٨٨٦م، ثم ترجمت إلى اللغة الفرنسية والإنكليزية ونشرت في نيويرك عام ١٩٠٥م.

لقد أبدعت الأميرة سالمة في تدوين ذكرياتها عن الحياة في قصور السلطان، فمن تلك الذكريات: أن يجتمع كل أنجال السلطان وأحفاده إلى مائدة الإفطار، في شرفة فسيحة أو في إحدى صالونات القصر، حيث تقام السفرة وهي طاولة منخفضة واسعة السطح،

(١) عن مقدمة المذكرات للقيسي بتصرف.

وكانت أفضلية السن والمقام أمر واجب الاتباع بكل دقة وصرامة، فكان السلطان يجلس إلى صدر المائدة وإلى جانبه أبناؤه الكبار حسب أعمارهم ويليهم في طرف المائدة صغارهم ممن تجاوزوا السابعة من العمر، وكانت المائدة تحتوي أصنافاً عديدة تبلغ الخمسة عشر صنفاً أو أكثر، وعند الجلوس على المائدة وقبل البدء بتناول الطعام يردد الجميع بصوت خافت «بسم الله الرحمن الرحيم» وعند الانتهاء من الأكل يرددون كلمات الحمد والشكر، وكان السلطان أول من يأخذ مجلسه على المائدة ثم يتبعه الجميع حسب أقدميتهم، وكان هو أول من ينهض عنها.

وفي المذكرات أيضاً وصف لأسرة السلطان التي يتجاوز أفرادها الخمسين، وخصوصاً الإخوة والأخوات وطباع كل واحد منهم، والحوادث، والأخبار، والتنازع على السلطان، وتربية الأطفال، والسلوك الاجتماعي والعادات والتقاليد في المأكل والملبس والزواج وحتى الخرافات والأساطير، ويُعدّ الفصل الخامس عشر من الفصول الهامة لأنه كُرّس لشرح وضع المرأة في الشرق بشكل عام، ودفاع الأميرة عن المرأة الشرقية أمام أوهام الحياة الغربية وتصوراتها عنها، فالمذكرات تُعد مرآة صادقة لرصد الحياة الشرقية وعرضها على بساطتها أمام الغربيين، مع ومضات لشرح طبيعة المجتمع الغربي وكيف ينظر إلى أهل الشرق، ولهذا تعد الأميرة سالمة بحق واحدة من أعظم الرحالات، ومن أدق من كتبوا في ميدان المذكرات.



السلطان برغش بن سعيد، سلطان زنجبار
« ١٨٧٠ - ١٨٨٨م »

نصوص مختارة

من مذكرات الرحالة تشتمل على:

١ - مشاهدات . . . . محطات تراثية .

٢ - سير شعبية . . بعض الأساطير والخرافات .

٣ - آراء وأفكار .

٤ - الخيول العربية .

الكويت عام ١٨٦٨م

بقلم الرحالة الأميركي أ. لوشر

أ. لوشر الأمريكي رحالة زار منطقة البحر العربي والخليج في طريقه إلى العراق سنة ١٨٦٨م.. وقد بدأ رحلته من غربي الهند.. فركب السفينة التجارية بينانك.. وقد توجهت إلى الكويت كأول سفينة بخارية تقصد هذا الميناء المنعزل، وقد أتيح للرحالة أن يكون ضيفاً لدى شيخ الكويت المستقل عبدالله الثاني الذي امتد حكمه منذ عام ١٨٦٥ وحتى عام ١٨٩١م.

●● عبدالله ناصر الصانع[1]

أخيراً توجهنا بسفينتنا إلى الغرب عابرين الخليج إلى الكويت أو القرين، فسرنا إلى الجنوب من جزيرة صغيرة تسمى كراك «Karak»... وفي صباح اليوم التالي اتجهنا إلى الجنوب من جزيرة فيلكة، فوجدناها منخفضة، ومستوية رملية ترى بصعوبة فوق مستوى البحر وهي ملك للشيخ حاكم الكويت. وبعد ساعة من السير المتواصل ألقت السفينة مراسيها على بعد ميل ونصف من ميناء الكويت، لأن الربان لم يكن من قبل قد زار هذا الميناء، ويبدو أن هذه السفينة هي باخرة بريد تتوجه إلى ميناء الكويت.

رست السفينة بسبب وجود تاجر عربي غني بين المسافرين، وقد حمّل على سطحها مئات الوحدات من الأحمال والبضائع، كان قد اشتراها من بومباي. إنه من أقرباء الشيخ في الكويت، وذو نفوذ كبير

---

(١) عن كتاب النجمة والهلال With Star and Crescent، عن دار فيلادلفيا للطباعة عام ١٨٩٠، وقد ترجم ونشر ما يخص الكويت عبدالله ناصر الصانع، الكويت عام ١٩٥٩م.

في الكويت، ووعد الشركة بكامل التسهيلات والرعاية فيما لو تكررت زيارة الباخرة إلى الميناء في كل شهر مرة.

أطلقت الباخرة ثلاث طلقات من مدافعها، فقطع صداها هدوء المنطقة في الخليج الممتد أشبه بمرآة مصقولة، تحيط به البادية على شكل طوق من الشمال والجنوب والغرب. لفتت أصداء الطلقات انتباه سكان المدينة الصغيرة بسرعة، فأخذوا يتدافعون بشدة متوجهين إلى الساحل ملوحين باتجاه مكان رسو السفينة في ضوضاء وجلبة. كانت منطقة الميناء هادئة، ولم يعبرها أي مركب، وعلى المدى البعيد عند الساحل رأينا بعض المراكب المسحوبة إلى البر الجاف، وكأنها مجموعة كبيرة من التماسيح خرجت من الماء لتصطلي تحت أشعة الشمس الملتهبة.

وقد شاهدنا من بعيد مجموعة من الرجال شبه عراة يتدافعون خارج بناء كبير حسن المنظر يقع بالقرب من الساحل، تبين فيما بعد بأنه مقر الحاكم.. وفجأة سمعنا صوت طلقتين خافتتين تلاهما دوي أشبه بالرعد، فأحدث الدوي هلعاً بين الجموع المحتشدة على الساحل فظننا أن حادثاً ما قد وقع، توقف الرمي، فرأينا زورقاً كبيراً قد أنزل إلى الماء، وقد فرشت قمرته المصنوعة من الخشب بسجادة خضراء كبيرة.

كان في هذا الزورق عشرة أو اثنا عشر من العرب الأقوياء العراة إلى وسطهم وهم يجذفون سريعاً نحو الباخرة. وكان ممسكاً بالسكان عبد أسود غليظ ذو هيكل ضخم، مغنياً بصوت جهوري، فكانت أغنيته ممتعة تشجع الملاحين على الاستمرار بالتجديف، كانوا يرفعون أصواتهم مشاركين بالإنشاد في نهاية كل مقطع. بينما ازدحم الزورق برجال ذوي مظاهر حسنة، ملابسهم بدوية ذات ألوان زاهية، مسلحين

ببنادق ضخمة طويلة، بفوهة واحدة، وبمسدسات، وسيوف، ويتقلدون نطاقات من الرصاص والخناجر وهؤلاء الرجال المدججين بالسلاح هم الحرس الخاص بالشيخ، الذي صعد للتو إلى سطح الباخرة، فاستقبله قريبه التاجر العربي، وتعانقا وفقاً للعادة العربية... كان الحاكم الشيخ طويل القامة مفتول العضل[1]، لطيف الملامح بلحية بيضاء طويلة وهو في الثمانين من عمره، وتبدو على وجهه ملامح الذكاء والفطنة، وكان في غاية الأدب في كلامه وعاداته الشرقية، ملابسه عربية من الحرير الفاخر، ويرتدي عباءة أرجوانية موشاة بالذهب، ويداه تشعان بالألماس، وفي وسطه وشاح حريري أبيض غرس فيه خنجراً بمقبض من الذهب مطعم باللؤلؤ والفيروز والياقوت والزمرد. وقد صمم للزينة وليس للاستعمال.

.. يبدو أن الشيخ كان مستعداً للزيارة، إذ ظهر في أبهى حلة وعلى الفور تفقد غرفة القيادة، وقاعة المسافرين، والمطبخ، وغرفة الآلات، وقد أعجب بمحركات الدفع التي تمكن السفينة من الاندفاع إلى الأمام والخلف، مما يدل أنه لم ير مثلها من قبل.. فيبدو أن مثل هذه الباخرة لم تكن من قبل ترتاد ميناء الكويت سوى قطع الأسطول البريطاني التي كانت تطارد القراصنة وتجار الرقيق.

أخذ الشيخ يمر بين جموع المسافرين، فيُستقبل استقبالاً حافلاً... وتناول معنا المرطبات في قاعة الباخرة، والقهوة العربية والعصير من الليمون الشرقي، وبعض الحلويات ثم دعا الربان وجميع المسافرين الأوروبيين لتناول طعام الغداء على الشاطئ والراحة هناك حتى المساء.. لبينا الدعوة وأُعدَّ لنا قارب عند بزوغ الفجر، وفي طريقنا نحو الساحل علمنا من الشيخ أن أحد مدافعه قد انفجر فقتل رجلين

---

(١) يؤكد عبدالله ناصر الصانع بأنه الشيخ عبدالله الثاني بن صباح بن جابر بن عبدالله بن صباح.

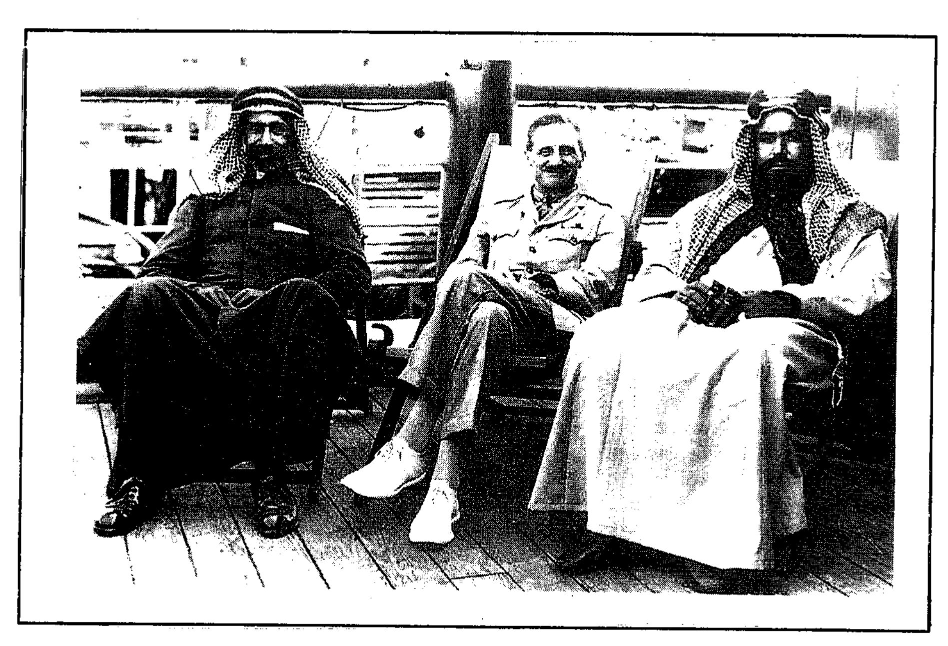
وجرح مجموعة من الرجال، ولهذا لم تطلق الطلقات الكافية من المدفعية تحية للسفينة. ولدى وصولنا إلى الساحل وجدنا حشداً من الرجال والنساء جاؤوا لرؤية سفينة النار (كما كانوا يسمون الباخرة) وهي تتحرك في الماء دون الاعتماد على دفع الهواء... لقد تدافع الجمهور حولنا لإلقاء نظرة على الإفرنج الأوروبيين.. فأفسح حراس الشيخ الطريق لنا خلال الزحام، فوصلنا سالمين إلى قصره المربع المبني من الطابوق، تتوسطه ساحة واسعة تتخللها مجموعة من الأشجار وفي أرضها زرعت الورود كأساس لحديقة نامية.

استقبلنا الشيخ في قاعة واسعة عالية يتخللها الهواء النقي ويصلها الضياء من خلال نافذتين وباب يطل على ساحة القصر، وقد زين سقف القاعة بنقوش صغيرة زرقاء كثيراً ما تشاهد في بيوت المسلمين باستثناء صور الأشياء الحية التي نهى الدين عن تصويرها. أما القاعة ففرشت بسجاد فارسي ثمين واصطفت على الحيطان أرائك عريضة.. اعتاد العرب الجلوس عليها متربعين، بينما هي متعبة في الجلوس بالنسبة للأوروبين، أما العرب وشعوب آسيا فيمضون عليها ساعات طويلة دون كلل أو ملل. ومن عادات المسلمين أن يترك الداخل حذاءه خارج الغرفة أو خلعه على الأقل عند الجلوس على الديوانية.. وقد تقدم للأوروبيين نعال خاصة، أما عادة الأوروبيين في خلع القبعة عند الدخول إلى بيت المضيف، فهي غير محمودة عند المسلمين، لأنهم لا يرفعون غطاء الرأس إلا عند الذهاب للنوم، وليس لأوروبي أن يرفع قبعته أمام المسلمين وهو يعلم العادة إلا إذا قصد مضايقتهم.

ولهذا أبقينا قبعاتنا على الرؤوس مثبتة، بينما نزعنا أحذيتنا عند عتبة الباب، فاستقبلنا العبيد بنعال صفراء جديدة متقنة الصنع..

لبسناها وسرنا بوقار إلى الديوان، فتركناها وتربعنا فوق الأرائك، فبدأ الربان محادثاته الشيقة مع الشيخ المضيف، والتاجر العربي يقوم بدور المترجم.. ثم قدمت لنا النارجيلات، ووضع البخور في حجر المباخر الفضية فشممنا عطرها الفواح النفيس، وجلس بجانبنا العبيد للخدمة وهم يحركون مراوح كبيرة من ريش النعام، فأخذ الهواء والعطر ينفران الذباب الكثير، فتترك القاعة.. ثم قدم لنا العبيد القهوة العربية، وبعدها الشراب الفارسي الفاخر.. أما الكحوليات أو النبيذ فهي محرمة عند المسلمين.. وأخيراً جاؤوا لنا بالحلوى وبطبيعة الحال لم نكن مرتاحين بالجلوس؛ فنحن نمارس التربع على الطريقة الشرقية لأول مرة، باستثناء دليلنا بطرس الذي أمضى أكثر من عشرين سنة من حياته في مصر والبلاد العربية.. ولم ينقذنا من ذلك إلا رغبتنا في التجوال في المدينة، وحالاً أمر الشيخ ثمانية من الحرّاس ليرافقونا، وقد حاول الربان بكثير من الأدب ثنيهم عن مرافقتنا، ولكن تبين أن وجودهم معنا كان ضرورياً لإبعاد الجمهور عن طريقنا.

وجدنا مدينة الكويت أشبه بمدينة مسقط، ويبدو أن الفرق الواضح بينهما هو النظافة الملحوظة التي وجدناها في الكويت، والكويت مدينة شرقية فائقة النظافة، وبالتأكيد فإن عدد زوار هذه المدينة من الأوروبيين هو قليل جداً؛ لأنها كانت خارج خط سير البواخر، وربما غير معروفة حتى من العرب أنفسهم!.



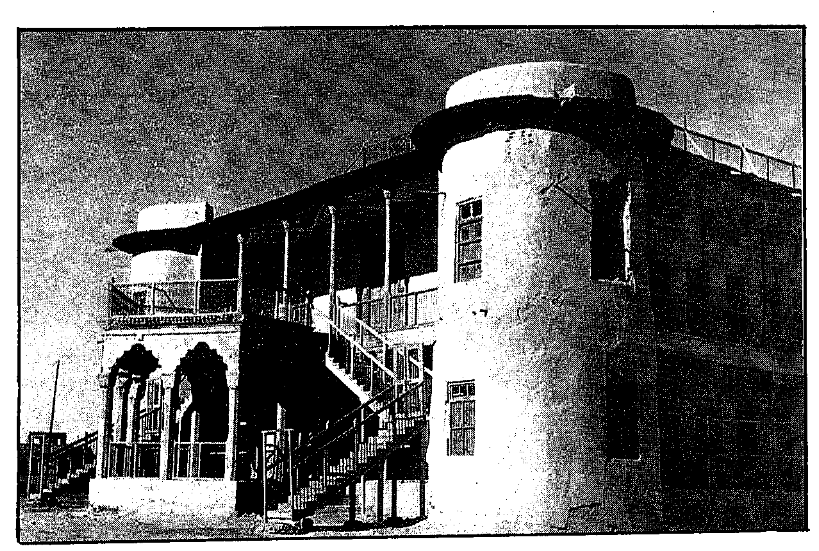
الشيخ أحمد الجابر يزور لندن عام ١٩١٩م وبجانبه همفري بومان
وأحد مشايخ الكويت. عن مجموعة بومان في أكسفورد.



شيخان من شيوخ الكويت.
عن المصدر نفسه



الشيخ فهد السالم.. عن مجموعة
الصور في جامعة أكسفورد



المقر القديم لحاكم الكويت.. تصوير الصحفية الرحالة فريا ستارك ١٩٣٧م



يوسف المطوع، وجيرالد غوري، مع صديق ثالث في جزيرة فيلكا عام ١٩٣٧م
تصوير الصحفية الرحالة فريا ستارك.

العرضة في الكويت

بقلم : اليانور كالفرلي

أول طبيبة في الكويت[1]



حليمة أو اليانور كالفرلي

Eleanor T. Calverley

أول طبيبة للإرسالية الأمريكية في الكويت

تعد العرضة أو رقصة الحرب أهم المميزات التي تتسم بها احتفالات العيد في الكويت الذي يحل في شهر رمضان، إذ غالباً ما تقام هذه العرضة عند أطراف المدينة. وكنا نحب أن نخرج بالسيارة إلى تلك الأماكن لنشهد العرضة الشعبية في هذا البلد... يتقدم أحدهم ليغرز راية في الرمال ليدل على المكان الذي ستقام فيه العرضة. ويقوم العبيد بقرع الطبول ونقر الدفوف، فيجتمع عدد كبير من الناس للمشاركة بالعرضة، أما النساء فيتجمعن بصمت يحملن أطفالهن، تلفهن العباءات السود، وتفصلهن مسافة قصيرة عن الرجال.

ومن الطريف أن يلاحظ المرء التناقض الحاد بين ملابس البنات

---

(١) عن كتاب My Arabian Days and Nights ترجمة عبدالله الحاتم، الكويت ١٩٨٢م. وحوّل المترجم العنوان إلى كنت أول طبيبة في الكويت.

الصغيرات بألوانها الزاهية البراقة، والبشانق السود الجديدة التي تلف حول وجوههن الصغيرة المستبشرة. وفي مرات عديدة كنا نشاهد أثواب النساء الملونة الجديدة تبين أطرافها تحت العباءة السوداء. لقد كانت النساء حقاً يتمتعن بقدر غير عادي من الحرية التي تعطى لهن في أيام العيد.

وفي الوقت الذي يكتمل فيه الجمع الذي سوف يشهد العرضة، يبدأ المشاركون بالرقص، وكلهم من الرجال القادمين من كافة أرجاء المدينة. يقف حوالي أربعين شخصاً يحملون السيوف أو البنادق، ومعهم أكثر من ستين آخرين ينقسمون إلى فريقين، فيهزجون بالتناوب على وقع دقات الطبول ونقر الدفوف، وبجانبهم تقف مجموعة من الرجال هم جماعة البارود «البودرة» يحملون المسدسات. أما المغنون أنفسهم فينقسمون هم أيضاً إلى مجموعتين متقابلتين، فيمسك رجال كل مجموعة بأيدي بعضهم بعضاً ومن حولهم دائرة حملة السيوف والبنادق، بينما جماعة البارود يتوزعون بين الراقصين في الحلقة الخارجية.

وأول ما يلفت الانتباه إلى بدء العرضة صوت المنشدين (رجال الكورس) وهم يتمايلون في المكان من جنب إلى جنب بميل شديد، وبشكل يتناغم مع اللحن.. وترتفع أصوات الرجال بكلام ملحن يمجد الحاكم. وشهامة وبطولات النبلاء الشجعان. وحين ينتهي فريق من المغنين، يتولى الفريق الآخر الغناء بعد قرابة خمس دقائق بادئين من حيث انتهى الفريق الأول بكلمات تنسجم وتتوافق مع كل ما قيل في السابق، أو ترد عليها بأقوال يرتجلها قائد المجموعة كلها الذي تراه

يركض من جانب إلى آخر يوجه ويرشد هذا الفريق أو ذاك. ثم يبدأ حملة السيوف والبنادق بحركة بطيئة والسير حول المنشدين مراعين أن تكون خطواتهم منسجمة مع قرع الطبول، ويشتعل الحماس حين يبدأ الراقصون التلويح بسيوفهم وبنادقهم في الهواء فوق الرؤوس.. وقد يقذف بعضهم سلاحه في الهواء ثم يتلقاه من مقبضه بمهارة فائقة. وهنا يتحرك قارعو الطبول من الوسط للالتحاق بحلقة الراقصين. ومن أجل الإثارة والوصول بالرقصة إلى الذروة يعمد «جماعة البارود» بين الفينة والأخرى إلى إطلاق النار من مسدساتهم المصوبة إلى الأرض فيثيرون الغبار والدخان. تدوم رقصة العرضة حوالي ساعتين على هذا المنوال[١]. ورقصة الحرب هذه تعد بطيئة الحركة مكبوتة النغم، لكنني لا أزال أتذكر غيرها من الرقصات التي كنا نشاهدها تقام في الصحراء ويشترك فيها عدد من الفرسان العرب وتتضمن حركات وألعاباً تثير حماسة المتفرجين.

وفي الحقيقة ليس من الصعب في مثل هذه الاستعراضات تصور وجوه الفرسان العابسة فوق الخيول العربية الضامرة، وكأنها وجوه رجال ذاهبين إلى المعركة حقاً، وهم يهتفون هتافات الحرب ويولوحون بأسلحتهم.

كانت رقصات الحرب في الكويت حتى عام ١٩٢٠ مجرد ألعاب يقلد فيها المشاركون المعارك الحقيقية ليس أكثر، مع أن الكويت مدينة تحب السلام، وشعبها يتمسك بالنظام والقانون، والقانون سائد. ولقد أثبت الشيخ مبارك الصباح في أيام حكمه على أنه حاكم قدير استطاع أن يمسك بزمام الأمور في مشيخته التي تضم بالإضافة إلى مدينة

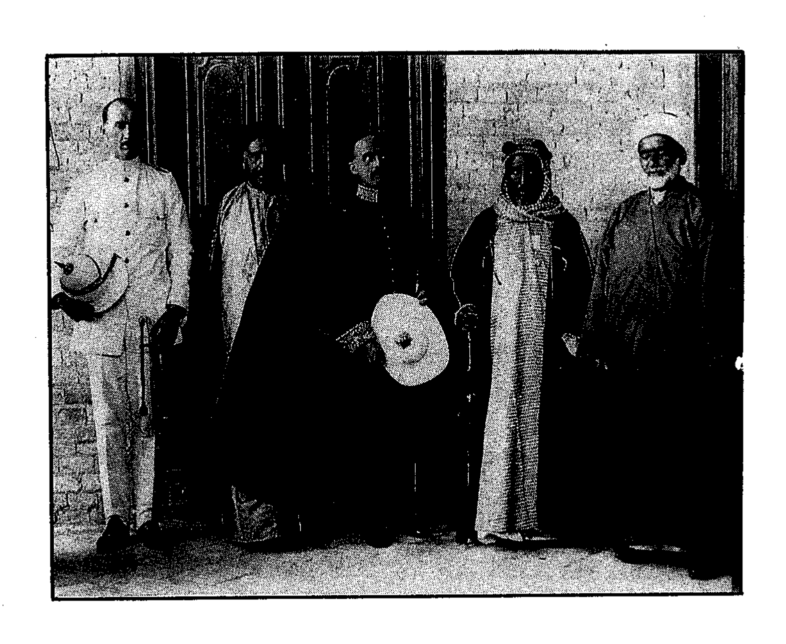
---

(١) استفادت الدكتورة أليانور كثيراً من وصف ديكسون للعرضة النجدية.

الكويت أكثر من ستة آلاف ميل/مربع من الصحراء التي تتوسطها بعض القرى الصغيرة والواحات، وأكبر تلك القرى كانت الجهراء التي تقع عند الشاطئ على بُعد ثمانية عشر ميلاً إلى الغرب من الكويت. إنه من الأمور الجديرة بالاهتمام أن تكون مدينة الكويت بمنأى عن الغزوات في الوقت الذي كانت فيه الصحراء الكويتية تعج بالغزو.. ها نحن الآن في العام ١٩٢٠م في وقت يتولى فيه الشيخ سالم بن مبارك الصباح حكم الكويت.



العرضة النجدية تراث أصيل في دولة الكويت..
لا زالت تقام في الأعياد والاحتفالات والمناسبات الرسمية.



الشيخ سالم المبارك الصباح (الثاني إلى اليمين)

أمير الكويت ما بين (١٩١٧ - ١٩٢١م) أدركت عهده اليانور كالفرلي.. وكتب عن صموده في الدفاع عن الكويت خلال حصار الجهراء عام ١٩٢٠ أكثر من رحالة ويبدو في الصورة على يساره السيد رجب النقيب وعلى يمنيه معتمدان لبريطانيا في بعض دول الخليج والكويت: نوكس Knox (؟) والكابتن مكلم C. Mecollum يتوسطهما الشيخ خزعل أمير المحمرة.

القهوة العربية أو البن في الموروث الشعبي . . وروايات الرحالة

كانت الجزيرة العربية طوال عصور عديدة بلد الطيوب والعطور، وساحل الطريق البحرية إلى بلاد الهند، إلا أنها غدت في القرن الثامن عشر ولمدة طويلة بلاد البن.

●● جاكلين بيرين[١]

كثير من الناس الذين اعتادوا أن يحتسوا كل يوم فنجاناً أو أكثر من القهوة لا يعلمون أن هذا المشروب الأسود الساخن الطيب الرائحة ذا النهكة المنعشة كان قد أحدث ثورة في السلوك والعادات والعلاقات الاجتماعية في مختلف بقاع العالم، وأن الوطن العربي كان يصدره، حتى لقبت بلادنا العربية ببلاد البن. وهناك مجموعة من القصص والحكايات معروفة في ديار العرب عن اكتشاف البن رواها بعض الرحالة، تذكر منها: أنه حوالي عام ٨٥٠ ميلادية كان أحد رعاة الماعز في عدن، واسمه خالدي لاحظ أن بعض العنزات كلما أكلت من براعم إحدى الشجيرات البرية وثمارها، ازدادت نشاطاً، ويقظة بعد تناولها، فأخبر الفتى ولياً من الأولياء في منطقته، فأيقن أن أثرها على الإنسان سيكون أعظم من أثرها على الحيوانات، وسوف تساعد الدراويش من أتباعه على السهر وقضاء الليل في العبادة؛ فجربها الشيخ على نفسه وشربها باردة أول مرة فلم تحدث فيه أثراً، ثم جربها ساخنة، فلاحظ أن مشروبها قد جعله يتصبب عرقاً، وأحس بالصفاء الذهني، فدعا الناس لتناول هذا الشراب، وما إن حل عام ١٥٠٠م حتى كانت قد وصلت مكة المكرمة حيث كان الرجال يشربونها وهم جالسون للعب

---

(١) اكتشاف جزيرة العرب.

«المنقلة أو السيجة»[1]. ومن المؤكد أن أهل اليمن هم أصحاب الفضل في احتكار زراعة البن، ثم نقله الهولنديون وزرعوه في جبال الأنديز في القرن الثامن عشر، وانتشرت زراعته في كثير من البلدان. كما أن شراب القهوة كان معروفاً في اليمن على نطاق واسع في مجال الطب الشعبي، وحوّله المتصوفة من مشروب فردي عادي ضمن الوصفات الطبية إلى مشروب اجتماعي احتفالي مرتبط بالكرم والشرف والشجاعة وعلو الهمة. ولعل الاسم جاء من «البنَّة» وهي الريح الطيبة في غالب الأحيان. ومن أشهر المتصوفة الذين قاموا بطبخها الشيخ محمد بن علي السودي الذي توفي في تعز حوالي عام ٩٣١هـ ولهذا قال فيه أحد الشعراء:

قهوة البن جلٌّ مقصودي	في الخفا والعلن
هام فيها إمامنا السودي	قطب أهل اليمن
وطبخها بالنَّدِّ والعود	وبغالي الثمن

كان البن يستخدم كغذاء ودواء في بلاد العرب قبل أن يصبح مشروباً شعبياً شائعاً، وفي حوالي عام ٩٠٠ للميلاد تحدث الطبيب الفيلسوف العربي المسلم «بكر بن محمد بن زكريا الرازي» عن القهوة في إحدى مقالاته فسماها «البنكا» أو «البنشوم» ولا تزال كلمة بنة تعني القهوة في أثيوبيا، وتلاه بعد مئة عام الطبيب ابن سينا، فوصف خواص القهوة بقوله:

«إنها تقوي الجسم وتنظف الجلد، وتضفي على البدن رائحة جميلة» ثم صدر بعد ذلك كتاب في أوروبا يصف القهوة كدواء للسعال، وملين للهضم، وكعلاج للحصبة والجدري، وذكر الكتاب أنه يمكن أن يكون للقهوة بعض المضار الجانبية كالتسبب في الصداع

---

(١) اليزابيث مونرو – مقالة تاريخ القهوة العربية، مجلة الفيصل العدد ٤، ١٩٧٧م.

والأرق والشعور بالكآبة والحزن!. وقد كثر الجدل في الوطن العربي حول الحل والحرمة بالنسبة للقهوة حتى إنها حرمت أيام المماليك، إلا أنها تابعت انتشارها على يد عشاقها بعد أن انطلق بها الركبان من اليمن، وتجاوز استعمالها حلقات المتصوفة لتصبح المشروب الشعبي الأول من اليمن إلى أطراف بلاد الشام الشمالية، ووصلت إلى القسطنطينية مع الحجيج حوالي عام ١٥٥٤م، وبعد مجابهات ثانية هناك، أرست قواعدها، ورسخت تقاليدها، ثم مضت تعبر الحدود والبحار إلى مختلف أنحاء المعمورة(١).

وبالرغم من أن الإشارات الأولى للقهوة تفيد أنها ظهرت في ديار العرب، إلا أنهم حرصوا على احتكار زراعة البن وإخفاء سره. ومضت عدة قرون لم يسمح خلالها بإخراج أي بذرة أو نبتة منه إلى خارج حدود الجزيرة العربية، كما لم يسمح لأي أجنبي بزيارة مزارع البن فيها.

انتشرت القهوة في المدن العربية، كما انتشرت على نطاق واسع في البوادي العربية، حيث أخذت بيوت الشيوخ تقدمها للضيوف ومن ثم إلى عامة الناس.. فأصبح البدوي يستغني عن الأكل والشرب ويجوع، ولكن لا يمكن له أن يستغني عن القهوة، فهي شرابه المنعش، وقد ينفق أحدهم ثمن بن السنة أكثر مما ينفق على طعامه ولباسه، قال الشاعر البدوي محمد العوني:

وين الطنايا وين شرَّابة الهيل

وين الحيود اللي تشيل الثقايل(٢)

---

(١) القهوة العربية في الموروث الشعبي، محمود مفلح البكر، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت ١٩٩٥م.

(٢) الطنايا لقب لقبيلة شمر فيقال شمر الطنايا، والحيد هو الجبل.

وين السيوف اللي تعدل عن الميل

وين الرماح التي نحت كل عايل

لقد ملكت القهوة على الناس اهتمامهم، فأخذوا يجتمعون في الأماكن العامة الفسيحة لتناولها.. ثم تحولت إلى المقاهي المعروفة في العواصم العربية. ومن نوادر بعض الرحالة أنه مر في مدينة عربية خلال الحرب العالمية الأولى، فوجد أن السكر كان مفقوداً فأخذ نادل القهوة يقدم تمرات يمضغها «الزبون» قبل أن تدار عليه فناجين القهوة.. ولا أدري فيما إذا كانت الظروف هي التي جعلت بدو الجزيرة العربية يقدمون التمر «القدوع» قبل تقديم القهوة للزوار والضيوف. هذا هو حال القهوة في ديار العرب، فكيف انتشرت وشاعت بعد ذلك؟!

يبدو أن البن قد شاع على المستوى الشعبي في البلاد الغربية منذ مائتي عام تقريباً، فأحدث ثورة في العادات والتقاليد، وكان الاجتماع لتناوله دافعاً لبناء المقاهي والصالونات التي تُزين بالتحف والمناظر واللوحات الفنية، وبالآرائك والكراسي وفاخر الأثاث، حتى أصبحت ملتقى للأدباء والشعراء والفنانين ورجال الفكر والسياسة، ولم تعد تجد عاصمة في الغرب إلا وفيها أشهر المقاهي والصالونات. وقد خصص الموسيقار «جان سيباستيان باخ» للقهوة أعذب ألحانه، وذكرها بعض الشعراء الباريسيين في أشعارهم.

وتعود المحاولات الجدية للتعرف على شجرة البن من قبل الأوروبيين إلى ما بين عامي ١٧٠٨ - ١٧١٣م حيث تشير الرسائل التي دوَّنها بحارة سفينة بريطانية تدعى «سان مالو» إلى ذلك وهم ينقلون السلعة الجديدة من اليمن إلى أوروبا، ولم تكن هذه الرسائل ذات قيمة في البداية لولا أن دبجها النبيل الفرنسي «دي لاروك» ومن

حسن الحظ أن طبيباً من البحارة كان على ظهر إحدى السفن.. وكان لديه ميل لعلم الطبيعيات، فكلما نزل إلى اليابسة في اليمن سأل عن تلك الشجرة الثمينة، وقام برسمها وفحص أجزائها والتعرف على طريقة زراعتها... فكانت هذه الملاحظات وغيرها زاد لاروك في تدوين كتابه: «رحلة البلاد العربية السعيدة» كان دي لاروك ابن رحالة فرنسي كبير من مرسيليا جاء وجلب البن إلى فرنسا لاستعماله الشخصي حوالي عام ١٦٤٤م، وهو في الأصل من مدينة باريس العريقة، ولهذا جمع ما قيل عن البن وما أحدثه من عادات وعلاقات اجتماعية، كما دون أشهر القصائد التي قيلت في هذا المشروب القادم من الشرق.

قلنا إن البن قد أحدث استعماله ضجة، فدارت من أجله مناقشات جادة بين عشاقه من جهة وبين رجال الدين والمهتمين بشؤون الصحة العامة، فهل هو حلال أم حرام؟ وهل هو ضار بالصحة أم مفيد؟! ففي بلاد الإسلام التي كانت تحكمها الدولة العثمانية شك به رجال الدين، فرأوا في البداية تحريمه مثلما حرمت المسكرات، واشتد الجدل بشأنه في كل من مكة والمدينة، وفي القاهرة واستانبول، فأغلقت المقاهي ولكن هذا الأمر لم يدم حيث أعيد فتحها من جديد، وشاع استعمال البن في البيوت حتى أصبحت أدوات تحضيره من الأدوات اللازمة في كل بيت. وعندما ذاق الرحالة الغربيون طعم البن في بلادنا، أعجبوا به، كما شربه السياح في كل من مصر وتركيا، ووصل معهم إلى البندقية في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، كما شاع في لندن وامستردام عام ١٦٣٣م. ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت مدينة مرسيليا ومدينة ليون في فرنسا مركزاً لتخزين البن القادم من الشرق لقربها من الموانئ العربية، وعندما شاع استعماله في أوروبا أحدث ضجة كما أحدث في بلاد الإسلام. فقام طبيب شاب

عام ١٦٧٩م بتقديم أطروحة طبية عن البن عنوانها: «أثر البن على الصحة» أكد فيها وجود المواد المنبهة النافذة في البن. وأنها تصل إلى الدماغ وتحدث فيه التنبيه. ولم يستطع المعهد الطبي الذي تخرج منه هذا الطبيب إقناع الناس بتركه، وعلى العكس أخذ ينافس الخمرة ليس في فرنسا وحدها بل في مختلف البلاد الأوروبية.

افتتح تاجر أرمني بعض المحلات لتقديم القهوة لعامة الناس في باريس، فكانت البداية لانتشار المقاهي الشعبية في أوروبا مزينة بالأثاث والمرايا واللوحات الفنية والثريات ويقدم فيها البن والشاي والحلوى، فقدرها الناس واهتموا بارتيادها لما فيها من سحر المنادمة والمحادثة، حيث عدت بعض المقاهي ملتقى للأشراف والأدباء والشخصيات المعروفة برزانتها، ففيها كان يتوفر الجو الهادئ للمناقشات الأدبية والتاريخية، وقد أُحصى في باريس في القرن الثامن عشر أكثر من ثلاثمائة مقهى.. وهكذا أصبحت الحبات الصغيرة التي تنتجها شجيرات البن في اليمن ذات قيمة دولية، فافتتح الهولنديون وكالة تجارية لتصدير البن في ميناء المخا على البحر الأحمر، وأصبحت شركة الهند الشرقية تخصص سفينة خاصة لنقل البن إلى مدينة لندن.

لفت انتباه الرحالة إلى أن زراعة البن في اليمن تتم في المناطق العالية التي يقل ارتفاعها عن ألف متر فوق سطح البحر، وأن شجيرة البن تحمل أزهاراً تعطي ثماراً حمراء جافة: وعندما تنضج الثمار تفرش حصر تحت الشجيرات فتهز لتتساقط حبات البن جافة إلى الأرض. وقد حدث تجمع كبير من الناس في باريس لمشاهدة شجيرة من البن تحمل الثمار جاء بها تاجر هولندي هدية إلى الملك لويس الخامس عشر حيث عرضها في حديقة قصره. والهولنديون هم أول

من اهتم بزراعة البن حيث زرعوه في جزيرة جاوة في أندونيسيا، ونقلوه إلى البرازيل فانتشر هناك على نطاق واسع لينتج آلاف الأطنان، لذا قل الطلب على البن العربي شيئاً فشيئاً، وفقدت الجزيرة العربية أهميتها في تصديره، ولكن يكفي ميناء المخا فخراً أن اسمه كان يرتبط بأفخر أنواع البن في العالم، كما يكفي بلاد الرافدين فخراً في أنها صدرت إلى العالم القمح وعلمتهم زراعته فأصبح رغيف الخبز قوتاً للجياع في كل مكان.

ويعد شراب القهوة وسيلة لتكريم الضيوف في البوادي العربية، حيث يحتفظ بأدواته شيخ القبيلة العام أو بعض الشيوخ في القبيلة، وكان متعة الفرسان بعد عناء التجوال في البوادي، وبعد المعارك الحربية حيث تقدم للرجال الشجعان، كما أنها تقدم في المجلس كمساعد للسهر والسمر ولا يحرم منها إلا النذل الخسيس، ويعد حجب فنجان قهوة الشيخ عن أي شخص إهانة بالغة، ولأدوات تحضير وإعداد القهوة أسماء تراثية نوجزها كما يلي:

١ - **الظبية** : جراب من جلد تخزن فيه حبوب القهوة، يبدو أنها كانت تصنع من جلد الظباء.

٢ - **المحماس** : مقلاة من الحديد ذات صحن دائري مقعر عريض الحافة يتصل بمقبض مضلع طوله أقل من متر ويتدحرج نحو النار غالباً على عجلتين. تحمس به القهوة حتى تصبح شقراء، والمحماس يكثر ذكره في شعر البدو كعلامة من علامات الكرم. قال عبدالله بن سبَّيل:

مــركي دلال نجــرهن مــايبــات

محــماسـهن دايم على النار حـميان

وترافق المحماس يد معدنية مفلطحة النهاية تدعى يدالمحماس تقلب بها حبات البن عند تحميرها بالمحماس على النار.

٣ - **النجر** (المهباش) يصنع من خشب البطم أو الجوز، وحديثاً من الصِّفر أو النحاس المصفر الرملي، مجوف وله يد للدق وسحق حبات القهوة، وصوت المهباش يدل الضيفان على بيت الشيخ دون بقية البيوت كما أنه يُدق في الملمات لجمع الناس، أو للإعلان عن قدوم ضيف مهم إلى القبيلة. قال دغيم الظلماوي:

بنجـــر توالي الليل تســـمع مـــدبه

وتســـمع لحســـه قـــول ذيب ينبـــابي

٤ - **الدلال** : أوعية نحاسية لغلي القهوة، والتسمية ابتكار شعبي، وربما جاءت التسمية من الدلال لكونها شبيهة بالفتاة الحسناء.. مخصورة ممشوقة مما يجعلها رمزاً للأنوثة البكر، وربما جاءت التسمية لأنها تدل الضيفان على بيوت الكرم، وهي رمز كبير من رموز الكرم عند البدو الذين تجول في مضاربهم الرحالة، والدلَّة تكون مختلفة الأشكال والحجوم، وطاقمها عادة يتكون من ست دلات:

- الدلة البكر: يطبخ بها القهوة وتسمى القمقوم عند بعض القبائل.
- الدلة المطبخ: لطبخ القهوة الثنوة حيث يطبخ فيها الراسب من الدلة البكر.
- الدلة الخادم: التي تُرقَّدُ فيها القهوة البكر بعد وضع حبات الهيل فيها وعموم البهارات.
- ثلاث من الدلات المتساوية بالحجم، وكل واحدة منها أصغر من الخادم تسمى دلات المصب، وهي التي يُصب فيها

للضيوف.. إن فرغت واحدة يستعان بالثانية، وتجدد القهوة قبل أن تفرغ آخر دلة من المصب.

وقد يزيد العدد أو ينقص، واشتهرت بعض المدن العربية بصناعة دلال القهوة، ولها نماذج محددة منها: الصالحانية نسبة إلى الصانع الدمشقي «محمد آغا الصالحاني» والرسلانية نسبة إلى صانع بغدادي اسمه رسلان قال الشاعر:

أدني على بالي دلال رسـلان

وبَرِّية يطرب لهـا كل جـلاس

ومنها الحساوية نسبة إلى منطقة الأحساء، والكويتية نسبة إلى الكويت، ومنها: النموذج القطري والنموذج الاستانبولي[1].

٥ - **الفناجين** : والكلمة يبدو أنها مشتقة من الفارسية تصنع من الخزف أو الزجاج أو النحاس وهي كبيرة ومتوسطة وصغيرة، والبدو يفضلون الكبيرة.. ولا تكثر كمية القهوة في الفنجان إذ يصب لما يكفي لثلاث حسوات، إنها للدماغ وليست للفرث. فأول فنجان هو للضيف وعندما يثني له فهو للكيف، والثالث للسيف إذ يقدم للشخص عندما تطلب نصرته أو يُطلب منه قتل فارس معاد للقبيلة، فيروى أن إحدى القبائل عرضت فنجان السيف لمن يقتل خصماً اسمه الطويل فقبله أحدهم، ولما تقابل مع الطويل في المعركة أنشد الطويل قصيدة:

يا من لقى لي شارب الفنجان   شـراب فنجـان الطـويـل
كانـك شجاع فـانطح الخيال   وافعـل ليـاهـاب الذليـل

(١) القهوة في الموروث الشعبي، محمود مفلح البكر.

وقد يكون الفنجان للطلب: كأن يقدم الفنجان للضيوف أو القادمين فيأخذوه ويرموه أرضاً فيفهم المضيف أن للقادمين حاجة يطلبون قضاءها.. فإن قال اشربوا حاجتكم مقضية شربوا، وإلا انصرفوا.

٦ - صينية القهوة: وفيه ترتب الفناجين نظيفة وبقربهن قطعة من القماش الثخين حُشيت بالقطن أو الصوف لوقاية يد الساقي من حرارة مقبض الدلة تدعى عند بدو الشمال «البيج» ولهذا قال شاعرهم:

حسبت البيج بيج لكن البيج خرقة

ومعد القهوة يسمى الصانع أو القهوجي أي صانع القهوة، وغالباً ما يكون من العبيد أو الرجال المتخصصين بصناعة القهوة، وعليه أن يحرص لتقديمها لكل من يدخل المضيف، إذ يحمل الدلة باليد اليسرى ويقدم الفنجان باليد اليمنى.

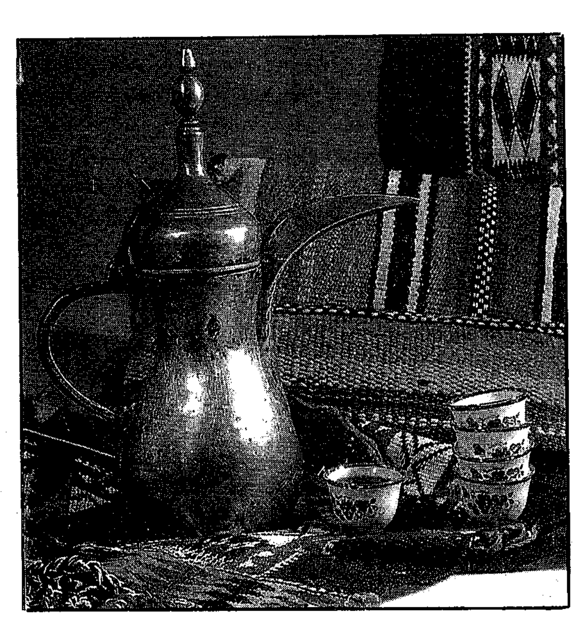
وقد استطردت بالوصف حتى يستوعب القراء وصف القهوة وأدواتها التي شاهدها الرحالة في البادية العربية، فمنهم من أجاد الوصف، ومنهم من أعطى تسميات غير تراثية كتسمية الفناجين بالكؤوس، والدلال بأباريق القهوة وغيرها.

أولاً - القهوة في مذكرات بالجريف : قال بالجريف: القهوة هذه منتشرة في الجوف وجبل شمر، ولكن في نجد والمناطق الأخرى البعيدة في جنوب أو شرق الجزيرة العربية فيحتل مكان الموقد تجويف الأرض.. حيث يتوفر الخشب.. وركن القهوة في المجلس مكان للتكريم، فهنا يجلس صاحب الدار نفسه أو الضيوف الذين يسره إكرامهم. وعلى الطرف العريض للموقد أو مكان النار توجد سلسلة من أواني القهوة المصنوعة من النحاس الأصفر وهي في



هوليت ديكسون وجارتها عمشة. وأمامهما دلال الكولونيل ديكسون
وعدة صنع القهوة العربية... في مخيم ربيعي لديكسون في بر الكويت

الدلـة الرسـلانيـة: ممـتـدة الخصر، ممشوقة، صغيرة القاعدة، فوهتها متناسبة مع قاعدتها، غطاؤها أشبه بقبة ناهضة يرتفع وسطها عمود طويل نسبياً. وبجانبها مجموعة من الفناجين.



مختلف الأحجام والأشكال وصناعتها هنا في الجوف رائجة مثل صناعتها في دمشق، ولكنها في نجد والمناطق الشرقية مختلفة وأكثر زينة، فهي طويلة ونحيلة جداً وتزينها حلقات عديدة. وعدد هذه الأواني كثير دائماً لدرجة تثير العجب، وقد رأيت اثنتي عشرة آنية منها مرصوصة في صف بجانب النار رغم أن صنع القهوة يحتاج في الحقيقة لثلاث منها على الأكثر. وتعتبر خمس أو ست منها كافية هنا في الجوف[1] ولكن هذا العدد يضاعف في الجنوب ليشير إلى ثراء مالكها وكرمه وبالتالي كثرة تردد ضيوفه وكمية القهوة التي تصنع لهم، يجلس قرب الموقد على الأقل عبد أسود وخاصة في منازل الأثرياء، وفي المجلس الذي أصفه كان اسمه سويلماً وظيفته إعداد القهوة وصبها. وعندما لا يوجد عبد عند الأسرة يقوم بهذا الواجب صاحب البيت نفسه أو ربما أحد أبنائه. وهو واجب متعب في غالب الأحيان... يبدأ سويلم في إعداد القهوة دون تأخير وذلك بالنفخ بالكير نحو مدة خمس دقائق، وبتنظيم قطع الفحم حتى تتقد وتتولد منها حرارة كافية. بعد ذلك يملأ أكبر إناء إلى ثلثيه بماء صاف، ويضعه عند طرف الجمر المتقد ليصبح الماء دافئاً على مهل بينما تجري التحضيرات الأخرى. ثم يأخذ خرقة متسخة مصرورة، فيفتحها ويأخذ منها من ثلاث إلى أربع حفنات من البن غير المحمس، ويضعه على حصيرة صغيرة، ويلتقط بحرص الحبوب المسودة والشوائب التي تكون مختلطة مع البن عند شرائه بالجملة. يضع سويلم البن في مقلاة من الحديد كبيرة يقدمها إلى النار ويحركها بلطف حتى تتشقق مصدرة صوتاً، وتحمر وهي تطلق دخاناً خفيفاً ثم يسحبها بحرص من الحرارة قبل أن يتحول لونها إلى السواد. خلافاً للطريقة التركية في تركيا وأوروبا. بعد ذلك يضع المقلاة على الحصير لتبرد، بينما

---

(١) التراث الشعبي في أدب الرحلات، د. أحمد عبدالرحيم نصر، الدوحة ١٩٩٥م.

يقدم الماء الدافئ على الجمر ليغلي في اللحظة المناسبة، ويسحب بين ساقيه العاريتين هاوناً ضخماً له فتحة ضيقة في وسطه لكنها كافية لدخول المدق.. وبعد أن يصب فيه حبات البن المقلي يبدأ في طحنها. فضربات سويلم موزنة لا تخطئ الفتحة أبداً فتصبح الحبات نوعاً من الجريش المحمر الخشن.. بينما قهوة البلدان الأخرى تطحن حتى تصبح كالفحم الناعم... يأخذ سويلم إناء قهوة أصغر من السابق ويملأ أكثر من نصفه ماءً ساخناً ويضع فيه البن المسحوق ثم يقربه من النار ليغلي، ويحركه من حين لآخر بعود صغير كلما ارتفع الماء ليوقف فورانه ويمنع تدفقه، ومرحلة الغليان ليست طويلة ثم تهدأ الدلة عن الغليان. وفي فترة الراحة يأخذ سويلم من خرقة مصرورة قليلاً من حبات الهيل – هو محصول هندي أجهل اسمه العلمي – أو يأخذ قليلاً من الزعفران، وبعد أن يسحقها يرميها في دلة القهوة ثم يترك الدلة تغلي ببطء لتتحسن نكهتها. وإضافة البهار لا يمكن الاستغناء عنه في وسط الجزيرة العربية، ولكنه لا يضاف في شرق الجزيرة العربية.. وأخيراً يصفي سويلم السائل عبر ألياف مأخوذة من اللحاء الداخلي للنخيل موضوعة لهذا الغرض في فم الدلة.. كما يجهز فناجين القهوة الصغيرة الحجم. ويأخذ إعداد القهوة قرابة نصف ساعة.

عند هذا الوقت تصبح القهوة جاهزة ويبدأ سويلم دورته، وإناء القهوة في يد، والفناجين في اليد الأخرى، وحسب أصول الضيافة لا بد أن يشرب هو نفسه الفنجان الأول ليؤكد عملياً جاهزية القهوةوليؤكد خلو القهوة من السم[١] ثم يقدم القهوة للضيوف بادئاً بالجالسين قرب النار. أما رب البيت فهو آخر من يستلم فنجانه.

(١) هناك وصف مماثل لإعداد القهوة وصبها للضيوف ذكره دوتي في مذكراته، وأفاد دوتي أن القهوة قد تكون وسيلة يدس فيها السم لبعض الخصوم، ولهذا لا بد من أن يتذوقها صاحب المضيف أو القهوجي علناً أمام الناس.

ويعتبر رفض القهوة إهانة لا تغتفر. ولكن ليس في الفنجان على أية حال قهوة كثيرة ليشربها المرء، فالفنجان بحجم البيضة الكبيرة ولا يملأ لأكثر من نصفه. وربما يعاد صب القهوة لأكثر من مرة، ولكن كمية القهوة التي يشربها الضيف في المجلس الواحد من كل هذه الفناجين لا تساوي ما يأخذه الأوروبي من القهوة في رشفة واحدة خلال وجبة الإفطار».

ثانياً - القهوة العربية في مذكرات آن بلنت : حللنا ضيوفاً عند الجغايفة[١] وكان مضيفنا هو الشيخ سطم أوجه رجل فيهم، فقد ميزناه بمظهره وطباعه. كان سطم نبيلاً متواضعاً حسبنا في البداية أنه فظ الطباع، لأنه استقبلنا بفتور حتى ظننا أنه لا يرغب بوجودنا في بيته، ولكن تبين لنا أن تصرفه هذا كان حياءً[٢] مضت عشر دقائق لم ينطق بكلمة واحدة، باستثناء كلمات أطلقهن بصوت متهدج مرتفع آمراً رجاله لذبح خروف، وآخرين لجلب الحطب وإشعال النار، بينما كانت النسوة خلف الستار منهمكات بصنع الخبز وإعداد التمر والزبدة في أوان كبيرة.

لم يلتفت سطم إلينا بل جلس يدق القهوة بنفسه كما لو أن حياته كانت تعتمد على هذا الدق.. جلسنا ببساطة على سجادة طرحت خلف موقد النار بحزمة من نبات الخزامى (الشيح) البري الزكي الرائحة، ثم وضع الماء في دلة كبيرة، وقربها من النار حتى الغليان بعد أن وضع القهوة فوقها.

التزم سطم بهدوئه طوال الوقت، وأفرغ القهوة في دلة ثانية ثم

---

(١) الجغايفة من عشائر العراق وسورية ومضاربهم التي ذكرتها الليدي بلنت بعد مدينة عانة على الفرات.

(٢) يجهل مثل هؤلاء الغرباء بأن الضيف عندما يدخل لا يُسأل في البداية، وتعد القهوة له تعبيراً عن إكرامه والترحيب به.. وكم كان يجهل كثير من الرحالة العادات العربية فأخطؤوا في تفسيرها.

قدمها لنا. تذوقت القهوة العربية فوجدتها قوية ممتازة، وأعجبت بفناجينها الخزفية التي تدار لكل الناس أكثر من مرة، وفي كل مرة يضع الساقي عدة ملاعق في الفنجان الواحد.. وهكذا حتى نهايتها.

دواوين القهوة العربية : كانت القهوة تدار في بيوت خاصة من القبيلة هي بيوت الشيوخ والوجهاء، عندما كانت القبائل ترتحل في البوادي وتبني بيوت الشعر التي أطلق عليها كارل شوان اسم الخيام السود، والخيام العربية تنسج عادة من شعر الماعز بشكل طرائق متطاولة (الشقق) تخاط إلى بعضها وتربط بالأطناب أو الحبال إلى أوتاد تدق في الأرض وترفع بالأعمدة التي عددها يدل على أهمية صاحب الخيمة، وتحاط الخيمة بالرواق الذي يدار عادة بعكس هبوب الريح بينما يبقى الجانب المعاكس مفتوحاً. والأعمدة العالية تدل على



الشيخ هجر أبو وتيد.. شيخ الفداغة من شمر في الجزيرة الفراتية يتأهب مع جماعته لاستقبال الضيوف. وقد مرت الليدي آن بلنت في مضارب شمر الشمال عام ١٨٧٨م ووصفت المضافات «الديوانيات العربية» بدقة متناهية.

رفعة صاحب البيت حتى قيل: «فلان طويل العماد» فخيمة الأرامل وعامة الناس فيها عمود وسطي واحد بالإضافة إلى العمودين الجانبيين بينما بيوت الشيوخ فيها أكثر من عمود وسطي واحد، وقد اعتبر الرحالة الإنكليزي «أبيتون» أن أكبر خيمة عربية شاهدها في الصحراء كانت خيمة سليمان بن مرشد من بدو السعية من عنزة، وخيمة إبراهيم باشا الكردي في الجزيرة الشمالية كانت بستة عشر عموداً.. وحالما تنصب الخيمة تحفر فيها حفرتان: حفرة لموقد الطبخ في المكان المخصص للنساء، وحفرة النفيلة أو الموقد في محل الضيوف «الديوانية»... تعد لتحضير القهوة العربية. وعندما أخذت القبائل تستقر في الأرض وتبني الدور من الحجر كذلك خصصت ديوانيات خاصة لاستقبال الضيوف، وتعد مجلساً للرجال. وقد وصف كل من دوتي وبالجريف دواوين الحجر في شمال الجزيرة، وعجبت الليدي آن بلنت من ديوان محمد العبدالله الرشيد في حائل ووصفت دلال القهوة العربية وقدور الطبخ التي يتسع الواحد منها لثلاثة من الإبل. ثم تحولت الديوانيات العربية في بعض المدن العربية إلى منازل خاصة قد يجتمع صاحبها مع الناس مرة أو مرتين في الأسبوع بينما كانت الديوانيات العربية في الماضي مفتوحة للناس ليلاً نهاراً!.

وأقول بحق: إن المضافة العربية أو الديوانية العربية كانت مكاناً للإعلام والتثقيف يسمع فيها الناس الأخبار والقصص والأشعار وأحوال البلاد وتصريف شؤون الناس، وفض المنازعات.. تعلم الفتيان الأدب وأخلاق الرجال، وتربط الناس بتراثهم، وليست بقيّة من الماضي المتخلف كما يصفها بعض الجهلة الذين يريدون منا أن ننسلخ من جلدنا وننسى تراثنا وعاداتنا وأخلاقنا وأولها عادات الكرم العربي.

وقد دهش الرحالة في البداية لكون العرب يقدمون الطعام للضيفان مجاناً ودون مقابل، فسطم العربي الذي حلت في بيته الليدي

بلنت قرب مدينة عانة على الفرات عام ١٨٧٨م ذبح لها وللقافلة خروفاً وأكرمهم أيما إكرام، فتراهنت مع زوجها ولفرد أن الرجل لا بد وأن يطلب مالاً في الصباح، وعندما ودعوه في الصباح قالوا له: أية خدمة تطلبها منا؟ فقال لا أطلب شيئاً سوى أنكم إذا عدتم في الطريق ذاتها ثانية أن تحلوا في بيتي وحياكم الله.. على الرحب والسعة. فقالت الليدي: «إن الغربي لا يزال بعيداً عن فهم الأخلاق والعادات العربية النبيلة». وقد خصصت للمضافة العربية ولمبدأ الكرم العربي بحثاً في نهاية كتابها: «قبائل بدو الفرات» جاء فيه:

«ولعل فضيلة البدو الكبيرة هي في حسن معاملتهم للضيوف، وحسن الضيافة بالنسبة للأوروبي، لا يزكي النفس مثل العدل والرحمة لأنه فضيلة طبيعية.. فالأمر يتطلب شيئاً أكثر من غريزة الشعور الطيب العادي لكي يبقي المرء بابه مفتوحاً على مصراعيه للغرباء، وأن يذبح في كل مرة خروفاً، ويشارك الآخرين رغيف خبزه، ومع هذا فالبدو لا ينظرون إلى الضيافة مجرد واجب عادي، بل هي واجب بأمر إلهي وعمل أولي يدركه كل ذي عقل سليم. أو رفض إيواء الغرباء أو عدم تقديم الطعام لهم فلا يعتبر عملاً شريراً فقط، وإنما هو إهانة لله وللإنسانية، ويعتبر قمة في الانحطاط الخلقي، والذي يتصرف مثل هذا لا يمكنه أن يكسب مرة ثانية احترام أو تسامح جيرانه... هذا هو الشعور السائد بين كل القبائل العربية بدوية كانت أو غير بدوية.. ولكن شدة الالتزام بكرم الضيافة قد يختلف بين قبيلة وأخرى».

إن الكرم العربي هو من الأخلاق والعادات الأصيلة عند العرب قبل الإسلام، وقد عززت هذه الأخلاق بعد أن بعث النبي محمد ﷺ بدعوة الإسلام في ديار العرب، حيث قال: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» فجده

هاشم أول من هشم الثريد للضيفان، وابن عمه عبيد الله بن عباس أول من وضع الطعام للضيفان في الطريق. قال الطفيل بن عامر:

كنا نجيء ابن عباس فيسقينا
علماً ويكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيد الله مترعة
جفانة مطعماً ضيفاً ومسكينا
ألا در الليالي كيف تضحكنا
منها خطوب أعاجيب وتبكينا

وبطبيعة الحال عجب الرحالة الغربيون من الكرم العربي، ومن الطريقة التي تعد فيها القهوة العربية وتقدم للضيوف، فهم من مجتمع مادي لا يمكن أن يقدم أحد مساعدة لأحد دون أن يرجو تحقيق مصلحة، أو الحصول على شيء ما.

ولكن إلى من تقدم القهوة العربية أولاً؟! هل تقدم لصاحب المضافة؟! أم للضيوف، أم للفرسان الشجعان؟! لقد دوَّن الرحالة أكثر من قصيدة نبطية في حق القهوة العربية، ولمن تقدم هذه القهوة؟ آراء متعددة نذكر منها ما ورد في قصيدة الشيخ هايس بن مجلاد من العمارات من عنزة عندما ضافه ذياب بن رميزان، قال للقهوجي:

قمْ سوَّ ما يجمدْ على الصين لذياب
بدلال وصفٍ للبطاط المحاديبْ[١]
ونَسِّفْها لا من العَرَقْ فوقَها ذابْ
واسْتَدْنِ ما يَجْذِبْ عليكَ الشَّراريبْ[٢]

---

(١) الصين: الفنجان الصيني، البطاط: البط.

(٢) استدن: قرّب، ما يجذب الشراريب: الهاون أو المهباش، الشراريب: شُرَّاب القهوة.

بنجرٍ يصيح وللمسايير جَذَّابْ
طِقَّه على طولَ الدَّهْر للمواجيبْ[1]

صبه لمن قاد السَّرايا للأجنابْ
في مفرسَه يشبع النَّسرْ والذّيب[2]

والثاني للي ليا لفته ركابْ
بطراف بيتَهْ تقل مَجْزَرْ قصاصيب[3]

والثالث للي لياغشى الزّمل ضَبْضَابْ
يَرْخِصْ بعمره دون زملَ الرَّعابيب[4]

وباقي الملا يكفيهم التَّول لو شَابْ
رصَّاصة المقعد حميرَ المشَاعيبْ[5]

ومن القصائد الجميلة التي دونها بعض الرحالة وترجمها إلى لغته الأصلية: قصيدة نبطية مشهورة قالها دغيم الظلماوي، كان دغيم الظلماوي الشمري يشتهر بالكرم وشبت النار في الساعات المتأخرة من الليل، لتجذب الضيوف كما ورد في قصيدته المشهورة، وقد عارض هذه القصيدة العديد من الشعراء بين مادح ومعترض. وبعد أن صار لهذه القصيدة شأن اهتم بها محمد العبدالله الرشيد أمير حائل

---

(١) المسايير: القادمون إلى المضافة.

(٢) المفرس: ساحة المعركة.

(٣) الركاب: إبل الركبان أي الضيوف، قصاصيب: القصابة أو الجزارون.

(٤) الزمل: الإبل، ضبضاب: جمَّاع إذا غزا لجمعها بسرعة، والزمل: الإبل التي تحمل عليها النساء الجميلات.

(٥) الملا: الناس، التول: الثنوة من القهوة. رصاصة المعقد: المطيلون للمكوث في المجلس. حمير المشاعيب: ربما قصد الحمير الهاملة في الأودية.

وغار من مدح الشاعر لنفسه، وهذه قصيدة دغيم[١] بنصها الإنكليزي:

O Klejb, light the fire, O Klejb, light it!
To light it is thy duty; the fuel will be brought.
To prepare cardamom and coffee beans is my duty,
Thine to have the tarnisbed pots ready.
Lay upon the fire more fuel, rimt with bark,
And do the roasting as soon as my long-lashed eyes fall asleep.
The mortar's voice will be heard at the night's end,
And a rap on its brim will sound like the howl of a wolf.
Mayest thou, when thou lightest the fire and its flame flares up,
Mayest thou, O Klejb, bring us night pilgrims from far away,
While a coward presses under him a disobedient wiffe.
Oh, how pleasant is their sticks' tap, tap, on the she-camel's neck!
What is left from yesterday, O Klejb, serve to the common visitors,
For our gain is in them only who do chase the clouds
In a dry, icy wind, O Klejb, that blows piercingly.
With hands folded they sit and urge only with heels
In a pouring rain with a sharp gale,
Or again in a light, moist breeze like snake posion.
To them O Klejb, speak the language of love,
Even if into my mud but a proud, stiff-necked man has come.
Tell them what is sweeter than dates on twigs from Gubba
And purer than melted butter bought of Arabs
Oh, how many fat wehters' heads have we thrown away
And besmeared the necks of she-camels from the wound made by the knife.
A pure heart seeks no gossip,
And should those heroes refuse to salute me (I shall salute them).
For both the chief and the herdsman should walk the path of love.
As Allah keeps the account of each being.
A guest is Allah's guest and must not be insulted,
And this one we shall protect against wrong.

---

(١) التراث والأزياء السورية، لمجموعة من الباحثين الغربيين، لندن ١٩٩٢م.

The Arts and Crafts of Syria, By Thames and Hudsun Ltd. London 1992.

أما النص العربي النبطي فأنقله برواية الشاعر النبطي عبدالله بن عبّار العنزي[1]:

يا كليب شبَ النار يا كليب شبَّـهْ
عليكْ شَبّـةٌ والحَطَبْ لك يجَـابي[2]
وعليَّ أنا يا كليب هيله وحَـبَّـه
وعليك تقليط الدلالَ العـذابي
وادغث لها يا كليب من سمر جبه
وشبه إلى منه غفا كل هابي[3]
بنجر توالي الليل تسمع مدبه
وتسمه لحسه كما ذيبٍ ينابي[4]
باغ إلى شبيتها بالمشبة
تجذب لنا ربع سراة غيابي
بنسرية يا كليب صلفٍ مهبة
متكنفين وسوقهم بالعقاب[5]
سراة بليل وناطحين مهبه
لا نسنست كن به سم داب[6]

---

(١) قطوف الأزهار، عبدالله بن عبار العنزي، الرياض، ط ٢، ١٩٩١م.

(٢) يجابي: يجلب إليك.

(٣) ادغث: اجمع وكثّر، وسمرجبه: حطب منطقة جبة قرب مدينة حائل؛ والهابي: الرجل الخامل الرديء.

(٤) الذئب المنابي: الذئب الذي يجيب على عواء ذئب آخر.

(٥) النسرية: الرياح الشمالية الشرقية التي تهب من مطلع نجم النسر، وهي أبرد الرياح لأنها تهب من جهة سيبيريا. والتكنف أن يلتف الإنسان بثيابه حول نفسه من شدة البرد، ويسوقون الإبل بأعقابهم.

(٦) الداب: الأفعى.

خطو الولد لوبه زبون وجـــبّـــه
يأتي عليـهم من حـسـاب الزهاب[١]
لا باطن الهلبـــاج خطو الجلبـــه
يا حلو خـبط اعـصـيـهم بالركـابي[٢]
اطمـــر لهم وابدي سـلام المـحـبـة
لا جـو على هـجن يديهم خـراب[٣]
مع كـبش مـصلاح لك الله نجبـه
لا دبر الهــين مـتـين العـلابي[٤]
والوالمـــة يا كليب عـجل بصبـه
والرزق عند اللي ينش الســحـاب

ويروى أن الأمير محمد العبدالله الرشيد لما سمع القصيدة أخذ يغار منها ويقول: الشاعر يمتدح نفسه وكأنه لا يوجد من يماثله في الكرم، مع أن قهوته مني، ولم يذكرني فسوف أتأكد بنفسي. تنكر محمد وقصد مضافة دغيم في آخر الليل، فوجد الدلال على النار وهو جالس قرب النار، فما إن سمع خبط الركاب حتى استوى قائماً وأجلس الضيوف بنشوة الفخر، وجدد لهم القهوة، ولما تقهووا كشف الأمير عن وجهه وقال: هل تعرفني. قال: نعم. قال الأمير: لم آتيك من أجل القهوة بل لأجل القصيدة، فعرف الظلماوي أن الأمير ناقم

---

(١) خطو: بعض، الولد: الشباب من الرجال، الزبون والجبة: أنواع من الألبسة، والزهاب: زاد المسافر.

(٢) الهلباج: الرجل الخامل عن استقبال الضيفان، والجلبة: المرأة السمينة المترهلة، والركاب: الإبل التي تركب.

(٣) الطمر والمطمورة حفرة يطمر فيها الطعام أي يخبأ، والمقصود هنا: قف وتهيأ وتخفر لاستقبالهم.

(٤) الكبش المصلاح: هو من رعاه رجل يحب الصلاح لغنمه، نجبه: نذبحه بعد كف رأسه، الهين: البليد من الرجال، والعلابي: مؤخرة الرقبة.

عليه، فاعتذر له الظلماوي بقصيدة رائعة لا زال الرحالة وغير الرحالة يروونها وينشدونها في ديار العرب:

شِدّ الرَهَنْ لوْلاكْ ما قلتْ يا كليبْ
ولا قلتْ شبَّ النَّارْ في موقدٍ لَّهْ
في ليلةٍ تُقرطْ سواة المشاهَيبْ
شرجية تجمعْ عَشيْرٍ نجلّه[١]
يا ضيغمي لا يا حصانَ المطاليبْ
لعلّ جامعْ حِزمتِتَكْ ما يفلّهْ[٢]
يا بو اليتامى والعميَّ المجاذيبْ
يا بيّ منْ صارَ العصا ثالث لَّهْ[٣]
تكفي محاليبْ وتسند محاليبْ
وكبدٍ تُظَميَّهْ وكبدٍ تِبلّهْ
ربعكْ حمولْ الخيلْ وأنتَ كِما الذِيبْ
على الغزو شدّوا زاهيات الأجلَّةْ
يا صل يا صاصِيلْ يا غَمر يا ذيبْ
يا ما خَذَيتٍ من كلْ طرْشٍ وَحِلّهْ[٤]
من كل القبايلْ تاتيكْ المراكيبْ
ما هي غَلاً يا مسْنَدي مارْ ذلّةْ
وأنتَ كما جبٍّ بعيدَ المجاذِيبْ
ميتينْ باعٍ ومثلهنَّ ما تدلّهْ[٥]

(١) سواة المشاهيب: الأمر المتقد، والشرجية: الرياح الشرقية.

(٢) حصان المطالب: الجواد السابق الذي يطلب الغزاة ويلحق بهم.

(٣) من صار العصا ثالثاً له: الشيخ الذي يمشي متوكئاً على عصاته.

(٤) ربما شبهه بالحصان الأصيل صغير الرأس الصهال، والغمر: الكريم. الطرش: الإبل الكثيرة.

(٥) الجب: البئر، بعيد المجاذيب: الحبال الطويلة.

يا حـــرْ يا عـــالي براسْ المــراجــيبْ
ولْصـــاحِــبَكْ دمـــاهْ مـــتـــينْ زَلَّهْ
نحــشَّمْ ونكْرَمْ في ذراكـم على الغــيبْ
وْحَــيـــاةْ ربَّ البــيـتْ واللـيَّ يصلَّ لَّه

وكثيراً ما كانت القصائد النبطية تنشد على صوت الربابة وهي صندوق جلدي عليه أوتار من شعر الحصان... يتقن فن العزف عليه الرجال الشجعان... أو أفراد متخصصون بذلك. وكان الفتى المرافق غانم رفيق الليدي بلنت في رحلتها الشمالية يطرب القافلة بألحانه في كثير من أمسيات الرحلة في البادية.



الشاعر عازف الربابة... عن كتاب الأزياء السورية المصدر السابق نفسه

السير الشعبية والقصص والملاحم العربية

إنّ في السير والآداب الشعبية، وعموم الموروث الشعبي الذي يعرف اليوم بالفولكلور أحداثاً مستمرة تواكب تطور البيئة التي ولدت فيها وترعرت في أحضانها.. والسيرة الشعبية كانت ذات أهمية كبيرة في المجتمع العربي قبل ظهور الإذاعة والسينما والتلفزيون، تروى في الأماكن العامة وفي المضافات العربية، ويسمر في روايتها الناس في ليالي الشتاء الطويلة. وقد سمع الرحالة قصص السير الشعبية كسيرة عنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، وتغريبة الهلاليين، وحروب الضياغم، والسيرة الفراتية، وقصة راكان بن حثلين وغيرها من السير، هذا بالإضافة إلى الأساطير والخرافات كأسطورة السعلاة والغولة وحمارة القايلة وغيرها.. ومن قبل شغفوا بقصة ألف ليلة وليلة، ونقلوها إلى بلادهم حتى أصبحت أحداثها في أذهان العامة، وكأنها أحداث الحياة اليومية في بلاد الشرق. ولا يمكن لنا في هذا البحث تدوين كل ما قالوه عن السير الشعبية والملاحم العربية ولكن نتوقف في محطات هامة مما ذكروه.

أولاً - سيرة بني هلال : سيرة بني هلال من السير المعروفة في الوطن العربي ذكرت بعض أحداثها في مقدمة ابن خلدون، وتفنن الرواة الشعبيون في سردها على أسماع الناس، ولسنا في موقف سرد أحداث السيرة، ولكن نذكر زيداً مرافق الرحالة دوتي كيف أنه أخذه ليريه رسماً على الصخور كان لأبي زيد الهلالي وزوجته علياء. قال دوتي:

«كان طول رسم أبي زيد نحو ثلاثة أقدام يحمل في يده سيفاً أو عصا محنية كالتي يستحث بها الجمل على السير، فالأعراب لم

يستطيعوا أن يحكموا على ما يحمله نسبة لصغر الرسم. وإلى جانبه وفي حجم أقل رسم امرأة يسمونها علياء، زوجه. ومن المحتمل أن هذين الرسمين القديمين المثيرين قد حفرا بقطعة حجر على الصخر الرملي. وهما محفوران باجتهاد وإتقان يدل على قدمهما، وليسا مثل رسومات الأعراب المحفورة على عجل. وسألني بعض البدو إن كنت قد زرت تونس في رحلاتي، وفيما إذا كان بنو هلال بخير لا يزالون أناساً عظماء في ديرتهم تلك. فبنو هلال، كما يحكون عنهم، كانوا مجموعة من عدة قبائل نجدية تجمعوا في وقت ضرب الجفاف فيه أرضهم لمدة سبع سنوات، ونفقت مواشيهم فتحركوا بحثاً عن أرض حباها الله بالماء والكلأ. خربوا قرية (البلقاء) أولاً ثم توجهوا نحو مصر حيث استقر بعضهم، وسار أكثرهم غرباً فاستولوا على مراع جديدة في بلاد البربر. وتقول مأثورات البدو الشفاهية أن بني هلال استقروا أساساً في تخوم تونس. وقد ظل الناس البسطاء في كل قبيلة، وكل واحة زرتها في شبه الجزيرة العربية يسألونني أنا الآتي من أقصى الغرب إن كنت قد قابلت بني هلال.

ويشتهر هذا الجيل البطولي القديم لدى البدو ببناء كل الآبار العميقة في الصحراء والأحواض المبنية من الصخر. وأية أعمال ضخمة أخرى في شمال الصحراء وجنوبها حتى تهامة على الأقل. فهذه الأعمال في نظر الأعراب... أعمال عمالقة، والعمالقة هم بنو هلال[١] » .

وهناك قبور في أماكن كثيرة في الصحراء تفوق في طولها عشرين قدماً يقال إنها لبني هلال[٢]، ومن الرحالة المعاصرين أو

---

(١) التراث الشعبي في أدب الرحلات. د. أحمد عبدالرحيم نصر.

(٢) روايات من تغريبة بني هلال وحروب آل ضيغم. د. اليسون ليريك.

الدارسين في مجال السير الشعبية والأمثال والأشعار العربية نجد الباحثة الدكتورة اليسون ليريك التي عرَّفنا بها من قبل تكتب بحثاً كاملاً عن تغريبة بني هلال وحروب آل ضيغم، ففي قسمه النثري تبدأ قصة بني هلال بكارثة الجفاف والقحط الذي دام سبع سنوات في نجد والذي تسبب في هجرة القبائل الهلالية غرباً في طلب المرعى، وتنتهي القصة بموت الزناتي خليفة وفتح الهلاليين لتونس، وفي الشعر تشتمل التغريبة التي دونتها الدكتورة اليسون ليريك أكثر من أربعين وحدة شعرية، تلقتها مشافهة من أهل نجد، وهي تمثل إما محاورات بين الأشخاص أو الفرسان، أو في الفخر أو الرثاء ومنها قول شاعرهم يصوِّر القحط:

ثمـــان سنين مـــا هوا نجـــد قطره
لا مـــــزنـة غـــــــرة ولا بـذار

لك الله صـــبـيـــان لنا مـــا تغـيـــروا
بس بســــــوم يعـــــجب الـخطار

ثانياً - حروب آل ضيغم : روت الباحثة الرحالة اليسون ليريك بعضاً من أخبار هذه الحرب... أعرضها باختصار[1] وتَصرُّف، لأهميتها وطرافتها اعتماداً على كتاب أليسون ذاتها.

الضياغم في كتب أنساب العرب من قبيلة قحطان في الجزيرة العربية، وهم في أغلب الروايات من أجداد عبدة من قبيلة شمر، هاجروا إلى منطقة حائل من جنوب الجزيرة العربية في حوالي القرن السابع الهجري.. كما أن أخبارهم تذكر في الأسياح «النباج» في صراعهم مع سلطان مارد الأمير التركي المستقل في هذه المنطقة.

(١) نشرت هذا البحث في صحيفة الأنباء الكويتية، العدد ٦٨٣٩، مايو ١٩٩٥م.

تزعم القبيلة أبناء ضيغم نفسه: شهوان وراشد فكان الشيخ شهوان هو السيد المطاع يعاونه أخوه راشد في التدبير والمشورة، فسارت الأمور على أحسن ما يرام، لولا القحط والجفاف والسنون العجاف. أما عن فتيان القبيلة وفرسان المستقبل فكانوا :

- عرار، وفارس، ومحمد أبناء شهوان.
- عمير وعقيل، وحجاب، وحميدان وسلطان أبناء راشد.

أما الفتيات الرمز فهن: «ميثا» بنت شهوان، عميرة بنت راشد وفتيات أخر يرد ذكرهن في سياق السيرة. بينما الخيول الأصيلة والفروسية، فكانت الخيول الدهم الشهوانية التي لا تزال سلالاتها محفوظة إلى اليوم في الديار العربية، ولعل آخر عائلة عربية كانت تربط هذه السلالة هي عائلة آل الخليفة في البحرين.

تمنى شهوان على ربه أن يرزقه ولداً فارساً يقود القبيلة التي تقيم في وادي الرمة، فرأى في المنام أن الله رزقه بولد، ولكنه يتسبب في الحرب والفرقة والمشاكل. فما إن ولدت زوجه بأول مولود حتى سماه«عرار» الذي كان غريب الأطوار من أيام طفولته.. عقله أكبر من عمره، مشاكس، ركب الخيل وهو ابن الثماني، وحارب بالسيف وعمره اثنا عشر عاماً.. وتعلقت به فتيات الحي وهو في أوج شبابه. قالت أم عرار:

عرار بليلة خميس نشيت به

بحيه والعنبر والورد فاير

لا يا ولدي يوم أني حامل به

لكن شيهان بكبدي مخامر

عــرار من عــقب أربع ضم عــقله
وهل أربع يعطي المــهــار البــراير
وعــــــقب أربع مع أربع دنيت له
بالسـيف وتجـفـاف عـذي الشـهـاير
لكن شعـيع السيف من فـوق متنه
جناح عـقـاب مع شف الضلع طاير

وبمرور الأيام يصدق حلم شهوان، فلم يكن عرار وابن عمه عمير على وفاق، على الرغم من القرابة والنسب والمصاهرة فزوجة عرار هي عميرة أخت عمير، وزوجة عمير ميثاء أخت عرار.

كان عمـير قصـير القامة قبيح الشكل، بينما عرار طويل القامة جميل المحيا ميالاً للفروسية والغزل.. فكان يسخر من عمير ويؤذيه في مجلس أقرانه.. ففي ساعة أنس ابتدع عرار حيلة للفتيان حفر بموجبها خندقاً عريضاً، وطلب من الجميع القفز من فوقه، واشترط على من يقع فيه أن يذبح جملاً للجماعة، فتصايح الفتيان بالقبول وخجل عمير من هذا التصرف، وعرف بأنه هو المقصود.. قفز الفتيان كلهم واجتازوا الخندق باستثناء عمير الذي سقط فيه مرة بعد أخرى بسبب قصر رجليه وقامته. فذبح جملاً للجماعة.. ولما نضج الطعام فصل اللحم عن المرق.. فقام عرار بتعليق اللحم على شجرة والناس ينتظرون الطعام، ففطن عمير فسل سيفه وقطع الحبل الذي علق به اللحم، وقدم العشاء للأقران قائلاً: «كولو يالطوال بذر القصار».. وفي ثورة من غضب عمير تناول المرق المغلي وقدمه لدهيمان حصان عرار المشهور، فتسبب المرق في حرق شفتي دهيمان حتى انكمشتا وكشفتا عن أسنانه فافترق الفتيان يتندرون بما حصل بين ابني العم،

وافترق عمير عن عرار وكل منهما يتحين الفرصة للانتقام من صاحبه.

كان عرار هو البادئ وندم ولكن لم ينفعه الندم بعد اشتداد الخصومة بينه وبين ابن عمه. قال عرار نادماً:

بديت بجاد ودمعي حشاد
وعيوني بالدمع مغرّقات
يا ليت شهوان ما جاله عيال
ولا جاله من الصيب كود بنات
ويا ليتني من وراء الهند يوم
جزا ما جعلت الرفاق شتات
يا طلحة الحزم لا سال سيلك
ولا لعلعن حدرك السامرات
أول عيانا وقلة هدانا
نعلق غدانا بشرخ الغضات
جمعنا الشحم واللحم في قلصنا
وقطع عمير غصون الطايلات
فنشه عمير بسيف صقيل
حديد الشبا مهوى للضاريات
وقال كولوا يا الطوال بذر القصار
وعادتنا نقصر الطايلات

بقي عرار في وادي الرمة. بينما رحل عمير برجاله وإخوته إلى جوار سلطان ما رد في ديار قصيَّة، وسلطان مارد يقول النجديون بأنه من الأورام، وهو تعبير يدل على الأجنبي القادم من ديار الترك.

ولكن زوجة عمير ميثاء التي أحبها لم تهاجر معه، فحزن لفراقها.. وساءت حالته الصحية وإخوته لا يعرفون «ما بلاه» إلا أن أخاه عقيلاً سمعه يقول في أبيات من الشعر.. فرد عقيل عليه بقصيدة وعده أن يعيد ميثاء إليه مهما كان الثمن.. وبالفعل ذهب عقيل إلى ديار عرار متنكراً بزي راع للغنم، وشاور ميثاء سراً بالرحيل فرحلت معه ليلاً، وجاءت إلى عمير ومعها أختها سكوت فتزوجها عقيل. قال عقيل يوصي عميراً بابنة عمه ميثاء:

نهيتك عن ميثا وعن ما يغيضها
كن المايجري عليك عروف
أنا أقول لك ميثالا تخليها
ولا بالعذارى ما مثلها وصوف
عبدية والأصل من آل ضيغم
تطوي على غي الزباد عكوف

قويت الصداقة بين عمير وسلطان ما رد، لولا أن الوشاة أبلغوا السلطان بأن لعمير زوجة جميلة هي ميثاء ابنة عمه. فطلب السلطان من عمير أن يطلقها ويزوجها له فوراً، وأمهله يوماً وليلة للرد فقط، وتوعده بسوء العاقبة، طلب عمير المشورة من أشقائه، وكان من بينهم أخوه حميدان فاقد السمع «أطرش» ولما فهم الأمر صاح صوتاً عالياً مدوياً «لا.. لا» حتى تفتقت أذناه وسال منهما الدم غزيرا فارتد إليه سمعه.. فأخذوا يماطلون السلطان ويسوفون، ثم طلبوا منه مهلة لتجهيز ميثاء له، فاطمأن لهم..

وفي ليلة ظلماء دبروا أمر الهرب بعد أن تركوا عبدة سوداء في خيمة العرس.. هربوا ولم يفطن إليهم السلطان حتى الصباح فلحقهم

بجيش كبير.. ودارت معركة رهيبة ختمت بلقاء السلطان مع حميدان.. فقتل كل منهما صاحبه بتبادل الضربات، فانهزمت جيوش السلطان وعاد عمير وصحبه بجثة حميدان حامي الظعينة ليدفن في احتفال مهيب.. قال عمير بعد المعركة:

حـــدا علينا الروم قطاعـــة الثنا
غـــادي الجـــدا يســـألنا بالذهاب
يجـيب التــرك لنا من غـيــر ودنا
ولو عـلى صم الصـــــفـــــا ذاب
يبـــون مـــيــثـــا نقـــوة من حـــريمنا
وأنا أقــول بهـــا خـــزوة وعـــتـــاب
لحـقـونا يبـون مـيـثـا غـصـباً علينا
ودون مــيــثــا صـبــيــان تسن حـراب
حنا خـمـسة فـوق خمس يا آل راشد
أهل خـــمس مـــا نثني لهن ارقـــاب

اتسعت رقعة الخلاف بين عرار وعمير، وانقسم آل الضيغم إلى مجموعتين: مجموعة تناصر عميراً، ومجموعة تناصر عراراً.. ولكن عراراً لا يزال يشن الغارة تلو الغارة ويسلب جماعة عميرٍ إبلهم. وفي كل لقاء يتحين الفرصة لقتل عمير ولكن فرسه الصفراء من سلالة «دهم شهوان كانت تنجيه من القتل» قال عرار:

وأخـــوف قلبي من دهوم يجـــرها
ثلاثة آلاف وعــــمــــيـــــر دليله
وبغـيت عـمـيـر مـار عني غـدت به
وراحت به الصــفــرا ســريع نقــيله

وبما أن الخيل كانت عدة الفرسان في الحرب.. وكانت أصالتها وجرأتها بالإضافة إلى سرعتها حاسمة في ميدان الحرب، كالطيارة والدبابة في وقتنا الحاضر، قرر عمير أنه لن يكسب الحرب إلا بسرقة خيول عرار.. أو أن يلقح أفراسه من الحصان الأدهم الذي لا يسبق.

أو كل عمير المهمة إلى أختة عميرة زوجة عرار التي تسللت متذرعة بأخذ الحصان إلى المورد المائي القريب «الجليب» وهناك كانت بانتظاره أفراس عمير أخيها.. فلقحت الخيول من الحصان الأدهم المشهور.. وعاد عمير بها وغاب ثلاث سنوات أو أربع حتى ولدت الأفراس أمهاراً من نسل مشهور، ودربها على الطراد والحرب.. وفي أول لقاء مع عرار بعد هذه الهدنة الطويلة طاردت خيول عمير عراراً فلحقته، ولكنه أوصى الفرسان برمي الرماح من فوق رأسه دون قتله، لأن عميراً كان رحيماً ولا يريد قتل عرار.. فعاد عرار محزوناً لا يدري ماذا يفعل مع عميرة زوجته وابنة عمه؟

أخذ عرار يلعب الشطرنج مع زوجته فغلبته عميرة فلطمها عرار وكسر ثناياها، فخرج أخوه فارس غاضباً، وانفض من حوله جماعته ولم يطلع الصباح إلا وجماعته قد رحلوا من حوله. أما عميرة فالتجأت لأخيها عميراً تحمل أسنانها المكسورة.. فأقسم بأن يكسر ثنايا أخوات عرار كلهن فأغار عليه وفعلاً كسر أسنانهن ثأراً ما عدا فتاة صغيرة. قال عرار معاتباً:

تمنيت والشر ما امتنا به
لو أنا وعمير هاك النهار حضور
ما ظل عقلك يا عمير بن راشد
ما تفكر والدايرات تدور

ليه يوم جيت والنشامى مغيبه
تفدع بنات كنهن بدور
لهن قدر عند كسابة الثنا
وعند الرزايا ما لهن قدور
إن كان هذا الحرب بينا وبينكم
اذبح نذرك يا عمير جزور

ندم عرار على ما حصل، وكيف له أن يرأب الصدع الحاصل بين أتباعه وأتباع ابن عمه.. كيف له أن يبادر بالصلح.. ولكن الصلح جاء هذه المرة بكارثة اجتاحت مضارب عرار.

كانت القبيلة تخيم في وادي الرمة، ورأى عمار «يربوعاً» ينقل صغاره من بطن الوادي إلى الأكتاف.. فنبه عرار القوم بأن سيلاً سيصل، وعليهم الرحيل من الوادي ولكنهم رفضوا واستخفوا برأيه.. وبعد يومين جاء السيل وغمر العربان، وغرق كل الناس ما عدا عرار الذي اعتلى ظهر الحصان الأدهم، وهو بقامته وجثته الكبيرة.. وغرق أبوه بينما أمسكت عميرة بشليل الحصان، فاستل عرار السيف وقطع ذيل الحصان وترك عميرة يحتويها السيل مخافة أن يعير بأنه أنقذ زوجته وترك أباه. ولم يبق من جماعته حياً سواه! قال عرار يرثي قومه:

قامت تهل الدمع من شد ما بها
ولا نيب من ذولا وذولاك شايف
أقمنا زمان ثم جانا زفيره
يدرب الحصى من عاليات المشارف
ويجذب عش الطير من مستكنه
ويفرق طربات الحمام الولايف

لعل وادي العـــرض مـــا دبه الحـــيـــا

ولا بنيت فـــيـــه الخـــيـــام النوايف

غـــدا بالصـــبـــايا والســـبـــايا والقنا

وبالدرق الحـــــوتي وزين الكلايف

وغـــدا ببنات من بني آل ضـــيـــغـم

رهاف الثنايا مـــدمـــجـــات العكايف

رجع عرار خائباً إلى عمير فسامحه.. وكان مسامحاً كريماً، وعرض عليه مشاركته في مشيخة القبيلة، وزوجه أخته الثانية «حمدا» وفي ليلة من الليالي كان عرار يسمر مع ابن عمه، وترك زوجته حمدا نائمة في خبائها. ولكن حمدا نسيت أن تقيد الحصان الأدهم، فذهبت لوضع أرجله بالحديد.. فشاهدها عرار وهو عائد من المضافة، فظنها لصاً يحاول سرقة الحصان، فرماها عن بعد برمحه فقتلها، ولما تبين له أنه قتل زوجته راح إلى عمير وأخبره بالمصيبة التي لحقت به بسوء فعلته.. فقال عمير يا بن العم لا عليك سوف أزوجك أختي الثالثة حديثة.. ولما تزوج عرار حديثه.. انقطع عن الناس وتفرغ للنوح وللشعر والربابة.

كانت حديثة غرة صغيرة تزورها عجوز من آل راشد.. فقالت لها يوماً يا حديثة قولي هذه القصيدة أمام عرار لعله ينتعش ويذهب عنه حزنه، ولما حفظتها قالتها أمام عرار وهي لا تدري بمعناها:

تقـــول حـــديثـــة الليـــالي مـــغـــرة

والأيام خـــمـص مـــا بهن عـــشـــار

يا عـشـر من غـيـر الفـحـول ويلقـحن

تعـــاشـــيـــر مـــا يلعي لهن حـــوار

كم حصان طوعوه آل راشد
مع المعاطي ما يريد هجار
ومن عاش بالزهدا وهو عارف بها
تراه حمار ومن وراه حمار

فغضب عرار وحزن حزناً شديداً ولم تعد الدنيا تساوي عنده جناح بعوضة، فقام وألقى بنفسه على سيفه ومات.

هذا هو ملخص أحداث سيرة حروب آل ضيغم، فالضياغم معروفون من قبيلة قحطان في الجزيرة العربية، وبالإضافة إلى السيرة لهم في ديار العرب سلالة من الخيل تعرف بسلالة «الدهم»: دهم شهوان، ودهم أم عامر لا تزال معروفة في مرابط الخيول العربية إلى اليوم، ويملك صاحب نادي الأصيل الألماني مجموعة منها. قال عرار يصف ركض الشهوانيات:

كنه إذا صف ذيله وراسه
غنوج تراضي ليالعب البنات
أمه الطفوح كما البارق يلوح
وأبوه الأدهم مع الأولات
لولا عناني وقوة بناني
غدا بي حصاني مع الطايرات

ثالثاً - قصة راكان بن حثلين : ينتمي راكان بن حثلين إلى قبيلة العجمان من بني يام من همدان. وديارهم في الماضي كانت تذكر في نجران جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن الهجري، ثم تحولت القبيلة إلى الشمال، فاستقروا في الأحساء وغربة.. وهم أهل بادية كانوا ينجعون في الدهناء والصمان والجوف وشمال الأحساء والعقير

وصحراء الجافورة. ولراكان بن حثلين قصة طريفة وأشعار قلَّ أن توجد قبيلة عربية في الشمال أو في الجنوب، ولا تعرف أحداث القصة والأشعار المرافقة، بل وزاد الرواة على هذه القصة ما ليس منها، ومحور هذه القصة الحرب والفروسية والحب والتغني بفتاة القبيلة. فأحداثها تروى في القرن الثالث عشر الهجري أيام مجد الامبراطورية العثمانية. وملخص السيرة: أن راكان بن حثلين قد ناصب العثمانيين العداء، ولم يهدأ لهم بال حتى قبضوا عليه، ونقلوه مخفوراً إلى تركيا، حيث نقل عن طريق ميناء الجبيل بحراً إلى تركيا، فتعرض هو ورفاقه للعطش والجوع وأخذ راكان يتأسف للحال التي وصل إليها بعد العز ويحن إلى ديار أهله. قال:

حمزة مشينا من ديار المحبين
الله يرجعنا عليهم سلوم[1]
من الخداعة واحتيال الملاعين
هيهات لو إني عرفت العلوم

وصل راكان إلى مقر سجنه في تركيا في منطقة كانت جبهة قتال بين العثمانيين، والصرب واليونان في البلقان، وطال سجنه هناك لأكثر من سبع سنوات.. وقد أطلق من سجنه شعر الحنين إلى أهله:

يا بو هلا طير الهوى خبث البال
طبعه خبيث والحباري قليلة[2]
لا من ذكرت رموس عصر لنا زال
وشوف الفياض وفقد عز القبيلة

---

(١) حمزة رفيقه في الأسر، وقيل هو السجان الذي طلب من راكان أن يخبره بقصته.

(٢) ربما قصد الإمام سعود بن فيصل!

ومن عقب ذا يا ما حلا شرب فنجان

في مـجلس مـا فـيـه نفس ثقـيلة

هـذا ولـد عم وهـذا ولـد خـال

وهذا رفـيـق مـا لقـينا بديله

كانت الحرب سجالاً بين الجيش التركي والصرب، بينما راكان بن حثلين في سجنه،ويراقب المعارك من نوافذ السجن، فيثيره جولان الخيل في المعركة، فيتحسر ويبكي.. كيف لا وهو فارس الميدان. وقد برز للعرب فارس أسود عجزوا عن ملاقاته. فطلب راكان من قائد السجن أن يبلغ العثمانيين بأنه يستطيع ملاقاته وقتله فترددوا في البداية ثم سمحوا له، وأخرجوه من السجن، واشترط أن يختار من بين الخيول في الاسطبلات ما تعجبه من الخيول.. جاء إلى الاسطبل فصرخ في الخيل صيحة مدوية نهضت بعدها برؤوسها فاختار مهرة نجيبة دربها على أساليب القتال والكر والفر، وقفز الحواجز والحفر حتى أصبحت طوع إرادته، ولما برز ذلك الفارس تصدى له راكان وأسره، وقيل قتله فكبر الناس.. وارتفعت المعنويات وأصبح لراكان بن حثلين شأن كبير، فناداه الوالي العثماني وكافأه بأن عفا عنه وأطلق سراحه. قال راكان بن حثلين[١]:

انصـفني الله بدولة المـسـقـوف

من فـعلهم راحـوا نعـام[٢]

واسـترهق البـاشـا بكل الخـوف

طيـر المـذلة فـوق راسـه حـام

(١) يقول ابن عقيل الظاهري: «إن هذه الأحدية صحيحة ولا تعدم أبياتاً مصنوعة» وما أكثر ما زيد ووضع في الشعر المنسوب لراكان بن حثلين.

(٢) المسقوف: لقب للصرب وحلفائهم الذين كانوا يحاربون الدولة العثمانية.

طلبت منه يعمل المعروف
يطلق سراحي بأول الأروام[1]
برزت للعملاق وهو يشوف
وبغى الهرب مني ولا يلام
هائم خطفته والصفوف وقوف
مستأسرة حتى بغير إعدام

وتعد حياة وقصة راكان بن حثلين نموذجاً للفروسية العربية في الصحراء. وما أكثر الفرسان الذين شاهدهم أو دوَّن أخبارهم الرحال، أمثال: راكان بن حثلين، وجدعان بن مهيد، وعبدالكريم الجربا وساجر الرفدي والمهادي محمد بن عبيدة بن قحطان وغيرهم.

وقد أيد الرحالة دوتي في مذكراته صدق قصة راكان بن حثلين[2] بقوله: «كان يسكن في المخزن المجاور[3] رجل غريب عن المنطقة كان قادماً من الحرب، وسمعت منه أخباراً صحيحة عن تلك الحرب، وهي أن الحظ لم يكن في صالح السلطان العثماني. ولكنهم اضطروا للعودة، لأن الجهاد كان قد انتهى.

لقد كان المسكويون أشداء، وكانوا يتمتعون بأجسام قوية، ولحى كبيرة، ولكن أغرب ما شاهده الرجل في أوروبا هو غنم النصارى، فلقد كانت لها ذيول مثل ذيول الإبل، ولم يكن لها طبقة شحمية تحت جلودها مثل قطعان الغنم في الجزيرة العربية بصورة عامة. ولقد جاء الرجل منذ فترة قصيرة إلى حائل بصحبة شيخ العجمان، وسمعت من

---

(١) الأروام: البدو كانوا يطلقون اسم الروم على كل الأجانب من الغربيين.

(٢) العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين. ابن عقيل الظاهري، ذات السلاسل، ط ٢، ١٩٩٦م، الكويت.

(٣) يبدو أن المقصود بالمخزن المجاور أحد المضافات العربية لشمر حائل الذين مرَّ بهم دوتي في رحلته، وربما مضيف محمد بن رشيد نفسه.

الرجل أيضاً أن الأتراك كانوا قد أسروا الشيخ أثناء احتلالهم للأحساء، ونفوه إلى حدود روسيا، وقد ظل في أسره حوالي سبع سنوات، ونتيجة لذلك فقد قامت عشيرته من البدو بالاحتفال بذكراه اعتقاداً منهم بوفاته. ولكن حين سمع الرجل الشجاع.. نداء الجهاد في سبيل الله، استأذن من السلطان للمشاركة في الحرب، وفعلاً منحه الموافقة، وحمل رمحه للجهاد في سبيل الله ورسوله ﷺ. ولكن هذا الدوق البدوي جرح في ذراعه، وحين تم وقف القتال أمر السلطان بأن يطلب مكافأة لما فعله في الحرب، وبالفعل طلب الشيخ أن يعود إلى مقاطعته واسمها الهجر. وقد اصطحب الشيخ رفيقاً في الطريق، وبحلول رمضان توقفا في جدة، ثم زارا مكة والمدينة، واتجها من المدينة إلى حائل. وفي حائل استقبله محمد بن رشد خير استقبال، وعند رحيله منحه ثلاث «أذلّة» وحقيبة مليئة بالريالات الفضية، وبعد ذلك اتجه الرجل إلى موطنه..».



من شيوخ القبائل في الجزيرة العربية (من اليمين إلى اليسار): الشيخ ابن لامي، الشيخ فيصل الدويش، الشيخ نايف بن حثلين.. عن أرشيف الكولونيل ديكسون.

الأساطير والقصص الخرافية في ديار العرب

- الجنيَّات والسعالي -

السعلاة أسطورة طريفة في أحداثها ومعانيها[1] عميقة الجذور في ديار العرب، يُخوف بها الصغار أيام الطفولة، ويرويها الكبار في ليالي السمر، فأخذت معالمها بمرور الزمن حتى أصبحت واحدة من الأساطير العربية. وللأساطير الشعبية أهمية خاصة في حياة الشعوب، لأنها تعكس أحاسيسها وتصوراتها لما هو محسوس من حيوان ونبات وموجودات، وما هو على شاكلتها في عالم الخيال والأوهام من مخلوقات خرافية ليس لها وجود، أو ملتبسة في أحوال الجنّ، وخصوصاً عندما تكون هذه الأساطير مقرونة بالخوف من المجهول.

وتعد أسطورة الغولة أو السعلاة من الأساطير الشعبية الموغلة في القدم في ديار العرب، ولها وجود في الكتب التراثية القديمة، فالسعلاة عند الدميري في كتاب حياة الحيوان: أخبث الغيلان، وعند ابن منظور في لسان العرب هي الغول أو ساحرة الجن. وقد تخيلها الأبشيهي في المستطرف على أنها: «حيوان يتراءى للناس بالنهار، ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد في الغياض، وإذا انفردت السعلاة بإنسان أمسكته وصارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، قال وربما صادها الذئب وأكلها وهي حينئذ ترفع صوتها وتقول: أدركوني فقد أخذني الذئب وربما قالت من ينقذني منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك ولا يلتفتون إلى كلامها»، ولصخبها وبشاعتها شبه العرب المرأة الصخَّابة بالسعلاة. وذهبت بعض القصص العربية

(١) مقال: السعلاة أسطورة عربية، بقلم أسعد الفارس، مجلة النهضة، العدد ١٢٤٤، أبريل ١٩٩٣م، الكويت.

الخرافية أن السعلاة قد تعيش في الغابات وتحت الماء، وربما اختطفت الرجال وتزوجتهم وأنجبت منهم الذرية، فمن قبل قالوا أن بلقيس ملكة سبأ أمها جنية، وقالوا: إن أبناء عمرو بن يربوع هم من أبناء السعلاة فأبوهم عمرو تزوج واحدة من السعالى تدعى أمامة، فلما خطبها قال له أهلها: إنك ستجدها خير امرأة ما لم تر البرق فتحن إلى وطنها، فكان عمرو بن يربوع يسترها إذا رأى غيماً في السماء لئلا يلمع البرق فتراه، فلم تزل معه حتى أولدها، وظن أن طول الصحبة وما لها من الذرية تمنعها من الهروب حتى وإن رأت البرق، فتراخى عن سترها من البرق، ولما أبرقت السماء استوت فوق بكر من الإبل، وقالت:

أمسك بنيك عمرو إني آبق
برق على أرض السعالي آلق

ثم مرت فلم يرها بعد، وبنو عمرو بن يربوع من تلك الجنية يقال لهم بنو السعلاة، ولهذا قال الراجز:

ألا قاتل الله بني السعلاة عمر بن يربوع شرار الناس
ليسوا بأخيار ولا أكياس

ولا يوجد مكان من أرض العرب لا توجد فيه قصص خرافية عن السعلاة، فيصفها أهل الفرات من مخيلتهم بأنها تتشبه بالإنسان، لماعة الشعر بيضاء الأسنان، منتصبة القامة عندما تمشي، وتضحك مثلما يضحك الإنسان وتقلده بالتصرفات، ويكاد وصفها ينطبق على القرد الآسيوي «اورانغ - اوتانغ» الذي يعيش في غابات ماليزيا. وقد تصور دوتي السعلاة أو الغولة فرسمها استناداً إلى وصف سكان الجوف ومدائن صالح في شبه الجزيرة العربية وقال:

«فهي لها مثل السيكلوب العملاق في الأساطير اليونانية[1] عين في جبهتها، ولها فكّان بارزان طويلان أشبه بمنقار الطائر ينتهي كل منهما بناب حادة كبيرة وعنق طويل، وذراعين مثل جناحي طائر صغير نبت ريشه منذ عهد قريب وينتهيان بأصابع غير منفصلة عن بعضها، أما جسمها فضخم كجسم الجمل في شكل يشبه النعامة، ولها قدم كحافر الحمار، وآخر في شكل مخلب النعامة، وهي تغوي المسافر بأن تناديه باسمه وبصوت وكأنه صوت أمه أو أخته. وقد أخبرني بدوي يدعي «دولان» أنه رأى هذا الوحش الذي يشبه الجان ميتاً على الأرض عندما كان في غزوة لتخوم ديرة قبيلة جهينة.. وكان هذا البدوي المسكين معروفاً في مدائن صالح بتأليف القصص الخرافية، ولم يصدق الأغا المسؤول عن القلعة حديثه، ولكن الأغا أقسم أن أشخاصاً كثيرين أقسموا له. أنهم رأوا السعلاة ومنهم جماعة من بدو الشرارات ضربوا السعلاة بالبارود والعصي ليلاً كاملاً ولكن دون جدوى فلم يعد يؤثر فيه الضرب». ويضرب المثل عند بدو الفرات بسعلاة خضير، وسعلاة هدلان فخضير عرضت له السعلاة عند حافة النهر فأوقد ناراً ودهن نفسه بالزيت ففعلت السعلاة مثل ما فعل ولكن أغدقت الزيت على كامل جسمها.. تقرب من النار، فتقربت، أحرق جزءاً من شعره بالنار، فتناولت عوداً مشتعلاً فاحترقت بكاملها وهي تصيح: قتلني خضير.. قتلني خضير. أما هدلان فقد اختطفته السعلاة وغاصت به تحت الماء وهناك وجد دنيا جديدة أشبه بالجنة، وتزوج السعلاة، وخلّف البنات والبنين، وفي يوم من الأيام طلب منها أن تخرجه فوق الماء ليرى ديار أهله ولو عن بُعد ففعلت، وفي غفلة

---

(١) الغول ذو العين الواحدة وسط جبهته هو أحد شخصيات الملحمة الإغريقية المسماة «الألياذة» للشاعر هوميروس حوالي ٨٥٠ ق. م. ويبدو أن أساطير الشعوب فيها بعض القواسم المشتركة.

منهـا هرب بسـرعـة، ولمـا عـجـزت أن تلحق به تركت له الأولاد واحتفظت بالبنات، وعلمته مهنة اللمسـة أو التدليك فكل قدم متورمة يدلكها بيده تشفى بإذن الله. ولا يزال بعض المشعوذين من أهل الفـرات يدعي أنه من نسـل هدلان من أبناء السـعـلاة، وأن كل قـدم يدلكها سوف تبرأ بإذن الله.

وأختتم الحديث عن أسطورة السعلاة الجنية بما رواه ديكسـون على لسان محمد بن سالم المري عام ١٩٤٣م. قال: «أخبرني محمد بالقصة التالية...»[1]:

منذ مئات السنين وقبل زمن إبراهيم حين لم تكن هناك ديانة ولم يتعود الناس على الصوم والصلاة، كان يعيش في جنوب الجزيرة العربية فارس شهير يدعى علي بن مرة أخو يم جد قبيلة عجمان. (هنالك من يقول إن عجمان ينحدر من مرزوق بن علي بن مرة).

وذات يوم من أيام الربيع كان علي بن مرة حزيناً لأن الجرب تفشى في جماله الأربعين فلم يبق منها على قيد الحياة إلا أربعة كانت مريضة تتألم. فلم يطق علي أن يرى هذا المنظر المؤسف فحمل نفسه يائساً وتوجه إلى الربع الخالي. وهناك وفي مكان منفرد وقع نظره على فتاة حسناء تصارع من أجل حياتها مع ذئب كبير، فهرع إلى نجدتها ونجح في قتل الذئب. وشكرته الفتاة على جميله وسألته أن يطلب أي شيء فتمنحه إياه. فأعرب لها عن رغبته في الزواج منها. فأجابته أن ذلك غير ممكن ما لم تحصل على موافقة والدها وأخوتها الذين يعيشون مع شعبها من الجن في بطن الأرض.

وعندئذٍ تأكد علي بن مرة أن تلك الشابة ليست إنساناً عادياً بل جنية.

---

(١) الكويت وجاراتها، ديكسون، ج ١، دار صحارى للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.

ولما وجدته لا يزال حزيناً سألته عما يؤلمه فأخبرها قصته بأنه ترك جماله الأربعة الباقية وراء تلة تتألم فلم يطق أن يراها تموت أمامه فهجرها.

قالت له الجنية تعال معي، وأنا آخذك إلى والدي فهو يعرف كيف يداوي جمالك ويمكنك أيضاً أن تطلب منه يدي.

وبعد ذلك طلبت من على بن مرة أن يغمض عينيه وشدت عليهما بيديها وأعطت إشارة فانفتح كهف عظيم في بطن الأرض بجانبهما فنزلا فيه إلى العالم السفلي لمقابلة شعب الجن.

وعندما أزاحت يديها عن عينيه دهش علي بن مرة عندما وجد بلاداً جميلة أمام ناظريه ينساب فيها الماء من كل جانب وتنبت فيها الأعشاب والأزهار في كل مكان. ورأى أيضاً أن عيني الفتاة أصبحتا مشقوقتين من الأعلى إلى الأسفل بعد أن كانتا فوق الأرض كعيني البشر. ولكن ذلك لم يفقدها شيئاً من جمالها.

واقتادت الجنية علي بن مرة إلى والدها وأخبرته بالقصة كاملة، كيف أنقذها علي من الذئب، وكيف ترك علي جِماله تموت وراء التل وأنه يرغب في الزواج منها وأنها أبدت استعدادها لذلك بشرط أن يعطي موافقته. فوافق الأب وأولاده في الحال على زواجها من علي وأبدى جميع الجن في المكان إعجابهم وتقديرهم لعلي لأنه أنقذ اميرتهم من الذئب. وتبين علي أن هذه الفتاة هي ابنة شيخ الجن.

وقد وضع الجن شرطاً واحداً على علي بن مرة وهو أنه لن يسمي بعد ذلك باسم الله بل باسم الجن، وأن لا يقوم بأي نوع من العبادة والصلاة باسم الله بل باسم الجن. وأبلغوه أنه إذا فعل ذلك فإن أموراً رهيبة ستحدث له.

فوافق علي بن مرة، وقد تيمه الحب، على هذه الشروط. فاحتفلوا بالزفاف بفرح عظيم وقدموا للفتاة مهراً غالياً.

وعاش علي مع الجن بعد الزفاف سبعة أيام وجد فيها أن الجن يعيشون كالبشر لهم جِمالهم وأغنامهم وماعزهم وخيامهم السوداء. والفرق الوحيد هو أن أعين الجن مشقوقة من الأعلى إلى الأسفل وأن طعامهم يطهى بدون ملح.

وبعد سبعة أيام سمح لعلي أن يصطحب عروسه ويخرج إلى العالم الفوقي. وبعد وداع أهلها وأصحابها وضعت الجنية يديها على عيني زوجها علي واقتادته إلى فوق الأرض من المكان الذي انحدرا به. وسر علي سروراً لا حد له عندما رأى أمام باب الكهف ٤٠ جملاً تتمتع بالعافية. وعندما تطلع بزوجته ليشكرها وجد أن عينيها تحولتا إلى عيني بشر وأنها أصبحت كغيرها من النساء ولكنها أجمل نساء الأرض. فأبلغته أن هذه الإبل هي هدية من والدها بمناسبة الزفاف.

واقتاد علي زوجته وإبله إلى نجران حيث تعيش أمه مرة وهي من أشراف قبيلة قحطان. وهناك عاش سعيداً مع زوجته الجنية التي أنجبت له طفلة جميلة.

ومرت الأيام وأصبح عمر ابنته سبع سنوات كانت أحوال علي بن مرة خلالها تتحسن باستمرار. وفي يوم من الأيام خرج في رحلة طويلة متعبة بحثاً عن جِماله التي تشتتت واستغرقت رحلته عدة أيام عاد بعدها منهكاً. ولم تره زوجته قادماً لأنها كانت تدير ظهرها إلى المكان الذي قدم منه فوقف وراءها يتأملها وكانت هي تجلس القرفصاء نازعة شعرها الذي وضعته في حضنها تمشطه. ولم يكن علي يعرف أن تلك هي عادة من عادات الجن فأثاره رأسها العاري تماماً من الشعر فصرخ من الدهشة «باسم الله»..

عندئذ أبرقت السماء وأرعدت وانفتحت الأرض وابتلعت زوجته وخيمته وكل مقتنياته. وأنقذ علي نفسه بأن ارتمى إلى الوراء ممسكاً ابنته بين ذراعيه بقوة حتى لا تختفي مع أمها.

كبرت الفتاة وتزوجت أحد أقرباء والدها. وهذه الفتاة هي جدتهم، وعددهم اليوم أكثر من ٢٠ ألف نسمة.

هذه هي القصة التي أخبرني إياها محمد بن سالم بن دراهم المرّي.

وإذ سئل أحد آل مرة عن اسمه يقرن اسمه باسم أمه كأن يقول «أنا علي بن نورا». وقال لي عدد من الأشخاص الذين بحثت معهم هذا الموضوع إن سبب ذلك وقائي فلا يكنى واحدهم نفسه بأبيه أمام الغرباء بسبب الثارات الكثيرة في تلك المنطقة. ولكن السبب في اعتقادي أنهم يفعلون ذلك تيمناً بجدتهم الجنية.

ويشتهر آل مرة كما ذكرت سابقاً بقدرتهم على اقتفاء الآثار. وكثيرة هي القصص التي يروونها عن هذه الموهبة الخارقة. وهم يفتخرون بذلك ويتحدثون عنه دائماً. وتبلغ قدرتهم في الاستدلال إلى حد يستطيعون فيه معرفة ابن من هذا الشخص أو ذاك الجمل دون أن يروه ولكن بمجرد التطلع إلى آثار أقدامه. ويدعون أن هذه المعرفة موروثة من الجن والأرواح التي تسكن باطن الأرض».

الغابة الفراتية

بقلم : ولفرد بلنت

ابتعد ولفرد كعادته باتجاه النهر[1] إلى غابة الطرفاء ورغب في التجوال هناك حتى حلول الظلام، ولما عاد طلبت منه أن يكتب لي وصفاً لغابات الفرات فكتب الآتي:

●● آن بلنت على الفرات
٤ يناير ١٨٧٨م

أشجار الطرفاء تنتشر في المكان بارتفاع يماثل نبات جار الماء في إنكلترا خصوصاً عندما تكون الشجيرات في السنة العاشرة من عمرها عادة عند الساق بحيث يمكنك أن تشق طريقك من خلالها بانحناءة قليلة، وهناك ممرات صنعها الخنزير البري يسهل تتبعها والسير عليها في الغابة، والأرض نظيفة من القمامة والدبال ولا تصدر صوتاً عند المشي فوقها. ولكن قد يغوص الماشي فيها بعد أشهر الفيضان لأن مستوى أرض الدغل تكون في تلك الأيام أخفض من مستوى ماء النهر، ولا يمكن أن نرى من خلاله أكثر من بضعة ياردات، أما الأغصان العلوية فنجدها متشابكة كثيفة عشعشت فيها طيور العقعق منذ سنوات طويلة، وكلما مررت بها أخذت تنعق وتصيح، وكلما تقدمت فعليك الحذر وأخذ الحيطة خوفاً من الحيوانات المتوحشة التي أخبرنا بها العرب الذين مررنا بهم في الطريق.

---

(١) كثيراً ما يعتمد على مذكرات الرحالة في ميدان الرصد البيئي ودراسة البيئة العربية في الماضي ومقارنتها بالحاضر، ولهذا وضع هذا النص إذ لم تعد على الفرات غابات تذكر كما غابت عن المنطقة كثير من النباتات والحيوانات.. والنص من كتاب: «قبائل بدو الفرات». ذكر سابقاً.

كنا في الماضي نسخر من هذه الحكايات، أما الآن فأية همسة أو فرقعة غصن كافية أن تجعلنا نلتفت إلى الخلف بسرعة ونحن نتوقع أن نرى عيني الأسد الهادئتين تحدق بنا من خلال الشجيرة، ولكننا ننسى الفزع فوراً بمجرد سماعنا تغريد الطيور التي لا تبعد عنا أكثر من خمسين ياردة، وقد نجدها أمامنا على الأشجار بشكل واضح وجلي. فالدراج ما أن يطير حتى يكون على وشك أن يحط على الأشجار ثانية، فنتوقف لنصغي إلى صوته المغرد من جديد. وقد يصادفنا طائر غريب لا نتمكن من رؤيته بوضوح فيطير من أيكة كثيفة ليحط في أخرى دون أن نعرفه وحتى قبل أن ينزل الصياد بندقيته عن كتفه. وبينما نركز اهتمامنا بكتلة من الشوك أو صريمة الجدي المتدلية من حولنا. يقفز خنزير مندفعاً إلى الخارج بسرعة فائقة فتصوب إليه البنادق على عجل لتخطئه فيولي هارباً دون أن نحظى به، وذلك من حسن الحظ لأن إصابته بجرح تجعله يستدير إلى الصياد ليصبح تحت رحمة أنيابه وأرجله، والطلقة التي تطلق باتجاهه تهيج الدراج فيطير إلى أعلى فتعاجله بطلقة خاطفة حالما يرتفع في الجو. كلما تجولنا في الغابة ينتابنا شعور أننا سنصادف شيئاً جديداً في كل لحظة. والسير في دروب الخنازيرعبر الغابة يوصل فجأة إلى النهر الذي ينساب بصمت مسرعاً بكتلة كبيرة من الماء الموحل، وعندما نقف فوق جرفه نجده يرتفع إلى أكثر من اثني عشر قدماً، ومن هناك نشاهد طيور الوز، وإذا ما صادفنا ماءً راكداً فربما وجدنا أسراب طائر البجع الجميل. وعند حافة النهر نجد السرور من جديد بتصحيح الحسابات الخاطئة عندما ننظر إلى السماء المكشوفة، فنحن الآن خارج حدود الغابة. غابت الشمس وحان موعد العودة إلى الخيام، وهنا لا بد من السير في طريق مستقيم تسمع

على جوانبه بنات آوى تعوي بشدة، ومن بعيد عبر النهر يمكننا سماع زئير الأسد، ولا ندري فقد يكون رغاء البعير في غالب الظن، وقد نمر في طريق العودة بفسحة قطع العرب الأشجار منها لتستخدم وقوداً لنيرانهم فنجلس فيها لنأخذ نفساً، وفي هذا الوقت تحط على الأرض طيور عند أقدامنا، واحد يحط بعد الآخر؛ فنظن أنها من طيور البوم، تتقاتل عند الأقدام فنطلق النار لنجدها من دجاج الأرض، ويغرينا هذا أن ننتظر قدوم الآخرين، ولكن لا نستطيع الانتظار طويلاً بسبب حلول الظلام، والظلام يجعلنا نتعثر في الطريق، وعندما نسرع فقد يمر بنا ابن آوى خلسة عبر الطريق، وعندما يتعذر الاهتداء بشيء من حولنا فلا بد من التطلع بقلق إلى النار التي يفترض أن الأصدقاء قد أشعلوها في مكان مرتفع لترشدنا ونحن في طريق العودة. طلع القمر فعلمنا على ضوئه الجميل أننا عند أطراف الغابة.. رأيناه يحاذينا وكأنه يريد أن يتركنا وراءه في أرض مكشوفة... وعلى حين غرة تبلغ القلوب الحناجر لرؤية حيوان أحمر يتحرك بسرعة بين الأشجار، وسرعان ما ندرك أنها بقرة عادت مهرولة من المرعى لترضع عجلها الذي ربط منذ الصباح في البيت، وعندها - كما يقول الرومانسيون - نتنفس الصعداء، فنتبعها في الطريق لنصل إلى المعسكر، ولنفرغ ما في جعبتنا من صيد على تراتيل حنا وتبريكاته[1] ما شاء الله! ما شاء الله!.

---

(١) كان المكان هو منطقة السبخة جنوب الرقة على الفرات.. وكان يشتمل على غابة كبيرة تحتوي مختلف أنواع النباتات والحيوانات.. نزل ولفرد للسير في الغابة بينما بقيت الليدي بلنت مع الطباخ حنا الحلبي وبقية الرفاق في الرحلة فوق التلال المطلة على الغابة يشعلون النار ليهتدي بها عند خروجه.. وكان الرحالة هؤلاء في طريقهم من الرقة إلى دير الزور على الفرات.

وضع المرأة في الشرق

بقلم : الأميرة سالمة بنت سعيد[1]

قبل المضي في سرد أحداث حياتي، أود أن أكتب بعض الفصول في وصف بعض وجوه الحياة الشرقية. ولا أريد من هذا أن أعود أو أشرح كل عاداتنا أو تقاليدنا، وإنما وددت أن أمكّن القارئ الأوروبي من تكوين صورة صحيحة عن نواحي معينة هامة في حياة الناس في الشرق، وقد اخترت وضع المرأة في الشرق لأنه من أكثر المواضيع خطراً ودقة، ولأني كشرقية الأصل والمولد والنشأة سوف اتهم بالتحيز إلى بلادي القديمة وبنات جنسي.. ومهما بذلت من جهد فلن أتمكن من تصحيح الأفكار الخاطئة عن وضع المرأة الشرقية وعلاقتها بزوجها، خصوصاً وأن هذه الأفكار الخاطئة هي التسرع في الحكم على الأمور، والأخذ بمظاهر الأشياء فقط واستقاء المعلومات من غير مصادرها الأصلية. وعلى الرغم من توافر المواصلات وسهولتها بين أوروبا والشرق، فما يزال الشرق في نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات[2] . وعلى هذا الأساس فهو يستهوي الكثيرين للكتابة عنه بغرض الربح والشهرة. فإذا حدث أن مرَّ سائح ما مروراً عابراً في الشام أو تونس أو القسطنطينية أو القاهرة فإنه لا يتأخر عن الكتابة عن هذه الأماكن كتابة الخبير العالم بها، وكل مصادر علمه هي خدم الفندق الذي ينزل فيه أو أصحاب الحمير التي تقله في تنقلاته. وليته يكتفي بما يسمع ويرى بل إنه

---

(١) الفصل الخامس عشر من كتاب: «مذكرات أميرة عربية» بتصرف.

(٢) انظر كتاب: أساطير أوروبا عن الشرق، د. رنا القباني.

يطلق لخياله العنان فيضيف إلى كتابه أشياء خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع؛ ليضفي عليه مظهراً من مظاهر الجديّة والأهمية ويضمن له النجاح وسرعة الانتشار. ولن يمر وقت طويل حتى يصبح هذا الكتاب مصدراً وحجة تستقى منه المعلومات وتبنى عليها الأحكام[1].

لقد وقعت أنا ذاتي في هذا الخطأ عندما وصلت لأول مرة إلى أوروبا، عندما انخدعت بالظواهر العامة نتيجة لزيارتي لبعض العائلات الأوروبية، فعندما أخرج منها كنت أرى علائم البشر والابتهاج تغمر وجوه أفرادها، فذهبت إلى الظن بأن الحياة العائلية في أوروبا أقرب إلى السعادة والهناء منها في بلادي. وعندما كبر أولادي ولم يعودوا بحاجة إلى رعاية كبيرة واهتمام مني، ازدادت علاقتي بالعالم الخارجي وكثر عدد معارفي من العائلات، فنفذت إلى دقائق حياتهم العائلية، فاكتشفت آنئذ مقدار الخطأ في اتخاذ أحكامي الأولى. إن حقيقة الناس والأشياء ودخائلهم وما يضمرون هو غير الذي يبدو ظاهراً منهم. فقد عرفت كثيراً من الزيجات التي ظاهرها السعادة وبطانها شر أنواع العذاب، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن النظام المتبع في الزواج المسيحي لا يفوق النظام الإسلامي في شيء، ولا يحقق السعادة أكثر من النظام الإسلامي... إن السعادة والانسجام بين الزوجين يعتمد على مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر، وهو العنصر الهام في تحقيق سعادة الزوجين، وانعدامه بينهما يؤدي إلى الشقاء والفرقة في حياتهما الزوجية.

إنني عندما أتكلم عن النساء في الشرق، فبذلك أعني الأحوال في

---

(١) لهذا السبب تعرضت لسلبيات بعض الرحالة الذين لا زلنا نعاني من تجنياتهم على بلادنا حتى اليوم.

زنجبار، وهي الأحوال ذاتها في عمان، ومنها يمكن تعميم الحديث ليشمل أوضاع المرأة الشرقية بصورة عامة، لأنها تدين بالإسلام والأحكام الإسلامية في الحقيقة تنبع من مصدر أساسي واحد، وحيثما يسود الإسلام تتشابه الأحوال والأحكام باستثناء بعض المجتمعات التي غزتها وأفسدتها سفسطات الغرب المسيحي.

إن أول ما نود تصحيحه في الأفكار الخاطئة قولهم: إن المرأة الشرقية تنزل في المجتمع أقل منزلة من زوجها، وإذا ما استثنينا الجواري والمحظيات فالمرأة تساوي زوجها في المقام والحقوق والامتيازات، وأن منزلتها الاجتماعية كانت ولا تزال محل التقدير والاحترام، فالمرأة لا تتزوج إلا من هو كفءٌ لها من حيث الحسب والنسب والمنزلة الاجتماعية، وهذا هو في أصل التشريع الإسلامي. ولكن وهمهم هذا يأتي من كون المرأة المسلمة محجَّبة فتبدو لهم وكأنها لا حرية لها ولا حول لها ولا قوة، علماً أن حجاب المرأة المسلمة واجب شرعي في كل بلاد الإسلام في الشرق، فلا يجوز للمرأة أن تكشف وجهها إلا لأبيها وأخوتها وأعمامها وزوجها وأبنائها وبعض خدمها الخاصين بها... على أن المرأة الشرقية ليست محرومة من الخروج من بيتها كلياً، وإنما يجب أن يكون لخروجها سبب مقبول أو حاجة ملحة، فلها أن تعود المرضى من أهلها وأقاربها، أو تحضر المآتم والأفراح أو أن ترعى تجارتها.. ولها أن تبرز أمام القضاة وأن تترافع أمامهم في قضاياها... ولعل التقاليد الصارمة هي التي سوف تحد من الاسترسال في الانتفاع من هذه الفسحة والاندفاع وراء غرائزها.. فإن كانت المرأة الشرقية في نظرهم تبدو كدمية ملفوفة، فإني أجد المرأة الأوروبية في لباسها وزينتها في الشارع والحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفاً ممقوتاً ولكن في الاتجاه

المعاكس... ويزداد إشفاق أهل الغرب على المرأة الشرقية بسبب تعدد الزوجات، فهي مضطرة أن تتقاسم حب زوجها مع نساء أخريات! ولا جدال بأن الدين الإسلامي أباح للمسلم أن يتزوج أربع زوجات بآن واحد.. كما أباح له أن يتزوج من الإماء والجواري ما يشاء مما تملكه يمينه.. إلا أن عامة الناس لا يفعلون ذلك لضيق ما في اليد، وحتى الكثير من الموسرين يكتفون بواحدة أو اثنتين على الغالب. عدا أن بعض النسوة يشترطن على أزواجهن أن لا يشركوا معهن امرأة أخرى بالزواج، ويحتفظن لأنفسهن بحق الطلاق من الزوج إذا خالف هذا الشرط. تعدد الزوجات غير معمول به في الغرب باستثناء فئة «المارمونسيم»[1] وهي طائفة مسيحية صرفة تقوم فوق أرض مسيحية خالصة.. ومن السخف أن يتكلم الغربيون عن زوجة واحدة وفقاً لمعتقدات الدين المسيحي في حين أن الكثير منهم يتعمدون آثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخنا والفجور! فالمرأة الشرقية تعرف النساء اللاتي يشاركنها في زوجها في عددهن وشكلهن ووصفهن في حين تبقى المرأة الغربية في جهل تام عن هذا كله..

ومن الأمور الباطلة: الظن بأن الرجل العربي المسلم يعامل زوجته باحتقار وازدراء، فديننا الإسلامي يمنع ذلك منعاً باتاً، ويساوي بين الزوجين، وإذا كان الدين قد منح الرجال حقوقاً أكثر من النساء، فإنه في الوقت نفسه أوجب حمايتهن ورعايتهن، فالمسلم يخاف الله ويرعى تعاليم دينه حتى آخر لحظة من حياته؛ لأنه يؤمن بلقاء الله بعد الممات، ويأمل بثوابه ورضاه في الآخرة، ولهذا فهو أحرص من كثير

(١) مارمونيسم: طائفة مسيحية ظهرت في أمريكا عام ١٨٣٠م وكانت تبيح تعدد الزوجات، فناصبها المسيحيون العداء، مما اضطرها لتعديل موقفها عام ١٨٩٦م فعدلت عن هذه الإباحة.

من الأوروبيين على رعايته لنسائه وبناته طاعة لربه واحترام أمره.
ومن الطبيعي أن نجد في المجتمع العربي المسلم بعض المنحرفين الذين لا يحترمون زوجاتهم ولا يؤدون لهن الحب الكافي، ووجودهم هو كوجود المنحرفين في أي مجتمع آخر... وأستطيع أن أجزم عن وعي وإدراك بأني قد سمعت هنا في الغرب عمن يضربون أزواجهم في البيوت على الرغم من أنهم في الظاهر بمنتهى الثقافة والرقة، وهم كثر أكثر مما سمعت عنهم في الشرق، في حين أن العربي يترفع عن ذلك لأن ضرب المرأة يحط من قيمته بين الرجال.. وليس صحيحاً أن المرأة الشرقية لا تملك إلا الذلة والخنوع أمام نزوات زوجها وأهوائه، فالواقع إنها تستطيع أن تشتكيه إلى أهله وأهلها، وربما شكته عند القاضي.. ومن قصص المرأة واستقلالها في الشرق: أن العادة الجارية في بلادنا إذا ما التقى الزوجان أن يقبل كل منهما يد الثاني، وأن يتناولا طعامها مع أطفالهما، وقد تؤدي المرأة بعض الأعمال الودية البسيطة لزوجها، كأن تسقيه الماء إذا ما طلبه، أو أن تناوله سلاحه عند الخروج أو ترفعه عنه عند عودته إلى المنزل. وهذه الأعمال الطفيفة تؤديها المرأة من تلقاء نفسها دون أن يطلبها منها أحد أو أن يكرهها عليها، ولكن هذه الأعمال على تفاهتها تشيع الود والبهجة والرضى بين الزوجين.

أما أعمال البيت فالحكم المطلق فيها للمرأة، وليست هناك ميزانية مخصصة للمصروف البيتي، وإنما ينفق الرجل ما تطلبه المرأة، وحتى إذا كان للرجل زوجتان أو أكثر فلكل منهن بيت منفرد تستقل بإدارته وحدها. أما الحد الذي تستطيع فيه المرأة أن تحافظ أو تزيد من امتيازاتها البيتية فأمر موقوف على شخصية المرأة وطباع الزوج، ومقدار التفاهم والانسجام بينهما..

ومن حسن حظ المرأة العربية أن تربية الأطفال تقع على عاتقها وتتولاها بنفسها، سواء أكانت زوجة أم أمة. في حين تضطر فيه المرأة الإنكليزية إلى أخذ أطفالها إلى دور الحضانة كل صباح، وفي حين تضطر فيه المرأة الفرنسية إلى إرسال أطفالها إلى الأرياف حيث يتولى العناية بهم أناس أغراب عنها. إن المرأة العربية تتولى أطفالها ببالغ عنايتها المستمرة، فهي التي ترضعهم وترعاهم وتراقبهم في اللعب والأكل ولا تدع أحداً منهم يغيب عن ناظريها حتى يشبوا عن دور الطفولة حيث تجني بعد ذلك جزاء تعبها ثماراً حلوة من الحب العميق والاحترام الصادق بينها وبين بنيها، وفي هذا ما يعوضها بعض الشيء عن متاعب تعدد الزوجات.

ولو قدر لأحد أن يشهد علائم السعادة والابتهاج في نفوس النساء الشرقيات وعلى وجوههن؛ لأيقن في الحال ببطلان الإشاعات الكاذبة عن بؤس الشرقيات وذلهن، وغير ذلك من نعوت العطف والرثاء والزراية والاستخفاف. ومرد هذه الأحكام - فيما لو أحسنا الظن بنيات أصحابها- هو النظر السطحي السريع، في حين أن الحكم الصحيح على الأحوال الاجتماعية يتطلب النفاذ إلى بواطن الأمور وأصولها وهذا لا يتأتى من زيارة عابرة لا تدوم إلا بعض الوقت.

وعلى الرغم مما يشتهر به العربي من حب للضيف وكرم الوفادة فإنه ينفر ممن يحاول التطفل على دخائل حياته وأسرار بيته، وخاصة إذا كان هذا المتطفل أجنبياً في الجنس والعقيدة واللسان. وكثيراً ما كنا نستقبل في بيوت السلطان بعض الزائرات الأوروبيات، فكان الحديث مع الواحدة منهن يقتصر على غرائب الأزياء والثياب، فثيابها غريبة علينا وثيابنا مصدر العجب والدهشة لها، ثم نقدم لها أطايب المأكولات والمشرب حسب ما تقتضيه واجبات الضيافة العربية، وبعد

أن يرش عليها الخدم ماء الورد تودعنا وهي مثقلة بهدايا الوداع كما هي العادة، وتخرج منا وهي ليست أكثر علماً بأحوالنا وطباعنا منها حين دخلت علينا، تخرج وفي مخيلتها أنها كانت في قصر الحريم وأنها شاهدت البائسات المحجبات من نساء القصر، وأنها أعجبت بلباسنا الغريب وحلينا النفيس، وقدرتنا على التربع على الأرض بخفة ورشاقة.. وليس أكثر من هذا. إن حالها هو حال الأخريات اللاتي سبقنها في زيارتنا أو اللاتي جئن من بعدها، فهي لم تتبسط في الحديث معنا، ولم تنفذ إلى سرائرنا، ولم تر من البيت غير مكان الاستقبال الذي قادها الخدم إليه وأخذوها منه. فكيف يصح لزائرة مثل هذه أن تدعي العلم ببواطن الأمور والنفاذ إلى أسرارها ومن ثم إصدار الأحكام عنها..؟!

ومن الطبيعي أنه قد يتعذر الوفاق بين طباع الزوجين دوماً - كما يحدث في كل أنحاء العالم وعلى مر العصور - وقد ينجم الخلاف والشقاق بينهما، ويغدو استمرار حياتيهما معاً صعباً أو مستحيلاً، فيلجآن إلى الانفصال بالطلاق، وهنا تتجلى حكمة الطلاق في الشريعة الإسلامية، فمن الأسلم والأفضل عندها ولأي من الزوجين تباينت طباعهما واختلفت مشاربهما أن ينفصلا بهدوء وسلام من أن يظلا طوال حياتهما مكبلين بأغلال زوجية تعسة تعود على كليهما بالنكد والشقاء، وقد تدفع بهما إلى أعمال تخالف الأخلاق والقانون[(١)]. والطلاق في الإسلام يبيح للمرأة أن تستعيد لنفسها كل ما تملك، وتبقى حرة التصرف دون قيد أو رقيب. وإذا طلب الزوج الطلاق فيمكن للزوجة أن تحتفظ بكل هدايا العرس وجهازه، ولكنها تفقد هذا الحق إن جاء طلب الطلاق من جانبها.

---

(١) تعد مشكلة طلاق ديانا من الأمير الإنكليزي تشارلز مثالاً لذلك.

وبعد فأرجو أن يكون كلامي هذا ما يثبت أن المرأة الشرقية ليست ذلك المخلوق المظلوم المضطهد البائس الذي لا حول له ولا مقام في الحياة، كما يحلو للناس الغربيين هنا أن يكرروا ذلك دوماً. وليس أدل على بطلان قولهم من النماذج التالية لبعض نسائنا، فأول زوجة لأبي هي عزّة بنت سيف، فقد كان لها السيطرة التامة على السلطان السيد سعيد، فما من شأن من شؤون البيت أو الحكم أو السياسة إلا وخضع إلى رأيها وهواها، وما كان أحد من أهل بيته يستطيع أن يطلب من السلطان شيئاً ما لم يتقدم بطلبه إليها وينال موافقتها عليه، وقد ظلت لها الكلمة العليا دون منازع طيلة حياة زوجها السلطان... وجدي حاكم عمان وإمام مسقط مات وترك عند وفاته أولاداً ثلاثة هم أبي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة، فأعلنت عمتهم موزة الوصاية على الأولاد حتى كبروا.. وقد صدم هذا القرار المفاجئ رغبات الوزراء الذين كانوا يريدون استغلال صغر سن أبي وضعفه للاستيلاء على السلطة واستغلالها لمصالحهم الخاصة.. وقد أمسكت الأمور بقوة وحزم.. لقد كان همها أن تنجز مهمتها بنجاح وإخلاص.

لقد كشفت الأحداث عن معدن هذه السيدة: حكمة في الرأي، وصلابة في التصميم ونشاط في العمل حتى حازت على إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء.. ومع ذلك كانت عمة أبي هذه[١] امرأة شرقية!!.

---

(١) إن المقصود بهذا الكلام هي السيدة موزة بنت الإمام وعمة السيد سعيد التي تولت الوصاية على ابن أخيها وأخوته عام ١٨٠٤م، واستمرت في تسيير الأمور بفعالية حتى عام ١٨٤٠م.

خيول الخديوي عباس باشا

عن كتاب : الخيول العربية في مذكرات السياح والرحالة للمؤلف[1]



الخديوي عباس باشا «١٨١٣ - ١٨٥٤م» في صورة تخطيطية.. إنه الحاكم المصري الوحيد الذي كرس حياته للصيد والفروسية... وتربية الخيول العربية حتى مات.

ورثت العائلة المالكة المصرية ممثلة بشخص مؤسسها محمد علي باشا حب الخيول العربية والعناية بها من المماليك الذين أبدعوا في تربيتها، وعملوا على ازدهار الخيول العربية في مصر. وعلى الرغم من كونهم من الألبان إلا أنّ ظروف الحرب والنهوض بمصر دفعتهم للتعرف على الجواد العربي (التحفة والكنز) وقد كثرت الاسطبلات الملكية في عهدهم وتعددت أسماء مالكيها أمثال: علي باشا الشريف، والأمير أحمد كمال باشا والخديوي عباس حلمي، إلا أن فضل حماية الجواد العربي، وتصديره للغرب يعود للخديوي عباس باشا بن طوسون حفيد محمد علي باشا، فلم يكن لهذا الخديوي الذي تولى حكم مصر (١٨٤٨ - ١٨٥٤م) شأن يذكر في مجال السياسة، أما في ميدان الخيول فيعد فارساً لا يشق له غبار.

---

(١) لا يزال الكتاب مخطوطاً حتى تاريخ إعداد هذا الكتاب، وهو من الكتب الطريفة الرائدة في ميدان الفروسية، وسيكون له شأن في هذا المجال بإذن الله.

ولد عباس باشا في الحجاز عام ١٨١٣م في وقت كان والده يشترك في الحرب ضد أنصار الدعوة السلفية في الجزيرة العربية، وما إن شب حتى أرسله والده إلى مصر ليربيه جده تربية سياسية عسكرية، ولكن الفتى فشل في الدراسة والتعلم، وولي بعدها على المقاطعة الغربية، فتذمر منه السكان لقسوته وخشونته، ولكنه كان مولعاً بارتداء الزي العربي والعيش مع البدو، وكان يكره الأجانب لتدخلهم بشؤون مصر.

ورغم مشاعر الإحباط عند عباس باشا كان يحب الخيول العربية، ويقبل على رعايتها بشغف، ولم يكن يرضى عن البدو بديلاً كمساعدين له في سياسة الخيل... وفي أحداث الحرب في الجزيرة العربية التي كان يشارك فيها والده نفسه أُسر الأمير السعودي فيصل بن تركي، ونُقل إلى مصر حيث سجن، وفي سجنه حاول الفرار أكثر من مرة وفشل، ولكنه استطاع أن يهرب عام ١٨٤٣م وبقيت ظروف هربه غامضة، وإن كان يشار إلى عباس باشا بإصبع الاتهام بأنه هو وجماعته كانوا وراء هرب الأمير فيصل. ما لبث فيصل بن تركي أن استعاد نفوذ آبائه وأجداده في الدرعية، وبطبيعة الحال دامت المودة بينه وبين عباس باشا خصوصاً وأن الأخير كان يطمع في حكم مصر بعد وفاة عمه إبراهيم ومرض جده محمد علي، وكم من مرة كان يغضب عمه وجده عندما كان يهرب ويختفي في البادية السورية بين مضارب الرولة من عنزة في ضيافة الشيخ فيصل ابن شعلان، وأخيراً جاءته الخديوية طائعة حيث أصبح حاكم مصر عام ١٨٤٨م.

كان عباس باشا يعيش في سلسلة من المتناقضات، فقد كانت تصيبه نوبات من القلق، وتساوره الشكوك في كل الأوقات، ولا يثق بأحد من أفراد العائلة خوفاً من الدسائس، وبالمقابل أعرض عن

سياسة الحرب، وأخذ يحسن علاقة مصر مع الدول المجاورة، ولهذا أرسل له الأمير فيصل بن تركي مجموعة من خيول الجزيرة العربية، وأرسلت إليه الرولة وأمراء البادية كرائم الخيول العربية، وخيول ابن سعود معروفة كانت تصله من قبيلة العجمان ومن بني مرة ومن خيول البحرين، وظل التنسيق قائماً بين فيصل بن تركي والرولة وبين عباس باشا طوال فترة حكمه، ومن الطرائف أن عباس باشا وجد من بين خيول الجيش العائد من الجزيرة العربية مجموعة من خيول البدو كانت قد أسرت ولا تُعرف أنسابها، فاستغل عباس باشا صداقته لفيصل بن تركي، فأرسل وفداً من الكتاب وخبراء الخيول إلى الجزيرة العربية لتحري نسب هذه الخيول، فذهب الوفد إلى هناك وعاد بوثيقة رائعة عن نسب الخيول المذكورة. بدأت نواة الاسطبلات في العباسية بشرائه لفرسين نادرتين بمبالغ خيالية:

١ - الفرس وزيرة: وهي فرس جلابية[١] تدعى جلابية فيصل، أصلها من خيول البحرين أهديت لفيصل بن تركي، ووصلت بعدها إلى عباس باشا.

٢ - الفرس الجازية: وهي صقلاوية من خيول الرولة، كانت ضعيفة لا تقوى على السفر من حماد بادية الشام إلى مصر، فأرسل عباس باشا من ينقلها على عربة حتى وصلت القاهرة.

أما من حيث النظام في الاسطبل فهو نظام تربية الخيل في البادية، حيث كانت تدرب الخيول يومياً قرب «هليبوبوليس - القاهرة» تحت إشراف خبراء الخيول من قبائل: عتيبة ومطير،وعنزة، ثم بنى

---

(١) الجلابية فرس من خيول آل خليفة حكام البحرين، وهي من سلالة كحيلان ولكن جلبت إليهم من بعض القبائل العربية فسميت بهذا الاسم.

قصراً يطل على مرابط الخيول، وجعل شرفات القصر بمواجهة أفضل خيوله، حتى لا تغيب عن ناظره، كما بنى لوزرائه مساكن حول الاسطبلات في منطقة عرفت بالعباسية في القاهرة، وقد نسبت إليه.

وفي البادية بنى قصراً مماثلاً سماه «الدار البيضاء» بين القاهرة والسويس ما بين عامي ١٨٥٠ - ١٨٥١م وحوله إلى مزرعة لتربية الخيول زودت بخزان ماء كان يجلب إليه الماء على ظهور الإبل من النيل مباشرة، وقد جعل هذا المكان منقطعاً عن الناس لا يعرف أحد ماذا يجري بداخله، وأحاطه بحراسة مشددة تتلقى أوامرها من عباس باشا مباشرة، وكم من مرة ساق حارساً مهملاً إلى الموت بسبب إهماله، ولم يكن يلام على ذلك لندرة السلالات التي كانت تربى في المزرعة، وما عدا ذلك فشيوخ البدو كانوا محط ترحيب في هذا المكان، وخصوصاً من جاء منهم ليشهد ولادة فرس ويكون له شرف التوقيع على حجة مولودها، كما كان يأخذ الخيول على سبيل الشراكة من مرابطها عند البدو، وفي مرة دفع بدوي بفرسه إلى عباس باشا عندما كانت الفرس مهراً، وقد ندم على فراقها فعاد إلى عباس باشا والدموع في عينيه يريد الفرس، فقال له عباس: إن كنت تستطيع أن تميزه عن بُعد من بين عشرين فرساً تماثله في اللون والعمر فهو لك. فقام البدوي يصفق ويغني وإذ بالفرس ترفع رأسها وتجري إليه بعد أن انقطع عنها عدة سنوات. ومن نوادره أيضاً أنه أهدى ملكة بريطانيا حصاناً صقلاوياً، ولكنها لم تقدر قيمة الهدية فبيعت إلى الهند، فغضب عباس باشا وأرسل رجاله إلى الهند فعادوا بعد سنة ومعهم الحصان. وقد عجب الرحالة من حرص عباس باشا في موضوع الخيل، ففي عام ١٨٥٢م سافر البارون الألماني «جوليوس فان هيجل»

إلى القاهرة لشراء بعض الخيول من عباس باشا لصالح الملك «ورتنمبرغ» ولما عاد كتب تقريراً للملك يقول فيه[١]:

«يعد عباس باشا أفضل خبير ومرب للخيول في العالم، وروي لي أنه يملك في الاسطبلات أكثر من ألف فرس، وكان الباشوات من حوله لا يودون رؤية أي رجل غريب حول المرابط، وخصوصاً عندما يكون من غير المسلمين... وقد منعت من زيارتها على الرغم من أني أهديت إلى الاسطبلات اثنين من أمهر خدم الخيول، ولكني عدت بطلوقة من الخيل هدية للملك... كان عباس لا يتكلم عن الخيول الجيدة أمام الغرباء خشية أن تطلب منه، وعندما استدرجته للحديث عن الخيل حول الحديث في منحى آخر.. عن طريقة الأوروبيين في استيراد الخيول ثم قال: لا أعتقد أن الخيول العربية المتولدة في بلادكم هي من الخيول الممتازة، والسبب هو أن الجواد العربي هو ابن البادية العربية، ونادراً ما تظهر الخيول بنفس المواصفات الممتازة ما لم تتنفس هواء البادية العربية، وبالرغم من أن الإجابة ساذجة للوهلة الأولى، إلا أن عباس باشا أصاب كبد الحقيقة». كان الحصان الذي أهداه عباس باشا لملك ألمانيا هو من سلالة هدبان من خيول السبعة من عنزة عام ١٨٤٨م كما قام هيجل بشراء مهرتين: واحدة صقلاوية والثانية من سلالة كحيلان العجوز، وعندما نعود للوفد الذي أرسله عباس باشا إلى الجزيرة العربية لتحري نسب الخيول المجهولة، نجد من بين الوفد:

١ - مشافي بك حاكم العباسية.
٢ - رستم بك.
٣ - سالم أفندي.

---

(١) Eaypt's Arab Horses by Dr. Erwin A. Piduch G. 1988.

٤ - خادم الباشا اللالا على باشا الجميلي.

وتعد المخطوطة التي عاد بها الوفد من أجمل ما دون عن سلالات الخيول العربية.

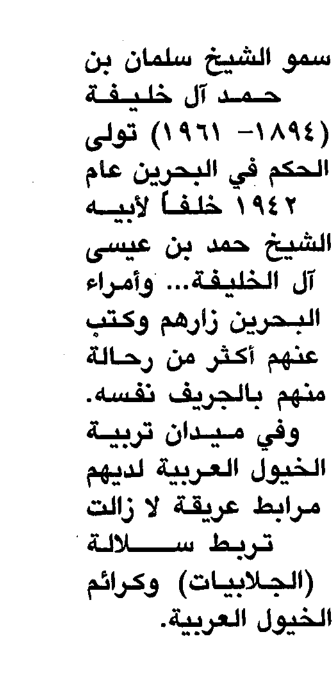
ومثلما تحدثنا عن البداية نتحدث عن النهاية المأساوية لعباس باشا، وعندما نعرف ذلك فهذا يعني تشرد أكبر ثروة من خيول العرب رباها عباس باشا، فتفرقت شرقاً وغرباً، ولم يبق منها في مصر إلا القليل... لقد مارس عباس باشا التربية العملية للخيل لمدة تزيد عن العشرين عاماً، وفي صباح الثالث عشر من تموز عام ١٨٥٤م وُجِدَ عباس باشا ميتاً في أحد القصور الملكية وعمره لا يتجاوز الحادية والأربعين. وقد أشيع أنه مات منتحراً، وهناك من يقول إن الحراس قد دسوا له السم إما لقسوته، أو لصالح مجموعة من أفراد العائلة المالكة.. وهكذا طويت صفحة مشرقة من حياة هذا الرجل الذي عاش من أجل الخيول العربية وأخلص لها.

مات عباس باشا تاركاً ولده إلهامي باشا مالكاً لثروة لم يقدر قيمتها، وهي فعلاً لا تقدر بثمن، فأخذ يهدي منها لملوك أوروبا، وعندما تزوج ابنة السلطان العثماني أرسل إلى استانبول مجموعة منها ولم يدم حال إلهامي باشا طويلاً فقد مات فجأة عام ١٨٦٠م، فأودعت ممتلكاته لدى البنك المصري، وقررت الحكومة المصرية بيع بقية الخيول بالمزاد العلني، فقد دعي لحضور المزاد الذي جرى في كانون الأول عام ١٨٦٠م كبار التجار والشخصيات السياسية المحلية والعالمية ولم يتخلف البارون الألماني «جوليوس فان هيجل» عن المزاد الذي بيعت فيه «٣٥٠» من الخيول العربية الأصيلة من أصل ألف فرس كان يملكها عباس باشا وأترك البارون نفسه يروي هذا الحدث المحزن وتفاصيل المزاد قال:

«وصلت إلى العباسية قبل أسبوع من بداية المزاد، وكان لدي وقت كاف لاستطلاع الخيول وهي في مرابطها بعد أن كان محظوراً على أمثالي مجرد فكرة الاقتراب من الحمى الذي يضمها. كانت الخيول في ثماني قاعات داخل الاسطبل وكل قاعة محاطة بجدران عالية ومغطاة بالجريد لحماية الخيول من حرارة الشمس، ولكنها كانت ترى الضياء متحدراً من بين الجريد، وهذا النوع من الحظائر كان مناسباً لمناخ مصر.

كانت شرفات قصر عباس باشا تطل على المرابط التي أعدها عباس بعناية فائقة.. كان هناك ثلاثون فحلاً من مختلف الأعمار... ومن بينها أربعة عشر تصلح للغزو والتلقيح، وهي بين «١١٠» من





سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة (١٨٩٤- ١٩٦١) تولى الحكم في البحرين عام ١٩٤٢ خلفاً لأبيه الشيخ حمد بن عيسى آل الخليفة... وأمراء البحرين زارهم وكتب عنهم أكثر من رحالة منهم بالجريف نفسه. وفي ميدان تربية الخيول العربية لديهم مرابط عريقة لا زالت تربط سلالة (الجلابيات) وكرائم الخيول العربية.

الأفراس الأصيلة مع ١٨٠ مهرة.. وقد كانت معظم الخيول من الخيول الكميت[١] الجميلة وغالبيتها من سلالة الصقلاوي، وسلالة الدهمان.

ابتدأ المزاد في ذلك اليوم في سرادق أعد خصيصاً، وفيه عدد من المقاعد تكفي لكل المشاركين. وقف الدلال العجوز وزير العلاقات العامة السابق عند عباس باشا، بينما جلس في يمين السرادق كل الأوروبيين الذين جاؤوا[٢] من فرنسا والنمسا وأستراليا وغيرها، مع بعض الزوار المتفرجين المسافرين من أوروبا إلى الهند، بينما جلس المصريون على يسار السرادق وبيدهم الجنيهات الاسترلينية كعملة للبيع والشراء.

وكلما مر جواد نادى دلال العرض على آخر سعر وصل إليه، حيث لم تعرض قائمة بالأسعار، ولا تعريف بالحصان، لأن اسم الحصان وسلالته كانت مكتوبة في قطعة معدنية كانت معلقة بعنقه، ومن سوء حظنا أن التعريف كان باللغة العربية مما جعل الأوروبيين يعجزون عن قراءته وفهمه دون ترجمة، مع ندرة المترجمين من بين الحضور، وكان الجو جو مزاح وفكاهة، وقد لعب «البخشيش» دوره في عمليات البيع التي استمرت ثلاثة أسابيع، وفي كل يوم كان يمر أمام منصة العرض ما بين ٢٥ – ٢٨ فرساً. وقد حصل بعض المشترين على عشرين جواداً، وربما حصل بعضهم على ما يريدون عن طريق المزايدات الجانبية، فبعض الفرنسيين حصلوا على ثمانية عشر جواداً، ولم يحصل النمساويون ولا مندوبو ملك السويد على أكثر من فرسين وبعض المهار. وفي الحقيقة بيعت الأعداد الكثيرة من هذه الخيول للباشوات المصريين فالأمير علي بك اشترى أربعين فرساً لصالح اسطبلاته الخاصة، وبهذا المقدار حفظ لمصر ثروتها من الخيول، التي عادت وتكاثرت في القاهرة من جديد».

---

(١) يعد اللون الكميت أو الأشقر الذي يميل للسواد من الخيول المفضلة عند العرب.

(٢) نقلت هذه الخيول إلى أوروبا فشكلت مع الخيول التي نقلت من قبل أشهر المرابط التي رُبيت فيها الخيول العربية ولا تزال في أوروبا.

كان البارون هيجل شاهداً على تفرق هذه الثروة من الخيول، وقد كان على حق عندما تنبأ بازدهار الجواد العربي في مصر، وفي بعض المرابط في العالم الغربي، فعلي باشا ظل يرعاها لمدة تزيد عن ٣٥ عاماً قبل أن تتحول رعاية الخيول إلى مؤسسة حكومية في عهد الثورة عام ١٩٥٢م.

كانت الحياة العربية ولا تزال تستهوي الفنانين والأدباء الغربيين، وكتاب «السيناريوهات» السينمائية... كما يجد فيها الممثلون السينمائيون متعتهم لتقمص الشخصيات الشرقية. وتقليد شيوخ القبائل العربية ومن هؤلاء: الممثل الأمريكي فالنتينو «١٨٩٥ - ١٩٢٦م» الإيطالي الأصل الذي اشتهر بتمثيل وإخراج الأفلام التي تصور الحياة العربية من وجهة النظر الغربية، ومنها فيلم: «ابن الشيخ».



في الصورة على اليمين الممثل رودلف فالنتينو في زي ابن الشيخ، وعلى اليسار الرحالة كارل شوان، وبينهما الجواد العربي «جدعان» الذي ركبه فالنتينو لتمثيل أحداث الفيلم عن الحرب والفروسية في حياة القبيلة العربية.

حجة الجواد العربي الأصيل
في مذكرات بعض الرحالة[1]

تمايزت الخيول العربية إلى سلالات أصيلة خمس: كحيلان، والصقلاوي، وعبيان، وهدبان والحمداني، وتمايزت كل سلالة منها إلى سلالة فرعية واحدة أو أكثر حتى بلغت سلالات الخيول العربية في القرن التاسع عشر أكثر من مئة سلالة.. وهناك خيول عربية من غير السلالات الخمس تُزاوج مع الخيول العربية لخمسة أجيال.. وعندما تثبت أصالتها تلحق بخيول العرب فتسمى الخيول الملحقة، وإن كان الرأي السائد عند العرب أن كل خيول العرب كانت قد اشتقت من سلالة كحيلان، ولهذا قال البدو: الخيل كحايل! وقد يطلق العربي اسم عائلته على سلالة الخيل، وقد تسمى باسم فارسها أو صفة فيها كما كان يفعل العرب في الإسلام ومن قبل في الجاهلية.

وقد أفاد الرحالة أن الفرس لا يُسأل عن أصله ضمن القبيلة لأن سلالته تكون معروفة لدى الجميع، وكأن شهرتها من شهرة وأصل مالكيه.. وعند البيع أو نقل الخيول إلى قبيلة أخرى، أو بيعها للأجانب، أو عندما تؤسر في الحرب، تحرر لها شهادة نسب تعرف بالحجة، وقد تبقى الحجة مكتوبة ومحفوظة بمحفظة جلدية تعلق في عنق الفرس للدلالة على أصله، وكتابة الحجة تقليد تراثي رائع في ديار العرب يبدأ:

١ - بسم الله تعالى.

---

(١) الحُجَّة: البرهان، وكل ما يحتج به عند التخاصم، وهي هنا شهادة النسب التي تحرر للدلالة على أصل ومنشأ الجواد العربي.. ومن عادة كثير من قبائل العرب كسر حرف الحاء عند لفظها بدلاً من ضمها. ومن عادة العرب نسبة الجواد العربي لأمه مهما كانت نوعية سلالة أبيه، وهو تقليد تراثي نعتز به، وأخذه عنا الغربيون.

٢ – كتابة أبيات من الشعر العربي، أو حكمة من حكم وأمثال العرب.

٣ – القسم بالله وبالشرف وهو قسم عظيم لا يمكن للعربي المسلم أن يحنث به.

٤ – تحديد اسم السلالة واسم مالكها الأصلي ومشتريها وتحديد ثمنها.

٥ – التوقيع على هذه الحجة بأختام خاصة من قبل أشهر الرجال في القبيلة.

وقد عجب الرحالة من صدق العرب بشأن نسب الخيل، فلا يمكن لهم أن يدلسوا بنسبها لأن القضية أشبه ما تكون بقضية العرض والشرف، ومن يدلس في نسب جواده، فكأنه يدلس في أصل ونجابة نسائه، وقد كانوا من قبل يعتزون بنسب الخيل والنساء، ويعتبرون الخيل والنساء من المقلدات التي تقلد بكل غال ونفيس.

وقد أوردت بعض كتب الرحالة نماذج من حجج الخيول العربية منها: حجة طريفة دوَّنها الرحالة أبيتون عن لسان الشيخ سليمان ابن مرشد لأحد الخيول ومهرها بخاتمه، ومنها أيضاً الحجة التي دونها الرحالة كارل شوان للجواد العربي الذي أخذه هدية من الشيخ فارس الجربا، وفيما يلي حجة لجواد عربي عمرها أكثر من مئة عام كانت محررة لجواد عربي من سلالة وذنان الأخرس اشتراه رجل من بدو العقيل في القصيم من بدو السويلمات من العمارات من عنزة، ومهر الحجة كذلك مجموعة من رجال الصقور من بدو العمارات وفيما يلي نص الحجة كما وجدت في المصدر(١) مع ترجمة لها:

(١) مصدر الوثيقة كتاب مترجم من الألمانية إلى اللغة الإنكليزية بعنوان: النبيل في الصحراء أي الخيول العربية عند البدو "Nobility of the Desert" The Arab Horse of Bedouins نشر دار أولمز في ألمانيا عام ١٩٩٠م وأظن أن هذه الحجة كانت من أرشيف الرحالة كارل شوان الألماني.. أو رضوان الرويلي.

وجرى تحرير مضبطة الاستشهاد

نحن المحرره اسمائنا وختومنا اننا شيوخ السويلمات من عشاير عنزه واكابرين السويلمات نشهد بالله
ومحمد ابن عبدالله نشهد شهادة صحيحاً من دون جبر انه مخدوم حمدان معانى الحسانى السويلمى
وهو حمدان الحر الذي في قضية هلال انه بالحلال والنحت ان امه وذنه خرسان وابوه كحيلان ابو جنوب
معلوم الرسن والاصل حمدان نبياً وذلك في علمنا وبموجب اطلاعنا انه صار كمنه على حظ العقيلي
في خمسماية وخمسين غازي وبموجب علمنا وخبرنا حررنا هذه الاستشهاد وما شهدنا الا بما علمنا والله
خير الشاهدين حرر في [illegible] من شهر [illegible]

شهد بذلك نمير ابن كحيلان من كبار السويلمات

شهد بذلك فرحان المسوط من كبار السويلمات

شهد بذلك شيخ [illegible] ابو بكر

شهد بذلك محمد ابن فرزون شيخ الصفور

شهد بذلك جهيم

شهد بذلك [illegible] شيخ الدبدب

عن اقرار البايع معاني الحماني السويلمي

شهد بذلك الزوين من كبار الصفور

شهد بذلك دعيبل الجاسب من كبار الصفور

شهد بذلك عامش ابن قطعان شيخ الدهان من الصفور

شهد بذلك راغب ابن ميوخف شيخ الصفور

شهد بذلك محمد العبد شيخ الحماده من كبار السويلمات

وجه تحرير مضبطة الاستشهاد :

نحن المحررة أسماؤنا وختومنا إننا شيوخ السويلمات في عنزة وكبار السويلمات[1] نشهد بالله ومحمد بن عبدالله، نشهد شهادة تهمنا من دون جيرانه بخصوص حصان معاشي الحشاي السويلمي وهو الحصان الحمر الذي في قصته هلال[2] إنه بالحظ والبخت أن أمه وذنة خرسان[3] وأبوه كحيلان أبو جنوب[4] معلوم الرسن والأصل حصان يشبا[5] وذلك في علمنا وبموجب اطلاعنا أنه صار ثمنه على حظ العقيلي في خمسمائة وخمسين غازي[6] وبموجب علمنا وخبرنا حررنا هذا الاستشهاد وما شهدنا إلا بما علمنا والله خير الشاهدين حرر وجرا في غـ > ص ٣٠٢.

١ - شهد بذلك شفير بن جليدان من كبار السويلمات.

٢ - شهد بذلك فرحان الموط من كبار السويلمات.

٣ - شهد بذلك الشيخ مشعان بن بكر.

٤ - شهد بذلك محمد بن مرزوق شيخ الصقور.

٥ - شهد بذلك جهيم.

٦ - شهد بذلك الشيخ مطلق الديدب.

٧ - عن إقرار البايع معاشي الحشاي السويلمي.

٨ - شهد بذلك الزوين من كبار الصقور.

---

(١) السويلمات فرع من الدهامشة من العمارات من قبيلة عنزة.

(٢) علامة بيضاء على شكل هلال في شعر الناصية «القصة».

(٣) وذنان الأخرس سلالة من الخيول الكحيلات العجوز يعود مربطها لدليبيج الخرساني من قبيلة الفضول.

(٤) كحيلان أبو جنوب كذلك من سلالة الكحيلات.

(٥) يشبا: حصان شبوة.. أي حصان للتلقيح والغزو فهو عالي الأصالة.

(٦) الغازي عمله عثمانية.

٩ - شهد بذلك دعيبل الجاسب من كبار الصقور.

١٠- شهد بذلك عامش بن ظلعان شيخ الدهمان من الصقور.

١١- شهد بذلك راغب بن موجف شيخ الصقور.

١٢- شهد بذلك حجر الغرو شيخ الحماطرة من السويلمات.

وتُعد خيول قبيلة العمارات من عنزة من الخيول المشهورة في البادية العربية، ولفرسان القبيلة خبرة عظيمة في تربية الخيول وقيادتها في الحرب.. فمشعان بن بكر فارس مشهور وشيخ كبير لأحد فروع العمارات، ومطلق الديدب عقيد حرب يطلق عليه السويلمات لقب مزوج العزبان؛ لأنه في الحرب كان لا يأخذ سهماً من غنيمة المحارب العازب، ولا ممن فقدت فرسه في الحرب[١].

وقد نقل الرحالة الغربيون هذا التقليد التراثي إلى البلاد الغربية، وأخذوا يدوِّنون أسماء الفرس وأجداده حتى الجد السادس بلغتهم الأصلية، ويصدرون كتباً سنوية تُعرف بسجلات أنساب الخيول العربية في الدولة أو الاسطبل، فصدرت سجلات أنساب الخيول في بريطانيا وأمريكا وألمانيا.. وهناك حالياً سجلات لأنساب الخيول في سورية ومصر وقطر والسعودية يعترف بها الاتحاد الدولي للفروسية.

وفيما يلي حجة للجواد العربي «مالك» من سلالة دهمان شهوان دوَّنها نادي الأصيل الألماني بطريقة مشابهة تقريباً لطريقة تدوين حجة الجواد العربي في البادية العربية[٢].

---

(١) تم ضبط الأسماء بمعرفة فريج العمارات المقيمين في الجهراء من دولة الكويت.

(٢) المصدر: الخيل العربية الأصيلة. إصدار نادي الأصيل، ١٩٨٥م.

Asil Arabians The Noble Arabian Horses

Malik

مالك

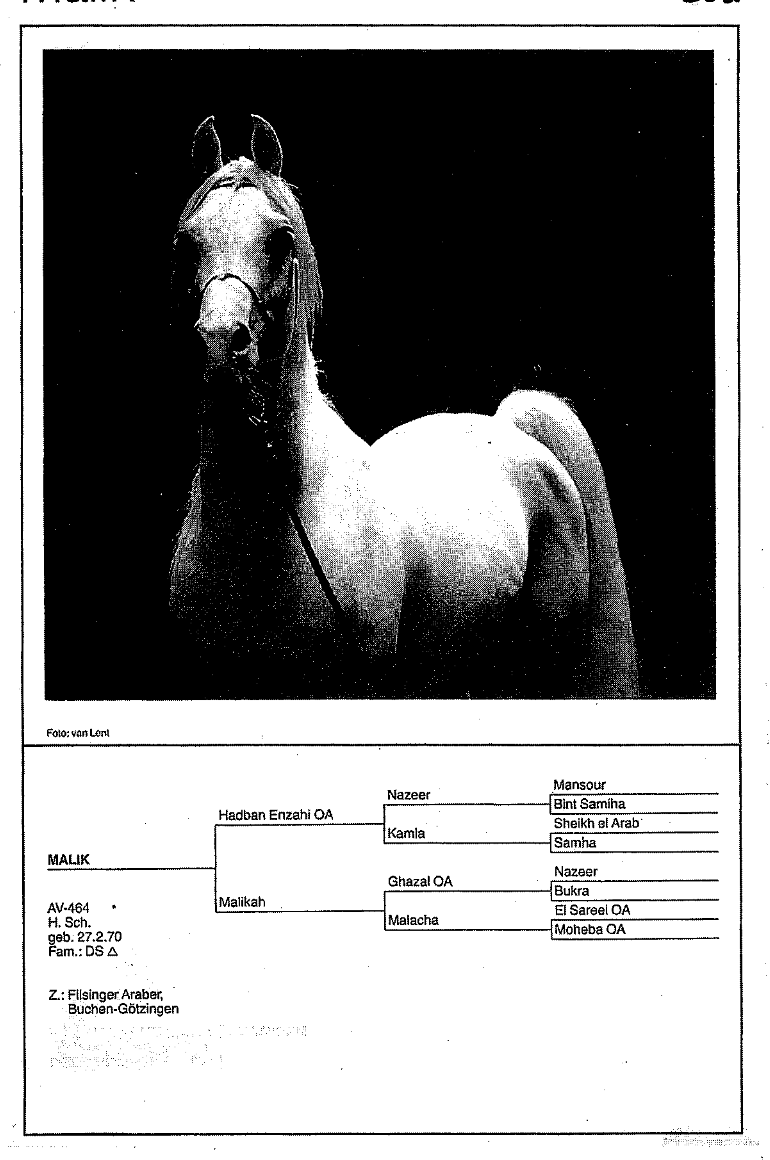


Foto: van Lent

MALIK			
	Hadban Enzahi OA	Nazeer	Mansour
			Bint Samiha
		Kamla	Sheikh el Arab
			Samha
	Malikah	Ghazal OA	Nazeer
			Bukra
		Malacha	El Sareei OA
			Moheba OA

AV-464 •
H. Sch.
geb. 27.2.70
Fam.: DS △

Z.: Filsinger Araber,
Buchen-Götzingen

المراجع العربية[1]

١ – إلفة الإدلبي: المنوليا في دمشق، دمشق، ١٩٩١.

٢ – آن بلنت: رحلة إلى نجد (مترجم). دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٨.

٣ – آن بلنت: قبائل بدو الفرات (مترجم) دار الملاح، دمشق، ١٩٩١.

٤ – أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣.

٥ – أسعد الفارس: الخيل العربية في مذكرات السياح والرحالة (مخطوطة).

٦ – ابن عقيل الظاهري: العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين. ذات السلاسل، الكويت ١٩٩٦.

٧ – د. أحمد عبدالرحيم نصر: التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي، الدوحة ١٩٩٥.

٨ – د. أليسون ليريك: روايات من تغريبة بني هلال وحروب آل ضيغم (بدون تاريخ).

٩ – أحمد سعيد باحاج. الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت. جدة ١٩٨٨.

١٠ – بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية، بغداد ١٩٤٥.

١١– بول هنري – بوردو: ساحرة الصحراء (مترجم)، دار الملاح، دمشق ١٩٩٢.

١٢– بورتن: رحلة بورتن إلى مصر والحجاز (مترجم)، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٤.

١٣– جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب (مترجم). دار الكاتب العربي.

١٤– جان سوبلان: لاسكاريس العرب (مترجم)، دار طلاس، دمشق ١٩٨٧.

---

(١) هناك بعض المصادر الأخرى وبعض المصادر الهامشية والمجلات ذكرت في هوامش الأبحاث.

١٥- خالد البسام القوافل (ترجمة وإعداد)، البحرين ١٩٩٣.

١٦- ديكسون: الكويت وجاراتها (مترجم)، دار صحارى ١٩٩٠.

١٧- رنا القباني: أساطير أوروبا عن الشرق، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨.

١٨- رحلات بوركهارت (مترجم)، وزارة الثقافة والإعلام، الأردن ١٩٦٩.

١٩- رحلة فتح الله الصايغ الحلبي، دار طلابس، دمشق ١٩٩١.

٢٠- زهدي الفاتح: لورنس على خطى هرتزل، دار النفائس، بيروت ١٩٩١.

٢١- سمير عطالله: قافلة الحبر، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤.

٢٢- س. ب. مايلز: الخليج بلدانه وقبائله (مترجم) وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٩٤.

٢٣- سالمة بنت سعيد: مذكرات أميرة عربية (مترجم) وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٩٤.

٢٤- صبحي العمري: لورنس كما عرفته، دار النهار، بيروت ١٩٦٩.

٢٥- د. عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤.

٢٦- د. علي سلطان، تاريخ سورية، دار طلاس، دمشق.

٢٧- د. عدنان البنى: نساء على دروب تدمر، دار سومر، قبرص ١٩٨٧.

٢٨- عبدالله بن عبار: قطوف الأزهار، الرياض ١٩٩١.

٢٩- فارتيما: رحلات فارتيما (مترجم) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤.

٣٠- كارل شوان: الخيام السود، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٣.

٣١- لويس بلي: رحلة إلى الرياض (مترجم) جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٩١.

٣٢- لزلي مكلوغلن: ابن سعود مؤسس مملكة (مترجم)، بيروت ١٩٩٥.

٢٣- لورنس: أعمدة الحكمة السبعة، نسخة مصورة.

٣٤- ليديا هويت فارمر: أشهر ملكات التاريخ، دار الكتاب العربي، دمشق.

٣٥- الكويت وبريطانيا (كتيب مترجم). منشورات السفارة البريطانية، الكويت، ١٩٩٥.

٣٦- موزيل: الفرات الأوسط (مترجم) بغداد ١٩٩٠.

٣٧- مصادر تاريخ الجزيرة العربية (الجزء الثاني)، مطبوعات جامعة الرياض.

٣٨- محمد أسد: الطريق إلى مكة (مترجم)، نسخة مصورة.

٣٩- موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض (السلطان عبدالحميد)، صقر الخليج، الكويت ١٩٨٤.

٤٠- د. محمد مؤنس أحمد عوض: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٢.

٤١- محمود مفلح البكر: القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي، دار بيسان، بيروت ١٩٩٥.

٤٢- يوسف شهاب: الكويت عبر التاريخ، الكويت ١٩٩٢.

* * *

المراجع الأجنبية

1 – Aloes Musil, Deserta, 1927.

2 – Aloes Musil, the Manners estoms of the Rawala, 1928.

3 – Ann Blunt, the Bedouin tribe of the Euphrates, 1879 London.

4 – Ann Blunt, Apilgrimage to Nejd, 1881 London.

5 – Carlo Guarmani, Northen Nejd, 1938 London.

6 – Carl Raswan. The Black tents of Arabia, 1935.

7 – Carruthers "Captain Shakespear's" Last Journey, 1922 London.

8 – Doughty, Travels in Arabia Deserta, 1964 London.

9 – E. T. Lawrence. Seven pillars of Wisdom, 1935 London.

10 – Erwin A. piduch. Egypt's Arab Horses, 1988.

11 – Isabel Burton, The Life of Capt. Sir Richard Burton, 1983 London.

12 – J. L. Burckhardt. Travels in Arabia, 1829 London.

13 – J. L. Burckhardt. Notes on the Bedouins and whaby, 1831 London.

14 – Johannes Kalter. The Arts and Crafts of Syria, 1992 New York.

15 – Lewis pelly, Ajourney to Riyadh. London.

16 – Nobility of the Desert "The Arab Horse of Bedouins" 1990 Zurich.

17 – Roger D. Upton, Gleaning from the Desert of Arabia, 1985 Zurich.

18 – Richard Aldington, Lawrence of Arabia, 1969 London.

19 – Robin Bidwell, Travellers in Arabia, 1976 London.

20 – Wilfrid Scawen Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt. 1907, London.

21 – Wilfrid Thesiger, Arabian Sand, 1959 London.

المحتوى

* * *

غلاف الكتاب

يحتوي غلاف الكتاب على مجموعة من صور الرحالة الغربيين

أولاً - من الأعلى نحو الأسفل:

أ - الرحالة كارل شوان «موسى الرويلي».

ب - السيدة بل «الخاتون».

جـ - الكابتن بورتن «الفهد».

د - جون فيلبي «الحاج عبدالله».

ثانياً- الشاعر الرحالة ولفرد بلنت في رحلة قنص.



صف وإخراج: شركة صقر الخليج للنشر والإعلان
طباعة: مطبعة المستقبل الجديد
دولـــة الكويت